جان بول سارتر

الحزن العميق

دروب الحرية - 3 -



ترجمة سهيل ادريس

جان بول سارتر

دروب الحرية - ٣

الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

القسم الأول

نيويورك ، الساعة ٩ ق . ظ . السبت ١٥ حزيران ١٩٤٠

أخطبوط ؟ تنـاول سكينه ، وفتح عينيه ، كان ذلك حلماً . لا ، فان الأخطبوط كان هنا ، يجتذبه بأفواهه : الحرّ . كان يرشح عرقاً . وكـان قـد نام حوالي الساعة الواحـدة ؛ وعنـد الساعة الثانية ، أيقظه الحرّ ، فقـذف نفسه في مغطس بارد ، ثم عاد الى النوم من غير ان يمسح جسمه ؛ وبعد ذلك مباشرة ، عاد الكور يزفر تحت جلده ، وعاد هو يرشح عرقـاً . وعند الفجر أخـذه النوم ، فحلم بحريق ؛ والآن ، كانت الشمس بالتأكيد مرتفعة في السماء ، وكان غوميز ما يزال يرشح : كان يرشح بلا انقطاع منذ ثمان واربعين ساعة . وتنهّد قائلاً : « يا إلهي ! » وهو يُمرّ يده الرطبة على صدره المبتلّ . لم يكن ذلك حرّاً ، وانما كان مرضاً في المناخ : كان الهواء مصاباً بالحمّى ، وكان الهواء يرشح عرقاً ، وكان هو يرشح عرقاً في العرق . كان عليه ان ينهض ، وان يرشح وهو في قميصه . وانتصب : « ايّ حظ ! ليس لديّ بعدُ من قميص . » كان قد بلّل آخر قميص ، الأزرق ، لأنه كان مضطراً الى تغيير ثيابه مرتين في اليوم . اما الآن ، فقد انتهى : سيلبس هذه الخرقة الرطبة المنتنة ، الى ان تعاد الثياب من الغسل . ونهض واقفاً في حيطة ، ولكن من غير ان يستطيع تجنّب فيض العرق ؛ كانت القطرات تركض على جانبيه كالقمل ، وكان ذلك يدغدغه . القميص مدعوك ،

مكسّر في الف ثنية ، على مسند الأريكة . وجسّه : لا شيء يجف في هذا البلد القحبة . وكان قلبه يخفق ، وكان فمه متخشّباً من شدة الجفاف ، حتّى كأنه قد ثمل في الليلة البارحة .

وارتدى بنطاله ، واقترب من النافذة فسحب الستائر : في الشارع كان النور ابيض كأنه الكارثة ؛ ثلاث عشرة ساعة اخرى من النور . ونظر الى الطريق في ضيق وغضب . الكارثة « نفسها » : هناك ، على الأرض الطينية السوداء ، تحت الدخان ، كان ثمة دم وصراخ ؛ وهنا ، بين البيوت الصغيرة ذات القرميد الأحمر ، كان ثمة نور ، نورٌ فقط وعرق . ولكنها كانت الكارثة « نفسها » . ومرّ زنجيّان وهما يضحكان ، ودخلت امرأة الى الصيدلية . وتنهّد : « يا إلهي ! يا إلهي ! » كان ينظر الى هذه الألوان جميعاً وهي تصرخ : حتى ولو كان لدي الوقت ، حتى ولو كان ذهني صافياً ، فكيف تريدونني ان « ارسم » في هذا النور ! وقال : « يا إلهي ! يا إلهي ! » .

ودق جرس الباب ، فقام غوميز يفتح ، وقال ريتشي وهو يدخل :

— هذه عملية قتل .

فانتفض غوميز :

— ماذا ؟

— هذا الحرّ : إنه عملية قتل . (وأضاف في عتاب) كيف ، ألم ترتد ثيابك ؟ إن رامون ينتظرنا في الساعة العاشرة .

فهزّ غوميز كتفيه :

— لقد نمت متأخراً .

فنظر اليه ريتشي وهو يبتسم ، فأضاف غوميز بحيوية :

— إن الحرّ لا يطاق ، ولا استطيع ان أنام .

فقال ريتشي بلهجة حليمة :

— الأمر كذلك ، في الاوقات الاولى . وسوف تعتاده . (ونظر

اليه في تنبّه) هل تأخذ أقراص ملح ؟
— طبعاً ، ولكن ذلك لا يحدث عندي أثراً .
فهزّ ريتشي رأسه ، وتلوّنت ملاطفته ببعض القسوة : « فلا بدّ » للاقراص من منع العرق . فاذا لم تكن تؤثّر على غوميز ، فلأن غوميز « لم يكن » كسائر الناس . وقال ريتشي فجأة وهو يقطّب حاجبيه :
— ولكن عجباً ! كان ينبغي ان تكون معتاداً : فالطقس حار كذلك في اسبانيا .
وفكر غوميز في أصباح مدريد الجافّة الفاجعة ، وفي ذلك النور الرائع الذي كان كذلك أملاً ، فوق « الألكالا » ؛ وهزّ رأسه :
— ليس هو الحرّ نفسه .
قال ريتشي في لهجة اعتزاز :
— انه اقلّ رطوبة ، أليس كذلك ؟
— نعم . واكثر انسانية .
وكان ريتشي يحمل جريدة ، فمدّ غوميز يده ليتناولها منه ، ولكنه لم يجرؤ ، وسقطت اليد ، وقال ريتشي بمرح :
— إنه يوم عظيم : عيد « ديلاوار » ؛ انا من هناك ، كما تعلم .
وفتح الجريدة على الصفحة الثالثة عشرة ، فرأى غوميز صورة : كان « لاغوارديا » يصافح يد رجل ضخم ، وكان كلاهما يضحك في استسلام . وقال ريتشي :
— هذا الشخص الى اليسار ، هو حاكم « ديلاوار » ، وقد استقبله لاغوارديا أمس في « وورلد هول » . وكان استقبالاً عظيما .
وكان غوميز يرغب في انتزاع الجريدة منه وفي النظر الى الصفحة الأولى . ولكنه فكر : « خراء ! » ودخل غرفة الحمام ، فأجرى في المغطس ماءً بارداً وحلق ذقنه بسرعة . واذ كان يدخل الى المغطس ، صاح به ريتشي :

– اين أصبحت ؟

– لقد أفلست تماماً . فليس لديّ بعدُ اي قميص ، وقد بقي معي ثمانية عشر دولاراً . ثم ان مانويل عائد يوم الاثنين ، فيجب ان أعيد له شقّته .

ولكنه كان يفكر في الجريدة : كان ريتشي يقرأ وهو ينتظره ؛ وقد سمعه غوميز يقلب الصفحات . وتجفّف بعناية ؛ ولكن عبثاً : فقد كان الماء يفور في المنشفة . وارتدى وهو يرتعش قميصه الرطب وعاد الى غرفة النوم .

– مباراة عمالقة .

فنظر غوميز الى ريتشي من غير ان يفهم .

– مباراة البيسبول امس . لقد ربح « العمالقة » .

– آه ، نعم ، البيسبول ...

وانحنى ليعقد سير حذائه . وكان يجهد ، من تحت ، لقراءة عناوين الصفحة الاولى . وانتهى الى السؤال :

– وباريس ؟

– الم تسمع الراديو ؟

– ليس لديّ راديو .

قال ريتشي بهدوء : – انتهت ، صُفّيت . لقد دخلوها هذه الليلة .

واتجه غوميز نحو النافذة ، فألصق جبينه بالزجاج المحرق ، ونظر الى الشارع ، هذه الشمس اللامجدية ، هذا النهار اللامجدي . لن يكون ثمة بعد الا نهارات لامجدية . وانفتل ، وتداعى للسقوط على سريره . وقال ريتشي :

– عجّل ، إن رامون لا يحبّ الانتظار .

ونهض غوميز ثانية . وكان قميصه قد أصبح للعصر ، وذهب يعقد ربطة عنقه امام المرآة :

ـ هل هو موافق ؟
ـ مبدئياً ، نعم . ستون دولاراً في الاسبوع على ان تقدّم صفحة المعارض . ولكنه يريد ان يراك .
قال غوميز : ـ سيراني ، سيراني .
والتفت فجأة :
ـ انني بحاجة الى سلفة . أتعتقد أنه سيوافق ؟
فهزّ ريتشي كتفيه ، وقال بعد لحظة :
ـ قلت له إنك قادم من اسبانيا ، وهو يميل الى الاعتقاد بأنك لا تحب فرانكو ؛ ولكني لم احدثه عن ... امجادك . فلا تذهب لتروي له انك كنت جنرالاً : فلا ندري ما الذي يفكر به حقاً .
جنرال ! ونظر غوميز الى بنطاله المتهرّيء والى اللطخات الكالحة التي كان العرق يخلّفها على قميصه . وقال بمرارة :
ـ لا تخف ، فليست لدي الرغبة في التباهي بها . انني أعرف كم يكلفني هنا ان اكون قد حاربت في اسبانيا : فأنا منذ ستة أشهر بلا عمل .
فبدا ريتشي مصدوماً ، وأوضح في جفاء :
ـ إن الاميركيين لا يحبون الحرب .
ووضع غوميز سترته على ذراعه :
ـ هيّا بنا .
فطوى ريتشي جريدته على مهل ونهض . وعلى الدرج ، سأله :
ـ زوجتك وابنك في باريس ؟
فقال غوميز بحيوية :
ـ أتمنى الا يكونا هناك . ارجو كثيراً ان تكون ساره من الذكاء بحيث تكون قد هربت الى مونبلييه .
وأضاف : ـ ان اخبارها منقطعة عني منذ اول حزيران .

قال ريتشي : — اذا حصلت على الراتب ، امكنك استقدامهما .
قال غوميز : — نعم ، نعم . سنرى .
الشارع ، بُهرة النوافذ ، الشمس على الثكنات الطويلة المسطحة التي لا سقف لها ، ذات القرميد المسودّ . وامام كل باب ، درجات من الحجر الأبيض ؛ ضباب حرّ من جانب « الايست ريفر » ؛ كانت المدينة تبدو داسية . ليس ثمة ظل : وان المرء ، في اي شارع من شوارع العالم ، لا يحسّ انه في الخارج ، بمثل الفظاعة التي يحسّ بها ذلك هنا . إن ابراً محمّرة بالنار تثقب عينيه ؛ ورفع يده ليحتمي بها ، فالتصق قميصه بجلده . وارتعش :
— إنه لقتل !
قال ريتشي : — بالأمس ، سقط عجوز مسنّ امامي : ضربة شمس . (واضاف) بررر . اني لا احب رؤية الأموات .
وفكر غوميز : « اذهب الى اوروبا تجد ما يعجبك ! »
واضاف ريتشي :
— انه عليّ بعد اربعين اشارة . يجب ان نأخذ الباص .
وتوقفا امام عمود أصفر . وكانت امرأة شابة تنتظر . ونظرت اليهما بعين متفحصة شرسة ثم اولتهما ظهرها . وقال ريتشي بلهجة مدرسية :
— فتاة جميلة .
قال غوميز في ضغينة :
— ان عليها مظهر البغيّ .
وكان قد أحسّ ، تحت ذلك النظر ، بأنه قذر يرشح عرقاً . ولم تكن هي ترشح . وكذلك ريتشي : فقد كان متورداً نضراً في قميصه الجميل الابيض ، وكان انفه الأخنس لا يكاد يلمع . يا لغوميز الجميل . الجنرال الجميل غوميز . وكان الجنرال قد انحنى على عينين زرقاوين ، خضراوين ، سوداوين ، يغشّيهما خفقُ أجفان ؛ إن البغي لم تكن قد

رأت إلا رجلاً جنوبياً قصيراً يتقاضى خمسين دولاراً في الاسبوع ويرشح عرقاً في ثوبه المبتذل . « لقد حسبتني من جزيرة داغو » ومع ذلك ، فقد نظر الى الساقين الجميلتين الطويلتين ، ومسح عرقه . « اربعة أشهر لم أضاجع فيها » . من قبل ، كانت الشهوة شمساً جافة في بطنه . اما الآن ، فان للجنرال الجميل غوميز رغبات خجلة ومداورة .

وعرض عليه ريتشي :

ــ سيجارة ؟

ــ لا . إن حلقي يحترق . أفضل ان أشرب .

ــ ليس لدينا الوقت .

وربت على كتفه بهيئة انزعاج ، وقال له :

ــ حاول ان تبتسم .

ــ ماذا ؟

ــ حاول ان تبتسم . فاذا رأى رامون هيئتك هذه ، فلا شك انه سيخاف .

وأشار غوميز إشارة لامبالاة ، فقال ريتشي بحيوية :

ــ انني لا أطلب منك ان تكون مفرطاً في المجاملة ، بل ان تضع على شفتيك ، وانت داخل ، بسمة غير شخصية تماماً ، وتنساها عليها ؛ وفي هذه الاثناء تستطيع ان تفكر بما تشاء .

قال غوميز : ــ سأبتسم .

فنظر اليه ريتشي في ملاطفة :

ــ أمن أجل طفلك انت مهموم ؟

ــ لا .

فبذل ريتشي جهداً مؤلماً للتفكير :

ــ أمن اجل باريس إذن ؟

قال غوميز بعنف : ــ طز بباريس !

– من الأفضل ان يكونوا قد اخذوها بلا قتال ، أليس كذلك ؟
فأجاب غوميز بصوت محايد :
– كان بوسع الفرنسيين ان يدافعوا عنها .
– أشكّ في ذلك ! مدينة فوق ارض مسطحة .
– كان بوسعهم ان يدافعوا عنهـا . لقد قاومت مدريـد عامين ونصف العام ...
فردّد ريتشي بحركة مبهمة :
– مدريد ... ولكن ما جدوى الدفاع عن باريس ؟ إن هذا في غاية البلادة . كانوا سيهدمون اللوفر والاوبرا ونوتردام . كلما قلّت الأضرار ، كان الأمر أفضل . (وأضاف في رضى) والآن ستنتهي الحرب بسرعة .
فقال غوميز في سخرية :
وكيف ! اذا استمر العمل بهذه السرعة ،فستعقد السلم النازية بعد ثلاثة اشهر .
قال ريتشي : – إن السلم ليست ديمقراطية ولا نازية : انها السلم وحسب . انت تعرف جيـداً اني لا احب الهتلريين . ولكنهم بشر كالآخرين . فحين ينتهي احتلالهم لاوروبا ، تبـدأ المصاعب امامهم ، وعليهم ان يعتـدلوا ويرقّوا . واذا كانوا عاقلين ، تركوا كـل بلد يحكم نفسه داخل اتحاد اوروبي . شيء قريب من ولاياتنا المتحدة .
وكان يتحدث متمهلاً وفي جهد . وأضاف :
– اذا كان هذا سيمنعكم من القيام بالحرب كـل عشرين عاماً ، فسيبقى هذا هو الكسب .
ونظر اليه غوميز في غيظ : كان في عينيه الرماديتين صدق واخلاص كبيران . كـان مرحاً ، وكان يحب الانسانية ، والاولاد والعصـافير والفن التجريدي ؛ وكان يفكر بان درهمين من العقل كافيان لحـلّ جميع المنازعات . ولم يكن يكنّ كثيراً من الود للمهاجرين ذوي العرق

اللاتيني ، بل كان اكثر تفاهما مع الألمـان . « احتلال باريس ، ماذا يمثل ذلك في نظره ؟ » ولفت غوميز رأسه ينظر الى بسطة بائع الجرائد الملونة : كان ريتشي يبدو له فجأة شديد القسوة ؛ وقال ريتشي :

ــ انتم الاوروبيين تتشبثون دائما بالرموز . لقد انقضت ثمانية ايام والناس يعرفون ان فرنسا قد هزمت . صحيح : لقد عشتَ فيها ، وخلّفت فيها ذكريات ، وانا أفهم ان يحزنك ذلك . ولكن الاستيلاء على باريس ، ما عسى ذلك ان يحدث لديك ، ما دامت المدينة سليمة لم تُمس ؟ اننا سنعود اليها في نهاية الحرب .

وأحسّ غوميز نفسه محمولاً بفرح عظيم غاضب ، فسأل في صوت مرتجف :

ــ ما يُحدث ذلك لديّ ؟ إنّ ذلك يسرّني ! حين دخل فرانكو الى برشلونة ، كانوا يهزّون رؤوسهم لامبالين ، وكانوا يقولون ان ذلك مؤسف ، ولكن لم يكن ثمة من رفع إصبعه الصغير . حسناً ! انه الآن دورهم ، فليتذوّقوا ! (وصاح في صخب الباص الذي وقف ازاء الرصيف) إن ذلك يسرّني ! إن ذلك يسرّني !

وصعدا وراء المرأة الشابة ، وتدبّر غوميز امره ليرى ساقيها في هذه الاثناء ؛ وظلاّ واقفين في المؤخرة . وسارع رجل ضخم ذو نظارتين ذهبيتين بالابتعاد عنهما ، ففكر غوميز «لا بد ان رائحتي كريهة» وفي الصف الأخير من المقاعد ، كان رجل قد فتح جريدة . فقرأ غوميز من فوق كتفه : « الهتاف لتوسكانيني في ريو حيث يعزف للمرة الاولى منذ اربعة وخمسين عاماً . » وتحت ذلك : « العرض الاول في نيويورك : راي ميلاند ولوريتا يونغ في فيلم « الدكتور يتزوج » . وكانت جرائد اخرى ، هنا وهناك ، تبسط اجنحتها : لاغوارديا يستقبل حاكم ديلاوار ، لوريتا يونغ ؛ حريق في الايلينوا ، راي ميلاند ؛ احبني زوجي منذ اليوم الذي استعملت فيه مزيل

الروائح « بيتش » ؛ اشتروا شريسارغيل ، مُلين شهر العسل ؛ رجل في منامته يبتسم لزوجته الشابة ؛ لاغوارديا يبتسم لحاكم ديـــلاوار ؛ بادي سميث يصرّح : « لا حلويات « كيلك » للقـــاصرين ، » كانوا يقرأون ؛ وكانت الصفحات العريضة البيضاء والسوداء تحدثهـــم عن أنفسهم ، عن همومهم وعن مسرّاتهم ؛ كانوا يعرفون من هو بادي سميث ، ولم يكن غوميز يعرفه ؛ وكانوا يقلبون نحو الأرض ، ونحو ظهر السائق ، أحرف الصفحة الأولى الكبيرة : « سقوط باريس » او « مونتپارتر تحترق » . كانوا يقرأون وكانت الصحف تصرخ بـــين ايديهم ، فلا يسمعونها . وأحسّ غوميز بالشيخوخة والوهن . كانت باريس بعيدة ؛ وكان وحده الذي يهتم بها ، وسط مئة وخمسين مليون نسمة ؛ انها لم تكن بعد الا هماً شخصياً صغيراً ، لا يكاد يجاوز في أهميته ذلك العطش الذي كان يحرق حلقه . وقال لريتشي :

— أعطني الجريدة .

« الالمان يحتلون باريس . ضغط نحو الجنوب . سقوط الهـــافر . هجوم من خط ماجينو »

كانت الحروف تصرخ ، ولكن الزنوج الثلاثة الذين كانوا يتحدثون خلفه استمروا يضحكون من غير ان يسمعوا .

« الجيش الفرنسي سليم لم يُمس ، اسبانيا تستولي على طنجة . »

وبحث الرجل ذو النظارات الذهبية في محفظته بانتظام فاخرج منها مفتـاح « يال » تأمله في رضى . وأحسّ غوميز بالخجل ، وكانت به رغبة لأن يطوي الجريدة ، كما لو انهـــا كانت تتحدث على غير حذر عن أشد أسراره صميمية . إن هذه الصيحات الماثلة التي كانت تُرعش يديه ، هذه النداءات التي تطلب النجدة ، هذه الحشرجات ، انما كانت مجونـــاً فاحشاً قليل التهذيب ، كعرقه عرق الغريب ، وكرائحته تلك القوية اكثر مما ينبغي . « الشك في وعـــود هتلـــر ؛

الرئيس روزفلت لا يصدق ... الولايات المتحدة ستفعل ما في استطاعتها من أجل الحلفاء » ؛ حكومة جلالته ستفعل ما في استطاعتها من أجل التشيك ؛ الفرنسيون سيفعلون ما في استطاعتهم من أجل جمهوريي اسبانيا . ضمادات ، عقاقير ، علب حليب . يا للبؤس ! « مظاهرة طلاب في مدريد للمطالبة بعودة جبل طارق الى الاسبان . » ورأى كلمة مدريد ، فلم يستطع المضيّ في القراءة . « حسناً فعلوا ، قذرون ! قذرون ! فليشعلوا النار بأربعة اركان باريس ، وليحيلوها الى رماد . » « تور (.من مراسلنا الخاص ارشامبو) : المعركة مستمرة ، الفرنسيون يصرحون بان ضغط العدو يتناقص : خسائر نازية فادحة ، الضغط طبعاً يتناقص ، وسوف يتناقص حتى آخر يوم وحتى آخر صحيفة فرنسية ، خسائر فادحة ، كلمات مسكينة ، آخر كلمات أمل لا تخدع أحداً ؛ خسائر فاشستية فادحة حول تاراغون ؛ الضغط يتناقص ؛ ستقاوم برشلونة ... وفي اليوم التالي ، كان الفرار الجنونيّ . »

« برلين (من مراسلنا الخاص بروك بترز) : خسرت فرنسا كل صناعتها ، سقطت مونتميدي ؛ هجوم اكتساحي من خط ماجينو ؛ العدو ينهزم » نشيد مجد ؛ نشيد نحاسي ، شمس : انهم يغنون في برلين ، في مدريد ، بأثوابهم العسكرية ؛ برشلونة، مدريد ، فالانس، فارصوفيا ، باريس ؛ وغداً لندن . وفي تور ، كان رجال بسترات سود يركضون في ممرات الفنادق . لقد أحسنوا صنعاً ! لقد أحسنوا صنعاً ، فليأخذوا كل شيء ، فرنسا، انكلترا ، ولينزلوا في نيويورك، لقد أحسنوا صنعاً !

كان الرجل ذو النظارات الذهبية ينظر اليه ، وأحس غوميز بالخجل كما لو انه صاح . وكان الزنوج يبتسمون ، وكانت المرأة الشابة تبتسم ، وكان قاطع التذاكر يبتسم .

قال ريتشي وهو يبتسم : — لنهبط هنا .
كانت اميركا ، على الاعلانات وعلى غلاف المجلات ، تبتسم .
وفكر غوميز في رامون، واخذ يبتسم . وقال ريتشي :
— انها الساعه العاشرة ، فلن نتأخر اكثر من خمس دقائق .
الساعة العاشرة ، الساعة الثالثة في فرنسا . كان أصيل يوم يختبىء ممتقعاً ، بلا أمل ، في قعر هذا الصباح الاستعماري .

الساعة الثالثة في فرنسا .
قال الرجل — ها نحن في أزمة !
وظلّ متحجراً في مقعده ؛ وكانت سارة ترى العرق يسيل على رقبته ، وكانت تسمع ضجيج الزمامير .
— لقد نفد الوقود !
وفتح الباب ، فقفز الى الطريق وانزرع امام سيارته . وكان يتأملها برقة ، وقال وهو يكز أسنانه :
— تفه ! تفه !
وكان يمر يده على ظهرها المحرق : وكانت سارة تراه ، عبر الزجاج ، واقفاً تحت السماء المشعة، وسط هذا الصخب الهائل ؛ وكانت السيارات التي كانوا يتبعونها منذ الصباح تبتعـــد في غيمة من غبار . وخلفهم كانت أصوات الزمامير والصفارات والمنبهات : صداحٌ لطيور من حديد ، وأغنية كراهية وحقد .
وسأل بابلو : ـ لماذا هم غاضبون ؟
— لأننا نسد عليهم الطريق .
وكانت تود لو تقفز خارج السيارة، ولكن اليأس كان يسحقها على المقعد . ورفع الرجل رأسه ، وقال في غيظ :
— ولكن انزلا ! الا تسمعانهم ؟ ساعداني في دفعها .

فنزلا . وقال الرجل لساره :
ـ اذهبي الى الخلف ، وادفعي بشدة .
وقال بابلو : ـ اريد ان أدفع ايضاً .
وانحنت ساره بازاء السيارة ودفعت بكل قواها ، وعيناها مغمضتان كأنها في كابوس . وكان العرق يبلل قميصها : وعبر جفونها المغمضة كانت الشمس تفقأ عينيها . وفتحتها : كان الرجل امامها يدفع بيده اليسرى الملتصقة بالباب ؛ وباليد اليمنى ، كان يحرك المقود ؛ وكان بابلو قد قفز الى واقية الصدم الخلفية وتشبث بها وهو يطلق صيحات متوحشة . وقالت ساره :
ـ حذارِ من الانزلاق !
ودرجت السيارة على هينة فوق طرف الطريق ، فقال الرجل :
ـ كفى ! كفى ! حسناً ، كفى يا إلهي !
وصمتت الزمامير ؛ وعاد النهر يجري . وكانت تحاذي السيارة الواقفة ، وعلى زجاجها تلتصق وجوه ؛ وأحست ساره بالاحمرار تحت الانظار ، فاحتمت بالسيارة ، وأطل نحوهما رجل طويل هزيل ، من خلف مقود شفروليه وصاح :
ـ يا للفروج القذرة !
سيارات شحن ، عربات وطيئة ، سيارات فخمة ، سيارات تاكسي ذات أعلام سوداء ، مركبات . وكانت ساره ، كلما ألمت بهم سيارة ، تفقد بعض رباطتها ، وكانت « جيان » تزداد بعـــداً . ثم جاء صف العربات ، وكانت «جيان» ما تفتأ تتقهقر ، وهي تصر ؛ واخيراً غطى قار المشاة الاسود الطريق باكملها، ولجأت ساره الى جانب الحفرة : كانت الحشود تخيفها . كانوا يسيرون ببطء ومشقة ، وكان العذاب يكسبهم هيئة عائلية: وكان بد لمن يدخل في صفوفهم ان يشبههم رويداً رويداً . لا اريد. لا اريد ان أصبح مثلهم. ولم يكونوا لينظروا اليها . وكانوا يحيدون عن السيارة من غير ان ينظروا اليها : فانهم لم تكن

لهم بعدُ عيون . وحاذى السيارة عملاق يرتدي قبعة ، حاملا حقيبة في كل ذراع ، فاصطدم على غير هدى بالقضيب الواقي من الوحل ، فاستدار على نفسه ، ثم استعاد سيره المترنح . وكان ممتقعاً . وكانت على احدى الحقيبتين طوابع متعددة الالوان : اشبيلية ، القاهرة ، ساراجيفوا ، ستريزا .

وصرخت ساره : — انه يموت من فرط التعب . وسوف يسقط . ولكنه لم يسقط . وتابعت بعينيها القبعة ذات الشريط الاحمر التي كانت تتأرجح بمرح فوق بحر القبعات .

— خذي حقيبتك وتابعي السير دوني .

فارتعشت ساره من غير ان تجيب : كانت تنظر الى الحشود بنفور مذعور .

— الا تسمعين ما اقوله لك ؟

فالتفتت اليه :

— اليس من الممكن انتظار سيارة وطلب صفيحة وقود منها ؟ فلا بدّ ان تأتي سيارات بعد المشاة .

فابتسم الرجل بسمة خبيثة :

— أنصحك ان تجرّبي .

— ولِمَ لا ؟ لماذا لا نجرّب ؟

فبصق باحتقار ، وظل لحظة من غير ان يجيب . وقال اخيراً :

— ألم تريهم اذن ؟ انهم يتدافعون بالمؤخرات : فكيف تريدين ان يقفوا ؟

— ولكن اذا وجدت وقوداً ؟

— أقول لك انك لن تجدي . أتظنين انهم سيفقدون صفهم من أجلك ؟ (وأشار اليها باصبعه وهو يقهقه) لو كنت صبية جميلة ما تزالين في العشرين من عمرك ، لما قلت لا .

فتظاهرت ساره بأنها لم تسمع ، وألحت :

– ولكن افرض مع ذلك اني وجدت لك وقوداً ؟

فهزّ رأسه بهيئة مصدومة :

– لا فائدة . فانا لن اذهب أبعد من هذا ، حتى ولو وجدت لي عشرين ليتراً ، بل حتى لو وجدت مئة ليتر . لقد فهمت .

وشبك ذراعيه وأضاف :

– هل تدركين ما افعل ؟ اني اقف ، واقلع ، وامشي كل عشرين متراً . أغيّر السرعة مئة مرة في الساعة : هذا ما يناسب السيارات تماماً !

وكانت على الزجاج لطخات سمراء . فاخرج منديله ومسحها في ملاطفة .

– ما كان ينبغي لي ان استسلم للخروج .

قالت ساره : – لم يكن عليك الا ان تأخذ وقوداً كافياً .

فهزّ رأسه من غير ان يجيب ؛ وكانت بها رغبة لأن تخمشه ، ولكنها تماسكت وقالت بصوت هادىء :

– وإذن ، فماذا تفعل ؟

– أبقى هنا وانتظر .

– تنتظر ماذا ؟

فلم يجب ، فتناولت معصمه وشدّت عليها بكل قواها :

– اتدري ماذا يحدث لك اذا بقيت هنا ؟ إن الألمان سينفون جميع الرجال الأصحّاء .

– بالتأكيد ! وسيقطعون يدي صبيك ، ويقفزون عليك اذا جرؤوا ! إن هذا كله خلط : فليسوا هم بالتأكيد على ربع ما يقال عنهم من الشرّ .

وكان حلق ساره جافاً وشفتاها ترتجفان . وقالت بصوت ابيض :

– حسناً . اين نحن الآن ؟

— على بعد اربعة وعشرين كيلومتراً من «جيان» .

« اربعة وعشرون كيلومتراً ! انني مع ذلك لن ابكي امام هذا الوحش » .

ودخلت الى السيارة فتناولت حقيبتها وخرجت ثم أخذت بابلو من يده :

— تعال يا بابلو .

— الى اين ؟

— الى جيان .

— هل هي بعيدة ؟

— بعض الشيء . ولكني سأحملك حين تتعب (واضافت بتحدّ) ثم اننا سنجد بالتأكيد رجالاً طيبين يساعدوننا .

وانزرع الرجل امامهما فسدّ عليهما الطريق . وكان يقطب حاجبيه ويحكّ رأسه بهيئة حائرة . وسألته ساره بجفاء :

— ماذا تريد ؟

ولم يكن يدري ما يريد . وكان ينقل نظره بين ساره وبابلو ، كأنما كان يبحث عن شيء . وقال في ثقة :

— وإذن ؟ انتما ذاهبان ؟ هكذا ، حتى بلا كلمة شكر ؟

قالت ساره على عجل : — شكراً ، شكراً .

وكان الرجل قد وجد ما كان يبحث عنه : الغضب . فغضب واحمّر وجهه :

— والمئتا فرنك ، اين هي ؟

قالت ساره : — لست مدينة لك بشيء .

— ألم تعدي بمئتي فرنك ؟ هذا الصباح بالذات ؟ في مولين ؟ في مرأبي ؟

— نعم ، اذا كنت ستقودني الى جيان : ولكنك تتركني مع صبي

في منتصف الطريق .

– لست انا الذي اتركك ؛ وانما هي السيارة .

ونفض رأسه فانتفخت عروق صدغيه . وكانت عيناه تلتمعان ويبدو مسروراً ، ولم تكن ساره خائفة منه :

– اريد المئتي فرنك .

وفتشت في محفظتها :

– هذه مئة فرنك . انني لست مدينة لك بها ، وانت لا شك أغنى مني ، وانما اعطيك اياها تفادياً للنزاع .

فتناول الورقة المالية ووضعها في جيبه ؛ ثم مدّ يده مرة اخرى . وكان شديد الاحمرار بفمه الفاغر وعينيه المتأملتين :

– يبقى لي معك مئة فرنك اخرى .

– لن تحصل على درهم واحد بعد . دعني أمرّ .

ولم يكن يتحرك ، كأنما هو فريسة نفسه . إنه لا يريدها حقاً ، المئة فرنك هذه . انه لا يعرف ماذا يريد : ربما كان يريد ان يعانقه الصغير قبل ان يذهب ، إنه يترجم هذا بلغته . واقترب منها ، فحزرت بأنه يريد ان يأخذ الحقيبة .

– لا تلمسني .

– اريد المئة فرنك ، والا أخذت الحقيبة .

وكان احدهما ينظر في عيني الآخر . لم تكن به رغبة على الأطلاق لأخذ الحقيبة ، كان هذا امراً واضحاً ؛ وكانت ساره تعبةً جداً حتى انها كانت مستعدة بكل رضى ان تتركها له . ولكن كان لا بدّ الآن من تمثيل الفصل حتى النهاية . وترددا ، كما لو انهما لم يكونا يتذكران دوريهما ؛ ثم قالت ساره :

– حاول اذن ان تأخذها ! حاول !

فتناول الحقيبة من حمالتها واخذ يشدّ ، وكان بوسعه ان ينتزعها

منها بجذبة واحـــدة ، ولكنه كان يكتفي بالشدّ وهو يصرف رأسه ؛ وجذبت ساره من جهتهـا ؛ فأخذ بابلو يبكي . وكان قطيع المشاة قد ابتعد ؛ وكان صف السيارات قد عاد الى الظهور . وأحست ساره بأنها في وضع مضحك ، فجذبت الحقيبة بعنف ؛ وجـذب هو جذباً اقوى فانتزعها منهـا . ونظر الى ساره والى الحقيبة في دهشة ، لعلّه لم يرد قط ان يأخذها ، ولكن هذا اصبح الآن واقعاً : كانت الحقيبة في يده .

قالت ساره : — اعد لي هذه الحقيبة .

ولم يكن يجيب ، وكان يبـدو في هيئة بلاهة وعنـــاد . واستخفّ الغضب بساره وقذفها باتجاه السيارات فصاحت :

— السارق !

وكانت سيارة بويك طويلة سوداء تمرّ امامهم . وقال الرجل :

— هيا ، بلا مشاكل !

وقبض على كتفها ، ولكنها تخلّصت ؛ وكانت الكلمات والحركات تخرج منهـــا في يسر ودقة . وقفزت عـــلى مصعـــد البويك فتشبثت بمقبض الباب :

— السارق ! السارق !

وانبثقت من السيارة ذراع دفعتها :

— ازنلي ، ستقتلين نفسك .

وكانت تحسّ انها تجن : وكان ذلك لذيذاً . وصاحت :

— قف ! السارق ! النجدة !

— ولكن آن لك ان تنزلي ! كيف تريدين ان اقف ؟ اذا وقفت تعرقل السير .

فانحسر غضب ساره ، وقفزت الى الأرض فتعثرت . ولكن صاحب المرأب تلقّاها وأوقفها . وكان بابلو يصرخ ويبكي . كانت الحفلة قد انتهت : وكانت ساره راغبة في الموت . وبحثت في محفظتها فأخرجت

مئة فرنك :

ــ خذ ! ستشعر بالخجل عما قليل !

واخذ الرجل الورقة المالية من غير ان يرفع عينيه وترك الحقيبة .

ــ والآن ، دعنا نمرّ .

فابتعد ؛ وكان بابلو ما يزال يبكي . وقالت ، في غير ما رقة :

ــ لا تبك يا بابلو . هيا ، لقد انتهينا ، ونحن ذاهبان .

وابتعدا . وتمتم الرجل خلفهما :

ــ من الذي كان سيدفع لي ثمن الوقود ؟

وكان النمل الطويل المعتم يغطي الطريق كلها ؛ وحاولت ساره لحظة ان تمشي بينها ، ولكن زعيق الزمامير عاد يلقي بها في الحفرة .

ــ إمش ورائي .

ولوت قدمها ، فتوقفت .

ــ إجلس .

وجلسا في العشب . وكانت الحشرات تزحف امامهما ، هائلة ، بطيئة ، عجيبة ؛ وكان هو يوليهما ظهره ، وهو ما يزال يضغط بيده على المئة الفرنك اللامجدية ؛ وكانت السيارات تصرّ كأنها سرطان البحر ، وتغني كأنها صراصير . لقد بُدّل البشر حشرات . وكانت خائفة .

قال بابلو : ــ انه شرير ، شرير ، شرير !

قالت ساره بحماسة : ــ ليس ثمة من هو شرير .

ــ لماذا أخذ الحقيبة اذن ؟

قالت : ــ كان خائفاً .

وسأل بابلو : ــ ماذا ننتظر ؟

ــ ان تمرّ السيارات لنستطيع ان نسير على الطريق .

اربعة وعشرون كيلومتراً . إن الصغير يستطيع ان يمشي منها ثمانية

على الأكثر . وفجأة رقيت التلة ولوحت بيدها . وكانت السيارات تمر أمامها ، فكانت تحس نفسها « مرئية » بعيون مختبئة ، بعيون ذباب ونمل غزيبة .

— ماذا تفعلين يا ماما ؟

فقالت ساره بمرارة : — لا شيء . حماقات .

وعادت فهبطت إلى الحفرة ، فأخذت يد بابلو وراحا ينظران الى الطريق في صمت . الطريق والظهور السلحفائية التي تجرجر نفسها فوقها . جيان ، اربعة وعشرون كيلومتراً . بعد جيان ، نيفر ، ليموج ، بوردو ، هنداي ، في هنداي القنصليات والمساعي والانتظارات المذلة في المكاتب . ستكون محظوظة جداً اذا وجدت قطاراً الى لشبونة . وستكون معجزة اذا وجدت في لشبونة باخرة الى نيويورك . وفي نيويورك ؟ إن غوميز لا يملك فلساً ؛ وربما كان يعيش مع امرأة ؛ سيكون ذلك مصيبة وعاراً حتى النهاية . سيفض البرقية ويقول : « تفه ! » ويلتفت نحو شقراء سمينة ذات شفتين وحشيتين تدخن سيكارة فيقول لها : « إن زوجتي عائ[illegible] ، فما اقساها ضربة ! » إنه على المحطة ، والآخرون يلوحون بمناديلهم ؛ امـ[illegible] هو فلا يلوّح بمنديله ، وا[illegible] [illegible]ظرة استياء .

ها ! لو كنت وحدي لما سمعتَ من اخباري
ان أعيش لأربي الطفل الذي أولدتَني اياه. »
[illegible]تفت ، فظلت الطريق خالية . وفي الطرف
[illegible]قول صفراء وتلال . ومرّ رجل يركب
[illegible]قاً ؛ وكان يحرك رجليه في وحشية
من غير ان يقف :
[illegible]قة [illegible]

ولكن كان قد لحق بسلسلة السيارات ، ورأته يتعلق بمؤخرة سيارة رينو . باريس تشتعل . ما جدوى العيش ؟ ولماذا تراني أحمي حياة هذا الصغير ؟ ألكي يتيه من بلد الى بلد ، مذعوراً يائساً ؟ ألكي يمضغ طوال نصف قرن اللعنة التي تثقل على بني جنسه ؟ ألكي يموت وهو في العشرين على طريق مقصوفة بالرشاشات ، وهو يمسك امعاءه بيديه ؟ بأبيك ستكون معتزاً ، شهوانياً وشريراً . اما بي ، فستكون يهودياً . وتناولت يده :

— هيا ، تعال ، لقد آن الاوان .

واكتسح الحشد الطريق والحقول ، كثيفاً ، عنيداً ، لا تمكن تهدئته: إنه طوفان . ليس من ضجة سوى احتكاك النعال الهامسة بالأرض . وغمرت ساره لحظة ضيق ، فارادت ان تهرب الى الحقول ، ولكنها تمالكت نفسها ، واخذت بابلو تجره مستسلمة . الرائحة . رائحة الرجال حارّة ، آسنة ، مكبرتة ، حامزة ، معطرة . رائحة غير طبيعية لحيوانات تفكر . وبين رقبتين حمراوين كانتا تحتميان بطاقيتين ، رأت السيارات الأخيرة تنسل في البعيد ، الآمال الأخيرة . واخذ بابلو يضحك ، فانتفضت ساره ، وقالت وهي تحس الخجل :

— هس . يجب الا تضحك .

وكان ما يزال يضحك ، من غير ان يحدث صوتاً .

— لماذا تضحك ؟

فاجاب موضحاً : — إن ذلك يشبه الدفن .

وكانت ساره تحدس بوجوه وعيون ، الى يمينها والى يسارها ، ولكنها لم تكن تجرؤ على النظر اليها . كانوا يسيرون ؛ كانوا يصرّون على السير كما كانت تصر هي على العيش : وكانت جدران من غبار ترتفع وتهوي عليهم ؛ وكانوا يسيرون ابداً . وكانت ساره مستقيمة مرفوعة الرأس ، تحدد نظرها بعيداً ، بين الرقاب ، وتردد

لنفسها : « لن أصبح مثلهم ! » ولكن بعد لحظة ، اخترقها هذا السير الجماعي ، وصعد من ساقيها الى بطنها . وأخذ يخفق فيها كقلب كبير مقسور ، قلب « الجميع » .

وسأل بابلو فجأة : — هل يقتلنا النازيون اذا أخذونا ؟

قالت ساره : — هس ! لا ادري .

— سيقتلون جميع الناس الموجودين هنا ؟

— ولكن اسكت ، اقول لك إني لا ادري .

— يجب إذن ان نركض .

وشدّت ساره على يده .

- لا تركض ، إبق هنا . إنهم لن يقتلونا .

والى يسارها ، كان ثمة نَفَس خشن . كانت تسمعه منذ خمس دقائق ، من غير ان تتنبه اليه . وقد انسلّ فيها ، وأقام في رئتيها ، وأصبح « نَفَسها » هي . وأدارت رأسها فرأت امرأة عجوزاً ذات خصلات رمادية كان العرق يدبقها . وكانت عجوزاً من المدن ، ذات خدين ابيضين وجيوب مائية تحت العينين ؛ وكانت تزفر . ولا بد انها قد عاشت ستين عاماً في باحة بـ « مونتروج » ، في بيت تابع لدكان بـ « كليشي » ؛ اما الآن ، فقد تركوها في الطرق ، وكانت تشدّ على خاصرتها حزمة مستطيلة الشكل ؛ وكانت كل خطوة تخطوها سقوطاً : كانت تسقط بقدم على الأخرى ، ورأسها يسقط في الوقت نفسه : « من الذي نصحها ان ترحل ، وهي في تلك السن ؟ أليس يكفي الناس ما يعانونه من شقاء حتّى يذهبوا الى اختراع المزيد منه؟» كانت الطيبة تصعد في ثدييها كأنها الحليب : سوف اساعدها ، سآخذ منها حزمتها ، وتعبها ، وهمومها . وسألت في رقة :

— هل انت وحيدة ، يا سيدتي ؟

فلم تُدر العجوز حتّى رأسها . فقالت ساره بصوت أعلى :

— يا سيدتي ! هل انت وحدك ؟

فنظرت اليها العجوز نظرة مغلقة . وقالت ساره :

— استطيع ان احمل حزمتك .

وانتظرت لحظة ، .وكانت تنظر الى الحزمة في شهوة . واضافت بصوت ملحّ :

— أعطيني اياها ، ارجوك : فسأحملها ما دام الصغير يستطيع المشي.

قالت العجوز : — انني لا أعطي حزمتي .

— ولكنك مرهقة ، ولن تستطيعي المضي حتّى النهاية .

فقذفتها العجوز بنظرة حاقدة ، وحادت خطوة وأجابت :

— انني لا اعطي احداً حزمتي .

فتنهدت ساره وصمتت . وكانت طيبتها التي لم تنفقها تملأها كأنها غاز . انهم لا يريدون ان تحبهم . وكانت بضعة رؤوس استدارت اليها، فاحمرت خجلا . انهم لا يريدون ان تحبهم ، فهم لم يألفوا ذلك.

— الا يزال المكان بعيداً ، يا ماما ؟

فاجابت ساره منزعجة : — مثل ما كان تقريباً منذ حين .

— إحمليني يا ماما .

فهزت ساره كتفيها : « انه يمثل .. لقد غار لاني اردت ان احمل حزمة العجوز . »

—جرب ان تمشي قليلا بعد .

— لا استطيع بعد ، يا ماما . إحمليني .

فتركت يـده في غضب ، سوف يأخذ مني كل قواي ، ولـن استطيع بعد ان أساعد أحـداً . سوف تحمل الصغير ، كما تحمل العجوز حزمتها ، وستصبـح شبيهة بهم .

وقال يفحص برجله الارض :

— إحمليني . إحمليني .

فهمست بقسوة : — انك لم تتعب بعد ، يا بابلو . فقد خرجت الساعة من السيارة .

فأخذ الصغير ينطنط ؛ وكانت سارة تمشي رافعة الرأس ، جاهدة ألا تفكر به بعد ، وبعد لحظة ، رمته بنظرة مواربة فرأت انه كان يبكي . كان يبكي بهدوء ، في غير ما صوت ، لنفسه وحدها ، وكان بين الفينة والفينة يرفع أصابعه الصغيرة ليسحق الدموع على وجنتيه . واستشعرت الخجل ، وفكرت : « انني مفرطة القسوة . طيّبة مع الجميع بدافع الفخر ، قاسية معه لانه لي . » كانت تعطي نفسها للجميع وتنسى نفسها ، تنسى انها كانت يهودية ، وانها كانت هي نفسها معذبة ، وكانت تهرب الى احسان عظيم غير ذاتي ، وفي تلك اللحظات ، كانت تحتقر بابلو لانه كان لحم لحمها وكان يعكس لها جنسها . ووضعت يدها الكبيرة على رأس الصغير ، وفكرت : « ليس الذنب ذنبك ان كان لك وجه ابيك وجنس امك . » وكانت حشرجة العجوز الصافرة تدخل رئتيها . « ليس لي الحق بان اكون كريمة الإحسان » ونقلت حقيبتها الى يدها اليسرى وجثت وهي تقول بمرح :

— ضع ذراعيك حول عنقي . وخفّف جسمك . هوب ؟ انني أرفعك .

وكان ثقيلا ، وكان يضحك بملء فمه ، وكانت الشمس تجفف دموعه ، لقد أصبحت شبيهة بالآخرين ، واحداً من القطيع ، وكانت السنة من نار تلحس رئتيها لدى كل زفرة؛ كان ألم حاد ينشر كتفها ، وكان تعب ليس هو بالسخيّ ولا بالمراد يخفق في صدرها كالطبل .تعب امرأة وتعب يهودية ، «تعبها» ، «قدَرها» وامحى الأمل. انها لن تصل ابداً الى « جيان » . لا هي ولا احد . لم يكن لأحد أمـــل ، لا العجوز ، ولا الرقبتـــان ذواتا القبعتين ، ولا الزوجان اللذان كانـــا

يدفعان دراجة منفجرة العجلتين . ولكننا مأخوذون في الجمع ، والجمع يمشي ونحن نمشي . اننا لسنا بعد الا ارجل هذا القمل الذي لا ينفد . فما جدوى السير اذ يكون الامل ميتاً ؟ ما جدوى الحياة ؟

وحين بدأوا يصرخون ، لم تكد تدهش ؛ وتوقفت بينما كانوا يتبددون ويقفزون على التلال وينبطحون في الحفر . وتركت محفظتها تسقط ، وظلت في وسط الطريق ، مستقيمة ، وحيدة ، معتزة ؛ وكانت تسمع هدير السماء ، وكانت تنظر عند قدميها الى ظلها الذي أصبح طويلا ، وكانت تشدّ بابلو الى صدرها ، وامتلأت اذناها صخباً وضجيجاً ، وكانت ، للحظة ، كائناً ميتاً . ولكن الهدير تناقص ، ورأت شراغيف تجري في ماء السماء ، وخرج الناس من الحفر ، وكان لا بد من العودة الى الحياة ، والى السير .

قال ريتشي : — إنه بالاجمال لم يكن لئيماً : فقد دعانا للغداء وأعطاك مئة دولار مسبقاً .

فقال غوميز : — نعم ! صحيح ..

وكانا في الطابق الارضي من « متحف الفن الحديث » ، في قاعة « المعروضات الموقتة » . وكان غوميز يولي ريتشي واللوحات ظهره ، مسنداً جبينه الى الزجاج ، ينظر في الخارج الى الزفت والى عشب الجنينة الدقيق . وقال من غير ان يلتفت :

— ربما كان في استطاعتي الآن ان افكر بشيء آخر غير طعامي .

فقال ريتشي في طيبة :

- لا بد انك مسرور تماماً .

وكانت تلك دعوة خفية : لقد وجدت عملا ، فكل شيء على خير ما يرام ، في خير العوالم ؛ ويحسن بك ان تظهر حماسة بناءة .

ورمى غوميز من فوق كتفه نظرة معتمة لريتشي : مسرور ؟ انك انت المسرور ، لأنك لن تحملني بعد على ظهرك .

وكان يحس أنه عاق الى ابعد الحدود الممكنة . وقال :

— مسرور ؟ سوف نرى .

فقسا وجه ريتشي قليلاً :

— ألست مسروراً؟

فردّد غوميز وهو يقهقه :

— سوف نرى .

وترك جبينه يتداعى ثانية على الزجاج ، ونظر الى العشب في مزيج من الطمع والنفور . كانت الألوان قد تركته حتى ذلك الحين هادئاً ، ولله الحمد : كان قد دفن ذكريات ذلك الزمن الذي كان يتيه فيه عبر شوارع باريس ، موسوساً مأخوذاً ، ، مسعور الكبرياء امام قدَره ، ومردداً مئة مرة في اليوم : انني رسام . ولكن رامون كان قد أعطى المال ، وكان غوميز قد شرب خمرة « شيلي هوايت » وتحدث عن بيكاسو للمرة الاولى منذ ثلاثة أعوام . وكان رامون قد قال : « بعد بيكاسو ، لا ادري ما يمكن لرسام ان يفعل » فابتسم غوميز ، وقال : « اما انا ، فأدري . » ، وكانت شعلة جافة قد انتعشت في قلبه . واذ خرج من المطعم : أحسّ كما لو انه قد اجريت له عملية السادّة [1] : فان جميع الألوان كانت قد أضاءت في الوقت نفسه تدعوه للعيد ، كما في عام ٢٩ ، كان مهرجان «رودوت» الراقص ، والكارنفال ، والفانتازيا ؛ وكان الناس والاشياء قد احتقنت الوانهم ، فكان بنفسج ثوب ما يحول الى العقيق ، وباب دكان احمر يميل الى القرمز ، وكانت الألوان تخفق خفقاً شديداً في الأشياء ، كأنها نبضات مجنونة ؛ كانت انطلاقات واهتزازات تتضخم حتى

(١) الماء الازرق في العين

لتنفجر ؛ وكانت الاشياء على وشك ان تتحطم او تسقط هامدة ، وكان ذلك كله يصيح ويشتم ، فكأنها السوق الحافلة . وكان غوميز قد رفع كتفيه : ان الالوان تعاد اليه وقد كفّ عن الايمان بقدره ؛ إن ما ينبغي ان يعمل ، أعرفه جيداً ، ولكن سيقوم به شخص آخر . وكان قد تعلق بذراع ريتشي ، وحث خطاه ، محدّد البصر ، ولكن الالوان كانت ترهقه من جانب ، وكانت تنفجر في عينيه ككرات من دم وصفراء . وكان ريتشي قد دفعه في المتحف ، وها هو الآن هنا ، وهناك تلك الخضرة ، من الجانب الآخر من الزجاج ، هـذه الخضرة الطبيعية المبهمة التي لم تكتمل ، كأنهـا افراز عضوي شبيه بالعسل ، واللبن السميك . كان ثمة تلك الخضرة التي ينبغي ان تؤخذ: سوف اجتذبها وأحيلها الى حالة التأجج بالبياض ... وما عساني أفعل بها : لقد كففت عن الرسم . وتنهد : إن الناقد الفني لا يؤجر على عمله ليهتم بالعشب الطاغي ، وانما هو يفكر في افـكار الآخرين . وخلفه كانت الوان الآخرين تتمدد عـلى اللوحات : مقتطفات ، وجواهر ، وافكاراً . لقد حظيت تلك الألوان بأن تصل ؛ فقد نُفخت ودُفعت الى اقصى حدود نفسها وقد حققت قدرَها ، فليس ثمة بعدُ إلا ان تحفظ في المتاحف . الوان الآخرين ، إنها الآن نصيبه . وقال :

— اسمع ، يجب ان اكسبها ، المئة دولار .

والتفت : كان ثمة خمسون لوحة « لموندريان » على جدران هذه العيادة البيضاء : رسم معقم في قاعة مكيفة ؛ ليس ثمة ما هو مريب ؛ إن المرء بمنجى من الميكروبات والعواطف المهووسة . واقترب من لوحة فتأملها مطولا . وكان ريتشي يرقب وجه غوميز ويبتسم مقدّمـاً . وتمتم غوميز :

— انها لا توحي لي بشيء .

فكفّ ريتشي عن الابتسام ، ولكنه بـدا متفهماً جداً ، فقال

في لباقة :

– طبعاً ؛ ليس من الممكن ان تستعيد حسك الفني على الفور ، بل ينبغي ان تمارسه من جديد .

فردد غوميز مغتاظاً :

– أمارسه من جديد ؟ لا بصدد «هذه» .

وأدار ريتشي رأسه نحو اللوحة . كان خط عمودي أسود يقطعه خطان افقيان ، يرتفع على أرضيــة رمادية ؛ وكان الطرف الأيسر للخط الاعلى تكلله اسطوانة زرقاء .

– كنت أحسب انك تحبّ موردريان .

قال غوميز : – وانا ايضاً كنت احسب ذلك .

وتوقفا أمام لوحة اخرى ؛ وكان غوميز ينظر اليهــا محاولا ان « يتذكر » وسأله ريتشي في قلق :

– أمن الضروري حقاً ان تكتب عنها ؟

– ليس ذلك ضرورياً . ولكن رامون يريد ان اكرّس له مقالي الاول . واعتقد انه يجد ان ذلك يوحي بالجدّ .

قال ريتشي : – كن حكيماً ، ولا تبدأ بنقد شديد .

فسأل غوميز منتفضاً : – ولِمَ لا ؟

وابتسم ريتشي في سخرية هادئة :

– واضح انك لا تعرف الجمهور الاميركي ، انه لا يريد خصوصاً ان يُذعر . ابدأ بتحقيق شهرة لنفسك : قل اشياء بسيطة ومعقولة ، وقلها بطريقة لذيذة . واذا أصررت على مهاجمة احد ، فلا تختر على كل حال موردريان : انه إلهنا .

قال غوميز : – عجباً . انه لا يثير قضية .

فهزّ ريتشي رأسه وطقطق بلسانه مرات ، علامة المعارضة وقال :

– بل هو يثير قضايا كثيرة .

ـ نعم ، ولكنها ليست قضايا مزعجة .
قال ريتشي : ـ آه ، تعني قضايا حول الجنسية او معنى الحياة او الفقر ؟ صحيح انك تلقيت دروسك في المانيا .
وأضاف وهو يربت على كتفه :
ـ « الغروندليشكايت » ؟ أليس كذلك ؟ الا ترى ان زمن ذلك قد تولّى ؟
فلم يجب غوميز .
وقال ريتشي :ـ رأيي هو ان الفن لم يجعل ليطرح قضايا مزعجة ، افرض أن أحداً جاء يسألني ان كنت قد اشتهيت أمي : انني اسارع بطرده ، إلا ان يكون محققاً علمياً . ففي هذه الظروف ، لا أفهم لماذا يسمح للرسامين ان يسألوني علناً عن عُقَدي . (وأضاف بلهجة مصالحة) انني كسائر البشر ، ولي مشكلتي ، غير انها اذا ارهقتني فلا اقصد المتحف ، بل أتصل بعالم نفسي . فلكل مهنته : ان العالم النفسي يوحي لي بالثقة لانه قد سبق له ان درس نفسيته بالذات . وما لم يفعل الرسامون مثل ذلك ، فسيظلون يتحدثون عن كل شيء خبط عشواء ، ولن اطلب منهم ان يضعوني تجاه نفسي .
وسأله غوميز في شرود :
ـ وماذا تطلب منهم ؟
وكان يرقب اللوحة في عناد شرس ، ويفكر : « انه ماء رائق . »
وقال ريتشي :
ـ إنني اطلب منهم البراءة . فهذه اللوحة ...
ـ ما بها ؟
فقال في نشوة : ـ انها ساروفيمية . اننا ، نحن الاميركيين ، نريد رسماً للبشر السعداء او الذين يحاولون ان يكونوا سعداء .
قال غوميز : ـ انا لست سعيداً ، وسأكون قذراً جباناً إن حاولت ان اكونه حين يكون جميع رفاقي في السجن او اعدموا رمياً بالرصاص .
وطقطق لسان ريتشي من جديد وقال :

— انني يا عزيزي افهم جيداً همومك كانسان . الفاشية ، هزيمة الحلفاء ، اسبانيا ، زوجتك ، طفلك : بكل تأكيد ! ولكن يحسن احياناً الارتفاع فوق هذا .

قال غوميز : — لن افعل ذلك لحظة واحدة ! لحظة واحدة !

فاحمر ريتشي بعض الشيء ، وسأله :

— ما الذي كنت ترسم إذن ؟ اضرابات ؟ مجازر ؟ رأسماليين يرتدون قبعاتهم ؟ جنوداً يطلقون النار على الشعب ؟

فابتسم غوميز .

— انت تعلم انـي لم اؤمن قط ايماناً كبيراً بالفن الثوري . والآن ، كففت عن الايمان به تماماً .

قال ريتشي : — وإذن ؟ نحن على اتفاق .

— ربما . ولكني في الوقت نفسه أتساءل عما إذا لم اكفّ عن الايمان بالفنّ اطلاقاً .

فسأله ريتشي : — وبالثورة اطلاقاً ؟

فلم يجب غوميز ، واستعاد ريتشي بسمته :

— انتم المثقفين الاوروبيين ، تسآّونني : إنكم تشعرون بعقدة نقص تجاه «العمل» .

فالتفت غوميز فجأة وامسك بذراع ريتشي :

— تعال ! لقد رأيتهم بما فيه الكفاية . انني اعرف موندريان عن ظهر قلب ، فبوسعي ان اخربش مقالاً . فلنصعد .

— الى اين ؟

— الى الطابق الاول . اريد ان أرى الآخرين .

— أيّ آخرين ؟

وكانا يجتازان قاعات العرض الثلاث . وكان غوميز يدفع ريتشي أمامه من غير ان ينظر الى شيء . وردّد ريتشي في انزعاج :

— أيّ آخرين ؟

— جميع الآخرين . كلي ، روو ، بيكاسو : اولئك الذين يطرحون قضايا مزعجة .

وكانا عند اسفل السلم . وتوقف غوميز . فنظر الى ريتشي في تململ وقال بما يشبه الخجل :

— انها اللوحات الاولى التي اراها منذ عام ٣٦ .

فردّد ريتشي مشدوهاً : — منذ ٣٦ ؟

— انما سافرت الى اسبانيا في تلك السنة بالذات . وكنت في تلك الفترة أنقش الصور على النحاس . وهناك صور لم يتح لي ان أنجزها ، وهي باقية على طاولتي .

— منذ ٣٦ ؟ ولكن في مدريد ؟ لوحات « البرادو » ؟

— لقد نُهبت وأخفيت وبُعثرت .

فهزّ ريتشي رأسه :

— لا بدّ انك تألمت كثيراً .

فضحك غوميز ضحكاً خشناً وقال : — كلا .

فتلونت دهشة ريتشي بالعتاب :

— انا شخصيــاً لم ألمس قط فرشاة ، ولكن « يجب » ان اذهب الى جميع المعــارض : فهــذه حاجة . فكيف يستطيع رسّام ان يبقى اربعة اعوام من غير ان يرى رسماً ؟

قال غوميز : — انتظر ، انتظر قليلاً ! فسأعرف بعد دقيقة ان كنت ما ازال رساماً .

ورقيا السلم فدلفا الى القاعة . وكانت عــلى الجدار الايسر لوحة لروو ، حمراء وزرقاء . وانزرع غوميز امامها ، فقال ريتشي :

— انه ملك مرزّبان !

فلم يجب غوميز ، وقال ريتشي :

— انا شخصياً لا أتذوّق كثيراً روو . اما انت ، فلا بد ان ذلك

يروق لك .

ــ ولكن اسكت لحظة !

ونظر فترة اخرى ، ثم خفض رأسه وقال :

ــ هيّا بنا .

قال ريتشي : ــ ان كنت تحب لوحات روو ، ففي الداخل لوحة أجدها اجمل كثيراً .

قال غوميز : ــ لا حاجة الى ذلك . فقد أصبحت أعمى .

فنظر اليه ريتشي فاغر الفم وصمت . وهزّ غوميز كتفيه قائلا :

ــ كان ينبغي ألا اطلق النار على الناس .

وهبط السلم ، وكان ريتشي متصلباً جداً ، متكلف الوقار . وفكر غوميز : « انه يجدني مشبوهاً » . اما ريتشي ، فقد كان ملاكاً ، بالطبع ؛ وكان بالامكـان ان يقرأ الانسان في عينيه عنـاد الملائكة ؛ وقد سبق لأجداده ، الذين كانوا ملائكة كذلك ، ان أحرقوا بعض السحَرة في ساحـات بوسطن . « انني أعرق ، وانا مسكين . ولي افكار مشبوهة . افكار من اوروبا ؛ وسينتهـي الأمر بملائكة امير كا الى احراقي . » هناك كانت المعسكرات ، أما هنا ، فالمحرقة : ولم يكن له الا حيرة الاختيار .

وكانا قد بلغا قاعة البيع ، بالقرب من المدخل . فقلّب غوميز في شرود مجموعـة من صور اللوحـات المنسوخة . إن الفنّ متفائـل . وقال ريتشي :

ــ اننا ننجح في صنع صور رائعة . انظر هـذه الألوان : انهـا اللوحة نفسها .

جندي ميت ، وامرأة تصيح : انعكاسات عـلى قلب هادىء . إن الفن متفـائل ؛ والآلام مبررة ما دامت تصلح لخلق الجمال . انني « لست » هادئاً ، ولا « اريد » ان أبرر الآلام التي رأيت . باريس..

والتفت فجأة الى ريتشي :

ــ اذا لم يكن الرسم « كل شيء » كان مزاحاً .

ــ ماذا تقول ؟

فأغلق غوميز المجموعة بعنف وقال :

ــ ليس بالامكان رسم « الشر » .

وكان الحذر قد ثلّج نظر ريتشي ، فكان يتأمل غوميز بطريقة بلدية . وضحك فجأة في طلاقة ، ودسّ إصبعه بين جنبيه :

ــ انني افهمك يا عزيزي ! اربعة اعوام من الحرب : اناك بحاجة الى تربية جديدة كاملة .

فقال غوميز : ــ لا حاجة بي الى ذلك . فانا على وشك ان اصبح ناقداً .

وساد صمت ، ثم قال ريتشي على عجل :

ــ هل تعلم ان في الطابق الارضي قاعة سينما ؟

ــ انني لم اضع قدمي هنا قط .

ــ وهم يعرضون افلاماً كلاسيكية وافلام وثائق .

ــ أراغب إنت في الذهاب اليها ؟

قال ريتشي : ــ ينبغي ان ابقى في هذه الانحاء ، فعندي موعد في الساعة الخامسة ، على بعد سبع محطات .

واقتربا من عمود خشبي فقرأا البرنامج ؛ وقال ريتشي :

ــ « القافلة نحو الغرب » : رأيتها ثلاث مرات . ولكن استخراج اللآليء من « الترانسفال » يمكن ان يكون مسلياً (وأضاف برخاوة) هل تأتي ؟

فقال غوميز : ــ لا أحبّ اللآلىء .

فبدا على ريتشي العزاء . وبسم له بسمة عريضة برزت معها شفتاه بروزاً ظاهراً ، وربت على كتفه ، وقال له بالانكليزية ، كما لو أنه يسترد في وقت واحد لغته الام وحريته :

الى اللقاء .

ففكر غوميز : « لقد آن الاوان لشكره » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة ، فشدّ على يده في صمت .

وفي الخارج ، كان الاخطبوط ؛ وجذبه الف فم ، وكان الماء يلتمع من مسامه ، فبلل قميصه دفعة واحدة ، وكانت تمر امام عينيه شفرة محمرّة . لا بأس ! لا بأس ! كان فرحاً لأنه غادر المتحف : كان الحر بلاء عظيماً ، ولكنه كان حقيقياً . وكانت حقيقيةً تلك السماء الهندية التي كانت رؤوس ناطحات السحاب تدفعها فتعليها على جميع سماوات اوروبا ؛ وكان غوميز يمشي بين بيوت قرميدية حقيقية هي من فرط البشاعة بحيث لا يفكر احد بدهنها ، وتلك البناية العالية البعيدة التي كانت تشبه ضربة فرشاة خفيفة على قماشة ، كسفن كلود لورين ، كانت حقيقية ، ولم تكن سفن كلود لورين حقيقية : فاللوحات هي احلام . وفكر في تلك القرية من مقاطعة « سيارامادر » حيث جرى قتال دام من الصباح حتى المساء : لقد كان على الطريق حمرة حقيقية . وصمم في سرور مرير : لن ارسم بعد الآن ابداً . من هذه الناحية من المرآة ، « هنا » بالذات ، « هنا » ، مسحوقاً في كثافة هذا الأتون ، على « هذا » الرصيف المحرق ؛ كانت « الحقيقة » تنصب حوله جدرانها العالية ، فتسد جميع منافذ الأفق ؛ لم يكن ثمة شيء آخر في العالم ، غير هذا الحر وهذه الحجارة ، لولا الأحلام . وانعطف في الجادة السابعة ، ودحرجت الجموع مدّها عليه ، وكانت الامواج تحمل في قممها باقات من عيون ملتمعة وميتة ، وكان الرصيف يرتجف ، وكانت الألوان المحررة تلطخه ، وكانت الجموع ترسل بخاراً شبيهاً بالذي يرسله قماش رطب تحت حرارة الشمس ؛ بسمات وعيون ، إنمّ ألاّ تبتسم ، عيون غائمة او واضحة ، عجلة او بطيئة ، كلها ميتة . وحاول ان يتابع المهزلة : ناس حقيقيون ، ولكن لا :

مستحيل ! واصطفق كل شيء في يديه ، وانطفأت فرحته ؛ كانت لهم عيون كتلك التي في الصور . اتراهم يعلمون ان باريس قد سقطت ؟ اتراهم يفكرون في ذلك ؟ كانوا جميعــاً يمشون مشية مستعجلة ، وكان زبد انظارهم الابيض يلامسه لدى المرور . وفكر : ليسوا هم الحقيقيين ، وانما هم الأشباه . فاين هم الحقيقيون ؟ انهم في اي مكان، ولكنهم ليسوا هنا . ليس ثمة من هو هنا حقاً ، وانا والآخرون في ذلك سواء . كان شبه غوميز قد استقل الاوتوبيس ، وقرأ الجريدة وبسم لرامون ، وتحدث عن بيكاسو ، ونظر الى لوحات موندريان . كنت أجتاز باريس ، شارع رويال خال ، وساحة الكونكورد خالية ، وعلم ألماني يرفرف على مجلس النواب ، وفرقة من الجستابو تمر تحت قوس النصر ، والسماء منقّطة بالطائرات ، وانهارت جدران القرميد ، ودلفت الجموع تحت الارض ، وكان غوميز يمشي وحيداً في باريس. في باريس ، في الحقيقة ، « الحقيقة » الوحيــدة ؛ في الدم ، وفي الحقد ، في الهزيمة وفي الموت ، وتمتم وهو يحرّق الأرّم : « يــا للفرنسيين القذرين ! انهم لم يستطيعوا المقاومة ، بل فروا كالأرانب . كنت أعرف ذلك، كنت أعرف انهم هالكون » . وانعطف الى اليمين وسلك الشارع ٥٦ ، وتوقف امام حانة ـ مطعم فرنسية : « ألابيتيت كوكيت » ونظر الى الواجهة الحمراء والخضراء ، وتردد لحظة ، ثم دفع الباب : كان يريد ان يرى الهيئة التي يبــدو عليها الفرنسيون .

وفي الداخل ، كان الجو معتماً ورطبــاً تقريباً ؛ وكانت الستائر مسدلة ، والمصابيــح مضاءة .

وسرّ غوميز للعودة الى النور الاصطناعي . وكانت القاعة الداخلية الغارقة في الظلام والصمت هي المطعم . وكان شاب قوي البنية مقصوص الشعر جالساً الى المشرب ، وعيناه ثابتتان خلف نظارته ؛ وكان رأسه يسقط الى الامام بين الفينة والفينة ، ولكن سرعان ما يرفعه في كثير

من الوقار . وجلس غوميز على مقعد مرتفع امام المشرب ، وكان يعرف الساقي بعض المعرفة ، فقال بالفرنسية :

— زجاجة ويسكي سكوتش مزدوجة . وهل لديك صحيفة من صحف اليوم ؟

فأخرج الساقي جريدة « النيويورك تايمس» من درج وأعطاه اياها . وكان فتى اشقر ذا هيئة حزينة ودقيقة ؛ ولو لم تكن لهجته بورجيّة ، لكان يُحسب من سكان « ليل » . وتظاهر غوميز بانه يقرأ التايمس ثم رفع رأسه فجأة . كان الساقي ينظر اليه نظرة متعبة .

قال غوميز : — الأخبار ، ليست سارة اليس كذلك ؟

فهزّ الساقي رأسه ، وقال غوميز :

— لقد سقطت باريس .

فأرسل الساقي صفرة كئيبة ، وملأ قدحاً صغيراً بالويسكي ثم أفرغ محتواه في قدح كبير ؛ وأعاد العملية ، ثم دفع القدح أمام غوميز . وأدار الاميركي ذو النظارة عينين زجاجيتين اليهما لمدة لحظة ، ثم انحنى رأسه بارتخاء ، كما لو انه كان يحييهما .

— سودا ؟

— نعم .

وأضاف غوميز من غير ان تثبط عزيمته :

— اعتقد ان فرنسا قد ضاعت .

فتنهد الساقي من غير ان يجيب ، وفكر غوميز في فرحة قاسية ، انه كان اشقى من ان يستطيع التكلم . فألحّ بما يشبه الحنان :

— ألا تظن ذلك ؟

وكان الساقي يسكب مـــاء غازياً في قدح غوميز . ولم يكن غوميز يغادر بعينيه هذه السحنة القمرية التي تنزع الى البكاء . سيقول له في اللحظة المناسبة : « ماذا فعلتم من اجل اسبانيا ؟ حسناً ! لقد جـــاء

دوركم في الرقص . »

ورفع الساقي عينيه واصبعه ؛ وتكلم فجأة بصوت هــادىء ، يخن بعض الشيء ، في لهجة « بورجية » فقال :

— إن لكل شيء ثمناً .

فقهقه غوميز وقال :

— أجل ، إن لكل شيء ثمناً .

واجال الساقي اصبعه في الهواء فوق رأس غوميز : نجم مذنب يعلن نهاية العالم . ولم يكن يبدو عليه انه شقي على الاطلاق ، وقال :

— ستعرف فرنسا ما يكلفها ان تتخلى عن حلفائها الطبيعيين .

ففكر غوميز مندهشاً : « مــا الذي يقول ؟ » ان النصر الوقح الحاقد الذي كان ينوي تفجيره على وجهه ، انما يفاجئه الآن في عيني الساقي . وبدأ يقول في حذر ، محاولا جسه :

— إن تشيكوسلوفاكيا حين ...

فهزّ الساقي كتفيه وقاطعه قائلا في ازدراء :

— تشيكوسلوفاكيا !

فقال غوميز : — ماذا ؟ لقد تخليتم عنها !

وكان الساقي يبتسم ، وقال :

— اسمع يا سيدي .. إن فرنسا حين كانت تحت سلطة « لويس » المحبوب ، لم يكن قد بقي لها غلطة لم ترتكبها .

قال غوميز : — آه انت كندي ؟

فقال الساقي : — انني من مونتريال .

— كان ينبغي ان تخبرني .

ووضع غوميز الجريدة على المشرب . وسأل بعد لحظة :

— الا يأتي الى هنا فرنسيون على الاطلاق ؟

فأومأ الساقي بسبابته الى نقطة تقــع خلف ظهر غوميز ، فالتفت

غوميز ، فاذا هو بعجوز جالس الى طاولة يغطيها خوان ابيض ، وهو يحلم امام صحيفة . فرنسي « حقيقي » ذو سحنة كثيفة ، مشققة ، محروثة ، وعينين براقتين قاسيتين ، وشارب رمادي . وكانت وجنتاه بالنسبة لوجنتي الاميركي الجميلتين ، تبدوان مقدودتين من مادة مسكينة على الأقل . فرنسي « حقيقي » ، في قلبه يأس حقيقي . وقال :

ــ عجباً : انني لم اتنبه لوجوده .

قال الساقي : ــ هذا السيد هو من «روان» . انه زبون .

وشرب غوميز قدحـــه جرعة واحدة وقفز الى الارض الخشبية .. « ماذا فعلتم من أجل اسبانيا ؟ » ورآه العجوز قادماً من غير ان يظهر دهشة . وانزرع غوميز امام الطاولة وتأمل هذا الوجه المسن في شراهة :

ــ انت فرنسي ؟

قال العجوز : ــ نعم .

فقال غوميز : ــ انني ادعوك الى تناول قدح .

ــ شكراً ليس هذا يوماً مناسباً .

فسأله وهو يضع اصبعه على عنوان الجريدة :

ــ بسبب هذا ؟

ــ بسبب هذا .

قال غوميز : ــ انما ادعوك الى قدح ، بسبب هذا بالذات . لقد سكنت فرنسا عشر سنوات ، وما زالت زوجتي وابني فيها . ويسكي ؟

ــ ما دام الأمر كذلك ، فبلا سودا .

فطلب غوميز : ــ سكوتش بلا سودا ، وسكوتش بسودا .

وصمتا ، وكان الاميركي ذو النظارة قد استدار فوق كرسيه وأخذ ينظر اليهما صامتاً .

وفجأة سأل العجوز :

ــ اتراك لست ايطالياً ؟

فابتسم غوميز وقال :
ـ لا . لست ايطالياً .
فقال العجوز :
ـ إن الطليان قذرون .
« والفرنسيون ؟ » واستعاد غوميز صوته الرقيق ليسأل :
ـ هل لك هناك من احد ؟
ـ في باريس ، لا . ولكن احفادي في « مولين » .
ونظر الى غوميز في تنبّه :
ـ انني ألاحظ انك لست هنا منذ وقت طويل .
فسأله غوميز : ـ وانت ؟
ـ انني مقيم هنا منذ ٩٧ . لقد أصبح ديناً ثقيلا .
واضاف :
ـ انني لا احبهم .
ـ ولماذا انت باقٍ هنا ؟
فهزّ العجوز كتفيه وقال :
ـ انني اكسب المال .
ـ هل انت تاجر ؟
ـ بل حلاق . وحانوتي على بعد محطتين . وقد كنت اقضي شهرين في فرنسا ، كل ثلاثة اعوام . وكان المفروض ان اذهب اليهـا هـذا العام ، ولكن ها نحن ذا .
قال غوميز : ـ أجل ، ها نحن ذا .
واستطرد العجوز :
ـ منذ هذا الصباح ، قصد حانوتي اربعون زبوناً . يحدث هذا في بعض الأيام . وقد كانوا يريدون كل شيء : حلاقة الذقن ، وقص الشعر ، وشامبوانغ ، وتدليك بالكهربـاء . ربمـا ظننت انهم كانوا

يحدثونني عن بلدي ؟ على الاطلاق ! لقد كانوا يقرأون جرائدهم من غير ان ينبسوا بكلمة ، وكنت ارى العناوين بينما كنت أحلق ذقونهم. وكان بينهم زبائن في العشرين ، ولم يقولوا شيئاً . ولقد كان من حظهم اني لم اجرحهم ، كانت يدي ترتجف . واخيراً تركت عملي وجئت الى هنا .

قال غوميز : — انهم لا يبالون .

— ليست القضية انهم الى هذا الحدّ لا يبالون ، ولكنهم لا يجدون الكلمة التي ترضي . ان باريس كلمة تعني شيئاً في نظرهم . فهم لن يتحدثوا عنها : لأن ذلك يمسّهم بالذات هكذا ، هم .

وكان غوميز يتذكر جموع « الجادة السابعة » ، وقال :

— جميع هؤلاء الاشخاص في الشارع ، أتظنّ انهم يفكرون بباريس؟

— نعم ، على نحو ما . ولكنهم لو تعلم لا يفكرون كما نفكر نحن. فاذا اراد الاميركي ان يفكر في شيء يزعجه ، بذل كل ما في وسعه كيلا يفكر فيه .

وجاء الساقي بالقدحين ، فأخذ العجوز قدحه ونهض قائلاً :

— طيب ! نخبك .

قال غوميز : — نخبك !

وابتسم العجوز بحزن :

— اننا لا نعرف تماماً ما الذي ينبغي ان يتمناه احدنا للآخر ، أليس كذلك ؟

واستدرك ، بعد لحظة تفكير ، قائلاً :

— بلى : اني اشرب نخب فرنسا ، نخب فرنسا ، رغم كل شيء.

ولم يكن غوميز يريد ان يشرب نخب فرنسا .

— نخب دخول الولايات المتحدة الحرب .

فضحك العجوز ضحكة قصيرة وقال :

— من اجل هذا ، تستطيع ايضاً ان تشرب .

وافرغ غوميز قدحه ، والتفت الى الساقي :

— قدحان آخران .

كانت به حاجة الى الشرب . كان منذ لحظة يحسب نفسه وحيداً للاهتمام بفرنسا ، وكان سقوط باريس « قضيته » : مصيبة بالنسبة لاسبانيا ، وفي الوقت نفسه عقاباً بالنسبة للفرنسيين . ولكنه يعلم الآن انها كانت تطوف حول المشرب ، وانها تدور وتدور بشكل مبهم ومجرد عبر ستة ملايين روح . وكان ذلك امراً لا يحتمل تقريباً : فقد قُطعت صلته الشخصية بباريس ، فليس هو بعد الا مهاجراً حديث العهد يستولي عليه ، ككثير غيره ، وسواس جماعي .

قال العجوز : — لا ادري ان كنتَ ستفهمني ، ولكن ها قد مر عليّ اكثر من اربعين عاماً وانا اعيش هنا ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب وانا احسب نفسي في بلد اجنبي حقاً ، انني اعرفهم ولا اقع من ذلك في الاوهام ، اقسم لك . ولكني كنت اظنّ مع ذلك انني لا بدّ ان اجد شخصاً يمدّ لي يده او يقول كلمة .

واخذت شفتاه ترتعشان ؛ وردّد :

— زبائن في العشرين من العمر .

كان غوميز يقول في نفسه : « هذا فرنسي . واحد من الذين كانوا ينادوننا : **Frente Crapular** » ولكنه لم يكن ينجح في ان يبتهج ؛ وقرر اخيراً انه « عجوز اكثر مما ينبغي » وكان العجوز ينظر في الخلاء ، وقال من غير ان يؤمن كثيراً بما يقول :

— لاحظ : ربما كان ذلك بدافع التحفّظ .

فهمهم غوميز . وقال العجوز :

— هذا ممكن . هذا ممكن جداً . ان كل شيء ممكن معهم .

واضاف باللهجة نفسها :

— كان لي بيت في « روان » ، وكنت انوي ان اركن اليه . اما الآن ، فانا اقول في نفسي بأنني سأموت هنا : وهذا يغيّر وجهة النظر .

ففكر غوميز : « طبعاً ، طبعاً ، ستموت هنا . » ولوى رأسه ، وكانت به رغبة في الذهاب ، ولكنه استدرك نفسه ، واحمر فجأة ، فزرع نظره في عيني العجوز وسأل بصوت صافر :

— هل كنت من مؤيدي التدخل في اسبانيا ؟

فسأل العجوز مذعوراً : — ايّ تدخل ؟

وتأمل غوميز في اهتمام :

— هل انت اسباني ؟

— نعم .

— لقد لحق بكم انتم ايضاً كثير من المصائب .

فقال غوميز بصوت محايد :

— إن الفرنسيين لم يساعدونا كثيراً .

— أجل ، انظر الآن : إن الاميركيين لا يساعدوننا . إن البشر والبلاد متشابهون : كلّ لمصلحته .

قال غوميز : — نعم ، كل لمصلحته .

إنه لم يرفع اصبعه ليدافع عن برشاونة ؛ وها قد سقطت الآن برشلونة ؛ وسقطت باريس ، ونحن كلانا في المنفى ، كلانا متشابهان ، ووضع الخادم القدحين على الطاولة ، فأخذاهما في وقت واحد ، من غير ان يغادر احدهما الآخر بنظره .

وقال العجوز : — انني اشرب نخب اسبانيا .

فتردد غوميز ثم قال بين اسنانه :

— انني اشرب نخب تحرير فرنسا .

وصمتا . كان ذلك يدعو الى الرثاء : دميتان عجوزان مكسورتان ، داخل حانة نيويوركية ، يشربان نخب فرنسا واسبانيا . مصيبة ! وطوى

العجوز جريدته بعناية ثم نهض :
— يجب ان اعود الى الحانوت . ان الدورة الاخيرة على نفقتي .
قال غوميز : — كلا ، كلا ، كلا . ايهـا الساقي . الدورتـان على نفقتي .
— اشكرك ، اذن .
وقصد العجوز الباب . ولاحظ غوميز انه كـان يعرج ، ففكر : « يا للعجوز المسكين ! » وقال للساقي :
— قدح آخر .
ونزل الاميركي عن كرسيه العالي وتوجه اليه وهو يتهادى ، فقال :
— انني سكران .
قال غوميز : — هكذا ؟
— ألم تلاحظ ؟
— كلا .
فسأله : — وهل تعلم لماذا انا سكران ؟
قال غوميز : — طز في ذلك !
فأطلق الاميركي تجشّؤةً مرنّة وتداعى ساقطاً على الكرسي الذي كان قد غادره العجوز .
— لأن الألمان قد اخذوا باريس .
واظلم وجهه واضاف :
— انه اسوأ نبأ منذ عام ١٩٢٧ .
— وفي عام ١٩٢٧ ، اي نبأ سيء كـان هناك ؟
فوضع إصبعاً على فمه وقال :
— هس ! أمرٌ شخصيٌ .
ووضع رأسه على الطاولة ، وبدا انه يغرق في النوم . وغادر الساقي المشرب مقترباً من غوميز وقال :

— احتفظ لي به دقيقتين . فهذه ساعته : فيجب ان اذهب فآتي له بالتاكسي .

فسأله غوميز :

— ما هذا الزبون ؟

— انه يعمل في وول ستريت .

— أصحيح انه سكر لأن باريس قد سقطت ؟

— اذا قال ذلك ، فلا بدّ انه صحيح . غير انه سكر في الاسبوع الماضي بسبب حوادث الارجنتين ، وفي الاسبوع الذي سبقه بسبب كارثة « سالت ليك سيتي » . انه يسكر كل يوم سبت ، ولكن لا بدون سبب .

قال غوميز : — إنه مفرط الحساسية .

وخرج الساقي على عجل . فوضع غوميز رأسه بين يديه وراح ينظر الى الجدار ، وكان يرى مرة اخرى ، بوضوح ، النقش الذي تركه على الطاولة . كانت تنقصه كتلة داكنة الى اليسار لاقامة التوازن . ربما دغل . أجل دغل . واستعاد صورة النقش والطاولة ، والنافذة الكبيرة ، وأخذ يبكي .

الأحد ١٦ حزيران

— هناك .. هناك .. فوق الاشجار تماما .

كان ماتيو نائما ، وكانت الحرب قد خسرت . كانت قد خسرت حتى اعماق نومه ، وايقظه الصوت منتفضاً : كان مستلقياً على ظهره ، مغمض العينين ، وذراعاه لاصقتان بجسمه ، وكان قد خسر الحرب ، ولم يذكر جيداً ايان كان ، ولكن كان يعلم انه قد خسر الحرب .

قال شارلو بحيوية :

ـ الى اليمير ، قلت لك هناك فوق الاشجار تماماً . ترى ، اليس لك عينان في ثقبيك ؟.

وسمع ماتيو صوت نيبير الهادىء . وقال نيبير :

ـ آه .. آه .. هكذا .. هكذا !.

اين نحن ؟ في العشب . ثمانية مدنيين في الحقول ، ثمانية مدنيين باللباس العسكري تغطي كل اثنين منهم اغطية الجيش ، وكلهم نائمون على شراع خيمة وسط حديقة فاكهة ، لقد خسرنا الحرب ، استودعونا اياها فخسرناها . لقد تسالت من بين اصابعهم ، وانطلقت تخسر نفسها في ضجيج ، في مكان ما من الشمال .

ـ آه .. هكذا .. هكذا ..

وفتح ماتيو عينيه فرأى السماء ، وكانت رمادية متلألئة من غير سحاب ، ولا عمق ، لا شيء الا الغياب . وكان صباحٌ يتشكل فيها بهدوء ، قطرة نور تكاد تسقط على الأرض وتغمرها بالذهب . ان الألمان في باريس ، وقد خسرنا الحرب . بداءة ، صباح . صباح العالم الأول ، كجميع الاصبحة : كل شيء للصنع ، والمستقبل كله كان في السماء . واخرج يداً من تحت الغطاء فحك اذنه : انه مستقبل الآخرين . في باريس ، كان الالمان يرفعون عيونهم نحو هذه السماء ، فيقرأون فيها نصرهم ونتائجه . اما انا ، فليس لي بعد من مستقبل . وكان حرير الصبح يلامس وجهه ، ولكنه كان يشعر بازاء جنبه الايمن حرارة نيبير ، وبازاء فخذه اليسرى حرارة شارلو . سنوات اخرى للعيش : سنوات للقتل . هذا النهار المنتصر الذي يبزغ ريح صبح شقراء في شجر الحور ، وشمس ظهر على سنابل القمح ، وعطر ارض ساخنة في المساء ، يجب قتله تفصيلا ، دقيقة بعد الاخرى ، فعندما يهبط الليل ، سوف يأسرنا الالمان . وتضخَّم صوت الازيز ، ورأى الطائرة في الشمس المشرقة ، وقال شارلو :

ـ انها ايطالية .

واطلقت اصوات نائمة شتـــائم نحو السماء ، كانوا قــد الفوا قافلة الطائرات الالمانية اللامبـالية ، وحربـــا وقحة ثرثارة غير مؤذية : تلك كانت (حربهم) . امـــا الطليـان فلم يكونوا يلعبون اللعبة : كانوا يلقون قنابل . وقال لوبيرون :

ـ ايطالية ؟ آه .. انني اصدقك تمامـــا .. فانت لا تسمع المحرك كيف يدور بانتظام . هذه طائرة مستر شميدت ، نعم ، طراز ٣٧ .

فحدث انفراج تحت الاغطية وابتسمت الوجوه المقلوبة للطائرة الالمانية. وسمع مـــاتيو بضعـة انفجـــارات مخنوقـــة ، وتشكلت في السماء اربـع غيوم مستـــديرة .

قال شارلو :

ـ يا للحمقى !. ها هم الآن يطلقون النار على الالمان ..

وقال لونجان مغتاظا :

ـ ان هذا عمل يقودنا الى المذبحة .

واضاف شوارتز في ازدراء :

ـ حمقى لم يفهموا بعد .

وحدث انفجاران آخران ، وظهرت غيمتان قطنيتان مظلمتان فوق شجر الحور .

وردد شارلو :

ـ يا للحمقى .. يا للحمقى .

وكان بينيت قد انتصب مستندا الى مرفقه . وكـان وجهه الباريسي الصغير الجميل مورداً نضراً ، وكان ينظر الى رفاقه في صلف ، وقال في جفاء :

ـ انهم يقومون بمهنتهم .

وهز شوارتز كتفيه :

ـ وما جدوى هذا ، الآن ؟

وكانت المدفعية المضادة للطائرات قد صمتت : وكانت الغيوم تتبدد ، ولم يكن يُسمع بعد الا ازيز منتصر ومنتظم . وقال نيبير :

ـ انني لا اراهم بعد .

ـ بلى ، بلى : هناك ، باتجاه طرف اصبعي .

وخرج عود ابيض من الارض مصوباً نحو الطائرة : كان شارلو ينام عارياً تحت الغطاء ، وقال الرقيب بيارنيه بصوت قاق :

ـ الزم الهدوء ، فسوف تهديهم الينا .

ـ اي كلام .. انه في هذه الساعة يظننا قرنبيطاً ..

ومع ذلك فقد ادخل ذراعه ، وحين مرت الطائرة فوق رأسه ، تابع الرفاق بعيونهم باسمين قطعة الشمس الصغيرة هذه ، حمراء لامعة : كانت تلك تسلية الصباح ، الحادثة الاولى ذلك النهار . وقال لوبيرون :

ـ انها تقوم بنزهتها الصغيرة المشهيّة .

كانوا ثمانية قد فقدوا الحرب ، خمسة امناء سر ، ومراقبين ، واخصائياً بالاحوال الجوية ، مضطجعين جنباً الى جنب وسط الكرّات والجزَر ، لقد خسروا الحرب كما يخسر المرء وقته : من غير ان يشعر بذلك . ثمانية: شوارتز المرصص ، ونيبير موظف البنك، اونجان قاطع التذاكر ، ولوبيرون السمسار ، وشارلو روكلاو بائع المظلات ، وبينيت المراقب في المترو ، والاستاذان : ماتيو وبيارنيه . وكانوا قد قضوا تسعة اشهر في ضجر ، تارة بين الصنوبر ، وطوراً في كروم العنب ، وذات يوم ، ابلغهم صوت من بوردو هزيمتهم ، ففهموا انهم كانوا مذنبين . ولامست يد مرتبكة خد ماتيو ، فالتفت الى شارلو :

ـ ماذا تريد ، ايها العنيد ؟

وكان شارلو قد اضطجع على جنبه ، بحيث كان ماتيو يرى خديه الاحمرين وفمه الكبير ، وقال شارلو بصوت منخفض :

ــ اود ان اعرف . ترى ؟ هل نسافر اليوم ؟

وكان مظهرُ قلقٍ يدور على وجههالفرح من غير ان ينجح بالاستقرار في مكان ما .

ــ اليوم ؟ لا ادري .

وكانوا قد غادروا مورسبرون يوم ١٢ ، وكان قد حدث ذلك السباق المضطرب ، ثم هذا التوقف المفاجيء .

ــ ماذا نفعل هنا ؟ . اتستطيع ان تخبرني ؟ .

ــ يقولون اننا ننتظر جيش المشاة .

ــ اذا لم يكن بوسع المشاة ان ينسحبوا ، فليس ذلك سبباً يكفي لان ننتن معهم .

واضاف في تواضع :

ــ انني يهودي كما تعلم . ولي اسم بولوني .

قال ماتيو بحزن : ــ اعرف ذلك .

قال شوارتز : ــ اسكتوا .. اسمعوا ..

وكان ذلك هديراً مخنوقاً متصلا . وكان قد استمر امس الاول وامس ، من الفجر حتى الليل ، ولم يكن احد يعرف من الذي يطلق وعلامَ يطلق .

وقال بينيت : ــ لا بد ان الساعة تقارب السادسة . فبالامس ، بدأوا في الخامسة وخمس واربعين دقيقة .

ورفع ماتيو معصمه فوق عينيه وقلبه ليستشير ساعته .

ــ انها السادسة وخمس دقائق . سيكون عجيباً ان نذهب اليوم (وتثاءب وقال) هيا . . ما يزال امامنا يوم نقضيه في هذا البلد .

وتثاءب الرقيب بيارنيه ايضاً وقال :

ــ حسناً .. لقد آن ان ننهض .

فلم يتحرك احد . وألمت بهم قطة باقصى سرعتها في خط متعرج

ثم كمنت فجأة ، وبدت مستعدة للوثوب ،ثم نسيت مشروعها فابتعدت بغير اكتراث وكان ماتيو قد نهض على مرفقه يتابعها بنظره . ورأى فجأة ساقين مقوستين في عصابتهما الجلدية الكاكية ، فرفع رأسه : كان الملازم الاول اولمان قد انزرع امامهم مشتبك الذراعين ، وهو يتأملهم مقطب الحاجبين ، ولاحظ ماتيو انه لم يكن حالقاً ذقنه : .

ـ ماذا تفعلون هنا ؟ ماذا تفعلون هنا ، اتكونون مجانين تماماً ؟ ولكن قولوا لي ماذا تفعلون هنا ؟

وانتظر ماتيو بضع لحظات ، واذ لم يجب احد ، قال من غير ان ينهض :

ـ لقد فضلنا ان ننام في الهواء الطلق ، يا سيدي الملازم .

ـ اسمعوا هذا .. مع الطائرات العدوة التي تحلق فوق المنطقة ؟ ان تفضيلكم يوشك ان يكلفنا غالياً : فجدير بهذا ان يسبب قصف الفرقة.

قال ماتيو بصبر :

ـ ان الالمان يعرفون جيداً اننا هنا ، ما دمنا قد قمنا بجميع تنقلاتنا في وضح النهار .

فلم يبد على الملازم انه سمع ، وقال :

ـ لقد سبق ان منعتكم من ذلك ، منعتكم من مغادرة العنبر . ثم ما هذه الطرق في ان تظلوا مضطجعين بحضرة رئيس لكم ؟

فحدثت حركة صغيرة متثاقلة على سطح الارض ، وجلس الرجال الثمانية على الاغطية ، ما تزال عيونهم تطرف من النعاس . ووضع شارلو ، الذي كان عارياً ، منديلا على عورته . وكان الطقس رطبا . وارتعش ماتيو فبحث عن سترته فيما حوله ليلقيها على كتفيه .

ـ وانت هنا ايضاً ، يا بيارنيه ؟ الا تشعر بالعار ، وانت صاحب درجة ؟ ينبغي ان تعطي الامثولة .

فقرص بيارنيه شفتيه من غير ان يجيب .

وقال الملازم :

ـ هذا لا يُصدّق ... ولكن،هل تشرحون لي لماذا غادرتم العنبر ؟

كان يتكلم من غير اقتناع ، وبصوت عنيف ضجر ، وكان تحت عينيه دوائر مزرقة ، وكان لونه النضر مغتلماً .

ـ كنا نشعر بحرّ لا تطاق ، يا سيدي الملازم ، فلم نكن نستطيع النوم .

ـ حرّ لا يطاق ؟ إلامَ تحتاجون ؟ الى غرفة نوم مكيّفة؟ سأرسلكم هذه الليلة لتناموا في التـــدريب . مع الآخرين . اتراكم لا تعرفون اننا في حالة حرب ؟

فأشار لونجان اشارة بيده، وقال ببسمة غريبة :

ـ لقد انتهت الحرب ، يا سيدي الملازم .

ـ انها لم تنته ، ويجب ان تشعر بالعار ، اذ تقول انها انتهت ، حين يكون هناك شبان صغار يعرضون انفسهم للموت على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا ليغطّونا .

ـ يا للمساكين .. انهم يؤمرون بان يواجهوا الموت ويُقتلوا ، بينما يُوقَّع على الهدنة .

فاحمرّ الملازم احمراراً شديداً.

ـ على كل حال ، انتم ما تزالون جنوداً. فما لم تعادوا الى بيوتكم تظلون جنوداً وتطيعون رؤساءكم .

فسأل شوارتز : ـ وحتى في معسكرات الاعتقال ؟

فلم يجب الملازم . كان ينظر الى الجنود في خجل محتقر ، وكان الرجال يبادلونه نظرة في غير ما انزعاج ولا نفاد صبر : انهم يكادون يتمتعون باللذة الجديدة ان يحسوا انفسهم مخيفين . وبعد لحظـــة ، هز الملازم كتفيه واستدار على عقبيه ، وقال من فوق كتفه :

ـ تفضلوا بالنهوض سريعاً .

وابتعد مستقيماً ، بخطوة راقصة . وفكر ماتيو : « رقصته الاخيرة» فبعد ساعات يطردنا الرعاة الالمان جميعاً نحو الشرق ، في هوشة من

غير تمييز للرتبة . »

وتثاءب شوارتز وبكى ، واشعل لونجان سيجاراً ، وكان شارلو ينزع العشب ركاما من حوله . كانوا جميعاً يخافون ان ينهضوا . وقال لوبيرون :

ــ هل رأيتم ؟ لقد قال : سوف ارسلكم لتناموا في التدريب . هذا يعني اننا لن نذهب .

قال شارلو : ــ لقد قال ذلك هكذا. فهو ليس ادرى منا بالامر .

وانفجر الرقيب بيارنيه فجأة ، متسائلا :

ــ من الذي يدري اذن ؟ من الذي يدري ؟

فلم يجب احد ، وبعد لحظة ، قفز بينيت على قدميه ، وسأل :

ــ هل نغتسل ؟

فقال شارلو متثائبا : ــ انني شخصياً موافق .

ونهض ، وكذلك نهض ماتيو والرقيب بيارنيه . وصاح لونجان :

ــ الطفل كادوم ..

كان شارلو عارياً متورداً لا شعر في جسمه ، ذا خدين ازهرين ، تداعب بطنه الصغير البارز اشعة الصباح الشقراء فيشبه اجمل اطفـــال فرنسا . وجاء شوارتز خلفه بخطى خفية ، على عادته كل صباح ، وقال له وهو يدغدغه :

ــ انت مقشعر ، انت مقشعر ، ايها الطفل ..

فضحك شارلو وصاح وهو يتلوى ، كعادته ، ولكن بمرح اقل ، والتفت بينيت الى لونجان الذي كان يدخن بعناد :

ــ الا تأتي ؟

ــ لماذا ؟

ــ لتغتسل .

قال لونجان : ــ طز .. اغتسل ؟ولمن؟ للالمان ؟ سوف يأخذونني كما انا .

قال لونجان : — هيا ... هيا .. كفى !

قال بينيت : — يمكننا ان نفلت منهم .

— اتراك تؤمن ببابا نويل ؟

— حتى ولو كانوا سيأخذونك،فليس ذلك سبباً يكفي لكي تبقى قذراً متسخاً .

— لا اريد ان اغتسل من اجلهم .

قال بينيت : — ان ما تقوله سخيف ، سخيف جداً ..

فقهقه لونجان من غير ان يجيب ، وظل مسترخيا فوق الغطاء بهيئة تعال . ولم يكن لوبيرون قد تحرك هو ايضاً : كان يتظاهر بالنوم . واخذ ماتيو قربته واقترب من الحوض ، وكان الماء يسيل من انبوبين حديديين في الجرن الحجري ، وكان بارداً عارياً كانه بشره . وكان ماتيو قد سمع طوال الليل همسه المليء ، بالامل ، وتساؤله الطفولي ؛ وغطس رأسه في الحوض ، فاصبحت الاغنية البدائية تلك الطراوة البكماء النضرة في اذنيه ومنخريه ، ، وهذه الباقة من الورود المبتلة ، والزهور المائية في قلبه : الحمامات في نهر « اللوار » ، والخيزران ، والجزيرة الصغيرة الخضراء ، والطفولة . وحين نهض ، كان بينيت يغسل عنقه بالصابون في غضب ، فابتسم له ماتيو . كان يحب بينيت كثيراً . وقال بينيت :

— ان لونجان سخيف حقاً ، اذا جاء الالمان ، فيجب ان نكون نظيفين .

وادخل اصبعا في اذنه فاداره بقوة . وصاح به لونجان من مكانه :

— اذا كنت تحب النظافة الى هذا الحد ، فاغسل ايضاً قدميك .

فرماه بينيت بنظرة شفقة وقال :

— ان الاقدام لا تُرى .

وأخذ ماتيو يحلق ذقنه . وكانت الشفرة مستعملة ، فكانت تحرق

بشرته : « في الاسر ، سأتركك لحيتي تنبت . » وكانت الشمس تنهض ، وكانت اشعتها الطويلة المائلة تحصد العشب ؛ وكان العشب تحت الشجر طرياً نضراً ، فجوة نعاس في جنبي الصباح . وكانت الارض والسماء ممتلئتين بالعلامات ، علامات الامل . وبين اوراق الحور أخذ رف من العصافير يغني ملء حناجره ، مستجيباً لداع غير مرئي، فكان ذلك أشبه بهبة طلقات نحاسية عنيفة جداً ، ثم صمت فجأة ، بصورة عجيبة . وكان القاق يطوف بالعشب والخضار الكثيفة كما كان يطوف على وجه شارلو ، من غير ان يحطّ في مكان . ومسح ماتيو شفرته بعناية وأعادها الى قربته . وكانت أعماق قلبه ضالعة مع الفجر والندى والظل ؛ وفي اعماق قلبه كان ينتظر عيداً . لقد نهض باكراً واغتسل كما يفعل يوم العيد . عيد في حديقة ، بمناسبة التناول الاول او بمناسبة عرس ، تدور فيه أثواب جميلة بين العرائش ، عند طاولة قائمة فوق العشب ، يتصاعد حولها طنين الزنابير الثملة بالسكّر. ونهض لوبيرون وذهب يبول عند السياج ؛ ودخل لونجان الى العنبر ، وتحت ذراعيه الاغطية ؛ وحين خرج اقترب من الحوض على غير اكتراث فغطّ إصبعه في الماء بهيئة لامبالاة وبطالة . ولم يكن ماتيو بحاجة الى ان ينظر طويلا الى وجهه الممتقع ليحس بأنه لن يكون ثمة عيد ، الآن ، ولا في المستقبل ابـــداً .

وكان المزارع الشيـخ قد خرج من بيته ، وكان ينظر اليهم وهو يدخن غليونه ، فقال شارلو :

— مرحباً يا بابا !

فقال المزارع وهو يهز رأسه : — مرحباً ! نعم ! مرحباً !

وخطا بضع خطوات ثم انزرع أمامهم :

— اراكم لم تذهبوا بعد ؟

فقال بينيت بجفاف : — كما ترى .

وقهقه الشيخ ، ولم تكن تبدو عليه الطيبة .
– لقد سبق ان قلت لكم انكم لن ترجعوا .
– هذا ممكن .
وبصق بين قدميه ومسح شاربه :
– والألمان ؟ اتراهم يأتون اليوم ؟
فأخذوا يضحكون ، وقال لوبيرون :
– ربما أتوا وربما لم يأتوا . فنحن مثالك ننتظرهم ؛ ونحن نتجمل لنستقبلهم .
وكان الشيخ ينظر اليهم بهيئة غريبة ، وقال :
– ولكنكم انتم لستم مثلي . فانكم ستعودون من الأسر .
وسحب نفَساً من غليونه وأضاف :
– اما انا ، فاني الزاسي .
قال شوارتز : – نعرف هذا يا بابا . فغيِّر الاسطوانة .
فهزّ الشيخ رأسه وقال :
– ما أعجب هذه الحرب ! ان المدنيين هم الذين يقتلون الآن، بينما الجنود ينجون .
– كفى ، كفى ! انت تعلم جيداً انهم لن يقتلوك .
– اقول لك اني الزاسي .
قال شوارتز : – وانا ايضاً ألزاسي .
فقال الشيخ – هذا ممكن ؛ ولكني حين تركت انا الالزاس ، كانت ما تزال لهم .
قال شوارتز : – انهم لن يؤذوك . فهم بشر مثلنا .
قال الشيخ في غيظ مفاجيء :
– مثلنا ؟ خراء ! هل تستطيع انت ان تقطع يدي طفل ؟
فانفجر شوارتز ضاحكاً ، وقال وهو يغمز ماتيو :
– انه يروي لنا خزعبلات الحرب الماضية .

وأخذ منشفته فمسح بها ذراعيه الضخمتين البازرتي العضلات وقال موضحاً ، وهو يلتفت الى العجوز :

انهم ليسوا مجانين . سوف يعطونك سجاير ، وشوكولا ، نعم وهذا ما يسمى بالدعاية ، وليس لك الا ان تأخذها ، فهي لا تُلزمك بشيء .

واضاف وهو ما يزال يضحك :

ـ اؤكد لك يا بابا انه من الافضل في يومنا هذا ان تكون من مواليد ستراسبورغ على ان تكون من مواليد باريس .

فقال المزارع : ـ لا اريد ان أصبح ألمانياً وانا في هذه السن ! طز ! انني أفضل ان يقذفوني برصاص بنادقهم .

فصفق شوارتز مؤخرته بيده ، وقال مقلداً اياه :

ـ أتسمعونه ؟ طز ! اما انا ، فافضل ان اكون المانياً حياً على على ان اكون فرنسياً ميتاً :

ورفع ماتيو رأسه باهتمام ونظر اليه ؛ وكان بينيت وشارلو ينظران اليه ايضاً . وكف شوارتز عن الضحك ثم احمر وهزّ كتفيه. وصرف ماتيو عنه عينيه ؛ ولم يكن لديه ميل ليمثل دور القضاة ، ثم انه كان يحب هذا الشخص الكبير السمين ، الهادىء ، الذي يقاوم الشقاء ؛ ولم يكن يريد ان يزيده اضطراباً بأي ثمن . ولم يكن احد ينبس بكلمة ؛ وهزّ الشيخ رأسه وأجال فيما حوله نظراً حقوداً . ثم قال :

ـ آه ! كان ينبغي ألاّ تخسر هذه الحرب . كان ينبغي الا تخسر .

وصمتوا ! وسعل بينيت، واقترب من الحوض فأخذ يجس الصنبور جساً بليداً . وأفرغ الشيخ غليونه على الحصى ، ونكث الارض بعقبه ليدفن الرماد ، ثم أولاهم ظهره وعاد بخطى بطيئة الى منزله . وساد صمت طويل ؛ كان شوارتز واقفاً بصلابة ، متباعد الذراعين . وبعد لحظة بدا انه يستيقظ ، فضحك بمشقة :

– لقد قلت ذلك سخريةً به .

لا جواب : كان الجميع ينظرون اليه . ثم فجأة ، ومن غير ان يتغيّر شيء في الظاهر ، تطامن شيء ما ، فحدث انفراج ، نوعٌ من التبعثر الجامد ؛ فانهارت الجماعة الصغيرة الغاضبة التي كانت قد تشكّلت حوله ؛ لقد اخذ لونجان ينظّف اسنانه بمديته ، وتنحنح لوبيرون ، وأخذ شارلو يدمدم بنظرة بريئة : انهم لم يكونوا ينجحون في الاستمرار على غضب ، الا اذا كانت القضية قضية استئذان او طعام . وتنسّم ماتيو فجأة عطر نعناع وافسنتين : كانت الاعشاب والزهور تستيقظ ، بعد العصافير ، فتلقي عطورها كما ألقت تلك غناءها ؛ وفكر ماتيو : « هذا صحيح ، هنا ايضاً الروائح . » روائـــح خضراء مرحة ، ما تزال نافذة وحامزة : انها ستصبح مسكّرةً اكثر فأكـــثر ، وستزداد ثراءً وانوثة ، ما ازرقّت السماء واقتربت المركبات الالمانية . ونشق شوارتز بقوة ،ونظر الى المقعد الخشبي الطويل الذي سبق لهم ان جرّوه في الليلة السابقة وأسندوه الى جدار البيت وقال :

– حسناً ، حسناً ، حسناً .

وذهب يجلس على المقعد . وترك يديه تتدليان بين ركبتيه ، وقوّس كتفيه ، ولكنه كان يحتفظ بارتفاع رأسه وينظر امامه باستقامة نظرةً قاسية . وتردد ماتيو لحظة ،ثم لحق به وجلس الى جانبه . وبعد حين ، انفصل شارلو عن الجمع وانزرع امامهما . ورفع شوارتز رأسه ونظر الى شارلو في جدّ ، وقال :

– يجب ان اغسل ثيابي .

وساد صمت ، وكان شوارتز ما يزال ينظر الى شارلو .

– لست انا الذي خسرها ، هذه الحرب ...

وكان يبدو الانزعاج على شارلو ، واخذ يضحك . ولكن شوارتز كان يتابع فكرته :

ـ لو ان الجميع عملوا مثلي ، فلربما كنا ربحناهـا . فليس لي ما اؤاخذ به نفسي .

وحكّ خده بهيئة اندهاش وقال :

ـ إن هذا لطريف !

وفكر ماتيو : هذا طريف ، أجل ، طريف . انه ينظر في الفراغ ويفكر : « انا فرنسي » فيجد ذلك طريفاً للمرة الاولى في حياتـه . « هذا طريف » اننا لم نر « فرنسا » قط : وانما كنا في داخلها ، لقد كانت ضغـطَ الهواء ، وجاذبيـة الارض ، والفضاء ، والرؤية واليقين الهادىء بأن العالم قد خُلق للانسان ؛ وقد كان طبيعياً جداً ان يكون فرنسياً ، فتلك هي ابسط الوسائل واوفرها ليُحسّ نفسه عالمياً . لم يكن ثمة شيء للشرح : فقد كان على الآخرين ، عـلى الالمان ، والانكليز ، والبلجيكيين ان يشرحوا سوء حظهم او غلطتهـم بأن لا يكونوا رجالاً تماماً . لقد انقلبت فرنسا الآن على قفاها ،ونحن نراها ، نرى آلةً كبيرة معطلة ونفكر : هذا ما كان . « هـذا » : حادث ارضي ، حادث تاريخي . اننا ما نزال فرنسيين ، ولكن هـذا ليس طبيعياً بعد . فقد كان حادث واحد كافياً ليجعلنا نفهم اننا كنا عارضين . ان شوارتز يفكر بأنه عارض ، وهو لا يفهم نفسه بعد ، وهو مرتبك مع نفسه ؛ انه يفكر : كيف يمكن ان نكون فرنسيين ؟ هو يفكر : « لو كان لي بعض الحظ لَولدت المانياً . » واذ ذاك يتخـذ هيئـة القسوة ويرهف اذنه ليسمع وطنه البديل يتدحرج نحوه ؛ انـه ينتظـر الجيوش اللامعة التي ستقيم له العيد ، ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان يستبدل بهزيمتنا نصرهم ، اللحظة التي يبدو له فيها « طبيعياً » ان يكون منتصراً والمانياً .

ونهض شوارتز وهو يتثاءب ، وقال :

ـ هيا ، سوف اغسل ثيابي .

فاستدار شارلو ولحق بلونجان الذي كان يتحدث مع بينيت . وظل ماتيو وحيداً على مقعده .

وتثاءب لوبيرون بدوره في صخب ، ثم قال :

– ما أشد ما ينزعج المرء هنا .

وتثاءب شارلو ولونجان . ونظر اليهما اوبيرون يتثاءبان ، فتثاءب من جديد ، وقال :

– إن ما ينقصنا هو ماخور .

فسأله شارلو في غيظ :

– هل تستطيع ان تضاجع في الساعة السادسة صباحاً ؟

– انا ؟ في اية ساعة أستطيع .

– امـا انا ، فلا . ليست رغبتي في المضاجعة أشدّ منها في تلقي الركلات في المؤخّرة .

وقهقه لوبيرون :

– لو كنتَ متزوجـاً لتعلّمت ان تفعل ذلك بلا رغبة ! والأمر الحسن حين تضاجع هو انك لا تفكر بشيء .

وصمتوا . وكانت شجرات الحور ترتعش ، وكانت شمس قديمـة ترتجف بين أوراقها ؛ وفي البعيد كان يسمع هـدير القصف الطيب ، ذلك الهدير الذي كان يوماً قوياً جيداً ومطمئناً جداً حتى ليُظنّ أنه ضجّة للطبيعة . وانقلب شيء ما في الهواء ، فسقط بينهم زنبور سقطة طويلة مطّاطة . وقال لوبيرون :

– اسمعوا !

– ماذا ؟

كان قـد ساد حولهم نوعٌ من الفراغ ، هدوء غريب . كانت العصافير تغرد ، وكان ديكٌ يصيح في القنّ ؛ وفي البعيد ، كان ثمة من يضرب ضربات منتظمة عـلى قطعة من حديد ، ومع ذلك ، فقد

كان هذا السكون : كان القصف قد انقطع .
قال شارلو :
ــ هيه ! هيه ! ولكن اسمعوا !
ــ نعم .
وكانوا مرهفين آذانهم من غير ان يكفّوا عن تبادل النظر . وقال بيارنيه في لهجة محايدة :
ــ سيبدأ الأمر هكذا . وذات لحظة يشمل الصمت كل الجبهة .
ــ اية جبهة ؟ ليس هناك من جبهة .
ــ أقصد كل مكان .
وخطا شوارتز في خجل خطوةً نحوهم وقال :
ــ اظن انه لا بدّ اولاً من اطلاق صوت بوق .
قال نيبير : ــ طز ! ليس ثمة من اتصالات بعد : ربما يكونون قد وقّعوا الهدنة منذ اربع وعشرين ساعة ، بينما نحن لا نزال ننتظرها هنا!
فقال شارلو وهو يضحك املاً :
ــ لعل الحرب قد انتهت منذ منتصف الليل . إن « وقف اطلاق النار » يكون دائماً في منتصف الليل .
ــ او عند الظهر .
ــ ولكن لا ، ايهـــا العنيد ، بل في منتصف الليل : في الساعة الصفر ، أتفهم ؟
قال بيارنيه : ــ ولكن اصمتوا قليلاً .
فصمتوا . وكان بيارنيه يرهف سمعه وعلى وجهه علامات عصبية ؛ وظل شارلو فاغر الفم ؛ كانوا يستمعون الى « السلام » ، عبر السكون الضاجّ . سلام بلا مجد ولا قرع أجراس ، بـــلا طبول ولا أبواق ، سلام يشبه الموت .
قال لوبيرون : ــ خراء !

وكان الهــدير قد عاد : ولكنه كان يبدو أقرب واكثر تهديداً . وشبك لونجان يديه الطويلتين وفرقع أصابعه . وقال في مرارة :

ــ ولكن ، يا إلـهي ، ماذا ينتظرون .؟ اتراهم يجدون اننا لم نقاتل بما فيه الكفاية ؟ ولم نفقد من الرجال عدداً كافيــاً ؟ أينبغي ان تهلك فرنسا هلاكاً كاملاً حتى يصمموا على وقف المذبحة ؟

كانوا موهونين وأعصابهم ثائرة ، مغتاظين في الضعف ، ذوي لون رصاصي هو الذي يخلفه سوء الهضم . كان حسبهم ان يسمعوا هدير طبل في الأفق لتسقط عليهم من جديد موجة الحرب الكبيرة . والتفت بينيت فجأة الى لونجان ، فأذا عيناه تقدحان العاصفة ، واذا يده متشنجة على حافة الحوض :

ــ أية « مذبحة » ، أليس كذلك ؟ أية مذبحة ؟ أيان كانوا ، القتلى والجرحى ؟ اذا كنت قد رأيتهم ، فذلك لأنك محظوظ . امــا انا ، فأني لم أر إلا ضراطين مثلك يركضون في الطرق وهم يرتعشون ذعراً .

وسأل لونجان في تعطف مسموم :

ــ ولكن ما بك ايها العنيد ؟ هل تشكو شيئاً ؟

ورمى نحو الآخرين بنظرة ضالعة :

ــ لقد كان صاحبنا بينيت فتى صغيراً طيباً ، وكنا نحبه لأنه كان مثلنا في المؤخرة ؛ ولم يكن هو الذي يتقدم الصف حين كانوا يطلبون متطوعاً . فالمؤسف ان يبدأ بقد المراجل عند انتهاء الحرب .

وتطاير الشرر من عيني بينيت وقال :

ــ انني لا أقد المراجل ، ايها الفرج الأحمق !

ــ بلى ، تقد المراجل ! تريد ان تمثل دور الجندي الصغير .

ــ هذا أفضل من أن أخرأ مثلك في لباسي .

ــ انتم تسمعونه : انني اخرأ في لباسي لأنني اقول بأن الجيش الفرنسي

قد اسلم ساقيه للريح .

فسأله بينيت وهو يتمتم من الغضب :

— هل انت واثق من ان الجيش الفرنسي أسلم ساقيه للريح ؟ ايكون ويغان قد كشف لك أسراره ؟

فابتسم لونجان بسمة وقحة متعبة :

— لا حاجة الى اسرار ويغـان : إن نصف القوات في حالة هزيمة، والنصف الآخر محاصر في مكانه : ألا يكفيك هذا ؟

فكنس بينيت الهواء بحركة قاطعة :

— سوف نتجمع ثانية على ضفاف اللوار ، فنلتقـي بجيوش الشمال في « سومور » .

— أتعتقد بذلك انت ، ايها النابغة ؟

— بل قاله لي الكابتين . فليس لك الا ان تستخبر في « فونتينا » .

— اذا كان الامر كذلك ، فعلى جيوش الشمال ان تتدبّر امرها ، لأن الالمان في مؤخرتها كما تعلم . اما فيما يخصّنا ، فانـــه يدهشني ان نصل في الموعد المحدّد .

وكان بينيت ينظر الى لونجان من تحت ، منخفض الجبين ، وهو يصفر ويضرب الارض بقدمه . وهز كتفيه بعنف كما لو انه يريد ان يتخلص من حشد ثقيل . وانتهـى به الامر الى القول ، وهو غاضب مذعور :

— حتى ولو تراجعنا حتى مارسيليا ، حتى ولو اجتزنا فرنسا كلها، فتبقى امامنا افريقيا الشمالية .

وشبك لونجان ذراعيه وابتسم في ازدراء :

— ولماذا لا تقول جزيرة « سان — بيار — ايميكيلون » ايها الغبي ؟

قال بينيت وهو متجه اليه :

— أتحسب نفسك قوياً ؟ قل ، أتحسب نفسك قوياً ؟

فارتمى شارلو بينهما يقول :

ـ كفى ! كفى ! أظنكما لنا تتنازعا ؟ إن الجميع متفقون على ان الحرب لا تجدي شيئاً وانه يجب الانقطاع عن القتال (وأضاف بلهجة اقتناع حارة) يجب الانقطاع عن القتال الى الابد .

وكانوا جميعاً ينظرون اليه نظرة عميقة فيما كان يرتجف من الحماسة، حماسة ان يوفّق بين كل شيء : بين بينيت ولونجان ، وبين الالمان والفرنسيين . وما لبث ان اضاف بصوت يكاد يكون مبتهلاً :

ـ مهما يكن ، فينبغي ان نستطيع التفاهم معهم ، فهم على كل حال لا يريدون ان يلتهمونا .

فحوّل بينيت اليه غضبه قائلاً :

ـ لئن خسرنا الحرب ، فلأن امثالك مسؤولون عنها .

وكان لونجان يقهقه :

ـ هذا شخص آخر لم يفهم ، ذلك كل ما في الامر .

وساد صمت ، ثم التفتت الرؤوس جميعاً الى ماتيو على مهل . وكان يتوقع ذلك : فقد كانوا، اثر كل نقاش، يطلبونه للتحكيم لأنه كان ذا ثقافة . وسأله بينيت :

ـ ما رأيك في الامر ؟

فخفض ماتيو رأسه ولم يجب .

ـ هل انت أصمّ ؟ اننا نسألك رأيك ؟

قال ماتيو : ـ ليس لي من رأي .

واجتاز لونجان الممر وانزرع امامه :

ـ غير ممكن ! فالاستاذ شخص يفكر طوال الوقت .

ـ ولكنك ترى : ليس طوال الوقت .

ـ مهما يكن من امر ، فلست غبياً : انك تعلم جيداً ان المقاومة مستحيلة .

ـ كيف لي ان اعرف ذلك ؟

واقترب بينيت بدوره . فكانا يقفان الى جانبي ماتيو كملاكه وشيطانه . وقال بينيت :

ـ انت لست انهزامياً يائساً ، ولا يمكن ان ترغب بأن يضع الفرنسيون السلاح قبل ان يقاتلوا حتى النهاية !

فهزّ ماتيو كتفيه :

ـ لو كنت « انا » الذي يقاتل ، لأمكن ان يكون لي رأي . ولكن الواقع ان الآخرين هم الذين يتساقطون ، وسوف يقاتلون على اللوار : فليس بوسعي ان اقرّر بدلاً منهم .

قال لونجان وهو يتأمل بينيت بهيئة هازئة :

ـ اسمع جيداً : ان الانسان لا يقرر الحرب بدلاً من الآخرين .

وكان ماتيو ينظر اليهما في قلق :

ـ انني لم أقل هذا .

ـ كيف لم تقل ذلك ؟ لقد قلته منذ لحظة .

قال ماتيو : ـ اذا كان ثمة حظ ما ، ولو كان حظاً صغيراً جداً ...

ـ وإذن ؟

فهز ماتيو رأسه :

ـ ولكن انّى لنا ان نعرف ؟

فسأل بينيت : ـ ولكن ماذا يعني هذا ؟

فقال شارلو موضحاً :

ـ هذا يعني انه لن يبقى لنا الآن إلا أن ننتظر ، وألاّ نقلق بعد اكثر مما ينبغي .

فصاح ماتيو : ـ كلا ! كلا !

ونهض فجأة وهو يحرق الأرم :

ـ انني انتظر منذ طفولتي .

وكانا ينظران اليه من غير ان يفهما ؛ ونجح في ان يهدىء نفسه ، وقال لهما :

– ماذا يجدينا ان نقرّر او لا نقرّر ؟ فمنذا الذي يطلب رأينا ؟ اتراكما مدركين وضعنا ؟

فتراجعوا مذعورين ، وقال بينيت :

– كفى ، كفى ، اننا نعرفه .

– قال لونجان : – انت على حق ، فالعسكري البسيط لا رأي له.

فاستفظع ماتيو بسمته الباردة الدبقة ، وأجاب بجفاف :

– وأسوأ من ذلك وضع الأسير .

« كل شيء » يطلب منا رأينا . « كل شيء » واستفهام كبير يحاصرنا : إن هذه دعاية . انهم يطرحون علينا السؤال كما يطرحونه على رجال ؛ انهم يريدون ان يقنعونا بأننا ما زلنا رجالاً . ولكن لا، لا ، لا ! أية دعاية ، ظلُّ هذا السؤال يطرحه ظلُّ حرب ، على مظاهر رجال .

– ماذا يجديك ان يكون لك رأي ؟ فلست انت الذي ستقرّر .

وصمت . وفكر فجأة : لا بدّ من العيش ، لا بد من ان يعيش وان يقطف يوماً فيوماً ثمار الهزيمة المتعفّنة ، وان يُحوِّل هذا الاختيار الكلي الذي يرفضه اليوم الى هزائم بالتفصيل . ولكني يا إلـهي ، لم اكن اريدها انا ، هذه الحرب ، ولا هذه الهزيمة ، فبأي تزوير يقسرونني على ان اتحمّلها ؟ وشعر بغضب حيوان وقع في الشباك يملأ نفسه ، واذ رفع رأسه ، رأى هذا الغضب نفسه يلتمع في عيونهما . ليتهم يصرخون في وجه السماء جميعاً : «لا شأن لنا قط بهذه الحكايات كلها ! اننا ابرياء!» وتلاشى اندفاعه : كانت البراءة تشع بكل تأكيد في الشمس الصباحية ، وقد كان بالامكان لمسها على اوراق العشب ولكنها كانت تكذب : فالبراءة الحقيقية هي هذه الغلطة المشتركة التي

لا يمكن لمسها ، « غلطتنا » . شبح حرب، شبح هزيمة ، وشبح إثم . ونظر الى بينيت ولونجـان وهو يفتح يديه : لم يكن يعرف اذا كان يريد ان يساعدهما ام يطلب منهما المساعدة . ونظرا اليه ايضاً ثم لفتـا رأسيهما وابتعدا . وكان بينيت ينظر الى قدميه ؛ وكان لونجان يبتسم لنفسه بسمة مرتبكة صلبة ؛ وكان شوارتز في ركن مع نيبير يتحدثان بالالزاسية ، ويكتسبان هيئة المشاركين الضالعين ؛ اما بيارنيه فكان يفتح يده اليمنى ويغلقها بحركة تشنجيّة . وفكّر ماتيو : « هذا هو مـا صرنا اليه وأصبحناه . »

مارسيليا ، الساعة ١٤

طبعاً ، كان يشجب الحزن « بقسوة » ، ولكن من يسقط فيـه بحاجة الى الشيطان ليخرجه منه . وفكر « لا بد ان لي طبعاً شقياً . » كان له كثير من المبررات لكي يبتهج : وكان بوسعه خاصة ان يهنيء نفسه بأنه قضى على الصفاق وشُفي منه . ولكن بدلاً من ذلك كان يفكر : « ما زلت حيّاً » ويأخـذه الاسى . اذا ما كان الانسان حزيناً ، فان اسباب الابتهاج هي التي تصبح حزينة ، فاذا هو يبتهج بحزن . وفكر : والواقع اني ميت . اذا كان الامر متعلقاً به ، فهو قد مات في « سيدان » في شهر ايار . والمصيبة هي كل هذه السنوات التي تبقى له ليعيشها . وتنهد من جديد ، وتابع بنظره ذبابة كبـيرة خضراء كانت تمشي على السقف وانتهى الى التقرير : انني انسان قليل الذكاء . وكانت هذه الفكرة تزعجه بعمق . وكان بوريس حتّى ذلك الحين قد اختطّ لنفسه ألاّ يتساءل قط عن ذاته ، وكان من ذلك في حالة رضى تام ؛ ومن جهة اخرى ، فما دامت القضية تقتصر على ان يعرّض نفسه للقتل ، فأنه ليس ذا أهمية كبيرة ان يكون قليل الذكاء،

بل على العكس ، إن ما يؤسف عليه كان أقلّ . اما الآن فقد تغيّر كل شيء : انه مرصود للحياة ، وقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لم يكن يملك غايةً ولا موهبة ولا مالاً . وبالاجمال ، لم يكن يملك اي مزية مطلوبة ، ما عدا الصحة طبعاً . وفكر : ما أشدّ ما سأضجر ! واستشعر الخيبة . وطارت الذبابة وهي تطنّ ، وأمرّ بوريس يده تحت قميصه ولامس الجرح الذي كان يسطّر بطنه ، على مستوى الاربيّة ؛ وكان يحب ان يُحسّ تحت أصابعه بذلك المجرى اللحمي . وكان ينظر الى السقف ، ويلامس جرحه ، فيحس قلبه ثقيلاً . ودخل «فرانسيون» الى القاعة ، فاتجه الى بوريس على غير عجل ، بين الأسرّة الفارغة ، ثم توقف فجأة ، متظاهراً بالدهشة ، وقال :

ـ كنت ابحث عنك في الباحة .

فلم يجب بوريس ؛ وشبك فرانسيون ذراعيه في غيظ :

ـ انها الساعة الثانية بعد الظهر ، ولا تزال في السرير !

فقال بوريس :

ـ هل انت مهموم ؟

ـ لست مهموماً :

فقال فرانسيون : ـ لا تحزن ، لا بد ان يزول ذلك .

وجلس على سرير بوريس واخذ يلفّ سيجارة . وكان لفرانسيون عينان كبيرتان جاحظتان وأنف شبيه بمنقار نسر ؛ وكان يبدو مريعاً . غير أن بوريس كان يحبه كثيراً، وكان حسبه احياناً ان يراه حتى يضحك ضحكاً جنونياً . وقال فرانسيون :

ـ بقي لنا قليل .

ـ كم ؟

ـ اربعة .

فعدّ بوريس على أصابعه :

– اي يوم ١٨ .

فهمهم فرانسيون علامة الاقرار ، ولحس الورقة المصمغة واشعل السيكارة ، ثم انحنى على بوريس يُساره :

– أليس ثمة احد هنا ؟

كانت جميع الأسرّة خالية : فقد كان الأشخاص في الباحة او في المدينة . قال بوريس :

– انت ترى .. الا ان يكون هناك جواسيس تحت الأسرّة .

فازداد فرانسيون انحناءً وأوضح قائلاً :

– في ليلة ١٨ ، يكون دور « بلين » في الخدمة . وستكون الطائرة على المدرج مستعدةً للاقلاع ، وهو يدخلنا عند منتصف الليل لنقلع في الساعة الثانية . وفي الساعة السابعة نكون في لندن . ما رأيك في ذلك!

ولم يكن بوريس ليقول شيئاً . كان يجسّ جرحه ويفكّر . انهم محظوظون . ثم يشعر بمزيد من الحزن . سوف يسألني عما صممت عليه.

– ماذا ؟ ماذا ؟ ما رأيك في ذلك ؟

قال بوريس : – رأيي انكم محظوظون .

– كيف ، محظوظون ؟ ما عليك إلا أن تأتي معنا . ولن تقول اننا لم نطلب منك ذلك .

قال بوريس : –لا ، لن اقول هذا .

– طيّب ، فماذا قررت ؟

فقال في أسى : – لم أقرر شيئاً .

– انك لن تبقى مع ذلك في فرنسا ؟

– لا ادري .

فقال فرانسيون بلهجة مصدومة :

– إن الحرب لم تنته ، والذين يقولون انها انتهت جبناء كذابون . يجب ان تكون حيث يجري القتال ، ولا يحق لك ان تبقى في فرنسا .

قال بوريس بمرارة : — تقول هذا لي انا !

— واذن ؟

— إذن ، لا شيء . انني انتظر رفيقة ، كما اخبرتك . وسأقرر بعد ان أراها .

— ليس ثمة من رفيقة هنا : فهذه قضية رجال .

قال بوريس بجفاف : — الامر كما ذكرت لك .

فبدا الخوف على فرانسيون وصمت . لعله سيظنّ اني خائف؟ وتأمله بوريس في عينيه ليتحقق ، ولكن فرانسيون وجّه له بسمة واثقة اعادت له اطمئنانه .

وسأل بوريس : — تصلون في الساعة السابعة ؟

— في الساعة السابعة .

— لا بد انها رائعة ، شواطيء انكلترا عنـــد الصباح . ان هناك جروفاً كبيرة بيضاء من جانب « الدوفر » .

قال فرانسيون : — آه !

قال بوريس : — لم يسبق لي قط ان ركبت الطائرة .

و سحب يده من تحت قميصه وأضاف :

— هل يتفق لك انت ان تحكّ جرحك ؟

— لا .

— انني أحكّه طوال الوقت : وهذا يزعجني .

قال فرانسيون : — بالنظر الى موضع الجرح عندي ، فمن الصعب ان أحكّه امام الناس .

وساد صمت ، ثم استطرد فرانسيون :

— متى تأتي رفيقتك ؟

— لا ادري ، كان المفروض ان تأتي من باريس ، فتأمل !

قال فرانسيون : — يجب ان تحرّك مؤخرتها ، لأننا نحن الآخرين

لا نستطيع الانتظار .

فتنهد بوريس وانقلب على بطنه . وتابع فرانسيون بلهجة مجردة :

ــ اما رفيقتي ، فلا أُطلعها على شيء ، ومــع ذلك أراها كل يوم . وفي المساء الذي نسافر فيه ، سأترك لها كلمة،وحين تتسلّمها ، نكون قد اصبحنا في لندن .

فهزّ بوريس رأسه من غير ان يجيب . وقال فرانسيون :

ــ انك لتدهشني ! يا سرغين ، انك تدهشني !

قال بوريس : ــ انك لا تستطيع ان تفهم .

فصمت فرانسيون ومدّ يده فتناول كتاباً . سيمرّون فوق جروف الدوفر عند الصباح . ولم يكن ينبغي التفكير في ذلك : ان بوريس لم يكن يؤمن ببابا نويل ، فهــو واثق من ان لولا ستقول لا . وقرأ فرانسيون :

ــ « الحرب والسلم » . ما هذا ؟

ــ رواية عن الحرب .

ــ حرب ١٤ ؟

ــ كلا . حرب اخرى . ولكن الامور متشابهة .

قال فرانسيون ضاحكاً : ــ نعم الامور متشابهة .

وكان قد فتح الكتاب على صفحة واخذ يقرأ مقطّباً حاجبيه في هيئة اهتمام مؤلم .

وتداعى بوريس للسقوط على سريره . كان يفكر : انني لا أستطيع ان « افعل » لها ذلك ، لا أستطيع ان اذهب للمرة الثانية من غير ان اسألها رأيها . وفكر : واذا كنت ابقى من أجلها ، فسيكون هذا دليل حب وفكر : آه ! كفى ! كفى ! دليل عجيب للحب . ولكن هل كان يحق للمرء البقاء من أجل امرأة ؟ لو سئل فرانسيون وغابيل لأجابا نفياً ، ولكنهما كانا صغيري السن اكثر ممــا ينبغي ، ولم يكونا

يعرفان ما عساه يكون الحب . وفكر بوريس : إن ما كنت اودّ ان يقال لي ، ليس ما عساه يكون الحب : فأنما يُدفع لي لأعرفه، ولكن كنت اود ان أعلم قيمة ذلك . هل يحق للمرء ان يبقى لكي يُسعد امرأة ؟ اذا عرضت القضية على هذا النحو ، كان جوابي نفياً . ولكن أيحق لنا انذهب ، اذا كان ذلك يشقي كائناً آخر ؟ وكان يتذكّر عبارة لماتيو : « انني لست جباناً بما فيه الكفاية حتى أخشى ان أعذّب اذا لزم الأمر . » نعم ، بكل تأكيد : ولكن ماتيو كان دائماً يفعل عكس ما كان يقول ؛ انه لم يكن يملك الجرأة قط على ايذاء الناس . وتوقف بوريس ، وقد انقطع نفَسه : واذا لم يكن الامر إلا ضرباً من العناد ؟ اذا كانت رغبتي في الذهاب قد أملتها الانانية الصرف والخوف من الانزعاج في الحياة المدنية ؟ ربما كنت شخصاً مغامراً ، وربما كان من الاسهل ان يعرّض الأنسان نفسه للقتل من ان يحيا . وماذا لو كنت أبقى بدافع من طلب الراحة ، او من الخوف ، او من الرغبة في ان تكون امرأةٌ تحت يدي ؟ والتفت : كان فرانسيون ينحني فوق الكتاب في اجتهاد مليء بالتحدي، ، كما لو انه أخذ على عاتقه ان يكتشف أكاذيب المؤلف . اذا استطعت ان اقول له : انني ذاهبٌ معكم ، اذا امكن للكلمة ان تخرج من فمي ، لقلتها . وتنحنح وفتح شفتيه وانتظر . ولكن الكلمة لم تأت ؛ انني لا استطيع ان اسبّب لها هذا الشقاء . وفهم بوريس انه لم يكن يريد ان يذهب من غير ان يستشير لولا . ستقول بكل تأكيد لا وينتهي الأمر . وفكّر مأخوذاً : واذا لم تصل في الموعد المحدّد ؟ اذا لم تصل قبل ١٨ ؟ هل ينبغي ان يقرر وحده ؟ لنفرض انني بقيت ، وانها وصلت يوم ٢٠ وانها قالت لي : كنت سأدعك تذهب . ستكون لي آنذاك سحنة لطيفة ! افتراض آخر : أذهب ، فتصل هي يوم ١٩ ، وتقتل نفسها . اوه خراء ! والتاث كل شيء في ذهنه ، فأغمض عينيه وتداعى للاستغراق

في النوم .
وصاح بيرجيه من وراء الباب :
– سرغين ، هناك انثى تنتظرك في الباحة .
فانتفض بوريس ورفع فرانسيون رأسه :
– انها رفيقتك .
واخرج بوريس ساقيه من السرير وحكّ جلدة رأسه . وقال وهو يتثاءب :
– سيكون هذا اروع مما انتظر . كلا : بل هو يوم زيارة اختي.
فردّد فرانسيون بهيئة بليدة :
– آه ، انه يوم زيارة اختك ؟ انها الصبية التي كانت معك ، في ذلك اليوم ؟
– نعم .
فقال فرانسيون من غير حماسة :
– لا بأس بها .
ولفّ بوريس طاقاته وارتدى سترته ، ثم حيّا فرانسيون بأصبعين من يده واجتاز القاعة فهبط السلّم وهو يصفر . وفي منتصف الدرج توقّف واخذ يضحك ، وفكّر : إنّ هـــذا لطريف ! طريف كم انا حزين . ولم يكن يسلّيه قط ان يرى ايفيش ؛ وفكر : « حين يكون المرء حزيناً ، فهي لا تُساعده ، بل تُرهقه . »
وكانت تنتظره في باحة المستشفى : كان ثمة جنود يطوفون المكان وهم يتطلعون اليها ، ولكنها لم تكن متنبهة لهم . وبسمت له من بعيد:
– مرحباً ، ايها الاخ الصغير .
وحين رأى الجنود بوريس قادماً ضحكوا وصاحوا : كانوا يحبونه كثيراً . وحيّاهم بوريس بيده ، ولكنه لاحظ بغير سرور ان احداً لم يقل له « ايهـا المحظوظ » او « افضل ان تكون في سريري على ان

يكون الرعد . » والواقع ان ايفيش كانت قد شاخت كثيراً وقبُحت منذ إجهاضها . وبالطبع كان بوريس ما يزال فخوراً بها ، ولكن على نحو آخر . وقال وهو يلامس عنق ايفيش بأطراف أصابعه :

ـ مرحباً ايتها العفريتة الصغيرة .

وكانت رائحة حمّى وعطر كولونيا تخفق حولها الآن بصورة دائمة . وتأملها في تجرّد ثم قال لها :

ـ انك سيئة المنظر .

ـ اعرف ذلك . فانا قبيحة .

ـ انك لا تضعين بعد الأحمر على شفتيك ابداً .

قالت بقسوة : ـ نعم .

وصمتا . وكانت ترتدي قميصاً احمر ذا ياقة مرتفعة ، من طراز روسي جداً ، يجعلها تبدو اكثر اصفراراً . ليتها على الأقل وافقت على ان تكشف قليلاً من كتفيها او صدرها : فقد كانت لها كتفان جميلتان جداً ! ولكنها كانت قد صممت على ارتداء القمصان المرتفعة والتنانير المفرطة في الطول : فكأنما كانت تخجل من جسمها . وسألته :

ـ هل نبقى هنا ؟

ـ استطيع ان اخرج ، ويحقّ لي ذلك .

قالت ايفيش : ـ إن السيارة تنتظرنا .

فسألها بوريس مذعوراً : ـ أليس هو هنا ؟

ـ من ؟

ـ العم .

ـ كلا .

واجتازا الباحة وخرجا من البوابة ، وحين رأى بوريس سيارة البويك الخضراء الضخمة التي تخص السيد « ستوريل » أحسّ بالانزعاج ، فقال :

ــ في المرة القادمة ، إجعليها تنتظر في زاوية الشارع .
وصعدا الى السيارة ، وكانت واسعة سعةً مضحكة بحيث كان المرء يضيع فيها .
وقال بوريس بين أسنانه :
ــ يمكن ان نلعب فيها لعبة « التخفّي » .
والتفت السائق فبسم لبوريس ، وكان رجلاً ضخماً مفرط المجاملة ذا شاربين رماديين . وسأل :
ــ الى اين امضي بالسيدة ؟
فسألها بوريس : ــ ما هو مشروعك ؟
ففكرت ايفيش :
ــ اريد ان ارى بشراً .
ــ اذن ، جادة الكانوبيير ؟
ــ الكانوبيير ، اوه كلا ! نعم ، نعم ، اذا شئت .
قال بوريس : ــ الى المرفأ عند زاوية الكانوبيير .
ــ طيب ، يا سيد سرغين .
وفكر بوريس : « تنبل ! » واقلعت السيارة فأخذ بوريس ينظر عبر الزجاج : ولم تكن له رغبة في الكلام ، لأن السائق كان يمكن ان يسمعها . وسألته ايفيش :
ــ ولولا ، ما اخبارها ؟
فالتفت اليها : كانت تبدو في وضع مطمئن كل الاطمئنان ؛ فوضع اصبعاً على فمه ، ولكنها ردّدت بصوت ممتلىء قوي ، كما لو ان السائق لم يكن في نظرها اكثر من قطعة لفت مطبوخة :
ــ هل لديك اخبار عن لولا ؟
فهز كتفيه من غير ان يجيب . فقالت :
ــ ماذا ؟

قال : ليس لديّ اخبار .

حين كان بوريس يتـــداوى في « تور » ، جاءت لولا فأقــامت بالقرب منه . وفي مطلع حزيران نُقــل الى مرسيليـــا ، فرت هي في باريس ، تنبؤاً بالاسوأ ، لتسحب مالاً من المصرف قبل ان تلحق به . وفي تلك الاثناء ، وقعت « الاحداث » وبات لا يعرف عنها شيئاً . ودفعته رجّة الى لصق ايفيش ، وكانـا يحتلان مكانـاً صغيراً جداً في مقعد البويك حتى ان ذلك ذكره يوم هبطـا باريس : كانـا يتسليان باعتبار نفسيهما يتيمين ضائعين في العاصمة ، وغالباً ما كان احدهما يلتصق هكذا بالآخر ، على مقعد من مقاعـــد « الدوم » او « الكوبول » . ورفع رأسه ليحـــدث ايفيش في هـــذا ، ولكنه رأى مظهرهـــا المظلم فاجتزأ بالقول :

ــ لقد سقطت باريس ، أرأيت ؟

قالت ايفيش بلامبالاة :

ــ نعم ، رأيت .

ــ وزوجك ؟

ــ لا انباء عنه كذلك .

وانحنت نحوه وقالت بصوت سريع منخفض :

ــ اودّ لو انه يموت .

فألقى بوريس نظرة الى السائق ورأى انه كان ينظر اليهما في المرآة العاكسة ، فلكز ايفيش في مرفقها فصمتت ، ولكنها ظلت محتفظة على شفتيها ببسمة خبيثة جادة . وتوقفت السيارة في اسفل جادة الكانوبيير ، فقفزت ايفيش الى الرصيف وقالت للسائق في سهولة آمرة :

ــ عُد لتأخذني من مقهى « ريش » في الساعة الخامسة .

فقال السائق بصوت رقيق :

ــ الى اللقاء ، يا سيد سرغين .

قال بوريس منزعجاً : — مع السلامة .

وفكر : سأعود في الترام . وتناول ذراع ايفيش وعادا يصعدان الكانوبيير . ومر ضبّاط ، فلم يحيّهم بوريس ولم يبد عليهم الاهتمام بذلك . وكان بوريس منزعجاً لالتفات النساء اليه لدى مروره . وسألته ايفيش :

— الا تحيي الضباط ؟

— ولماذا ؟

فقالت : — إن النساء ينظرن اليك .

فلم يجب بوريس ، وبسمت له سمراء ، فالتفتت ايفيش باهتمام وقالت موجهة اليها الكلام :

— نعم ، نعم ، انه جميل .

فقال بوريس مبتهلا :

— ايفيش ، لا تجذبي الينا الانظار .

كانت تلك هي اللازمة الجديدة . فقد حدث ان قال له احدهم ذات صباح انه كان جميلا ، ومنذ ذلك الحين والناس يرددون له ذلك ، وكان فرانسيون وغابيل يدعوانه « وجه الحب ». وبالطبع ، لم يكن بوريس ليغتر ، ولكن ذلك كان مزعجاً ، لأن الجمال ليس ميزة في الرجال . وقد كان يؤثر لو ان جميع هاتيك الاناث ينشغلن بمؤخراتهن ، ويؤثر لو ان الذكور يعمدون في الطريق الى بعض المغازلة لايفيش بقدر كاف لإشعارها بأنها جميلة .

وعلى سطيحة مقهى « ريش » كانت جميع الطاولات مشغولة تقريباً ، فجلسا وسط نساء سمراوات وضباط وجنود انيقين ورجال مسنين ذوي ايد سمينة ؛ جمع وديع هادىء ، أشخاص يستحقون القتل ولكن من غير ايذاء . وكانت ايفيش قد بدأت تشدّ على خصلات شعرها فسألها بوريس :

– هل تشكين شيئاً ؟
فهزت كتفيها . ومدّ بوريس ساقيه فلاحظ انه كان منزعجاً . وسألها :
– ماذا تريدين ان تشربي ؟
– هل قهوتهم جيدة ؟
– هكذا .
– انني اموت شوقاً الى شرب قهوة جيدة. إنهم هناك يصنعون قهوة منتنة .
قال بوريس للخادم :
– فنجانا قهوة (والتفت الى ايفيش فسألها) كيف الحال مع عمك وامرأة عمك ؟
فانطفأت الحماسة على وجه ايفيش وقالت :
– لا بأس . انني أصبح شبيهة بها (واضافت بضحكة صغيرة) ان امرأة عمي تقول إنني اشبهها.
– وماذا تفعلين طوال النهار ؟
– اوه ، بالامس مثلا ، نهضت في العاشرة ، فقمت بزينتي بأبطأ ما أستطيع ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة والنصف ؛ وقرأت الصحف ...
فقال بوريس بقسوة : – انك لا تحسنين قراءة الصحف .
– نعم ، لا احسن ذلك . وعند الغداء ، تحدثنا عن الحرب ، وذرفت الام ستوريل دمعـــة وهي تفكر بابنها العزيز ؛ وحين تبكي ترتفع شفتاها حتى لأظن دائماً بأنها موشكة على الضحك . وبعد ذلك اشتغلنا بالصوف ، فأطلعتني على بعضٍ أسرارها : لقد كان جورج ذا صحة رقيقة حين كان صغيراً ، فتصوّري انه اصيب بالتهاب الامعاء في الثامنة من عمره ؛ فاذا كان لا بدّ لها من الاختيار بين ابنها وزوجها فسيكون ذلك فظيعاً ، ولكنهـا تؤثر ان يموت زوجهـا لأنها كانت امـاً

اكثر منها زوجة . ثم حدثتني عن امراضها ، عن الرحم والامعاء والمثانة ، ويبدو ان الامور عندها سيئة جداً .

وكانت على شفتي بوريس « دعابة » عظيمة ، جاءته بسرعة كبيرة حتى شكّ في ان لا يكون قد قرأها في صحيفة ما . ولكن لا . « إن النساء يتحدثن فيما بينهن عن داخل بيوتهن او عن داخل اجسامهن.» وكانت العبارة لا تخلو من التصنّع والحذلقة، وتشبه مثلاً من امثال لاروشفوكو.. وتساءل عما اذا كان سيطلع ايفيش عليها ، ولكن ايفيش كانت تزداد عدم فهم للدعابات . واكتفى بالقول :

— نعم . وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، عدت الى الغرفة ومكثت فيها حتى العشاء .

— وماذا فعلت فيها ؟

— لا شيء . وبعد العشاء استمعنا الى اخبار الراديو وعلّقنا عليها . يبدو اننا لم نخسر شيئاً ، وان علينا ان نحتفظ برباطة جأشنا ، وان فرنسا شاهدت ما هو اسوأ من ذلك . وبعد ذلك عدت الى غرفتي ثانية فأعددت فنجان شاي على موقدي الكهربائي الذي أخفيه ، لأنه يعطّل الكهرباء مرةً على كل ثلاث مرات أستعمله فيها . وقد جلست في اريكة وانتظرت حتى يناموا .

— وبعد ذلك ؟

— تنفّست .

قال بوريس : — يحسن بك ان تأخذي اشتراكاً للمطالعة .

قالت : — حين اقرأ تتراقص الأحرف امام عيني ، فأفكر طوال الوقت في جورج . انني لا أستطيع الامتناع عن التأميل بأن نتلقى نبأ موته .

ولم يكن بوريس يحب زوج اخته ، وهو لم يكن يفهم قط ماذا حدا بأيفيش في ايلول ٣٨ الى الفرار من البيت لترتمي على رأس تلك

الهليونة . ولكن كان يلذّه الاقرار بأنه لم يكن الحصان الرديء ؛ حتى ان جورج حين علم بأنها حامل ، سلك سلوكاً طيباً : فهو الذي ألحّ على ان يتزوجها . ولكن كان ذلك بعد فوات الاوان : كانت ايفيش تكرهه لأنه جعلهـا تحمل . كانت تقول بأنها تستفظع نفسها ، وقد اختبأت في القرية ولم تشأ حتى ان ترى أخاها مرة اخرى . ولا ريب في انها كانت تقتل نفسها لو لم تكن تخاف خوفاً شديداً من ان تموت .

– اية قذارة !

فانتفض بوريس :

– ماذا ؟

فقالت وهي تومىء الى فنجان القهوة :

– هذا .

وذاق بوريس القهوة وقال بهدوء :

– صحيح انها ليست عظيمة (وفكر لحظـة ثم أضاف) ولكنها ستزداد سوءً مع الايام ، كما أتصوّر .

قالت ايفيش :

– يا لبلاد المهزومين !

ونظر بوريس في حذرٍ فيما حوله . ولكن لم يكن ثمـة من يتنبه لها : كان الناس يتحدثون عن الحرب في احترام وندم . فكأنهم كانوا عائدين من دفن عزيز . ومرّ الخادم وهو حاملٌ وعاءً فارغاً ، فأدارت له ايفيش عينين حربيتين وقذفته بقولها :

– انها منتنة !

فنظر اليها الخادم في دهشة . وكان له شارب رمادي ؛ وقد كان يمكن لايفيش ان تكون في سن ابنته . وقالت ايفيش :

– هذه القهوة منتنة ، وتستطيع أن تأخذها .

وكان الخادم يحدجها في فضول : لقد كانت اصغـر سنّاً من ان

يستطيع إخافتها . وحين ادرك من يكونان ، راودته بسمة قاسية :

– كنت تنتظرين قهوة يمنية ؟ لعلك لا تعرفين اننا في حرب ؟

فأجابت بحيوية :

– ربما كنت لا أعرف ذلك ، ولكن اخي الذي جُرح يعرفها خيراً منك بالتأكيد .

وصرف بوريس عينيه وقد احمر من فرط الاضطراب . لقد اصبحت أشدّ نباهة ولم تكن تفتقر الى سرعة البداهة ، ولكنه كان يتأسف على العهد الذي كانت تمضغ فيه غضبها بصمت، وشعرها منثر في وجهها : لقد كانت أقلّ مشاكل .

وتمتم الخادم مغتاظاً :

– لن ارسل الشكوى من اجل فنجان قهوة ، في اليوم الذي يدخل فيه الالمان باريس !

ومضى ، فضربت ايفيش بقدمها الارض :

– ليس في فمهم الا الحرب ، انهم لا يكفّون عن دعوى القتال وكأنهم فخورون بذلك . فليخسروها، حربهم ، ليخسروها مرة والى الابد ، ولنكفّ عن الكلام فيها .

وخنق بوريس تثاؤبة : إن انفجارات ايفيش لا تسلّيه بعد . حين كانت فتاة ، كان يروقه ان يراها تشدّ شعرها وهي تخبط وتُحول عينيها ، وقد كان هذا يجعلك مرحاً طوال النهار . اما الآن ، فإن عينيها تظلان كثيبتين ، فكأنها تركن الى الهدوء ، فتشبه امها في تلك الحالات . وفكر مندهشاً : « انها امرأة متزوجة ، امرأة متزوجة لها عم وامرأة عم ، وزوج في الجبهة وسيارة عائلية . » ونظر اليها في تبرم ، ثم صرف عينيه لأنه كان يشعر بأنها سترعبه . « سوف أذهب ! » وانتصب فجأة : إن قراره قد اتُخذ . « سأذهب . سأذهب معهم . اني لا استطيع ان ابقى بعد في فرنسا . » وكانت ايفيش

تتكلم . فسألها :

— ماذا ؟

— الوالدان .

— ماذا تقصدين ؟

— أقول انهما كان عليهما ان يبقيا في روسيا ؛ يبدو انك لا تسمعني.

— لو بقيا فيها ، لدخلا السجن .

— على اي حال ، ما كان ينبغي لهما ان يجنّسانا بالجنسية الفرنسية، والا لكان بوسعنا ان نعود الى بلادنا .

قال بوريس : — بلادنا هي فرنسا .

— كلا ، بل هي روسيا .

— هي فرنسا ، ما داما قد جنّسانا .

قالت ايفيش : — تماماً ، من أجل هذا ما كان ينبغي لهما ان يفعلا ذلك .

— نعم ، ولكنهما فعلاه .

— الامر عندي سواء . ما دام ان عليهما الا يفعلا ذلك ، فكأنهما لم يفعلا شيئاً على الاطلاق .

قال بوريس : — لو كنتِ في روسيا ، لبصقت عليها .

— سيكون الأمر عندي سواء ، لأنها بلاد عظيمة لا بد ان أشعر فيها بالاعتزاز . اما هنا ، فاني أقضي وقتي وانا أشعر بالعار .

وصمتت لحظة ، وكان يبدو انها مترددة . وكان بوريس ينظر اليها في حنان ؛ ولم تكن لديه أية رغبة في معاكستها ، وفكّر في تفاؤل : « ستضطر حتماً الى التوقف . فأنا لا أدري ما عسى تستطيع ان تضيفه» ولكن ايفيش كانت تتمتع بالاختراع : فقد رفعت يداً في الهواء،ورسمت بها غطسةً صغيرة ، كما لو أنها كانت تقذف نفسها في الماء ، وقالت:

— اني أحتقر الفرنسيين ..

ورفع رجل رأسه عن صحيفة كان يقرأها الى جانبها وتأملها بهيئة حالمة . ونظر اليه بوريس مواجهــة في عينيه ؛ ولكن ما لبث الرجل ان نهض ليستقبل امرأة كانت متجهة نحوه ، فانحنى لها وجلست،ويدها في يده وهما يبتسمان . واطمأن بوريس فعاد الى ايفيش . وبدأ النزاع الكبير : كانت تدمدم بين أسنانها :

ـ احتقرهم ، احتقرهم !

ـ تحتقرينهم لأنهم يصنعون قهوة رديئة ؟

ـ أحتقرهم لكل شيء .

وكان بوريس قد أمّل ان تهدأ العاصفة من تلقاء نفسها ؛ ولكنــه يدرك الآن انه كان مخطئاً ، وانه لا بدّ من مواجهتها بشجاعة . وقال :

ـ اما انا ، فأحبهم كثيراً . إن الجميع سيسقطون فوقهم ، الآن وقد خسروا الحرب ؛ ولكني رأيتهم في الخط الاول ، وأؤكد لك أنهم فعلوا كل ما في طاقتهم .

قالت ايفيش :

ـ أترى ؟ أترى ؟

ـ ماذا أرى ؟

ـ لماذا تقول : « انهم » فعلوا كل ما في طاقتهم ؟ لو كنت تشعر بأنك فرنسي لقلت « نحن » .

وانما لم يقل بوريس « نحن » بدافع التواضع . وهز رأسه وقطّب حاجبيه وقال :

ـ انا لا أحسّني فرنسياً ولا روسياً . ولكن حين كنت هناك ، مع سائر العساكر ، كان ذلك يلذّ لي .

قالت : ـ انهم أرانب .

فتظاهر بوريس بأنه أخطأ فقال وكأنه يستدرك :

ـ نعم ، ارانب مدهشة .

– كلا ، كلا ، بل ارانب تهرب . هكذا (وأركضت يدها على الطاولة) .

قال بوريس : – انك كجميع النساء . فأنت لا تقدّرين الا البطولة العسكرية .

– ليس الأمر كذلك . ولكن ما داموا يريدون ان يخوضوا هــذه الحرب ، فما كان عليهم الا ان يخوضوها حتى النهاية .

فرفع بوريس يده بحركة موهونة . « ما داموا يريدون ان يخوضوها ، فما كان عليهم إلا ان يخوضوها حتى النهاية . » بكل تأكيد . هذا ما كان يردّده أمس مع غــابيل وفرانسيون . ولكن ... وسقطت يده باسترخاء : إن الشخص الذي لا يفكر مثلك ، عسيرٌ ومتعبٌ ان تبرهن له أنه عــلى خطأ . غير انه حين يكون من رأيك ، ثم يترتب عليك ان تشرح له انه مخطيء ، فانك تضيع . قال :

– دعيني !

قالت ايفيش وهي تبتسم من فرط الغضب :

– ارانب !

قال بوريس : – ان الذين كانوا معي لم يكونوا ارانب . بل كان فيهم شجعان الى حد بعيد .

– لقد قلت لي انهم كانوا يخافون الموت .

– انت ؟ الا تخافين الموت ؟

– انا ، انني امرأة .

قال بوريس : – حسناً ، انهم هم يخافون الموت ، وهم مع ذلك رجال . وهــذا ما يسمى بالشجاعة . كانوا يعرفون ما يعرّضون له أنفسهم .

فنظرت اليه ايفيش نظرة ارتياب :

– لن تزعم لي انك « انت » كنت خائفاً ؟

— لم أكن أخشى الموت لأني كنت مؤمناً بأني انما كنت هناك لهذه الغـاية .

ونظر الى اظافره وأضاف بلهجة متجردة :

— الطريف في الأمر اني مع ذلك غوّطت في ثيابـي .

فارتعدت ايفيش :

— ولكن لأي سبب ؟

— لا ادري . ربما كان بسبب الضجة .

والواقع ان ذلك لم يدم اكثر من عشر دقائق — ربمـــا عشرين ، في بدء الهجوم تماماً . ولكنه لم يغضب ان تعتبره ايفيش خافاً [1] : فقد كان ذلك يدعم رأيه . وكانت تنظر اليه نظرة مترددة ، مذعورة من ان يشعر بالخوف من كان روسياً ، ان يشعر به سرغين ، أخوها بالذات . وأحسّ أخيراً بالخجل فسارع يضيف :

— الحقيقة انني لم أخف طوال الوقت .

فابتسمت له وقد شعرت بالعزاء ، وفكر بحزن : « لسنا بعد متفقين على شيء . » وساد صمت : وشرب بوريس جرعـــة من قهوة فكاد يلفظها : كانت كما لو انهم وضعوا له حزنه كله في فمه . ولكنه فكر بأنه سيذهب ، فاستشعر بعض العزاء . وسألته ايفيش :

— ماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

قال بوريس : — أعتقد انهم سيسرّحونني . والواقع اننا قد شفينا جميعاً تقريباً ، ولكنهم يحتفظون بنا هنا لأنهم لا يدرون ما يفعلون بنا .

— وبعد ذلك ؟

— سوف ... أطلب وظيفة استاذ .

— ولكنك لست « اغرجيه » ؟

— صحيح . غير أني أستطيع ان اكون استاذاً في كلية .

— وهل يلذّك ان تلقي محاضرات ؟

[1] الخاف هو الشديد الخوف .

فقال باندفاع : — آه ، كلا (واحمر وجهه فأضاف) انــني لم أخلق لهذا .

— ولأي شيء خُلقت ، يا اخي الصغير ؟

— هذا ما أتساءل عنه .

والتمعت عينا ايفيش :

— أتريد ان أقول لك لأيّ شيء خُلقنا ؟ خُلقنا لنكون اغنياء .

فقال منزعجاً : — ليس الامر كذلك .

ونظر اليها لحظة وهو يردد : « ليس الامــر كذلك ! » فيما كان يضغط فنجانه بين أصابعه .

— كيف هو اذن ؟

فقال : — كنت منفوخاً حتى الانفجار ، ثم سرقوا مني موتـي . انني لا اعرف شيئاً ، ولست موهوباً لشيء ، وليس لي بعد رغبةٌ في شيء .

وتنهّد وصمت ، مستشعراً الخجل ان يكون قد تحدث عن نفسه : ان القضية هي اني لا أستطيع ان اعزم على ان اعيش عيشة وسطاً . وهذا في حقيقته هو ما قالته تقريباً .

وكانت ايفيش تتابع فكرتها ، فسألته :

— ولولا ، ألا تملك مالاً ؟

فقفز بوريس وضرب الطاولة : لقد اوتيتْ موهبة ان تقرأ فكرته وتترجمها بعبارات غير مقبولة :

— انني لا اريد مال لولا .

— لماذا ؟ كانت تعطيك منه ، قبل الحرب .

— لم تعد تعطيني منه .

فقالت في حرارة : — اذن ، لننتحر كلانا .

وتنهّد ، وفكر : ها هي ذي تعود سيرتها . إن هــذا لا يناسب

سنّها بعد . وكانت ايفيش تنظر اليه وهي تبتسم :

— لنستأجر غرفة في الميناء القديم ولنفتح انبوب الغاز .

فاكتفى بوريس بأن يحرّك سبابة يده اليمنى علامة الرفض . ولم تلحّ ايفيش : بل خفضت رأسها وأخذت تشدّ على خصلاتها : وفهم بوريس أنه كان لديها ما تطلبه منه . وقالت بعد لحظة ، من غير ان تنظر اليه :

— كنت قد ظننت ...

— ماذا ؟

— كنت ظننت انك ستأخذني معك ونعيش نحن الثلاثة على مال لولا.

واستطاع بوريس ان يبلع ريقه من غير ان يختنق ، وقال :

— آه ! لقد فكرت بذلك .

وقالت ايفيش في حماسة مفاجئة :

— اسمع يا بوريس . ليس باستطاعتي بعد ان أعيش مع هؤلاء الناس .

— هل يسيئون معاملتك ؟

— على العكس : فهم يعيشونني في الحرير : زوجة ابنهم ، لو تعلم ! ولكني أحتقرهم ، أحتقر جورج ، احتقر خدمهم ...

فقال بوريس : — لاحظي انك تحتقرين لولا ايضاً .

— لولا ، ليس الامر متشابهاً .

— ليس الامر متشابهاً لأنها بعيدة وانك لم ترها منذ عامين .

— إن لولا تغني ، ثم هي تشرب ، ثم انها جميلة ... يا بوريس!

(وصاحت) اما هم ، فقبيحون ؛ فاذا تركتني بين ايديهم ، قتلت نفسي ، كلا ، لن اقتل نفسي بل سيكون الامر أسوأ من ذلك . ليتك تعرف كم أحسني عجوزاً وشريرة بعض الاحيان .

« طق ! » فكر بوريس . وشرب بعض القهوة ليزلق لعابه في

حلقومه ؛ وكان يفكر : لا يستطيع المرء ان يسيء الى شخصين . وكانت ايفيش قد كفّت عن الشدّ على شعرها ، وكانت سحنتها العريضة الممتقعة قد تلوّنت ، وكانت تنظر اليه نظرة ثابتة قلقة ، فتشبه قليلاً ايفيش الماضية . لربما تستعيد شبابها ؟ وربما تستعيد جمالها ؟ وقال :

— شرط ان تطبخي لنا ، ايتها العفريتة الصغيرة .

فأخذت يده وشدّتها بكل قواها :

— هل توافق اذن ؟ اوه ، بوريس ! أتوافق إذن ؟

سأكون استاذاً في « غيريه » . كلا ، ليس في غيريه ، فهناك ليسيه . بل في كاستلنوداري . وسأتزوج اولا : فان استاذاً في كلية لا يستطيع ان يعيش مع خليلة ؛ وسأبدأ منذ الغد في اعداد محاضراتي . وأمرّ يده خلال شعره ، وشدّ برفق على خصلة ليتحقق من متانتها ، ثم فكر : سأكون أصلع ؛ إن هذا مؤكّد الآن : سيسقط شعري قبل ان اموت .

— طبعاً ، اوافق .

وكان يرى طائرة تدور عند الصباح الباكر ، وكان يردد : الجروف ، الجروف الجميلة البيضاء ، جروف دوفر .

الساعة الثالثة في بادو

كان ماتيو جالساً فوق العشب ؛ وكان يتابع بعينيه الدوامات السود فوق البحر . وبين الفينة والفينة كان قلب من نار يصعد في الدخان فيصبغه بدمه وينفجر : واذ ذاك تثب شرارات في السماء كأنها البراغيث.

قال شارلو : — سوف يشعلون النار .

وكانت فراشات من السناج تتطاير حولهم ؛ فالتقط ببنيت احداها

وسحقها بين يديه بتفكر وقال وهو يبرز ابهامه المسودّ :
— هذا كل ما يبقى من خـــارطة اذا احيلت الى جزء من عشرة آلاف .
ورفع لونجان الباب ذا الشقوق ودخل الحديقة : وكان يبكي . وقال شارلو :
— إن لونجان يبكي !
فمسح لونجان عينيه .
— الحيوانات ! لقد حسبت انهم سيسلخون جلدي .
وتداعى للسقوط على العشب ؛ وكان يحمل كتاباً ذا غلاف ممزّق .
— كان عليّ ان أؤرث النار بواسطة منفخ بينما كانوا يقذفون اوراقهم فيها . وكنت اتلقى الدخان كله في فمي .
— وهل انتهوا ؟
— لا يهمّني . لقد اخلونا لأنهم سيحرقون الوثائق السرية . يتحدثون عن الاسرار : الاوامر التي ضربتها بنفسي على الآلة الكاتبة .
قال شارلو : — هناك رائحة رديئة .
— رائحة شواء .
— كلا ، اني اقول : اذا أحرقوا الوثائق ، انبعثت رائحة رديئة.
— نعم ، رائحة رديئة ، رائحة شواء . هذا ما أقوله .
وضحكوا ، وأشار ماتيو الى الكتاب وسأل :
— أين وجدته ؟
فقال لونجان بغموض : — هناك .
— اين ، هناك ؟ المدرسة ؟
قال : — نعم .
وشدّ الكتاب اليه في حذر ، وسأله ماتيو :
— هل هناك سواه ؟

— كانت هناك كتب اخرى ، ولكن رجال « الوكالة » استعملوها .
— وما هو هذا الكتاب ؟
— كتاب تاريخ .
— ولكن ما هو ؟
— لا أعرف عنوانه .

وألقى نظرة على الغلاف ، ثم اضاف في استياء :
— « تاريخ عودة الملكيتين » .

وسأل شارلو : — ومن المؤلف ؟

فتهجأ لونجان : — فو — لا — بيل .
— فولابيل ، من هذا ؟
— وما يدريني ؟

وسأله ماتيو : — هل تعيرني إياه ؟
— بعد ان اقرأه .

وتسلل شارلو في العشب فأخذ الكتاب من يديه :
— ولكن اسمع . انه الجزء الثالث .

فانتزعه منه لونجان :
— وماذا يهم ؟ المقصود ان اركز انتباهي .

وفتح الكتاب بالاتفاق وتظاهر بأنه يقرأ ليزيد استملاكه إياه . وبعد ان أنهى المهمة ، رفع رأسه وقال :
— لقد أحرق الكابيتن رسائل زوجته .

وكان ينظر اليهم مرفوع الحاجبين ، بسيط الهيئة ، مقلداً سلفاً ، بعينيه وشفتيه ، الدهشة التي كان يتوقع إثارتها فيهم . وخرج بينيت من حلمه العابس والتفت اليه باهتمام :
— صحيح ؟
— نعم ، وقد احرق أيضاً صورها ، فرأيتها في اللهب . انها

جميلة :

ـ صحيح ؟

ـ اؤكد لك ذلك .

ـ وماذا كان يقول ؟

ـ لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينظر اليها تحترق .

ـ والآخرون ؟

ـ لم يكونوا يقولون شيئاً كذلك . سوى ان اوليرش اخرج رسائل من محفظة نقوده والقاها في النار .

فتمتم ماتيو : ـ فكرة عجيبة .

والتفت اليه بينيت يسأله :

ـ أتراك لن تحرق صور امرأتك ؟

ـ ليس لي من امرأة .

ـ آه ! من أجل هذا .

فسأله ماتيو : ـ وهل أحرقت انت صور امرأتك ؟

ـ أنتظر حتى يظهر الالمان .

وصمتوا . وكان لونجان قد اخذ يقرأ في جدّ ، فرمى اليــه ماتيو بنظرة حسد ونهض . ووضع شارلو يده على كتف بينيت .

ـ هل نلعب الثأر ؟

ـ اذا شئت .

فسألهما ماتيو : ـ وبِمَ تلعبان ؟

ـ لعبة « الموربيون » .

ـ وهل يمكن ان يلعبها ثلاثة ؟

ـ لا .

وجلس بينيت وشارلو منفرجي الساقي على المقعـد الخشبي ، فأفسح لهما الرقيب بيارنيه الذي كان يكتب على ركبته .

ــ هل تكتب مذكراتك ؟

قال بيارنيه : ــ كلا ، وانما أحلّ عملية فيزيائية .

وأخذا يلعبان . وكان نيبير نائماً وهو مستلقٍ على ظهره ، متصالب الذراعين . وكان هواء السماء يُفرغ في فمه الفاغر بقرقرة تشبه خرير البلوعة . وكان شوارتز متنحياً ركناً آخر يحلم . لم يكن ثمة من يتكلم ، لقد ماتت فرنسا . وتثاءب ماتيو ، ونظر الى الوثائق السرية تتلاشى دخاناً في السماء ، ونظر الى الارض الكثيفة السوداء بين الخضار، ففرغ رأسه : لقد كان ميتاً ، وهذا الاصيل الابيض الميت ، كان قبراً .

ودخل لوبيرون الى الحديقة . وكان يأكل ، وجفونه تخفق تحت عينيه الكبيرتين المغربتين ، وكانت اذناه تتحركان على حركة فكّيه . وسأله شارلو :

ــ ماذا تأكل ؟

ــ كسرة خبز .

ــ ومن اين اتيت بها ؟

فأومأ الى الخارج من غير ان يجيب ، واستمر يمضغ . وصمت شارلو فجأة وتأمله في شيء من الذعر : وكان الرقيب بيارنيه يتأمله هو ايضاً ، مقلوب الرأس ، مرتفع القلم . وظل لوبيرون يمضغ ، في غير ما عجلة : ولاحظ ماتيو هيئته الجادّة ، فأدرك انه كان يحمل انباء ؛ واذ ذاك أحسّ بالخوف كالآخرين ، وتراجع خطوة الى الوراء. وانتهى لوبيرون من المضغ في هدوء ، ومسح يديه بثوبه،ففكر ماتيو : « لم يكن ما يأكله خبزاً . » واقترب شوارتز وجعلوا ينتظرون صامتين .

وقال لوبيرون : ــ ماذا ؟ انتهى الامر ؟

فسأل بيارنيه بقسوة : ــ ماذا ؟ ماذا ؟ ما الذي انتهى ؟

ــ انتهى الامر .

– الـ ...

– نعم .

برق نحاسي ، ثم ساد الصمت ؛ وكان لحم هذا النهار الأزرق الطري قد تلقّى الخلود كضربة منجل . لم يكن ثمة ضجة ، ولا نفخة هواء ، كان الزمن قد تجمّد ، وانسحبت الحرب : وقد كانوا منذ لحظــة فيهــا ، بمنجي ، وكان بوسعهم بعدُ ان يؤمنوا بالمعجزات ، بفرنسا الخالدة ، بالمساعدة الاميركية ،بالدفاع المطّاط ، بدخول روسيا الحرب ؛ اما الآن فقد كانت الحرب وراءهم ، منغلقــة ، ناجزة ، خاسرة . وأصبحت آمال ماتيو الأخيرة ذكريات أمل .

وكان لونجان أول من استردّ وعيه ، فمدّ يديه الطويلتين كما لـو انه يريد ان يجسّ النبأ بحذر ؛ وسأل في خجل :

– وإذن ... هل وُقّع ؟

– منذ هذا الصباح .

وكان بيارنيه قد تمنّى الصلح طوال تسعة أشهر . الصلح بأي ثمن . وها هو الآن هنـــا ، ممتقع يسيل منه العرق . وكان الانفعال المفاجيء قد اثار جنونه ، فصاح :

– وكيف عرفت ذلك ؟

– لقد أخبرني به غيكيولي .

– وكيف عرف هو ؟

– من الراديو . لقد التقطوا الساعة هذا النبأ .

وكان يتكلم بلهجة مذيــع صابرة محايدة ؛ وكان يتسلّى بالتظاهر بمظهر القسوة .

– ولكن صوت المدافع ؟

– إن وقف اطلاق النار سيتم في منتصف الليل .

وكان شارلو محمّر الوجه ايضاً ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان :

ـ هذا مزاح !
ونهض بيارنيه وسأل :
ـ هل من تفاصيل ؟
قال لوبيرون : ـ لا .
وتنحنح شارلو :
ـ ونحن ؟
ـ ماذا ، نحن ؟
ـ متى نعود الى بيوتنا ؟
ـ أقول لك ان ليس هناك من تفاصيل .
وصمتوا . وضرب بينيت بقدمه حصاة تدحرجت وسط الجَزَر ، وقال هادراً في غضب :
ـ الهدنة ! الهدنة !
فهزّ بيارنيه رأسه ؛ وكان جفنه الأيسر قد أخذ يخفق في وجهه الرمادي كمصراع في يوم عاصف . وقال في قهقهة راضية :
ـ ستكون الشروط قاسية .
فأخذوا جميعاً يقهقهون .
وكان شوارتز يقهقه ايضاً ، فالتفت اليه شارلو وتطلّع اليه في دهشة . وكفّ شوارتز عن الضحك واحمرّ وجهه بعنف . وظل شارلو ينظر اليه : فكأنه يراه للمرة الاولى . وقال له بهدوء :
ـ ها انت ذا الماني ، في هذه الساعة .
فأتى شوارتز بحركة عنيفة غامضة ، واستدار على عقبيه فغادر الحديقة : وأحسّ ماتيو نفسه مسحوقاً بالتعب . فتداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، وهو يقول :
ـ ما أشد الحرّ !
« انهم ينظرون الينا » . وكان الجمهور الذي يتزايد رويداً رويداً

ينظر اليهم وهم يبتلعون هذا القرص التاريخي ، وكان يشيخ ويتراجع القهقرى وهو يهمس : « مهزومو ٤٠ ، جنود الهزيمة ، انما نحن في القيود — بسببهم . » وكانوا باقين هناك ، لا يتغيّرون تحت تلك الانظار المتغيّرة ، محكوماً عليهم ، معيّرين ، مبرّرين ، متّهمين ، معذورين ، مُدانين ، مسجونين في هذا النهار الذي لا يمّحي ، مكتّفنين في هدير الذباب والمدفع ، في رائحة الخضرة الدافئة ، في الهواء الذي كان يرتعش فوق الجَزَر ، مذنبين الى ما لا نهاية في عيون اولادهم واحفادهم وأحفاد أحفادهم، مهزومي ٤٠ الى الابد . وتثاءب ، ورآه ملايين الناس يتثاءب : « انه يتثاءب ، وهذا جميل ، احد مهزومي ٤٠ يجرؤ على التثاؤب ! » وقطع ماتيو هذه التثاؤبة التي لا تنتهي ، وفكر : لسنا وحدنا .

ونظر الى رفاقه ، فالتقى نظره عليهم بنظر التاريخ الخالد المحجّر : للمرة الاولى كانت العظمة قد هبطت على رؤوسهم ؛ « كانوا » الجنود الاسطوريين لحرب خاسرة . لقد حُجّروا ! يا إلـهي ، لقد قرأت وتثاءبت ، وكنت احرّك جرس مشكلاتي ، ولم أكن اعزم على الاختيار ، ولكني كنت قد اخترت حقاً ، كنت قد اخترت هذه الحرب ، وهذه الهزيمة ، وكنتُ منتظراً في قلب هذا النهار . ان كل شيء ينبغي عمله مرة اخرى ، وليس بعد ما يُعمل : وتداخلت الفكرتان وانهدمتا معاً ؛ وبقي سطح « العدم » الهادىء .

ونفض شارلو الكتفين والرأس ؛ واخذ يضحك ، وعاد الزمن الى جريه . كان شارلو يضحك ، كان يضحك في وجه التاريخ ، وكان يدافع عن نفسه بالضحك في وجه التحجّر ؛ وكان ينظر اليهم في خبث ويقول :

— إن لنا وجهاً مشرقاً ، يا جماعة . نعم ، إن وجهنا مشرق ! والتفتوا اليه مشدوهين ، ثم انحاز لوبيرون الى الضحك . وكان

يغضّن أنفه في مشقّة ، فتخرج الضحكة من منخريه :

– تستطيع ان تقول ذلك ! كيف انهم تغلبوا علينا !

وقال شارلو في لهجة سكرى :

– إن هذا هو العقاب ، هو الضرب ، هو الفلَق !

فضحك لونجان بدوره وقال :

– جنود ٤٠ او ملوك الركض !

– عمالقة الطريق !

– الابطال الاولمبيون للركض على القدمين !

قال لوبيرون :

– لا تحزنوا : فسوف يُحسنون استقبالنا لدى عودتنا ، وسيزفون لنا التهاني !

فصرخ لونجان صرخة سعيدة :

– بل سيأتون لاستقبالنا على المحطة مع الموسيقى والجمعيات الرياضية.

وقال شارلو وهو يضحك حتّى كاد يسيل دمعه :

– وانا اليهودي ، ما رأيكم ؟ هل تتصورون الأشخاص المناهضين للسامية في الحيّ الذي أسكنه !

واستسلم ماتيو لعدوى هذا الضحك المزعج ، وحدثت لحظة شديدة القسوة . فلقد رموه وهو يرتجف من الحمّى عــلى فراشٍ مثلج ، ثم تحطّم خلوده الصنمي ، فتطاير شعاعاً من الضحك . كانوا يضحكون ، وكانوا يرفضون واجبات العظمة باسم الرعاع ؛ لا حاجة لأن نحزن ما دمنا نتمتع بالصحة والشراب والطعام ، انني أخرأ على نصف الدنيــا وأشخّ على النصف الآخر ، كانوا يرفضون تعزيات العظماء بدافع من التبصّر الزاهد ، بل انهم يرفضون لأنفسهم حق الألم ؛ نحن «فاجعيون» حتّى ولا هذا ، « تاريخيون » حتّى ولا هذا ، بل نحن ممثلون هزليون من طراز رخيص ، لا نساوي دمعة ؛ نحن « مرصودون » مسبقاً :

حتى ولا هذا ، فالعالم هو مصادفة واتفاق . كانوا يضحكون ، وكانوا يصطدمون بجدران « العبث » و « القدر » اللذين كانا يتداولانهم فيما بينهما ؛ كانوا يضحكون ليعاقبوا أنفسهم ، ليتطهّروا ، ليثأروا : انهم لا بشر مفرطون في البشرية ، مقذوفون فيما وراء اليأس: انهم بشر .

وفترة اخرى ، فتحت الافواه نحو الأفق شكوى جروحها السود ؛ كان نيبير ما يزال يشخر ، وكان فمه الفاغر هو ايضاً شكوى . ثم ثقُل الضحك وجرجر نفسه وتوقف بعد بضع انتفاضات : كانت الحفلة منتهية ، والهدنة مكرّسة ؛ لقد كانوا رسمياً « البَعد » . وكان الزمن يجري على مهل ، ماءً صحياً مغلياً بالشمس : كان لا بدّ من العودة الى الحياة ثانية .

قال شارلو : — هكذا !

فقال ماتيو : — هكذا !

وأخرج لوبيرون، على خفية، يده من جيبه ، فأطبقها على شفتيه وأخذ يمضغ ؛ وكان فمه يثب تحت عينيه الأرنبيتين . وقال :

— هكذا ! هكذا ! ها نحن ذا !

واتخذ بيارنيه هيئة التنطُّس والانتصار :

— ما الذي قلته لكم ؟

— ما الذي قلته لنا ؟

— لا تتظاهروا بالبلاهة . اتذكر يا دولارو ما قلته بعد عملية فنلندا؟ وبعد نارفيك ، هل تتذكر ؟ كنت تنعتني بطير الشؤم ، ولما كنت ابرع مني ، فقد كنت دائماً تُربكني .

وكان قد تورّد : كانت عيناه خلف نظارتيه تلتمعان بالحقد والمجد.

— ما كان ينبغي خوضها ، هذه الحرب ؛ لقد قلت دائماً اننا ينبغي الاّ نخوضها ؛ ولو حدث هذا لما كنا قد بلغنا هذا المبلغ .

قال بينيت : — لو لم نخضها لكان الوضع اسوأ .

ـ لا يمكن ان يكون الوضع اسوأ من هذا : ليس اسوأ من الحرب.

وكان يفرك يديه بعذوبة ، ووجهه يلتمع براءة : كان يفرك يديه، كان يغسل يديه من هذه الحرب ، فهو لم يخضها ، بل هو لم يعشها؛ كان قد عبس عشرة أشهر ، رافضاً ان يرى ، وان يتكلم ، وان يشعر ، محتجاً على جميع الاوامر بالحماسة الهوساء التي كان ينفذها بها ، وهو شارد ، ثائر الأعصاب ، غائب الروح . وها هو الآن يجازى على ما عاني . كانت يداه نظيفتين ، وقد تحققت تنبؤاته : كان المهزومون هم « الآخرين » ، امثال بينيت ، ولوبيرون، ودولارو، والآخرين . وليس هو . وأخذت شفتا بينيت ترتجفان . وسأل في صوت متقطع :

ـ واذن ، كل شيء على ما يرام ؟ هل انت مسرور ؟

ـ مسرور ؟

ـ هل حصلت عليها ، هزيمتك ؟

ـ « هزيمتي » ؟ ولكنها لك بالمقدار نفسه .

ـ كنت تتمناها : فهي لك . واما نحن الذين لم نكن نتمناها ، فلا نريد ان نحرمك منها .

وبسم بيارنيه بسمة من يعتقد انه لم يُفهم . وسأله في صبر :

ـ من قال لك اني كنت أتمناها ؟

ـ انت بالذات ، منذ لحظة غير بعيدة .

ـ قلت اني كنت أتنبأ بها . فالتنبؤ بها وتمنّيها ، شيئان ، أليس كذلك ؟

وكان بينيت ينظر اليه من غير ان يجيب،ووجهه قد تلكّد برمّته ، وشفتاه قد برزتا كأنهما خطم ؛ وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين سمهانتين . وتابع بيارنيه :

ـ ولماذا تراني كنت أتمنّاها ؟ أتشرح لي ذلك ؟ ربما كنت من

الطابور الخامس ؟

فأجاب بينيت في مشقة :

ـ انك من دعاة السلام .

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ الامران سواء .

فهزّ بيارنيه كتفيه وهو يباعد يديه في إرهاق . وهرع شارلو الى بينيت ووضع ذراعه حول عنقه ، وقال في طيبة :

ـ ارجوكما ، لا تختصما ، فما جدوى الخصام ؟ لقد خسرنا ، وليست هذه غلطة احد ، وليس لأحد ما يؤاخذ به نفسه عليه . كل ما في الامر اننا وقعنا في مصيبة .

فبسم لونجان بسمة سياسية :

ـ أهذه مصيبة ؟

فقال شارلو بصوتٍ مصالح :

ـ أجل ، يجب ان نكون منصفين : انها مصيبة ، بل مصيبة كبيرة . ولكن ما حيلتنا ؟ انني انا اقول : لكلٍ دوره . لقد ربحنا في المرة الماضية ، اما هذه المعركة ، فلهم ، والمعركة القادمة لنا .

قال لونجان : ـ لن يكون ثمة معركة قادمة .

ورفع اصبعه ، واضاف بلهجة متناقضة :

ـ لقد قمنا بآخر حرب لآخر محاربين ، تلك هي الحقيقة . فالوضع سواء ، أكنا منتصرين ام مهزومين : لقد نجح فتية ٤٠ الصغار بما اخفق به آباؤهم انتهت الامم،وانتهت الحرب . نحن اليوم راكعون ؛ وغداً يأتي دور الانكليز : فالالمان يأخذون كل شيء وينظّمون في كل مكان ، والى الامام من اجل تكوين ولايات اوروبا المتحدة .

قال بينيت :

ـ ولايات إستي المتحدة . سنكون خدّام هتلر .

فسأل لونجان بروعة :

— هتلر ؟ ما هذا ، هتلر ؟ بالطبع كان لا بد من واحد . فكيف تريد ان تتفاهم البلاد اذا تركتها حرة ؟ انهم كالبشر : كلٌ يجذب من ناحيته . ولكن منذا الذي سيتحدث عن هتلرك بعد مئة عام ؟ سيكون ميتاً ، والنازية معه .

فصاح بينيت :

— ايّ فرج أحمق انت ؟ ولكن منذا الذي سيعيشها ، هذه الاعوام المئة ؟

فبدت على لونجان الدهشة الاستنكارية :

— ينبغي ألا تفكر على هذا النحو ، ايها الرأس الصغير : بل يجب ان ترى الى ابعد من انفك قليلاً ؛ يجب ان تفكر بأوروبا ما بعد الغد.

— وهل تكون اوروبا ما بعد الغد هي التي تقدّم لي طعامي ؟

فرفع لونجان يداً مسالمة وأرجحها في الشمس وقال :

— يعني ! يعني ! إن الاذكياء يستطيعون ان يتدبروا امرهم دائماً.

فانخفضت اليد الاسقفية ، ولامست شعر شارلو المجعّد .

— أليس هذا هو رأيك ؟

قال شارلو : — ان رأيي لا يخرج عما يلي : ما دام علينا ان نوقّعها ، هذه الهدنة ، فالخير ان توقّع على الفور : فيكون عدد الموتى اقل ، ولا يتاح للألمان ان يغضبوا .

وكان ماتيو ينظر اليه في ذهول . كلهم ! كلهم ! كانوا يفرّون: شوارتز يغيّر جلده ، ونيبير يتشبث بالنوم ، وبينيت غاضب ، وبيارنيه بريء . اما لوبيرون ، فقد اختبأ في اللحظة ، يأكل ويسدّ كل منافذه بالطعام . وكان لونجان قد ترك العصر . كان كل منهم قد كوّن لنفسه ، بسرعة ، الوضع الذي يمكّنه من ان يعيش . وانتصب ماتيو فجأة وقال بصوت قوي :

— انكم تثيرون اشمئزازي .

فتأملوه بلا دهشة ، وبابتسامات مسكينة : وكان هو اكثر دهشة منهم ؛ وكانت العبارة ما تزال تصدي في اذنه ، وتساءل كيف تأتّى له ان ينطق بها . وتردد لحظة بين التأثــر والغضب ، ثم انحاز الى الغضب : فأولاهم ظهره ودفع الباب الصغير واجتاز الطريق . وكانت باهرة خالية ؛ وقفز ماتيو في العوسج الذي خدش طاقاته وهبط منحدر الغاب الصغير حتّى بلغ الساقية ، وقال بصوت مرتفع : « خراء ! ». ونظر الى الساقية وردّد : « خراء ! خراء ! » من غير ان يعرف لماذا . وعلى بعد مئة متر منه ، كان جنديّ عارٍ حتّى النطاق ، تخططه أشعة الشمس ، يغسل ثيابه ؛ انه هناك يصفّر ، ويعجن ذلك الطحين الرطب ، لقد خسر الحرب وهو لا يدري ذلك . وجلس ماتيو ؛وكان يشعر بالخجل : من الذي اعطاني الحق بأن أكون قاسياً الى هذا الحد؟ لقد علموا انهم قد خسروا ، فهم يتدبرون امرهم كما يطيقون لأنهم لم يعتادوا ذلك . اما انا فقد اعتدت ، ولكن هذا لا يجعلني افضل منهم. ثم انني بعد هذا كله قد اخترت الفرار ، انا ايضاً . والغضب . وسمع طقطقة خفيفة ، واقبل بينيت يجلس على حافة الماء . وبسم لماتيو، فبسم له ماتيو ، وظلا لحظة طويلة من غير ان يتكلما .

وقال بينيت : — انظر الفتى هناك ، انه يجهل الحقيقة .

وكان الجندي منحنيــاً فوق الماء يغسل ثيابه بعناد غـير مألوف ؛ وكانت طائرة ضالّة تهدر فوقهم . ورفع الجندي رأسه الى السماء عــبر الأغصان في كراهية اثارت ضحكهما : فقد كان هذا المشهد كله يحمل طابع تجديد الوقائع التاريخية .

— هل نخبره ؟

قال ماتيو : — اوه ! كفى ! دعه يشخّ !

وصمتا . وغطّس ماتيو يده في الماء وحرّك أصابعه . كانت يــده ممتقعة ملتمعة وحولها هالةٌ زرقاء . وصعدت فقاقيع الى السطح . وأتت

قشّة حملتها دوّامة محلّية فالتصقت بمعصمه وهي تدور ثم قفزت واصطدمت مرة اخرى . وسحب ماتيو يده وقال :

ـ الطقس حارّ .

قال بينيت :

ـ نعم ، وهو يغري بالنوم .

ـ هل انت راغب في النوم ؟

ـ لا . ولكني مع ذلك سأحاول .

وتمدّد على ظهره ، عاقـداً يديه خلف رقبته ، وأغمض عينيه . وغطّس ماتيو غصناً ميتاً في الماء وحرّكه . وبعد لحظة ، فتح بينيت عينيه :

ـ خراء !

وانتصب وأخذ يخلّل أصابعه في شعره .

ـ لا أستطيع ان انام .

ـ لماذا ؟

ـ انني ثائر الأعصاب .

قال ماتيو : ـ لا بأس في هذا ، فهو صحيّ .

قال بينيت : ـ حين اكون كذلك ، فلا بدّ لي من ان أضرب ؛ وإلاّ اختنقت .

ونظر الى ماتيو في فضول :

ـ الا يثور غضبك انت ؟

ـ بلى .

وانحنى بينيت على حذائه وأخذ يفكّه ، وقال في مرارة :

ـ لو كنت اعرف هذا ، لما أطلقت رصاصة واحدة .

ونزع جوربيه ، وكانت له قدمان صغيرتان ناعمتان كقدمي طفل ، تخططهما خطوط من الوسخ .

– سآخذ حمّام أقدام .

وبلّل قدمه اليمنى في الماء ، ثم أخذها بيده وانشأ يدلكها ؛ وكان الوسخ يسقط عنها في كريّات . وفجأة نظر الى ماتيو من تحت :

– سوف يجمعوننا ، أليس كذلك ؟

فأومأ ماتيو برأسه .

– وسينقلوننا الى بلادهم ؟

– على الأرجح .

وفرك بينيت قدمه في غضب :

– لولا هذه الهدنة ، ما كانوا ليقبضوا عليّ بهذه السهولة .

– وماذا كنت ستعمل ؟

– كنت سأقاوم .

قال ماتيو : – يا لك من ثور صغير !

وتبادلا البسمة ، ولكن وجه بينيت ما لبث ان أظلم وبدا في عينيه التحدي :

– لقد قلت اننا نثير اشمئزازك .

– لم اقصدك انت .

– لقد قلتها للجميع .

وكان ماتيو ما يزال يبتسم .

– اتريد ان تضربني أنا ؟

فخفض بينيت رأسه من غير ان يجيب .

وقال ماتيو : – اضرب . وسوف أضرب انا ايضاً ، فربما هدّأنا ذلك .

فقال بينيت : – لا اجرؤ على ان اؤذيك .

– خسارة !

وكانت قدم بينيت اليسرى تقطر ماءً وشمساً . فنظر اليها كلاهما

وحرّك بينيت اصابعه ، فقال ماتيو :

– إن قدميك طريفتان !

– انهما صغيرتان جداً ، اليس كذلك ؟ انني أستطيع ان آخذ علبة ثقاب وأفتحها .

– بأصابع قدميك .

– نعم .

وكان يبتسم ، ولكن الغضب نفضه فجأة ، فقبض على كعب قدميه في وحشية :

– بل لم اكن لأقتل ألمانياً ! انهم قادمون ، ولن يكون عليهم إلاّ ان يقطفوني !

قال ماتيو : – هذا صحيح .

– إن هذا غير عادل .

– ليس هو عادلاً ولا غير عادل . وانما هو هكذا .

– ليس هذا عدلاً : اننا ندفع عن الآخرين ، عن جنود جيش كوراب وعن غاملان .

– لو كنا في جيش كوراب لفعلنا كما فعل الرفاق .

– تحدّثْ عن نفسك .

وفتح ذراعيه وتنشّق بقوة ، وشدّ قبضتيه وهو ينفخ صدره ،ونظر الى ماتيو في تعجرف :

– هل املك وجهاً يلوذ بالفرار امام العدو ؟

فابتسم له ماتيو :

– لا .

وابرز بينيت العضلات الطويلة لذراعيه الشقراوين ، وتمتّع لحظة ، لنفسه ، بشبابه ، وبقوته ، وبشجاعته . كان يبتسم ، ولكن عينيه ظلتا عاصفتين وحاجبيه منخفضين :

ـ بل كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .

ـ إن المرء يقول ذلك .

فابتسم بينيت ومات : كأن رصاصة تخترق صدره . والتفت الى ماتيو ، ميتاً ومنتصراً . وردّد تمثال بينيت ، الذي مات من اجل الوطن :

ـ كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .

ثم عاد الغضب والحياة ينعشان هذا الجسم المحجّر .

ـ لست مذنباً . لقد فعلت كل ما طلب مني ان افعل . وليست هي غلطتي اذا لم يُحسنوا استعمالي .

وكان ماتيو ينظر اليه نظرة حنان ؛ وكان بينيت شفّافاً في الشمس، وكانت الحياة تصعد وتهبط وتدور بسرعة شديدة في شجرة عروقه الزرقاء ، وكان يشعر ولا بد بأنه هزيل جداً ، وسليم جداً ، وخفيف جداً : فكيف كان له ان يصدّق ذلك المرض غير المؤلم الذي كان قد بدأ يتأكله ، والذي سيُحني جسمه الشاب الجديد فوق حقول البطاطا في سيليزيا او على شوارع بوميرانيا،والذي سيملأه وهناً وحزناً وثقلاً . إن الهزيمة شيء يُتعلم .

قال بينيت :

ـ لم اكن اطلب من احد شيئاً ، وانما كنت اقوم بعملي في هدوء. الالمان : لم أكن ضدهم ، فانه لم يسبق لي ان رأيت قفا أحد منهم . النازية ، الفاشستية ، انني لا اعرف حتى ما هما . ودانزيغ : المرة الاولى التي رأيت فيها هذا البلد الصغير على خارطة ، كنت قد جُنّدت : طيّب : وهنا نجد انفسنا امام دالادييه الذي يعلن الحرب وغاملان الذي يخسرها . فما هو شأني انا في هذا ؟ اين هي غلطتي ؟ ألعلك تظن انهم استشاروني ؟

فهزّ ماتيو كتفيه :

– ها قد مضت خمس عشرة سنة ونحن نراها قادمة . فقد كان ينبغي مواجهتها في حينها . إما لتفاديها او لربحها .

– انني لست نائباً .

– ولكنك كنت تصوّت .

فقال بينيت من غير ثقة :

– طبعاً .

– لمن ؟

فظلّ بينيت صامتاً . وقال ماتيو :

– انت ترى اذن .

فقال بينيت في ضجر : – كان لا بدّ من ان اقوم بالخدمة العسكرية . وبعد ذلك كنت مريضاً : فلم يكن بامكاني ان اصوّت اكثر من مرة واحدة .

– وهل صوّتّ في تلك المرة ؟

فلم يجب بينيت ، وابتسم ماتيو ، وقال على مهل :

– وانا ايضاً لم أكن أصوّت .

وكان الجندي يعصر قمصانه ويضعها في منشفة حمراء ، ثم صعد الى الطريق وهو يصفر :

– أتعرف اللحن الذي يصفره ؟

فقال ماتيو : – لا .

– « سوف نجفّف غسيلنا على خط سيغفريد . »

وضحكا . وبدا على بينيت بعض الانفراج ، وقال :

– لقد عملت بقسوة ، ولم آكل دائماً حتى الشبع . ثم وجدت ذلك العمل في السكك الحديدية وتزوجت امرأتي : وكان ينبغي أن أطعمها ، أليس كذلك ؟ انها من عائلة طيبة ، لو تعلم . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام فيما بيننا باديء ذي بدء . (واضاف

بحيوية) ولكن الحال مشى فيما بعد : اقول ذلك لأفهمك اننا لا يمكن ان نهتمّ بكل شيء في الوقت نفسه .

قال ماتيو : — طبعاً .

— وما كان عساي ان افعل غير ذلك؟

— لا شيء .

— لم يكن لدي الوقت لأهتمّ بالسياسة . كنت أعود الى بيتي مرهقاً، ثم كانت تحدث المنازعات ، ولكن اذا كنتَ قد تزوجت فلكي تضاجع زوجتك كل مساء ، أليس كذلك ؟

— أفترض .

— وإذن ؟

— اذن لا شيء . هكذا تُخسر الحروب .

فأصيب بينيت بوثبة غضب جديدة .

— انك تضجرني تماماً ! حتى ولو اهتممت بالسياسة ، حتى ولو لم أهتمّ الا بالسياسة ، فماذا كان ذلك سيغيّر ؟

- كان بامكانك ان تفعل ما في وسعك .

— وهل فعلته انت ؟

— كلا .

— حتى ولو كنتَ قد فعلته ، تستطيع ان تقول لنفسك انك لست انت الذي خسرت الحرب ؟

— نعم .

— إذن ؟

فلم يجب ماتيو ، وسمع طنين بعوضة راعشاً فحرّك يده على مستوى جبهته ، فكفّ الطنين . هذه الحرب ، كنت انا ايضاً اعتقـد اول الأمر أنها كانت مرضاً . فأية بلاهة ! انها انا ، وهي بينيت ، وهي لونجان . انها بالنسبة لكلٍ منّا ذاته ؛ انهـا مصنوعة على صورتنـا ،

ونحن نصاب بالحرب التي نستحقها . ونشق بينيت طويلاً من غير ان يغادر ماتيو بنظره ؛ ووجد ماتيو هيئته بليدة ، فامتلأ فمه وعيناه بمد من الغضب : كفى ! كفى ! حسبي ان اكون الشخص الذي يرى بتبصر ! وكانت البعوضة ترتعش حول جبينه ، كأنها تاج مجد مضحك . لو انني حاربت ، لو ضغطت على الزناد ، لسقط رجل مكان ما ... ورفع يده فجأة وصفع صدغه صفعة شديدة ؛ وأخفض أصابعه فرأى على سبابته تطريزاً دموياً دقيقاً ، انساناً ينزف حياته على الحصى ، صفعة على الصدغ ، ضغطة سبابة على الزناد ، وستتوقف زجاجات صندوق الدنيا الملونة ، ويطرز الدم عشب الساقية ، كفاني ، كفاني ! ليتني أغرق في عملٍ مجهول كأنه الغابة . عمل . عملٍ ملزم لا يُفهم قط تماماً . وقال بهوس :

– لو كان ثمة « ما » يُعمل ...

فنظر اليه بينيت باهتمام :

– ماذا ؟

فهز ماتيو كتفيه وقال :

– لا شيء . لا شيء لهذه اللحظة .

وكان بينيت يلبس جوربيه ؛ وكان حاجباه المتقعان يقطبان في أعلى جبينه . وسأل فجأة :

– هل أريتك صورة امرأتي ؟

قال ماتيو : – لا .

فنهض بينيت وفتش في جيب سترته وأخرج صورة من محفظة . ورأى ماتيو امرأة جميلة ذات هيئة قاسية ، مع ظلٍ من زغب في زوايتي فمها . وكانت قد كتبت على ظهرها : « من دنيز الى لعبتها ١٢ كانون الثاني ١٩٣٩ . » وتورد خد بينيت :

– هكذا تسميني ، ولا استطيع ان أغير لها هذه العادة .

ـ لا بدّ لها من ان تسميّك باسم .
قال بينيت بجدارة : ـ ذلك لأنها تكبرني بخمسة أعوام .
وأعاد له ماتيو الصورة :
ـ انها جميلة .
قالت بينيت : ـ انهـا ، في السرير ، هائلــة . بــل انك لا تكاد تتصورّ .
وكان قد زاد احمراراً . وأضاف بلهجة َبرمة :
ـ هي من عائلة طيبة .
ـ لقد سبق ان قلت لي ذلك .
فقال بينيت مندهشاً : ـ آه ، هـل قلتها لك ؟ هـل قلت لك ان اباها كان استاذاً للرسم ؟
ـ نعم .
وأعاد بينيت الصورة الى المحفظة بعناية .
ـ إن الأمر يبعصني .
ـ ما الذي يبعصك ؟
ـ ان اعود هكذا .
وكان قد شبك كفيه على ركبتيه . وقال ماتيو :
ـ يعني .
قال بينيت : ـ إن اباها بطــل من ابطـال ١٤ ، ثلاثة أوسمة ، صليب الحرب . وهو يتحدث بذلك طوال الوقت .
ـ واذن ؟
ـ سوف يبعصه ان نعود هكذا .
قال ماتيو : ـ يــا لك من رأس مسكين ! إنك لن تعود باكراً كما تظن .
وكان غضب بينيت قد انحسر ، فهزّ رأسه بحزن وقال :

– انني افضل ذلك . فليست لديّ رغبة في العودة .

فردّد ماتيو : – يا لك من رأس مسكين !

قال بينيت : – انها تحبني ، ولكن اخلاقها صعبة . وهي تعتزّ بذلك . وهناك امها ايضاً ، وهي تُدفع من ياقتهـا دفعاً . المرأة ، يجب ان تحترمك ، أليس كذلك ؟ وإلا حلّ الشيطان في بيتك .

ونهض فجأة وقال :

– ضجرت من هذا المكان . هل تأتي ؟

فقال ماتيو : – الى اين ؟

– لا ادري . الى حيث الآخرون .

فقال ماتيو بلا حماسة : – اذا شئت .

ونهض بدوره ، فصعدا الى الطريق ، وقال بينيت :

– عجباً ! هذا غيكيولي .

وكان غيكيولي واقفاً ، مباعداً ما بين ساقيه ، حامياً حاجبيه بيده ، وهو ينظر اليهما مقهقهاً . وقال :

– كانت لطيفة !

– ما هي ؟

– كانت لطيفة . لقد انطلت عليكم كالطبول .

– ولكن ماذا ؟

قال غيكيولي وهو ما يزال يضحك :

– الهدنة .

فأشرق وجه بينيت :

– وهل كانت دعابة ؟

قال غيكيولي : – قليلاً . لقد اتى « ليكيه » يضايقنا بطاميه الانباء ، فأعطيناه إياها !

فقال بينيت في اندفاع :

ـ إذن ، ليس هناك هدنة ؟
ـ ليس هناك من هدنة ، اكثر مما هناك من زبدة بين الفخذين .
ونظر ماتيو الى بينيت من زاوية العين :
ـ وماذا يغيِّر هذا ؟
قال بينيت : ـ هذا يغيِّر كل شيء . سترى ! سترى كم سيتغير الوضع .

الساعة الرابعة

لا أحد في جادة سان جرمان ؛ ولا أحد في شارع دانتون . حتى الستائر الحديدية لم تكن مسدلة ، وكانت الواجهات تلتمع : كل ما في الأمر أنهم قد نزعوا مزلاج الباب حين ذهبوا . كان اليوم يوم أحد . منذ ثلاثة ايام كان اليوم يوم أحد تماماً ، ايّ أحد ، أصلب قليلاً من المألوف ، واكثر كيمائية ، مفرط في الصمت ، ممتلىء بالانتانات الخفية . واقترب دانيال من حانوت كبير لبيع الأصواف والأقمشة ؛ وكانت اللفائف المتعدّدة الألوان المصفوفة بشكل أهرام قد بدأت تصفرّ وتبعث رائحة القدَم ؛ وفي الحوانيت المجاورة ، كانت الأقمطة والقمصان تذبل ، وكان غبار طحيني يتراكم فوق الرفوف ، وكانت خطوط طويلة بيضاء توسِّخ الزجاج . وفكر دانيال : « إنّ الزجاج يبكي » . وخلف الزجاج ، كان العيسد قائماً : كان الذباب يطنّ بالملايين . يوم أحد . حين يعود الباريسيون ، سيجدون أحداً عفناً مسترخياً فوق مدينتهم الميتة .. اذا عادوا ! وأطلق دانيال العنان لتلك الرغبة الهائلة في الضحك التي كان ينزّهها عبر الشوارع منذ الصباح ، اذا عادوا !

وكانت ساحة سانت ـ اندريه ـ ديزار الصغيرة تستسلم جامدة

للشمس ؛ كان الجو اسود قاتماً في وضح النور . كانت الشمس شيئاً صناعياً : برق مانييزيوم يخفي الليل ، وسوف ينطفيء بعد جزء على عشرين من الثانية ، وهو مع ذلك لا ينطفيء ، وألصق جبينه بواجهة « البراسوري الزاسيين » ، لقد تناولت فيها الغداء مع ماتيو : وكان ذلك في شباط ، اثناء مأذونيته ، وكانت ملأى بالابطال والملائكة . وميّز في الظلّ لطخات مترددة تشبه قُطر الأقبية : وكانت خوانات من ورق . اين هم الأبطال ؟ وكانت كرسيان حديديتان متروكتين على السطيحة ، فتناول دانيال احداهما من مسندها ، وحملها الى حافة الرصيف وجلس كصاحب الدخل الوفير تحت السماء العسكرية ، في ذلك الحرّ الأبيض الذي كان يغلي بذكريات الطفولة . وكان يستشعر في ظهره ضغط الصمت المغنط ، وينظر الى الجسر الخالي ، وعلب الأرصفة المقفلة ، والساعة التي لا عقرب لها . وفكّر : « لا بدّ أنهم ضربوا هذا كله بعض الضرب . بضع قنابل ، ليجعلونا نرى . » وانسرب شبح ازاء مفوضية الشرطة ، في الجهة المقابلة من السين ، كانما يحمله رصيف متدحرج . إن باريس لم تكن خالية بكل معنى الكلمة : فقد كانت مسكونة بصوى صغيرة كانت تنبع في جميع الاتجاهات وما تلبث ان تتلاشى تحت هذا النور السرمدي . وفكر دانيال : « المدينة جوفاء » وكان يُحسّ تحت قدميه ممرات المترو ، ويحسّ خلفه وامامه وفوقه جروفاً مثقوبة : فبين السماء والأرض كانت آلاف الصالونات من طراز لويس فيليب ، وغرف الطعام من طراز « امبير » وزوايا الدواوين تنقصف تحت الهجر ، فتثير الضحاك حتى الموت . والتفت فجأة : لقد طرق احدهم على الزجاج . ونظر دانيال فترة طويلة الى الواجهة الكبيرة ، ولكنه لم ير انعكاس صورته بالذات . ونهض ، وحلقه منقبض بضيق غريب ، ولكنه لم يكن مستاءً جداً : كان طريفاً ان يشعر بمخاوف ليلية في وضح النهار . واقترب من

نبع سان ميشال ونظر الى التنّين المخضرّ . وكان يفكّر : كل شيء مباح . كان بوسعه ان يُنزل بنطاله تحت نظر هذه النوافذ السوداء ، وان ينزع بلاطة ويقذف بها في اتجاه واجهة المطعم ، وكان بوسعه ان يصرخ : « لتعش المانيا » فلا يحدث شيء . على الأكثر ستلتصق سحنة مذعورة بزجاج احدى النوافذ ، في طابق سادس من بناية ، ولكن لن تكون لذلك عاقبة : انهم لا يملكون بعدُ الطاقة على ان يغتاظوا : سيلتفت رجل الحبر ، هناك في الطابق الأعلى ، الى زوجته ليقول لها بلهجة متجردة جداً : « إن في الساحة رجلاً قد نزع لباسه التحتي » فتجيبه من جوف غرفتها : « لا تقف اذن على النافذة ، فاننا لا ندري ما يمكن ان يحدث . » وتثاءب دانيال . هل يكسر الزجاج ؟ عجباً ! ستتضح الامور كثيراً حين يبدأون النهب . وفكر : « ارجو كثيراً ان يخربوا ويسلبوا كل شيء . . » وتثاءب مرة اخرى : كان يُحسّ في نفسه حرية هائلةً وبلا جدوى . وكان فرحه احياناً يفري قلبه .

واذ كان يبتعد ، أطلت قافلة من شارع « لاهوشيت » . « انهم الآن يتنقلون في قوافل » . وكانت هي القافلة العاشرة التي يلتقيها منذ الصباح . وأحصى دانيال تسعة أشخاص : عجوزين تحملان سلالا وطفلتين وثلاثة رجال أشداء جدد ذوي شوارب ؛ وكانت خلفهم امرأتان صبيتان ، اولاهما جميلة وممتقعة ، والأخرى حامل تطوف على شفتيها بسمة . وكانوا يسيرون على مهل ، من غير ان يتكلموا . وسعل دانيال ، فالتفتوا اليه جميعاً : ولم يكن في عيونهم ود ولا توبيخ ، لم يكن الا دهشة غير مصدقة . ومالت احدى الطفلتين على الاخرى من غير ان تنقطع عن النظر الى دانيال ، فتمتمت بضع كلمات وضحكت كلتاهما ضحكة اعجاب وافتتان : وكان دانيال يحس انه ليس أقل غرابة من شمواة تحدّد في المتسلقين على الجبال نظرَها

الهاديء البكر . ومرّوا خياليين ، اسطوريين ، غارقين في وحدتهم ، واجتاز دانيال الطريق ليذهب فيرتفق الحاجز الحجري لمدخل جسر سان ميشال . وكان السين يلتمع ؛ وفي البعيد البعيد ، باتجاه الشمال الغربي ، كان الدخان يرتفع فوق البيوت . وفجأة بدا له المشهد سيئاً لا يطاق ، فانفتل وعاد على عقبيه وأخذ يصعد الجادة مرة أخرى .

وكانت القافلة قد تلاشت ، وحل الصمت والفراغ على مدى النظر هاوية افقية . وكان دانيال متعباً : ان الشوارع لم تكن تفضي الى اى مكان ؛ وكانت لفراغها من الناس متشابهة ، فاذا بجادّة سانميشال التي كانت بالامس دفقة طويلة من الذهب نحو الجنوب ، تصبح هذا الحوت الميت ، المنتثر البطء في الهواء . وخفق دانيال خطواته على هذا البطن الاجوف المنتفخ ، وجهد في ان يرتعش من السرور ، وقال بصوت مرتفع : « كنت احتقر باريس . » عبثاً : لم يكن ثمة ما هو حيّ إلا الخضرة ، إلا اذرعة شجر الكستناء الكبيرة الخضراء ؛ وكان يحسّ احساساً مائعاً بأنه يمشي في نبت الحراج . وكان جناح الملل القذر قد بدأ يلامسه حين لاحظ لحسن الحظ اعلاناً ابيض وأحمر ملصوقاً على حباك ، فاقترب وقرأ : « سننتصر لأننا الاقوى . » ففتح ذراعيه وابتسم في تلذّذ ، متحرراً : انهم يركضون ويركضون ولا ينفكون يركضون . وكان قد رفع رأسه وأدار بسمته نحو السماء وهو يتنفس بقوة : دعوى قائمة منذ عشرين سنة ، جواسيس حتى الى ما تحت سريره ؛ إن كل مار كان شاهد اثبات او قاضياً او الاثنين ؛ وكل ما كان يقوله كان يمكن ان يدينه . ثم فجأة يأتي التشتث . انهم يركضون ، الشهود والقضاة ورجال الخير ، يركضون تحت الشمس ، فيبيض الافق طائرات فوق رؤوسهم . وكانت اسوار باريس ما تزال تتحدث عن كبريائهم ومزاياهم : اننا الأقوى ، والاوفر فضيلة ، اننا صليبيو الديموقراطية ، المدافعون عن

بولونيا ، وعن الجدارة الانسانية ، وعن الفوارق الجنسية ، وستظل طريق الحديد مسدودة ، وسوف نجفف ثيابنا على خط سيغفريد . وكانت الاعلانات في شوارع باريس ما تزال ترسل انشودة صغيرة للمجد أصابها البرد والوهن ، «هم» ، فقد كانوا يركضون ، وقد ُجنّوا من الخوف ، وكانوايتمددون في الحفر ، ويطلبون الصفح . بشرف ، طبعاً ، لقد ُفقِد كل شيء ما عدا الشرف ، خذوا كل شيء في الشرف : هذا قفاي ، فاركلوه في الشرف ، وسوف ألحس قفاكم اذا تركتم لي الحياة . انهم يركضون ، يزحفون . وانا، المذنب أحكم مدينتهم .

كان يمشي خافض العينين ، متلذذاً ، وكان يسمع السيارات تنسل بقربه في الشارع ويفكر : « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس : ولا بد ان يكون ماتيو أسيراً ، والأرجح ان يكون برونيه قد قتل ، فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا ؛ لقد استعدت نفسي .. » وقال في نفسه فجأة : « اية سيارات ؟ » ورفع رأسه ، فأخذ قلبه يخفق حتى يبلغ خفقه صدغيه ، ثم « رآهم » . كانوا واقفين بصفاء ورصانة ، كل خمسة عشر او عشرين ، في سيارات طويلة مطلية للتضليل تسير ببطء نحو السين ، كانوا ينسلّون محمولين ، واقفين ، منسيين ، كانوا يلامسونه بنظرهم الذي لا يعبر عن شيء ، وكان آخرون يأتون في أعقابهم ، ملائكة اخرى متشابهة تنظر اليه نظرة واحدة . وسمع دانيال في البعيد موسيقى عسكرية ، وكان يخيل اليه ان السماء تمتليء بالاعلام ، فكان عليه ان يستند الى شجرة كستناء . كان « وحيداً » في هذه الجادة الطويلة ، الفرنسي الوحيد ، المدني الوحيد ، والجيش العدو برمته ينظر اليه . ولم يكن خائفاً ، بل كان يستسلم بثقة الى الوف العيون هذه ، ويفكر : « قاهرونا » فتغمره اللذة . وبادلهم نظرتهم بشجاعة، وتملى من هذا الشعر الأشقر ، ومن

هذه الوجوه الملفوحة التي تشبه فيها العيون بحيرات الجليد ، ومن هذه القامات الضيقة ، وهذه الافخاذ التي لا يصدق طولها واكتنازهـــا بالعضلات . وتمتم : « ما اجملهم ! » ولم يكن يلمس الارض بعد . كانوا قد رفعوه الى أذرعتهم ، وكانوا يضمونه الى صدورهم وبطونهم المسطحة . وتدحرج شيء من السماء : إنه القانون القديم ، لقد انهار مجتمع القضاة ، وامحى الحكم ، وكان الجنود الصغار لابسو الكاكي وابطال حقوق الأنسان والمواطن ، مهزومين . وفكر : « اية حرية » وكانت عينياه مبللتين . كان الحي الوحيد الذي خلفتــه الكارثة ، « الانسان » الوحيد تجاه ملائكة الحقد والغضب هؤلاء، هؤلاء الملائكة المبيدين الذين كانت نظراتهم تردّ له طفولته ، وفــكر : « ها هم القضاة الجدد ، وهذا هو القانون الجديد ! » وكم كانت تبدو هزيلة مضحكة فوق رؤوسهم عجائب السماء العذبة، وبراءة الغيوم الصغيرة : كان ذلك انتصار الاحتقار والعنف والنية السيئة، كان انتصار «الارض». ومرت دبابة ، متعجرفة بطيئة ، تغطيها الاغصان ، ولا يكاد صوتها يُسمع وكان واقفاً في مؤخرتها شاب نضر قد القى سترته على كتفيه ورفع كمي قميصه الى ما فوق المرفقين ، وشباك ذراعيه الجميلتين العاريتين . وابتسم له دانيال ، فنظر اليه الشاب طويلا ، بهيئة قاسية، ملتمع العينين ، ثم أخذ فجأة يبتسم ، فيما كانت الدبابة تبتعد . وفتش سريعاً في جيب بنطاله ثم رمى شيئاً صغيراً التقطه دانيال من الهواء : كان علبة من السكاير الانكليزية . وكان دانيال يشد العلبة شداً قوياً حتى انه كان يحس السكاير تنفجر تحت أصابعه . وكان ما يزال يبتسم . وصعد اغتلام لذيذ لا يطاق من فخذيه الى صدغيه . ولم يكن يرى بعد بوضوح ، وكان يردد وهو يلهث قليلا : « كما في زبدة — انهم يدخلون في باريس ، كما يدخلون في زبدة . » ومرت وجوه اخرى امام نظره الغائم ، واخرى وغيرهـــا ، وهي كلها جميلة ؛ سوف

يحدثون لنا « شراً » . إن هذا هو « عهـــد الشر » الذي يبدأ ، يا للعذوبة ! كان يود لو كان امرأة حتى يرميهم بالزهور .

طيران صارخ ، خراء ، خراء ، عجلوا في السير ، وخلا الشارع فملأه ضجيـح آنية على مستوى الحوافي ، وحرث السماء لمع فولاذ ، انها تمر بين البيوت ، وصاح شارلو بماتيو ، في ظلال العنبر ، وكان ملتصقاً به : انها تطير وهي تكاد تلامس الارض . ودارت القبرات النهمة المتثاقلة قليلا فوق القرية ، باحثة عن قوتها ، ثم مضت وهي تجر خلفها آنيتها التي كانت تقفز من سقف الى سقف ، وبدت رؤوس حذرة ، وخرج أشخـــاص من العنبر والبيوت ، وقفز آخرون من النوافذ ، فكأنهـــا السوق الصاخبة . صمت . كانوا جميعاً هناك الصمت ، زهاء مئة ، هندسة ، راديو ، محطة سبر الغور ، عمـــال تلفون ، امناء سر ، جميعاً ، ما عدا السائقين الذين كانوا منذ العشية ينتظرون وراء مقاودهم ؛ وأخذوا اماكنهم لمشاهدة « اي » حفلة ؟ وجلسوا وسط الشارع ، لأن الطريق كان خالياً ولأن السيارات كفت عن المرور ، جلسوا على حافة الرصيف ، وعلى خشب النوافذ ، بينما ظل آخرون وقوفاً ، مستندين الى واجهات البيوت . وكان ماتيو قد جلس على مقعد صغير ، امام حانوت البقالة، ولحق به شارلو وبيارنيه، ولم يكن ثمة من يتكلم ، لقد كانوا هناك ليكونوا معاً ولينظر بعضهم الى بعض ، وكانوا يرون أنفسهم على حقيقتهم ، السوق الكبيرة ، الجمهور المفرط في الهدوء ذو المئة وجه رمادي ؛ وكان الشارع يتكلس تحت الشمس ، ويتلوى تحت السماء المبقورة ويحرق الاقدام والافخاذ ، وكانوا يستسلمون للحرق؛ وكان الجنرال يسكن في بيت الطبيب : النافذة الثالثة في الطابق الاول ، وكانت تلك عينه ، ولكنهم كانوا يستخفون بالجنرال : كانوا ينظرون بعضهم الى بعضهم، فيخيف بعضهم بعضاً . كانوا يعانون من رحيل مكبوت لا يتحدث عنه احد ، ولكنه

كان يضرب في صدورهم ضرباً كبيراً ؛ وكانوا يحسونه في أذرعتهم وأفخاذهم ، مؤلماً كأنه تشنج ؛ لقد كان خذروفاً يدور في القلوب . وتنفس شخص كما يتنفس كلب يحلم ؛ وقال في الحلم : « ان في « الادارة » علباً للقرود . » وفكر ماتيو : « نعم ، ولكنهم وضعوا الدرك على الباب للحراسة » وأجاب غيكيولي : « اسمع ايها الاحمق ، لقد وضعوا الدرك على الباب للحراسة . » وحلم شخص – بدوره – بصوت ابيض مستنيم : « ان ذلك كالخباز ، عنده خبز، اؤكد لك ، فلقد رأيت الأرغفة ، ولكنه سد حانوته بحواجز . » وتابع ماتيو الحلم ، ولكن من غير ان يتكلم ، ورأى شريحة لحم ، فامتلأ فمه باللعاب ، وتحامل غريمو قليلا مشيراً الى المصاريع المغلقة وقال : « مـا بالهم في هذا البلد ؟ كانوا بالأمس يحدثوننا ، وهم اليوم يختبئون ! » كانت البيوت بالأمس تتثاءب كالمحار ، اما الآن ، فقد انغلقت على نفسها ؛ وفي داخلها كان رجال ونساء يظهرون بمظهر الموتى ويعرقون في الظلام ؛ وقال نيبير : « انما نحن موبوءون لأننا مهزومون » وغنت معدة شارلو ، فقال ماتيو : « ان معدتك تغني » فأجاب شارلو : « انها لا تغني ، بل تصرخ » وسقطت في وسطهم كرة من المطاط ، فالتقطها لاتيكس ، وبرزت فتاة صغيرة في الخامسة او السادسة ونظرت اليه في خجل وسألها لاتيكس : « أهي كرتك ؟ تعالي خذيها . » وكان الجميع ينظرون اليها . وكانت لدى ماتيو رغبة بأن يأخذها على ركبتيه ؛ وكان لاتيكس يحاول ان يرقق صوته الخشن : « هيا ! تعالي ! تعالي ! تعالي الى ركبتي . » وانطلقت همسات كل مكان ! تعالي ! تعالي ! تعـالي ! ولم تكن الصغيرة تتحرك ؛ تعالي ، فرختي ، تعالي ، تعالي يا دجاجتي ، تعـالي ! وقال لاتيكس : « يا إلهي ! اننا في هذه الساعة نخيف الاطفال » وكان الآخرون يضحكون ، وقالوا له : « انت الذي تخيفها بسحنتك

هـــذه ! » وكان ماتيو يضحك ، ولاتيكس يردد بصوت مغن : « تعالي يا طيبتي ! » ثم أخذه الغضب فجأة فصاح : « اذا لم تأتي أحتفظ بها ! » ورفع الكرة فوق رأسه ليريها اياها ، وتظاهر بأنه يضعهـــا في جيبه ، فصرخت الصغيرة ، ونهض الجميـع ، وأخذوا يصرخون : « أعدها لها ؛ إنك تُبكي طفلة، انها القذر ، لا، لا ، ضعها في جيبك ، اقذفها على السطح . » وكان ماتيو يحرك ذراعيه وهو واقف ، فابعده غيكيولي وعيناه تبرقان غضباً ، وراح ينتزع امام لاتيكس : « أعدها لها ، بالله عليك ، اننا لسنا متوحشين ! » وضرب ماتيو بقدمه وقد أثمله الغضب ، وكان لاتيكس اول الهادئين فخفض عينيه وقال : « لا تغضبوا ، فستعاد اليها . » وقذف الكرة بارتباك ، فصدمت جداراً ، وقفزت ، فارتمت الطفلة فوقها ولاذت بالفرار . الهدوء . وعاد الجميـع الى الجلوس، وعاد ماتيو الى الجلوس حزيناً ساكناً ؛ وكان يفكر : « اننا لسنا موبوئين . » لا شيء غير ذلك ، لا شيء غير افكار الجميع . لم يكن احياناً الا فراغاً قلقاً ، وكان يصبـح احياناً اخرى جميـع الناس ، فكان ضيقه يهدأ ، وتضج افكار الجميع نقاطاً ثقيلة في رأسه وتتدحرج خارج فمه، لسنا موبوئين . ومـــد لاتيكس يديه وتأملها بحزن . « ان لي ستة ، انا الذي احدثكم ، وكبيرهم في السابعة ولم أرفع يدي عليهم قط . »

وكانوا قد عادوا للجلوس موبوئين ، جائعين ، كمدين تحت السماء المسكونة ، ازاء هذه البيوت الكبيرة العمياء التي كانت ترشح حقـــداً . كانوا صامتين : ولم يكن لها الا ان تصمت ، تلك الهوام الكريهة التي كانت تلطخ هذا اليوم الجميل من ايام حزيران . صبراً ! إن المبيدآت ، وسنجتاز جميـع الطرق الى فليتوكس . وأشار لونجان الى المصاريـع وقال : « انهم ينتظرون ان يأتي الالمان ليخلصوهم منا » وقال نيبير : « تستطيع ان تراهن انهم سيكونون مع الألمان اوفر لطفـــاً . » وقال

غيكيولي : « انهم يفضلون ان ينشغلوا مع المنتصرين؛ هذا أشد مرحاً ؛ ثم ان التجارة سائرة . اما نحن ، فنحمل النحس . » وقال لاتيكس: « ستة اولاد ، كبيرهم في السابعة . ولم أُخف احداً منهـــم قط . » وقال غريمو : « اننا محتَقَرون . »

وارتفعت جميع الرؤوس لصوت أقدام ، ولكنها ما لبثت ان انخفضت ، واجتاز القائد «برات» الشارع بين الرؤوس ، فلم يُحيِّه أحد ؛ وتوقف امام بيت الطبيب ، فعادت الرؤوس الى الانتصاب وحدّقت الانظار بكتفيه المحشوتين فيما كان يرفع مطرقة الباب الحديدية ويطرق ثلاث طرقات . وانشق الباب فانسل من الفتحة الصغيرة الى البيت . ومن الساعة الخامسة والخامسة والاربعين الى الخامسة والسادسة والخمسين ، مرّ جميع ضباط اركان الحرب ، منزعجين متصلبين ، بين الجنود الصامتين : وكانت الرؤوس تضطجع لدى مرورهم ، ثم ترتفع بعد ذلك مباشرة . وقال باين : « إن عنـــد الجنرال عيداً . » فالتفت شارلو الى ماتيو وقال: « ما عساهم يفبركون ؟ » فأجاب ماتيو : « بوزك ! » فنظر اليـه شارلو وصمت . ومنذ مرّ الضباط ، زاد الناس رمادية وكمداً وتثاقلاً ؛ وكان بيارنيه ينظر الى ماتيو في مفاجأة قلقة : انما هو يلقى على خدّي امتقاعه هو بالذات .

وسُمع صوت غناء ، فانتفض ماتيو ، واقترب الغناء :

ما دام في الوعاء خراء
فالجو منتن في الغرفـــة

وانعطف في زاوية الشارع زهاء ثلاثين فتى ، سكارى ، بلا بنادق ولا سترة ولا قبعات . وكانوا يجتازون الشارع بخطى واسعة وهم يغنّون ويبدو عليهم الغيظ والفرح ، وكانت وجوههم حمراء من الشمس والخمر. وحين لمحوا هذه الدودة الرماديـــة التي كانت تتحرك على مهل فوق سطح الارض وترسل نحوهم رؤوسها المتعددة ، توقفوا فجـــأة وكفّوا

عن الغناء . وخطا ملتحٍ ضخمٌ خطوة الى الامام ؛ وكان عارياً حتى النطاق وأسود ذا عضلات مستديرة وسلسلة ذهبية حول عنقه . وسأل :

– هل هذا يعني انكم أموات ؟

فلم يجب أحد ؛ فصرف رأسه وبصق ؛ وكان يجد مشقّة في الاحتفاظ بتوازنه .

ونظر اليهم شارلو نظرة حسيرة وهو يطرف بعينيه . وسأل :

– ألست من عندنا ؟

فسأله الملتحي وهو يربت على فرجه :

– وهذا ، هل هو من عندكم ؟ لا يا سيدي . لست من عندكم ، ولو كنت من عندكم لكان هذا يؤذيني .

– من اين انت قادم ؟

فقام بحركة مبهمة :

– من فوق .

– وهل حدثت معارك ، فوق ؟

– خراء ! كلا ، لم تحدث معارك ، الا ان قائدنا انسحب حين بدأت الرائحة الكريهة تتصاعد ، وفعلنا نحن مثله ، ولكن لا من الجهة نفسها ، حتى لا نلتقي به .

فضحك الافراد خلف الملتحي ، واخذ شابان طويلان يغنّيان في تحدّ :

جرجر بيضاتك على الارض
وخُذْ عضوك في يدك ايها الرفيق
فنحن ذاهبون الى الحرب
الى صيد القحبات .

والتفتت جميع الرؤوس نحو عين الجنرال ؛ وحرّك شارلو يده بهيئة مذعورة :

– اسكتوا .

فسكت المغنّون ، وظلّوا فاغري الأفواه ، متهادين ؛ وبدا عليهم الارهاق فجأة .

وقال شارلو موضحاً ، وهو يشير الى البيت :

— إن ضباطنا هناك .

فقال صاحب اللحية بصوت قوي :

— انني أشخّ على ضباطكم .

وكانت سلسلته الذهبية تلتمع في الشمس ؛ وخفض بصره نحو الافراد الجالسين في الشارع واضاف :

— واذا كان الفتيان يزعجونكم ، فايس لكم الأ ان تأتوا معنا ، وهكذا يكفّون عن ازعاجكم .

فكان الآخرون يقولون خلفه مردّدين :

— معنا ! معنا ! معنا ! معنا !

وساد صمت . وكان نظر الملتحي قد توقّف عند ماتيو . وصرف ماتيو عينيه :

— وإذن ؟ من يأتي ؟ مرة ، مرتين ، ثلاث مرات .

فلم يتحرك أحد ، فانتهى الملتحي الى القول بلهجة ازدراء :

— ان هؤلاء ليسوا رجالاً ، وانما هم ضرّاطون . تعالوا يا رفاقي ، فاني لا اريد ان اعفن هنا : سوف يجعلونني أغضب .

واستعادوا سيرهم ، وكان الأفراد يبتعدون ليدعوهم يمرون ، وأدخل ماتيو قدميه تحت المقعد .

جرجر بيضاتك على الأرض

كان الافراد ينظرون الى عين الجنرال : كانت وجوه قد التصقت بالزجاج ، ولكن الضباط لم يظهروا .

فنحن ذاهبون الى الحرب ...

واختفوا : ولم ينبس أحد بكلمة ، وتلاشت الاغنية آخر الأمر .

واذ ذاك فقط ، تنفّس ماتيو . وقال نيبير من غير ان ينظر الى رفاقه:
– اولاً ، ليس هناك دليل على اننا لن نرحل .
قال لونجان : – بلى ، هناك دليل .
– وما هو ؟
– لقد نفد الوقود .
فقال غيكيولي :
– يبقى دائماً للضباط وقود . إن المستودعات ملآى .
– ولكن شاحناتنا تفتقده .
فضحك غيكيولي ضحكة جافة :
– طبعاً .
وصاح لونجان وهو يضخّم صوته الدقيق :
– اقول لك انهم قد خانونا . خانونا ، وسلمّونا للألمان !
قال مينار في لهجة ضجر :
– دعنا !
فردد ماتيو : – دعنا ! دعنا !
وقال احد عمال التلفون : – ثم خراء ! لا تتحدثوا طوال الوقت عن الرحيل ، فسنرى . إن هذا يبعص في آخر الأمر .
وكان ماتيو يتصورهم ، سائرين منشدين على الطريق،وربما يقطفون الزهور . كان يستشعر الخجل ، ولكنه كان الخجل الكبير المشترك . ولم يكن يجد ذلك رديئاً الى حد بعيد .
قال لاتيكس : – ضرّاطون ! لقـــد وصفنا بالضراطين ، ذلك الصبي . نحن آباء العائلات . وهل رأيت السلسلة التي يحملها في عنقه؟ يا له من لوطيّ !
قال شارلو : – اسمعوا ! اسمعوا !
وسُمع هدير ، فتمتم صوتٌ متعب :

ـ اختبئوا ايها الرفاق . انهم يؤجلّون ذلك .

قال نيبير : ـ انها المرة العاشرة منذ هذا الصباح .

ـ هل عددت ؟ اما انا ، فقد كففتِ حتى عن العدّ .

ونهضوا على غير عجل ، فركنوا الى الابواب ، ولاذوا بالممرات . ولامست طائرةٌ السطوح ، ثم خفتّت الضجة ، فخرجوا وهم يرقبون السماء ، وعادوا الى الجلوس .

قال ماتيو : ـ انها مطاردة .

فقال لوبيرون : ـ طز ! طز !

وسُمع في البعيد صوت رشاش .

ـ مدفعية مضادة للطائرات ؟

ـ مدفعية مضادة للطائرات في قفـــاي ! ان الطائرة هي التي تطلق نارها !

وتبادلوا النظر . وقال غريمو :

ـ لا يحسن التنزه في الطرقات اليوم :

فلم يجيبوا ، ولكن العيون كانت تبرق ، وبسمة صغيرة تجول على الافواه . وبعد لحظة ، اكتفى لونجان بالقول :

ـ ذلك دليل على انهم غير بعيدين .

ونهض غيكيولي واضعاً يديه في جيبيه ، وطوى ركبتيه ثلاث مرات ليزيل خدَرهما ، ثم رفع الى السماء وجهاً فارغاً مع ثنية استياء حول فمه .

ـ الى اين انت ذاهب ؟

ـ اقوم بدورة صغيرة .

ـ اين ؟

ـ هناك . اريد ان أرى ما حدث لهم .

ـ إحذر الطليان .

ـ لا تخف .

وابتعد في كسل . وكان الجميع راغبين في مرافقته ، ولكن ماتيو لم يجرؤ على النهوض ، وساد صمت طويل ؛ وكانت الوجوه قد استردّت بعض ألوانها واخذت تلتفت بعضها الى بعض في انتعاش .

ـ ما اجمل ان نستطيع القيام بنزهاتنا الصغيرة على الطرق ، كما في زمن السلم .

ـ ماذا كانوا يحسبون ؟ انهم سيصلون حتى بانام ؟ ان هناك اشخاصاً لا يشكّون في شيء .

ـ لو ان ذلك قابل للتطبيق ، لما انتظرناهم حتى يقوموا به .

وصمتوا متوترين ، ثائري الأعصاب ؛ كانوا ينتظرون ؛ وكان ثمة شخص طويل هزيل ، مستند الى ستار حانوت البقالة الحديدي ، ويداه ترتجفان . وعاد غيكيولي بعد لحظة،وهو ما يزال يمشي مشية اللامبالاة . وصاح ماتيو :

ـ ماذا إذن ؟

فهز غيكيولي كتفيه : وكان الافراد قد تحاملوا على مرافقهم يديرون نحوه عيوناً بارقة .

قال : ـ لقد تلاشوا .

ـ جميعاً ؟

ـ كيف تريدني ان اعرف ؟ انني لم أعدّ .

وكان ممتقعاً ، وكانت تجشّؤات صامتة تنفخ شفتيه .

ـ واين كانوا ؟ على الطريق ؟

ـ خراء ! اذا كنت فضولياً الى هذا الحد ، فليس لك إلا ان تذهب لترى .

وعاد الى الجلوس ؛ وأخذت سلسلة ذهبية صغيرة تلتمع في عنقه : فحمل اليها يده ، وبرمها بين اصابعه ، ثم تركها فجأة . وقال ، كأنما يتحدث على مضض :

ــ لقد اخبرت ناقلي الجرحى .

يا للمساكين ! وكانت السلسلة تلتمع وتبهر . ترى ، ايكون هناك من يقول : « يا للمساكين ! » ؟ كانت العبارة على جميع الأفواه ، ولكن هل ثمة من يراني فيقول : يا للمساكـــين ! ايكون ذلك رياءً حقاً ؟ كانت السلسلة الذهبية تلتمع على العنق الاسمر ؛ الوحشية ، الفظاعة ، الشفقة ، الحقد ، كل ذلك كان يطوف هناك ، وكان ذلك قاسيـــاً ومريحاً ، اننا حُلم الهوام ، ان افكارنا تتكاثف ، فتصبح أقلَّ بشرية ، افكارٌ ذات شعر وارجل تركض في كل مكان ، وتقفز من رأس الى آخر : ان الهوام على وشك ان تستيقظ .

ــ دولارو ؟ هل انت أصم ؟

دولارو ، هو انا . والتفت فجـــأة . كان بينيت يبسم له من بعيد : « انه يرى دولارو » .

ــ هيه !

ــ تعال .

فارتعش ، وقد أحسَّ فجأة انه وحيد وعارٍ ، انه رجل . «انا» . وقام بحركة ليطرد بينيت ، ولكن الجمع كان قد تشكّل ثانية ضدّه ، وكانت عيونهم الهوامية تنفيه ، وكانوا ينظرون اليـه برصانة مندهشة ، كما لو انهم لم يروه من قبل قط ، كما لو انهم كانوا يرونه عبر اعماق آنية . انني لا اسوى اكثر منهم ، ولا يحق لي ان اخونهم .

ــ تعال .

ونهض دولارو ، دولارو الهائل ، دولارو الرقيق ، الاستاذ دولارو ذهب بخطى بطيئة للقاء بينيت . وكان خلفه المستنقع ، الحيوان ذو المئتي رجل . خلفه ، مثنا عين : وكان خائفاً في ظهره . وجاء الضيق من جديد . بدأ على حذر ، كأنه تربيتة ، ثم اقام متواضعاً مألوفاً ، في جوف معدته . ولم يكن هو شيئاً : لم يكن اكثر من خواء . خواء في

نفسه ، وحولها . وكان يتنزّه في غازٍ مخفّف . ورفع الجندي الشجاع دولارو قبعته ، وأمرّ الجندي الشجاع دولارو يده في شعره ، وادار الجندي الشجاع دولارو الى بينيت بسمة متعبة ، فسأله :

ـ ماذا هناك ايها العنيد ؟

ـ هل انت مسرور معهم ؟

ـ كلا .

ـ فلماذا انت باقٍ معهم ؟

قال ماتيو : ـ اننا متشابهون .

ـ مَنْ ، المتشابهون ؟

ـ هم ونحن .

ـ وإذن؟

ـ إذن ، الأفضل ان نبقى معاً .

فاشتعلت عينا بينيت ، وقال وهو يرتدّ برأسه الى الخلف :

ـ اما انا فلست متشابهاً معهم .

وصمت ماتيو . قال بينيت :

ـ تعال .

ـ الى أين ؟

ـ الى البريد .

ـ الى البريد ؟ وهل هناك بريد ؟

ـ نعم . هناك فرع في اسفل القرية .

ـ وماذا تريد ان تفعل في البريد ؟

ـ لا تهتمّ بذلك .

ـ انه مغلق بكل تأكيد .

قال بينيت : ـ سيكون مفتوحاً بالنسبة لي .

وأمرّ ذراعه تحت ذراع ماتيو وجرّه وهو يضيف :

— لقد وجدت انثى .
وكانت عيناه تلتمعان بمرح محموم ، وكان يبتسم بسمة متعالية :
— اريد ان أعرّفك عليها .
— ولماذا ؟
فنظر اليه بينيت بقسوة :
— انك صديقي ، اليس كذلك ؟
قال ماتيو : — بكل تأكيد (وسأله) أهي موظفة البريد ؟
— نعم ، انها آنسة البريد .
— كنت أظنّ انك لم تكن راغباً في قصص النساء ؟
فضحك بينيت ضحكة مغتصبة :
— ما دمنا لا نقاتل ، فيجب ان نقضي الوقت .
والتفت اليه ماتيو فوجد هيئته مزهوة ، وقال :
— انك لم تعد تشبه نفسك ، يا رفيقي الصغير . ايكون الحب هو الذي غيّرك ؟
قال بينيت : — هيه ! هيه ! كان بالامكان ان اسقط اسوأ من هذه السقطة . سوف ترى نهديها : يأخذان العقل . وهي مثقفة : انها في الجغرافية او الحساب تضاهيك .
وسأله ماتيو : — وامرأتك ؟
فبدّل بينيت سحنته ، وقال بقسوة :
— على قفاي !
وكانا قد وصلا الى بيت صغير بطابق واحد ، وكانت المصاريع مغلقة ، وكان مزلاج الباب مرفوعاً . وطرق بينيت ثلاث طرقات وصاح :
— هذا انا .
والتفت الى ماتيو وهو يبتسم :
— انها تخشى ان يغتصبوها .

وسمع ماتيو صوت مفتاح ، وقال صوت امرأة :

– ادخل بسرعة .

وغطسا في رائحة حبر وصمغ وورق . وكان مقعد طويل يعلوه حاجز يقسم الحجرة الى قسمين . ولمح ماتيو في الداخل باباً مفتوحاً . وتراجعت المرأة حتى ذلك الباب ، واغلقته دونها ، وسُمعت وهي تدير المفتاح في القفل ، وظلا لحظات في الممر الضيق المخصص للجمهور ، ثم بدت عاملة البريد مرة اخرى وراء نافذتها . وانحنى بينيت فأسند جبينه الى الحاجز :

– انك تضعيننا في القصاص ؟ هذا غير لطيف .

قالت : – آه ! يجب ان يكون الانسان عاقلاً .

وكان لها صوت جميل ، حار ومعتم . ورأى ماتيو عينيها السوداوين تبرقان .

وقال بينيت : – إنك إذن خائفة منا ؟

فضحكت :

– لست خائفة ، ولكني لست واثقة كذلك .

– ايكون هذا بسبب صديقي ؟ ولكنه في الواقع مثلك : فهو موظف : وهذا قاسم مشترك للتعارف ، وينبغي لذلك ان يطمئنك .

وكان يتكلم بصوت انيق وهو يبتسم بدماثة ، وقال :

– هيا ، أخرجي على الأقل اصبعاً من خلال الحاجز ، اصبعاً واحداً فقط .

فأخرجت اصبعاً طويلا هزيلا من خلال الحاجز ، فوضع بينيت على ظفره قبلة . وقالت :

– كف عن هذا ، وإلا سحبته .

قال : – لن يكون ذلك مؤدباً . يجب ان يشد صديقي على اصبعك .

والتفت الى ماتيو :

ـ اسمح لي ان اقدم لك الآنسة التي ـ لا ـ تريد ـ ان ـ تقول اسمها . انها فرنسية صغيرة شجاعة : كان بوسعها ان تطلب نقلها ، ولكنها لم ترد ان تترك وظيفتها ، فربما كانوا بحاجة اليها .

وكان يهزّ كتفيه ويبتسم ، كان لا ينفك يبتسم . وكان صوته مائعاً ومغنياً ، ذا لكنه انكليزية خفيفة .

قال ماتيو : ـ مرحباً ايتها الآنسة .

فحركت اصبعها عبر الحاجز . فشد عليه بين أصابعه . وسألته :

ـ انت موظف ؟

ـ انني استاذ .

- وانا عاملة بريد .

ـ ارى ذلك .

وكان يشكو الحرّ والضجر ؛ كان يفكر بالوجوه الرمادية البطيئة التي خلفها وراءه .

قال بينيت : ـ ان الآنسة هي المسؤولة عن جميع رسائل القرية الغرامية .

قالت بلهجة متواضعة : ـ اوه! تعرف ان الرسائل الغرامية هنا...

قال بينيت : ـ لو كنت اسكن هذا البلد ، لكنت ارسل رسائل غرامية لجميع الفتيات هنا حتى تمرّ بين يديك . وبذلك تكونين « ساعية الغرام » .

وكان يضحك في شيء من الشرود :

ـ ساعية الغرام ! ساعية الغرام !

قالت : ـ سيكون هذا عظيما ، لأنه يضاعف عملي !

وساد صمت طويل ، وكان بينيت قد احتفظ ببسمته اللامبالية ، ولكنه كان متوتر المزاج ، وكان نظره يبحث في كل مكان . وكانت

حاملة ريشة معلقة الى الحاجز بخيط ، فتناولها بينيت ، وغطها بالحبر ، وسطر بضع كلمات على بطاقة بريدية مدّها لها وهو يقول :

ـ ها هي ذي .

فسألته من غير ان تأخذها :

ـ ولكن خذيها ! انت موظفة بريد : فقومي بمهنتك .

وأخذتها آخر الأمر وقرأت :

ـ ادفعوا الف قبلة الى الآنسة « بلا اسم » ... (وقالت وهي متوزعة بين الغضب والضحك الشديد) ها أنه قد عطل لي بطاقة بريدية.

وبلغ الضجر من ماتيو منتهاه فقال :

ـ حسناً . انني اتركِكما .

فبدا على بينيت الامتعاض :

ـ ألا تبقى ؟

ـ يجب ان ارجع الى هناك .

قال بينيت على عجل :

ـ اني ارافقك .

والتفت الى موظفة البريد :

ـ سأعود بعد خمس دقائق : فهل تفتحين لي الباب ثانية ؟

فقالت في انين :

ـ اوه ! كم هو مزعج ! انه يقضي وقته كله في الدخول والخروج : لقد آن لك ان تقرر !

قال : حسناً ، حسناً . انني باق . ولكنك ستتذكرين : فانت التي طلبت مني ان أبقى .

ـ لم اطلب شيئاً على الاطلاق .

ـ بلى !

ـ لا !

وتمتم ماتيو بين اسنانه :

ــ اوه ! خراء !

والتفت الى الصغيرة وقال :

ــ وداعاً ، يا آنسة .

فقالت موظفة البريد في برودة :

ــ وداعاً .

وخرج ماتيو ومشى فـــارغ الرأس . وكان الليل يهبط ، وكان الجنود ما يزالون جالسين كما تركهم . ومرّ في وسطهم فارتفعت من الأرض أصوات :

ــ ما هي الاخبار ؟

قال ماتيو : ــ ليس ثمة من اخبار .

وعاد الى مقعده وجلس بين شارلو وبيارنيه وسأل :

ــ الا يزال الضباط عند الجنرال ؟

ــ لا يزالون .

وتثاءب ؛ كان ينظر بأسى الى الافراد الغارقين في الظلّ ؛ وتمتم « نحن » . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً بعد : لقد كان وحيداً . وقلب رأسه الى الوراء ونظر الى النجوم الاولى . كانت السماء رقيقة كامرأة ؛ وكان حب الارض كله قد صعد ثانية الى السماء. وطرف ماتيو بعينيه :

ــ نجم مذنّب ، يا جماعة . تمنّوا شيئاً .

فضرط لوبيرون وقـال :

ــ هذه هي امنيّتي !

وتثاءب ماتيو من جديـد ، وقال :

ــ حسناً ، انني ذاهب لأنام . هل تأتي يا شارلو ؟

ــ أشكّ : فقد نرحل هذه الليلة ، وأفضل ان اكون مستعداً .

فضحك ماتيو ضحكة خشنة وقال :

ـ يا لك من رأس فرج !

قال شارلو بسرعة :

ـ كفى ، كفى . انني آتٍ معك .

ودخل ماتيو الى العنبر فارتمى في التبن مرتدياً كل ثيابه . وكان يموت من شدة النعاس : كان دائماً يُحسّ بالنعاس حين يكون شقياً . وأخذت كرة حمراء تدور ، واطلت وجوه نسائية من الشرفة وأخذت تدور هي ايضاً ، وكان ماتيو يحلم بأنه السماء ؛ وكان يطلُّ من الشرفة وينظر الى الأرض . وكانت الأرض خضراء ذات بطن أبيض ، وكانت تقفز قفز البراغيث . وفكر ماتيو : يجب ألا تمسّني ، ولكنها رفعت خمسة اصابع هائلة وقبضت على ماتيو من كتفيه .

ـ انهض ! بسرعة !

فسأل ماتيو : ـ كم هي الساعة ؟

وكان يُحس نفساً حارّاً على وجهه ، فقال صوت غيكيولي :

ـ الساعة العاشرة والثلث . انهض على مهل ، وتوجه الى الباب ، ثم انظر من غير ان تُرى .

فجلس ماتيو وتثاءب :

ـ ماذا هناك ؟

ـ إن سيارات الضباط تنتظر في الطريق ، على بعد مئة متر من هنا .

ـ واذن ؟

ـ افعل ما أقوله لك وسترى .

واختفى غيكيولي ؛ وفرك ماتيو عينيه ، ونادى بصوت منخفض :

ـ شارلو ! شارلو ! لونجان ! لونجان !

ليس من جواب . فنهض ومشى متهادياً من النعاس حتى الباب . وكان مفتوحاً على سعته . وكان رجل مختبئاً في الظلّ .

ـ مَن هنا ؟

قال بينيت : — انا .

— كنت احسبك تضاجع .

— انها تداور وتماطل ، ولن أحصل عليها قبل الغد (وتنهّد واضاف) يا إلهي ! إن شفتيّ تؤلمانني من فرط ما ابتسمت .

— اين بيارنيه ؟

فأشار بينيت الى ركن مظلم ، في الزاوية الاخرى من الشارع :

— هناك ، مع شارلو ولونجان .

— وماذا يفعلون هناك ؟

— لا ادري .

وانتظرا في صمت . وكان الليل بارداً ومشرقاً تحت ضوء القمر . وكانت حزمة من ظلال تتحرك تجاهها ، تحت المدخل . وادار ماتيو رأسه نحو بيت الطبيب : كانت عين الجنرال مغلقة ، ولكن ضوءاً أصفر كان يتسلل من تحت الباب . انني « انا » هنا . وانهار «الزمن» ، مع مستقبل — فزّاعة كبير . ولم يبق غير مدّة محلية ، صغيرة نائسة . لم يكن ثمة سلم ولا حرب ، ولا المانيا ولا فرنسا : لم يكن الا هذا الشعاع المتقع تحت باب ربما كان على وشك ان ينفتح . فهل تراه ينفتح ؟ لم يكن ثمة ما هو هامّ غير هذا ، ولم يكن لماتيو بعد غير هذا المستقبل الصغير . أينفتح الباب ؟ وأضاء قلبه الذابل فرحٌ شبيه بفرح المغامرات . أينفتح الباب ؟ كان ذلك هاماً : كان يخيل اليه ان الباب اذ ينفتح يقدّم أخيراً جواباً على جميع الاسئلة التي طرحها على نفسه طوال حياته . وأحسّ ماتيو بأن رعشة فرح ستولد في جوف كليته ؛ وشعر بالخجل ، وقال لنفسه في جهد : لقد خسرنا الحرب . وفي تلك اللحظة ، رُدّ له « الزمن » وذابت لؤلؤة المستقبل الصغيرة في مستقبل ضخم مشؤوم . الماضي ، المستقبل على مدى النظر ، منذ الفراعنة حتى ولايات اوروبا المتحدة . وانطفأ فرحه ، وانطفأ النور

تحت الباب ، وصرّ الباب ، ودار على مهل ، وانفتح على ظلام ؛ وخفق الظلّ تحت المدخل ، وطقطق الشارع كأنه غابة ، ثم سقط في الصمت . لقد فات الاوان : فليس ثمة من مغامرة .

وبعد لحظة ، برزت اشباح على الدربزين ؛ وهبط الضباط الدرج واحداً اثر الآخر ؛ وتوقف أول الهابطين في وسط الطريق بانتظار الآخرين ، فتبدلت الطريق: ١٩١٢ ، طريقُ حاميةٍ تحت الثلج ،والوقت متأخر ، وكانت حفلة الليل لدى الجنرال قد انتهت ؛ وكان الملازمان سوتان وكادين متشابكي الذراعين ، جميلين كصورتين ؛ وكان القائد برات قد وضع يده على كتف الكابتن موررون ، وكانوا ينحنون ويبتسمون ويقفون تحت مانيزيوم القمر ، صورة اخرى ، الأخيرة ، اني اصوّر الفريق كله ، انتهى . واستدار القائد برات على عقبيه ، فنظر الى السماء ورفع اصبعين في الهواء ، كما ليبارك القرية . وخرج الجنرال بدوره ، فأغلق الكولونيل الباب خلفه بهدوء : كان اركان حرب الفرقة بكامل عدده ، عشرين ضابطاً ، في امسية مثلوجة ، ذات سماء صافية ، وكانوا قد رقصوا حتى منتصف الليل ، أجمل ذكرى للحامية . وأخذ الجمع الصغير يسير بخطىً ذئبية ؛ وكانت نافذة في الطابق الاول قد انفتحت بغير ضجة ؛ وكان شكل ابيض يطلّ منها وينظر اليهم ذاهبين .

وتمم بينيت :

— ايّ مزاح !

كانوا يسيرون بهدوء ، في كبرياء رقيقة ؛ وكان على وجوههم الصنمية التي تقطر بنور القمر وحدة وصمت شديدان،حتى ان النظر اليها كان تدنيساً . وكان ماتيو يستشعر الذنب والتطهّر :

— ايّ مزاح ! اي مزاح !

وتردّد الكابيتين موررون . أيكون قد سمع ؟ وناس جسمه الكبير

الرائع والتفت نحو العنبر ؛ وكان ماتيو يرى عينيه تلتمعان . وهمدر بينيت وقام بحركة ليقذف بنفسه الى الخارج . ولكن ماتيو قبض على معصمه وأمسكه بقوة . وبحث الكابتين بنظره في اعماق الظلمات فترةً اخرى ثم استدار وتثاءب بغير اكتراث وهو يربت على شفتيه بأطراف اصابعه اللابسة القفاز . ومرّ الجنرال ، ولم يكن قد سبق لماتيو ان رآه على هذا القرب . وكان رجلاً ضخماً يفرض شخصيته ، ذا وجه منضّد ، وكان يستند بتثاقل الى ذراع الكولونيل ؛ وكانت تتبعهما حاشية تحمل الحقائب ؛ وكان فريق هامس ضاحك من الملازمين يُنهي الموكب .

وقال بينيت بصوت مرتفع تقريباً :

– ضباط !

ففكر ماتيو : « الاحرى انهم آلهة . آلهة يعودون الى جبال الاولمب بعد مكوث قصير على الارض ». وغرق الموكب الاولمبي في الليل ؛ ورمم مصباح كهربائي دائرةً راقصة على الطريق وانطفأ . والتفت بينيت الى ماتيو ؛ وكان القمر يضيء وجهه الجميل اليائس .

– ضباط ؟

– اي نعم .

واخذت شفتا بينيت ترتجفان ؛ وكان ماتيو يخشى ان ينفجر باكياً. فقال :

– كفى ! كفى ! هيّا ايها العنيد الصغير ، استعد رباطتك .

قال بينيت : – يجب ان نراه حتى نصدقه . انه العالم مقلوباً .

واخذ يد ماتيو يشدّها ويتشبث بها ، كما لو كان يحتفظ بأمل اخير :

– لعل السائقين يرفضون الرحيل ؟

فهزّ ماتيو كتفيه : كانت المحركات قد بدأت تهدر، فيؤلّف ذلك

انشودة زيزان عذبة ، بعيداً ، في اعماق الليل . وبعد لحظة ، اقلعت السيارات وضاع صوت المحركات . وشبك بينيت ذراعيه :

— ضباط ! بدأت الآن اصدق ان فرنسا قد هلكت .

والتفت ماتيو : كانت ثمة اشباح تنفصل عن الجدار عناقيد عناقيد ، وكان جنودٌ يخرجون في صمت من الأزقة والبوابات والعنابر . جنود حقيقيون من الصف الثاني ، ذوو اجسام ضعيفة وثياب رثة ، ينسلّون ازاء بياض الواجهات المعتم ؛ وفي لحظة ، امتلأ الشارع . وكانت لهم وجوه حزينة جداً انقبض لها قلب ماتيو ، فقال لبينيت :

— تعال .

— الى اين ؟

— الى الخارج مع الرفاق .

قال بينيت : — اوه ! خراء ! انني ناعس ، ولا رغبة لي في التحدث .

وتردّد ماتيو : كان يشعر بالنعاس ، وكانت اوجاع عنقه تثقب له رأسه ؛ وكان يود لو ينام ولا يفكر في شيء بعد . ولكن هيئتهم كانت حزينة ، وكان يرى ظهورهم تلتمع تحت القمر فيشعر بأنه أحدهم . وقال :

— اما انا ، فاني راغب في التحدث . مساء الخير.

واجتاز الشارع وضاع في الجمع . وكان ضوء القمر الطبشوري ينير سحنات متحجرة ، ولم يكن ثمة من يتكلم . وفجأة ، سُمع صوت المحركات واضحاً . فقال شارلو .

— لقد عادوا ، لقد عادوا !

— ولكن لا ، ايها الابله ! لقد سلكوا طريق المقاطعات .

ومع ذلك ، فقد ارهفوا آذانهم ، يداخلهم امل غامض . وخفّ الهدير وتلاشى . وتنهد لاتيكس :

ـ انتهى الأمر .

قال غريمو : ـ ها نحن اخيراً وحدنا .

فلم يضحك أحد . وسأل أحدهم بصوت منخفض قلق :

ـ وماذا سيكون من أمرنا ؟

فلم يكن ثمة جواب ؛ كان الافراد لا يأبهون لما سيصيرون اليه ؛ فقد كان لديهم همّ آخر ،همّ غامض ، كانوا يائسين من التعبير عنه . وتثاءب لوبيرون ، وقال بعد صمت طويل :

ـ لا يجدينا شيئاً ان نسهر . الى النوم ، يا جماعة ، الى النوم .

فقام شارلو بحركة يأس كبيرة ، وقال :

ـ طيّب ، انا ذاهب لأنام ، ولكن على مضض .

وكان الافراد يتبادلون نظرات قلقة ، فلم تكن لديهم اية رغبة في الافتراق ، ولا اي مبرّر للبقاء معاً . وفجأة ارتفع صوت ، صوت مرير .

ـ انهم لم يحبّونا قط .

وكان هذا يتكلم عن الجميع ، وأخذ الجميع يتكلمون :

ـ نعم ! نعم ! نعم ! بوسعك ان تقول هذا ، انت على حق وما تقوله صحيح . انهم لم يحبونا قط ، ابداً ، ابداً ، ابداً . ولم يكن الألمان اعداءهم ، بل كنا نحن ؛ لقد قمنا بالحرب كلها معاً ؛ ومع ذلك فقد تخلّوا عنا .

وكان ماتيو يردّد مع الآخرين :

ـ انهم لم يحبونا قط .

قال شارلو : ـ حين رأيتهم يمرون ، كنت من شدة الخيبة قد اوشكت ان اسقط ميتاً .

وغطّى صوته ضجيج حائر : لم يكن هذا بعد ما ينبغي ان يقوله تماماً . كان ينبغي الآن فقء الدمّل ، ولم يكن ثمة سبيل للتوقف بعد ،

كان ينبغي القول : ليس هناك من يحبنا . لا احد يحبنا : إن المدنيين يأخذون علينا اننا لم نحسن الدفاع عنهم ، ونساؤنا غير فخورات بنا ، وضباطنا تخلوا عنا ، والقرويون يحقدون علينا والألمان يتقدمون في الليل ، كان ينبغي القول : اننا كبش المحرقة ، اننا المهزومون ، الجبناء ، الهوام ، حثالة الأرض ، لقد خسرنا الحرب ، اننا بشعون ، مذنبون ، وليس هناك احد يحبنا ، لا أحد في الدنيا ، لا أحد . ولم يجرؤ ماتيو ، ولكن لاتيكس قال خلفه ، بلهجة متجردة :

ــ اننا منبوذون !

وصمتت الأصوات . وكان ماتيو ينظر الى لونجان ، بلا سبب معيّن ، هكذا ، لأنه كان تجاهه ، وكان لونجان ينظر اليه . وكان شارلو ولاتيكس يتبادلان النظر ؛ كان الجميع يتبادلون النظر ، وكان الجميع وكأنهم ينتظرون ، كما لو كان باقياً شيء ما يُقال . ولم يكن ثمة بعد ما يقال ، ولكن فجأة ابتسم لونجان لماتيو ، فبادله ماتيو بسمته ؛ وابتسم شارلو ، وابتسم لاتيكس ؛ وعلى جميع الأفواه ، فتّح القمر زهوراً صفراء .

الاثنين ، ١٧ حزيران .

قال بينيت : ــ تعال ، هيا ، تعال .

ــ كلا .

ــ هيا ، هيا ، تعال .

وكان ينظر الى ماتيو بهيئة رجاء واغراء . وقال ماتيو :

ــ حُلّ عن ظهري .

وكانا معاً تحت الأشجار ، وسط الساحة ، والكنيسة تجاهها ، ودار البلدية الى اليمين . وكان شارلو يحلم امام دار البلدية ، جالس

على الدرجة الاولى من السلم . وكان على ركبتيه كتاب . وكان جنود يتنزهون بخطىً بطيئة ، زرافات ووحداناً : وكانوا لا يدرون ما يفعلون بحريتهم • وكان رأس ماتيو ثقيلاً موجعاً كما لو انه قد شرب.

وقال بينيت :

ـ تبدو عليك السآمة .

قال ماتيو : ـ أجل ، انني في سأم .

كانت قد حدث ذلك السكر المضني للصدقة : كان الافراد ملتهبين تحت القمر ، وكان هذا يستحق جهد ان يحيا الانسان . ثم ان المصابيح كانت قد اطفئت ، فذهبوا ينامون ، لأنه لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه ، ولأنهم لم يكتسبوا بعد عادة تبادل المحبة ، ان الوقت الآن يشبه اليوم التالي لعيد ، فان المرء يحس الرغبة في الانتحار.

وسأل بينيت : ـ كم الساعة ؟

ـ الخامسة وعشر دقائق .

ـ خراء ! لقد تأخرت .

ـ إذن ، عجل بالذهاب .

ـ لا اريد ان اذهب وحدي .

ـ أتخاف بأن تلتهمك ؟

قال بينيت : ـ ليس الامر كذلك ، ليس الامر كذلك .

وألمّ بهما نيبير من غير ان يراهما ، وهو مستغرق ، وعيناه في داخله .

قال ماتيو : ـ اصحب نيبير .

ـ نيبير ؟ هل انت مجنون ؟

وتابعا بعينيهما نيبير ؛ مندهشين بهيئته العمياء وخطوته الراتصة .

وسأل بينيت ـ علامَ تراهن بأنه داخل الى الكنيسة ؟

وانتظر لحظة ثم صفع بيده قفاه :

— انه يدخل اليها ، يدخل اليها ! لقد ربحت .
وكان نيبير قد اختفى؛ والتفت بينيت الى ماتيو فتأمله بهيئة برمة :
— يبدو أنهم اكثر من خمسين في الداخل ، منذ هذا الصباح . وبين الفينة والفينة يخرج احدهم ليبول ثم يعود على الفور . فماذا تظنّ أنهم يفبركون ؟
فلم يجب ماتيو . وحك بينيت رأسه :
— لديّ رغبة بان القي نظرة عليهم .
قال ماتيو : — ولكنك متأخر عن موعدك .
قال بينيت : — طز في الموعد !
وابتعد بلا اكتراث ، واقترب ماتيو من شجرة كستناء . حزمة ضخمة متروكة على الطريق : هذا ما خلفه اركان حرب الفرقة ؛ وكان ثمة مثلها في جميع القرى ؛ سوف يلتقيها الالمان لدى مرورهم. « ما عساهم ينتظرون ، يا آلهي ؟ ماذا ينتظرون ؟ » كانت الهزيمة قد أصبحت يومية : كانت هي الشمس والشجر وهيئة الزمن وهذه الرغبة الخفية بان يموت ؛ ولكن العشية كانت قد خلفت في فمه مذاق أخوة قد برد . وكان ضابط البريد يقترب ، وحوله الطبّاخان ؛ ونظر اليهم ماتيو : لقد سبق لهذه الافواه ان بسمت له في الليل ، تحت ضوء القمر . اما الآن ، فلم يبق شيء ، وكانت وجوههم القاسية المغلقة تنادي بانه ينبغي الحذر من ضربات القمر ومن نشوات منتصف الليل : كل لنفسه والله للجميع ، لسنا على الارض لننزعج ، لقد كانوا هم ايضاً في يوم تال لعيد . وسحب ماتيو مديته من جيبه وشرع يقص لحاء شجرة الكستناء . كان راغباً ان يحفر اسمه في مكان ما من العالم .
— انك تكتب اسمك ؟
— نعم .

— ها ! ها !

وضحكوا ومضوا . وكان جنود آخرون يتبعونهم عن كثب : افراد لم يسبق لماتيو ان رآهم قط . كانت ذقونهم طويلة وعيونهم لامعة وهيئتهم غريبة ؛ وكان بينهم شخص يعرج . وقد اجتازوا الساحة ليذهبوا فيقتعدوا الرصيف ، امام الفرن المغلق . ثم جاء آخرون وآخرون لم يكن يعرفهم ماتيو كذلك ، بلا بنادق ولا طاقات ، ذوو وجوه رمادية ووحل جاف على أحذيتهم . هؤلاء كان بالامكان ان يحبهم المرء . وحين لحق بينيت بماتيو ، حدجهم بنظرة استياء ، فسأله ماتيو :

— ماذا رأيت ؟

— الكنيسة ملآى . (وأضاف بلهجة خائفة) انهم ينشدون .

وأخذ ماتيو مديته ، فسأله بينيت :

— انك تكتب اسمك ؟

فأجاب ماتيو وهو يضع مديته في جيبه :

— كنت اريد ، ولكن ذلك يستغرق وقتاً اطول مما ينبغي .

وتوقف بالقرب منهما شاب طويل ذو وجه متعب ضائع الملامح ، فكأنه ضباب فوق ياقته المفتوحة . وقال من غير ان يبتسم :

— مرحباً بالرفاق .

فتأمله بينيت ، وقال ماتيو :

— مرحباً .

— هل في هذه الانحاء ضباط ؟

فأخذ بينيت يضحك ، وسأل ماتيو :

— أتسمعه ؟ (والتفت الى الرجل فأضاف) لا ، يا عزيزي ، لا ليس من ضباط هنا ، فنحن في جمهورية .

قال الرجل : — ارى ذلك .

ــ من اية فرقة أنت ؟

ــ من الثانية والاربعين .

فدمدم بينيت : ــ الثانية والاربعين ؟ لم اسمع بها قط . واين انتم؟

ــ في « الابينال » ؟

ــ وماذا تفعل هنا ؟

فهزّ الجندي كتفيه ، وسأل بينيت فجأة ، بلهجة قلقة :

ــ اتراها ستأتي الى هنا ، فرقتك ؟ مع جميع الضباط وباقي الماخور ؟

فضحك الجندي بدوره ، واومــأ الى اربعة افراد جالسين عــلى الرصيف ، قائلاً :

ــ هذه هي الفرقة .

فالتمعت عينا بينيت :

ــ هل الوضع شديـد في الابييال ؟

ــ كان شديداً . اما الآن ، فلا بد انه هادىء جداً .

وأدار عقبيه ومضى الى رفاقه . وكان بينيت يتابعه بعينيه :

ــ الثانية والاربعون ، تأمل ! هل تعرفها انت ، الثانية والاربعين؟ انني لم اسمع بها حتى الآن .

قال ماتيو : ــ لم يكن ذلك سبباً كافياً لتهاجمه !

فهزّ بينيت كتفيه وقال في ازدراء :

ــ لا يكاد ينقطع سيل الافراد الذين يأتون لا تدري حتى من اين . فانت تشعر انك لست بعد في بيتك .

فلم يجب ماتيو : كان ينظر الى الجروح في جذع شجرة الكستناء . وقال بينيت :

ــ هيا ! تعال ! سنذهب الى الحقول ، نحن الثلاثة ؛ ولن نرى بعد احداً ، وسنكون مرتاحين .

ــ ولكن ماذا تريد ان افعــل بينك وبين صاحبتك ؟ إنك لست

بحاجة اليّ لتفعل ما تريد ان تفعله .
قال بينيت بلهجة مسكينة :
ـ ولكننا لن نفعله على التو ، فيجب ان نتحدث .
وقطع كلامه فجأة :
ـ انظر هناك ! انظر هناك ! أجنبيّ آخر !
وكان جندي قصير سمين متجهاً اليهما باستقامة . وكان ضماد ملطخ بالدم يخفي عينه اليمنى . وقال بينيت بصوت مرتعش بالأمل :
ـ لعلنا في قلب معركة كبيرة . ولعلّ القتال سينشب .
فلم يجب ماتيو . ونادى بينيت الجندي ذا الضماد .
ـ اسمع !
فتوقف الرجل ونظر اليه بعينه الوحيدة .
ـ هل حدثت هناك معارك ؟
وكان الرجل ينظر اليه من غير ان يجيب . والتفت الى ماتيو :
ـ لا يمكن للمرء ان يسحب منهم شيئاً .
واستعاد الرجل سيره . ولكنه توقف بعد بضعة أمتار ، فأسند ظهره الى شجرة كستناء وتداعى للسقوط على الأرض ، فاذا هو جالس وركبتاه عند ذقنه . قال بينيت :
ـ لعله يشكو شيئاً .
قال ماتيو : ـ تعال .
واقتربا . فسأله بينيت :
ـ أبك شيء ؟
فلم يجب الجندي .
ـ هيه ! أبك شيء ؟
وقال ماتيو للجندي : ـ سوف نساعدك .
وانحنى بينيت ليأخذه من ابطيه ، ولكنه ما لبث ان استقام .

ـ لا فائدة .

وكان الرجل ما يزال جالساً ، مفتوح العين ، فاغر الفم . وكانت هيئته رقيقة باسمة .

ـ لا فائدة .

ـ أجل ! انظر اليه .

فانحنى ماتيو ووضع رأسه على صدر الجندي ، ثم قال :

ـ انت على حق .

قال بينيت : ـ يجب ان نغلق له عينيه .

وفعل ذلك بطرف أصابعه ، وقد غرق رأسه في عنقه وتدلت شفته السفلى . وكان ماتيو ينظر اليه ، ولا ينظر الى الميت : إن الميت ليس بعد ذا أهمية . وقال :

ـ لكأنك ألفت ذلك طوال حياتك .

قال بينيت : ـ اما اني رأيت امواتاً ، فقد رأيت . ولكن هذا هو الاول منذ دخلنا الحرب .

وكان الميت يبتسم لأفكاره ، مغمض العين . وكان يبدو سهلا ان يموت المرء ، سهلا ومرحاً تقريباً . « ولكن ، لماذا العيش ؟ » واخذ كل شيء يخفق في السماء . الأحياء والاموات والكنيسة والشجرة . وانتفض ماتيو . كانت يد قد لامست كتفه ، وكان هو ذلك الشاب الطويل ذا الوجه الضبابي ؛ وكان ينظر الى الميت بعينيه الحائلتين .

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد مات .

فأوضح قائلا : ـ انه غارين .

والتفت الى الشرق .

ـ هيه ، يا جماعة ، عجلوا بالمجيء !

فنهض الجنود الأربعة وأخذوا يركضون ؛ وصاح بهم :

ـ لقد مات غارين .

ـ خراء !

وكانوا يحيطون بالميت وينظرون اليه في حذر :

ـ عجيب الا يكون قد سقط على الأرض .

ـ هذا يحدث احياناً . هناك من يبقى واقفاً .

ـ هل انت متأكد من انه مات ؟

ـ هما اللذان يقولان ذلك .

فانحنوا جميعهم معاً على الميت . وكان احدهم يمسك بمعصمه ، وآخر يستمع الى قلبه ، وأخرج الثالث مرآة جيب فألصقها بفمه ، كما يحدث في الروايات البوليسية . ثم نهضوا مسرورين ؛ وقال الرجل الطويل وهو يهزّ رأسه :

ـ يا لذلك الأحمق !

وهزوا رؤوسهم الأربعة ورددوا معاً :

ـ يا لذلك الأحمق !

والتفت قصير سمين الى ماتيو يقول :

ـ لقد مشى عشرين كيلو متراً . ولو بقي ساكناً . لظلّ حياً .

قال ماتيو وكأنه يعتذر عنه : ـ انــه لم يكن يريد ان يأخذه الألمان .

ـ وبعد ذلك ؟ إن عند الالمان سيارات اسعاف . وقد حدثته انا في الطريق . كان دمه يسيل كالخنزير ، ولكنك لم تكن تستطيـع ان تقول له شيئاً . فحضرته لم يكن يفعل الا ما في رأسه . كان يقول انه يريد ان يعود الى بيته !

ـ في كاهور . إنه خباز هناك .

فهز بينيت كتفيه :

ـ على كل حال ، ليس هذا هو الطريق .

ـ نعم .

وصمتوا ونظروا الى الميت في ارتباك :

ـ ماذا نفعل به ؟ هل ندفنه ؟

ـ لا نستطيع ان نفعل غير هذا .

وحملوه من إبطيه وركبتيه ، وكان ما يزال يبسم لهم ، ولكنه كان يبدو اكثر موتاً بين الفينة والفينة .

ـ سوف نساعدكم .

ـ لا حاجة الى ذلك .

قال بينيت بحيوية : ـ بلى ، بلى . فليس لدينا ما نعمله ، وهذا ما يلهينا .

فنظر اليه الجندي الطويل بجدّ وقال :

ـ كلا ، يجب ان يبقى ذلك فيما بيننا . انه من بلدنا ، فعلينا نحن ان ندفنه .

ـ واين ستضعونه ؟

فأشار القصير السمين برأسه الى الشمال .

ـ هناك .

وأخذوا يمشون حاملين الجثة : وكانوا يبدون موتى اكثر منه .

وسأل بينيت : ـ ربما كان له دين ، هذا الرفيق ؟

فنظروا اليه في ذهول . واومأ بينيت الى الكنيسة :

ـ انها ملآى بالخوارنة الصغار .

فرفع الجندي الطويل يده بصورة استعلاء وقسوة .

ـ لا . لا . لا . يجب ان يظل ذلك فيما بيننا .

واستدار على عقبيه وتبع الآخرين ، فعبروا الساحة واختفوا .

وصاح شارلو :

ـ ما كان به ، يا جماعة!

فالتفت ماتيو : كان شارلو قد رفع رأسه ووضع كتابه الى مقربة منه ، على الدرجة .

ـ كان به أنه كان ميتاً !

قال شارلو : ـ هذه بلاهة ، انني لم افكر في ان أنظر ، وانما رأيته حين كانوا يحملونه . انه ليس منّا ، على الأقل ؟

ـ كلا .

قال ـ آه حسناً .

واقتربوا . ومن نوافذ دار البلدية ، كانت تخرج اناشيد وصيحات لا إنسانية ، فسأل ماتيو :

ـ ماذا يحدث في الداخل ؟

فابتسم شارلو : ـ انه الماخور .

ـ وتستطيع ان تقرأ ؟

فقال شارلو في ذل : ـ لم اكن اقرأ تماماً .

ـ وما هو الكتاب ؟

ـ انه الـ « فولابيل » .

ـ كنت احسب ان لونجان هو الذي كان يقرأه .

قال شارلو في سخرية :

ـ لونجان ! هكذا ! إن لونجان ليس بعد في حالة تسمح له بالقراءة .

وأشار بابهامه الى البناء ، من فوق كتفه :

ـ إنه هناك في الداخل ، محشو كأنه خنزير .

ـ لونجان ؟ انه لا يشرب غير الماء .

ـ إذهب لترى إن لم يكن محشواً .

وسأل بينيت : ـ كم الساعة ؟

ـ الساعة الخامسة وخمس وثلاثون .

والتفت بينيت الى ماتيو :

ـ الا تأتي ؟
ـ لن آتي .
فوجه الى شارلو عينيه الجميلتين الحسيرتين :
ـ كم يبعصني هذا .
ـ ما الذي يبعصك ، ايها العنيد الصغير ؟
قال ماتيو : ـ لقد وجد سمكة .
ـ اذا كانت تبعصك ، فما عايلك إلا ان تحولها لي .
قال بينيت : ـ لا أستطيع . إنها تعبدني .
ـ اذن ، تدبر أمرك .
فقام بينيت بحركة تستنزل عليهما اللعنة ، وأولاهما ظهره ومضى . وتبعه شارلو بعينيه وهو يبتسم :
ـ انه يروق للنساء .
قال ماتيو : ـ صحيح .
فقال شارلو : ـ انا لا أحسده .. فيكفي مجرد التفكير بان اقفز، في هذه اللحظة ، علي امرأة ..
ونظر ماتيو في فضول :
ـ يقال بان الحوف يوتّر .
ـ يعني ؟
ـ ان هذا ليس حالي : فهو قد التوى .
ـ وهل انت خائف ؟
ـ خائف ، كلا . ولكن شيئاً يثقل علي معدتي .
ـ فهمت .
وأمسك شارلو فجأة بكمّ ماتيو . وقال له بصوت منخفض :
ـ أجلس . عندي ما اقوله لك .
فجلس ماتيو ؛ وقال شارلو بصوت منخفض :

ـــ هنالك من يروى حماقات ضخمة مثلهم .

ـــ اية حماقات ؟

قال شارلو منزعجاً :

ـــ لو تعلم ، انها « حقاً » حماقات .

ـــ تكلم لنرى .

ـــ اسمع إذن : إن الكابورال كابيل يقول إن الالمان سيخصوننا .

وضحك من غير ان يغادر ماتيو بنظره . وقال ماتيو :

ـــ نعم ، انها حماقات .

وكان شارلو ما يزال يضحك :

ـــ ولكن لاحظ : انني لا أصدق ذلك . فان هذا يعطيهم عملاً مجهداً .

وصمتا . وكان ماتيو قد تناول كتاب « الفولابيل » ؛ وكان يأمل بغموض ان يدع له شارلو ان يأخذه . وقال شارلو باهمال :

ـــ وهل يخصون اليهود عندهم ؟

ـــ كلا .

فقال شارلو باللهجة نفسها :

ـــ لقد حدثوني عن ذلك .

وفجأة أخذ ماتيو من كتفيه ، فلم يستطع ماتيو ان يحتمل رؤية هذا الوجه المذعور ، وخفض نظره على ركبتيه . وسأل شارلو :

ـــ ما عساهم يفعلون بي ؟

ـــ لن يفعلوا غير ما يفعلونه بالآخرين .

وساد صمت ، ثم أضاف ماتيو :

ـــ مزق دفترك العسكري واقذف صفيحتك في الهواء .

ـــ لقد فعلت هذا منذ زمن طويل .

ـــ وإذن ؟

قال شارلو : ــ انظر اليّ .

ولم يكن ماتيو يستطيع ان يصمّم على ان يرفع عينيه :

ــ اقول لك ان تنظر إليّ !

قال ماتيو : ــ انني انظر اليك ، فماذا ؟

ــ هل يبدو عليّ انني يهودي ؟

قال ماتيو : ــ كلا ، ليست عليك هيئة اليهود .

فتنهد شارلو ؛ وخرج جنديّ من دار البلدية وهو يتهاوى ، فنزل ثلاث درجات ، ولكنه اخطأ الرابعة فتدحرج بين ماتيو وشارلو ليمضي فينسحق في وسط الشارع .

قال ماتيو : ــ انه شديد البأس !

ونهض الرجل على مرفقيه وتقيّأ ، ثم سقط رأسه من جديد وكفّ عن الحراك .

وقال شارلو موضحاً :

ــ لقد غالوا خمــراً في « الادارة » . ليتك رأيتهم يمــرون وهم يحملون أباريق لا ادري اين وجدوها وقدراً كبيرة مليئة بالخمر ! كان ذلك يثير الاشمئزاز .

وظهر لونجان على احدى نوافذ الطابق السفلي وتجشأ . وكانت عيناه حمراوين وأحد خدّيه أسود برمته . فصاح به شارلو بقسوة :

ــ لقد تدبّرت امرك جيداً !

فنظر اليهما لونجان وهو يطرف بعينيه ؛ وحين عرفهما ، رفع يديه في الهواء بصورة مأساوية وصاح :

ــ دولارو ؟

ــ ماذا ؟

ــ انني أضيع اعتباري .

ــ ليس عليك إلا ان تذهب .

– لا أستطيع ان اذهب وحدي .

قال ماتيو : – انني قادم معك .

ونهض وهو يضمّ كتاب الفولابيل الى صدره . وقال شارلو :

– انك طيّب في الحقيقة .

– يجب ان نمضي الوقت .

وصعد درجتين ، فصاح شارلو من خلفه :

– هيه ! أعد لي كتابي .

فقال ماتيو مغتاظاً : – طيّب ، لا تصرخ هكذا .

وقذف له بالكتاب . ثم دفع الباب ، فولج ممراً ذا جدران بيضاء وتوقّف وقد شعر بضيق : كان صوت مرتفع متناوم ينشد انشودة « مدفعيّ متز » . وذكّره ذلك بمصحّ روان ، عام ٢٤ ، حين كان يذهب ليرى عمته الأرمل التي جُنّت من الحزن ، فيسمع بعض المجانين يغنّون وراء النوافذ . وعلى الجدار الأيسر ، كان قد عُلّق إعلان تحت حاجز . فاقترب وقرأ : « تعبئة عامة . » وفكر : لقد كنت مدنياً. وكان الصوت يغفو احياناً ، فيسقط على نفسه ويفرغ وهو يحشرج، ثم يستيقظ في صيحة . لقد كنت مدنياً ، وهذا بعيد العهد . وكان ينظر في الاعلان ، الى العلمين الصغيرين المتصالبين ، ويتمثل نفسه مرتدياً سترة ألبكة وياقة منشاة . وكان لم يسبق له ان ارتدى الاولى ولا الثانية، ولكنه كان يتمثل المدنيين هكذا . وفكر : « سيكون فظيعاً ان اعود مدنياً . والحق ان هذا جنس يتلاشى . » وسمع لونجان يصيح «دولارو» ورأى باباً مفتوحاً الى يساره فولجه . وكانت الشمس قد انخفضت ؛ وكانت أشعتها الطويلة المغبرة تقسم الحجرة قسمين من غير ان تنيرها ، وأخذت بخناق ماتيو رائحة خمر قوية ، فطرف بعينيه ولم يميّز اولاً سوى خارطة جدارية كانت تبدو لطخة في بياض الحائط ؛ ثم رأى مينار جالساً ، متدلّي الساقين ، فوق خزانة صغيرة ، يحرّك حذائيه

في ارجوان الشمس الغاربة . وكان هو الذي يغني ، وكانت عيناه المرحتان حتى الجنون تدوران فوق فمه الناغر ، وكان صوته ينسحب منه من تلقاء نفسه ، فيعيش منه كنبتة طفيلية ضخمة تمتص امعاءه ودمه لتحيلهما الى اغنيات ؛ وكان جامداً متدلّي الذراعين ينظر في ذهول الى هذه الهامة التي تخرج من فمه . لم يكن ثمة من أثاث : فلا بد أنهم قد استولوا على الطاولات والكراسي . وصعدت صيحة ترحيب في القاعة .

— دولارو ! مرحباً ، دولارو !

فخفض ماتيو عينيه ورأى رجالاً . وكان ثمة رجلٌ قد استرخى في قيئه ، وكان آخر يشخر ، متمدّداً على طوله ؛ وكان ثالث مستنداً الى الجدار ، فاغر الفم كما كان مينار ، ولكنه لم يكن يغني : وكانت له لحية رمادية تمتد من اذنه الى اذنه الاخرى ، وكانت عيناه مغمضتين خلف نظارتيه :

— مرحباً ، دولارو ، مرحباً !

والى يمينه ، كان ثمة اشخاص آخرون ذوو اوضاع ارصن . كان غيكيولي جالساً على الارض ، وبين ساقيه المنفرجتين قصعة مليئة بالعرق. وكان لاتيكس وغريمو مقرفصين على الطريقة التركية : وكان غريمو يمسك قدحه من عروته ويضربه بالأرض لينغّم اغاني مينار ؛ اما لاتيكس ، فقد كانت يده مختفية حتى المعصم في فتحة بنطاله . وقال غيكيولي بضع كلمات غطّاها صوت المغنّي ، فسأله ماتيو وهو يكوّر يده حول اذنه :

— ماذا تقول ؟

فرفع غيكيولي عينين غاضبتين الى مينار :

— ولكن اخرس لحظة ، بالله عليك ! انك تحطّم آذاننا .

فكفّ مينار عن الغناء ، وقال وهو يكاد ينتحب :

ـ لا استطيع التوقف .
وما لبث ان بدأ اغنية « فتيات الكاماريه » وكأنه ضحية صوته . وقال غيكيولي :
ـ اصبحنا في وضع جميل !
ولم يكن شديد الاستياء ، ونظر الى ماتيو في اعتزاز وقال :
ـ الواقع انه جذلان . اننا كلنا هنـــا جذالى : فنحن سوقة فاقدو الاعتبار ، عصابة محطّمي الصحون !
ووافق غريمو برأسه وضحك . وقال في جهد ، كما لو انـه كان يتكلم لغة اجنبية :
ـ اننا لا نصاهر الكآبة .
قال ماتيو : ـ ارى ذلك .
وسأل غيكيولي : ـ أتريد ان تشرب قدحاً ؟
وفي وسط القاعة ، كانت تقوم قدرٌ نحاسية مليئة بخمر احمـر من خمر « الادارة » وكانت تعوم فيها اشياء .
قال ماتيو : ـ انها قدرٌ للمربّيات . فمن اين اخذتموها ؟
فقال غيكيولي : ـ لا تهتمّ بذلك . فهل تشرب ، نعم ام خراء؟
وكان يتكلم بمشقة ، وكان يجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين ، ولكنه كان يحافظ على لهجة الهجوم . قال ماتيو :
ـ لا ، فأنا قادم لأصحب لونجان .
ـ تصحبه الى اين ؟
ـ نشمّ الهواء .
فأخذ غيكيولي قصعته بكلتا يديه وشرب ثم قال :
ـ لن امنعك من اخذه ، فهو لا ينفك يتحدث عن اخيه ، فيزعج الجميع . تذكّر ان هذه هي هنا عصابة المزّاحين : فمن كان خمـــره حزيناً ، فنحن لا نريده بيننا .

واخذ ماتيو بذراع لونجان :

ـ هيّا ، تعال !

فتخلّص لونجان بغيظ :

ـ دقيقة ! دعْ لي وقتاً لأتعوّد !

قال ماتيو : ـ ان امامك الوقت كله .

وأدار عقبيه ليذهب فيلقي نظرة على الخزانة . ومن خلال الزجاج رأى مجلدات ضخمة يغطّيها قماش . شيء للقراءة . انه مستعد لقراءة اي شيء : وحتى القانون المدني . وكانت الخزانة مقفلة بالمفتاح ، وحاول عبثاً ان يفتحها . وقال غيكيولي :

ـ اكسر الزجاج .

فقال ماتيو منزعجاً : ـ كلا .

ـ لماذا لا تكسره ؟ انتظر لحظة لترى اذا كان الالمان سينزعجون لكسره .

والتفت الى الآخرين :

ـ إن الالمان سيحرقون كل شيء ، ودولارو لا يريد ان يكسر الخزانة .

فأخذ الافراد يضحكون ويمزحون ، وقال غريمو في احتقار :

ـ بورجوازي !

وكان لاتيكس يشدّ ماتيو من سترته :

ـ هيه ! تعال دولارو فانظر !

فالتفت ماتيو :

ـ انظر ماذا ؟

فأخرج لاتيكس عضوه من فتحة بنطاله وقال :

ـ انظر ، وارفع قبعتك : لقد صنعت به ستة .

ـ ستة ماذا ؟

ـ ستة اولاد . وهم جميلون لو تعلم ، وكان كل منهم يزن في كل ضربة عشرين ليبرة تقريباً ؛ ولا ادري من الذي سيطعمهم الآن ، ولكنك (وانحنى بحنان على عضوه) ستصنع لنا آخرين بالدزينة ، ايها الفاجر !

وصرف ماتيو عينيه ، فصاح لاتيكس في غضب :

ـ ارفع قبعتك ، ايها التلميذ !

قال ماتيو : ـ ليس لي قبعة .

فرمى لاتيكس نظرة دائرية :

ـ ستة في ثمانية اعوام . من يفعل افضل ؟

وعاد ماتيو الى لونجان :

ـ وإذن ، هل تأتي ؟

فنظر اليه لونجان نظرة غائمة :

ـ لا احب ان أُباغت .

ـ انني لا اباغتك ، فأنت الذي ناداني .

فوضع لونجان اصبعه تحت انفه :

ـ انني لا احبك كثيراً ، يا دولارو ، ولم يسبق لي ان احببتك كثيراً .

قال ماتيو : ـ هذا متبادل .

فقال لونجان مسروراً : ـ حسناً ، من الممكن هكـذا ان نتفاهم (وسأل ماتيو وهو ينظر اليه في حذر) لماذا اولاً لا اشرب ؟ اية فائدة لي في ألاّ أشرب ؟

فقال غيكيولي : ـ ان خمرك حزين .

ـ اذا لم اشرب ، كان ذاك اسوأ .

وغنّى مينار :

اذا متّ . فأريد ان يدفنوني

في القبو الذي فيه خمر

ونظر ماتيو الى لونجان وقال له :

– بوسعك ان تشرب ما تشاء .

فدمدم لونجان خائباً : – ماذا ؟

فصاح ماتيو : – اقول إن بوسعك ان تشرب ما تشاء . فأنا أهزأ بذلك .

وكان يفكر : « لم يبق لي إلا ان أذهب . » ولكنه لم يكن يستطيع التصميم على ذلك . كان ينحني فوقهم ، وكان يشمّ رائحة سكرهم الغنية المسكّرة ورائحة شقائهم ؛ كان يفكر : « واين اذهب ؟ » ثم يشعر بالدوار . انهم لم يكونوا يثيرون اشمئزازه ، هؤلاء المهزومون الذين كانوا يشربون الهزيمة حتى الثمالة ، ولئن كان يشمئز من أحد ، فمن ذاته هو . وانحنى لونجان ليتناول قدحه ، فسقط على ركبتيه .

– خراء !

وزحف حتى القِدر ، وغطّس ذراعه في الخمر حتى المرفق ، وأخرج القدح الذي كان يقطر ، ثم انحنى ليشرب . ومن زاويتي فمه المرتعش ، كان السائل يقطر في القدر .

وقال : – لست في حالة جيدة .

فنصحه غيكيولي : – تقيّأ .

فسأله لونجان ، وكان ممتقعاً وهو يتنفّس بمشقة :

– وكيف تفعل ؟

فأدخل غيكيولي اصبعين في فمه ، ومال الى جانب ، فحشرج قليلاً وتقيأ بعض البلاغم . وقال وهو يمسح فمه بظاهر يده :

– هكذا .

وكان لونجان ما يزال على ركبتيه ، فنقل قدحه الى يده اليسرى وأدخل اليمنى في حلقه ، فصاح لاتيكس :

– ايه ! انك ستقيء في الخمر !

وصاح غيكيولي : – ادفعه يا دولارو ، ادفعه بسرعة .

فدفع ماتيو لونجان الذي سقط جالساً من غير ان يخرج يده من فمه. وكان الجميع ينظرون اليه نظرة تشجيع . وسحب لونجان يده وتجشأ . وقال غيكيولي :

– لا تغيِّر يدك . إن القيء يجيء .

فسعل لونجان وأصبح قرمزي اللون ، فقال محتجاً :

– إنه لا يجيء ابداً .

فصاح غيكيولي غاضباً :

– ذلك انّك ضرّاط . إن من لا يعرف ان يقيء ، لا يشرب .

وبحث لونجان في جيبه ، وعاد يركع على ركبتيه ؛ ثم قرفص بالقرب من القِدرْ ، فصاح غريمو :

– ماذا تفعل ؟

قال لونجان وهو يُخرج من القدر منديله الذي يقطر خمراً :

– انني أصنع لنفسي رفادة رطبة .

وألصقها على جبينه وقال بصوت طفولي :

– دولارو ، ارجوك ، هل تستطيع ان تعقدها لي من الخلف ؟

فأخذ ماتيو طرفي المنديل وعقدهما على رقبة لونجان ، فقال لونجان :

– آه ، لقد تحسّن الحال .

وكان المنديل يخفي عينه اليسرى ؛ وكانت خطوط من الخمر الأحمر تسيل على وجنتيه وعنقه .. وقال غيكيولي وهو يضحك :

– انك تشبه المسيح !

قال لونجان : – معك حق ، فأنا شخص من نوع المسيح ..

ومدّ قدحه الى ماتيو ليملأه له ، فقال ماتيو :

– آه ! كلا ، كفى ما شربته حتّى الآن .

فصاح لونجان : ــ افعل ما أقوله لك ، افعل ما أقوله لك ، بالله عليك (وأضاف بصوت شاك) ان السويداء تتملكني .

قال غيكيولي : ــ بالله عليك ، أعطه ليشرب بسرعة ، وإلا عاد يحدثنا عن أخيه .

فنظر اليه لونجان بتعال :

ــ ولماذا لا أتكلم عن أخي اذا كنت راغباً في ذلك ؟ أتكون انت الذي يمنعني ؟

قال غيكيولي : ــ اوه ! دعنا منك .

فالتفت لونجان الى ماتيو وقال موضحاً :

ــ إن أخي في « هوسيغور » .

ــ هو إذن ليس جندياً ؟

ــ كلا : إنه معتوق . وهو يتنزّه في الصنوبر مع امرأته الصغيرة، ويقولان بينهما : يا لبول المسكين ، انه غير محظوظ ، ثم يحتكّان فيما بينهما وهما يفكران بي . ولكنهما في الحقيقة لا يكترثان ببول المسكين .

وصمت لحظة متأملاً ، ثم انتهى الى القول :

ــ انني لا احب أخي .

وكان غريمو يضحك حتى تسيل دموعه . فسأله لونجان مغتاظاً :

ــ ما الذي يجعلك تضحك ؟

فسأله غيكيولي في غضب :

ــ لعلك ستمنعه من الضحك ؟ (وقال لغريمو بلهجة أبوية) استمر يا صغيري ، إضحك وقهقه ما حلا لك ، فنحن هنا لنتسلّى .

قال غريمو : ــ انني اضحك بسبب زوجتي .

قال لونجان : ــ لا تهمني امرأتك .

ــ انت تتكلم عن اخيك ، فأستطيع ان أتكلم عن زوجتي .

ــ وما بالها زوجتك ؟

فوضع غريمو إصبعاً على شفتيه وقال :

– هس ! (وانحنى على غيكيولي وقال في مسارّاة) إن لي امرأة قبيحة كالقفا .

واراد غيكيولي ان يتكلم ، فقال غريمو بتسلّط :

– ولا كلمة . كالقفا ، ولا مجال للمناقشة . (واضاف وهو يتحامل قليلاً ويمرّ يده اليسرى على مؤخرته ليبلغ جيب مسدسه) انتظر ، سأريك اياها ، وسوف تضحك !

وبعد جهود غير مثمرة ، تداعى للسقوط .

– مهما يكن ، فهي قبيحة كالقفا . صدّقني . وانا لا اكذب عليك في هذا ، فليست لي مصلحة .

فبدا لونجان مهتماً ، وسأله :

– أهي « حقاً » قبيحة ؟

– أقول لك : كالقفا .

– ولكن ما هو القبيح فيها ؟

– كل شيء . ان ثدييها يبلغان ركبتيها ، ومؤخرتها تبلغ كعبها ، واذا رأيت ساقيها ، جنازة ! وهي تبول بين هلالين .

فقال لونجان ضاحكاً :

– يجب اذن ان تحوّلها لي ، فهي امرأة تناسبني . انني لم أتمتع قط الا بالبشعات . اما الجميلات ، فمن نصيب اخي .

فطرف غريمو بعينه في خبث :

– اوه ، كلا ، لن احوّلها لك يا صديقي ؛ لأنني اذا حولتها لك ، فليس مضموناً ان اجد غيرها ، نظراً الى انني لست جميلاً ايضاً (وانهى كلامه متنهداً) انها الحياة ، ويجب ان نكتفي بما نملك .

وغنّى مينار :

– « وهكذا ، الحياة الحياة »

« التي يعيشها الرهبان الطيّبون »

قال لونجان : ـ انها الحياة ! انها الحياة ! نحن اموات يتذكرون حياتهم . واقسم انها لم تكن حياة جميلة !

فقذفه غيكيولي بقصعته ، فلامست خدّه وسقطت في القدر . وقال غيكيولي في غضب :

ـ غيّر الاسطوانة . انّ لي أنا ايضاً همومي ، ولكني لا أُخرّي الناس بها . اننا هنا للمزاح ، أتفهم ؟

فأدار لونجان الى ماتيو عينين يائستين ، وقال بصوت منخفض :

ـ خذني من هنا ، خذني من هنا !

فانحنى ماتيو ليلتقطه من إبطيه ، فتلوّى لونجـان كالحنش وافلت منه . وفقد ماتيو صبره فقال :

ـ لقد ضجرت منك . فهل تأتي ام لا ؟

وكان لونجان قد اضطجع على ظهره ينظر اليه بمكر :

ـ أتريد حقاً ان آتي ؟ أتريد حقاً ؟

ـ لا يهمني . كل ما اريده ان تصمّم في هذا الاتجاه او ذاك .

قال لونجان :

ـ حسناً ! إشرب جرعة . إن لديك الوقت لتشرب جرعة ، بينما انا افكر .

فلم يجب ماتيو ، ومدّ له غريمو قدحه :

ـ خذ !

فرفضه ماتيو بحركة وقال : ـ شكراً .

فسأله غيكيولي مندهشاً :

ـ لماذا لا تشرب ؟ إن هناك خمراً للجميع : فلا تنزعج !

ـ لست عطشاً .

فأخذ غيكيولي يضحك وقال :

— يقول انه ليس عطشاً ! ألا تعلم اذن ايها الشقي اننا عصبة الشاربين

— بلا — عطش ؟

— لا رغبة لي في الشرب .

فقطّب غيكيولي حاجبيه :

— لماذا لا تكون لك الرغبة كالآخرين ؟ لماذا ؟

ونظر الى ماتيو بقسوة :

— كنت أحسبك قد تهذّبت . انك تخيّب ظني يا دولارو .

وانتصب لونجان على مرفقيه :

— الا ترى انه يحتقرنا ؟

وساد صمت . ورفع غيكيولي على ماتيو عينين مستفهمتين ، ثم استرخى فجأة وانغلق جفناه . وابتسم بطريقة بائسة ، وقال وهو يحتفظ بعينيه مغلقتين :

— إن هؤلاء الذين يحتقروننا ، ليس لهم الا ان يذهبوا . فنحن لا نمسك أحداً ، ونحن فيما بيننا .

قال ماتيو : — انا لا أحتقر أحداً .

وتوقّف : « انهم سكارى ، وانا لم أشرب » وكان ذلك يضفي عليه بالرغم منه تفوقاً كان يخجله . كان خجلاً من الصوت الصابر الذي كان مضطراً الى اتخاذه معهم . « لقد ثملوا لأنهم لا يطيقون بعدُ وضعهم ! » ولكن لم يكن ثمة من يستطيع ان يشاطرهم بؤسهم ، إلّا ان يكون ثملاً مثلهم . وفكر : « ما كان ينبغي لي ان آتي قط. »

وردد لونجان في غضب لمفاوي :

— انه يحتقرنا . فهو هنا كأنه في السينما ، ويزعجه ان يرى أشخاصاً سكارى يفلتون .

قال لاتيكس : — تحدّث عن نفسك ، فأنا لا افلت .

قال غيكيولي في ضجر :

ـــ اوه ، دعنا من هذا .
وكان غريمو ينظر بتفكُّر الى ماتيو :
ـــ اذا كان يحتقرنا ، فأني أشخّ على رأسه .
فأخذ غيكيولي يضحك ، ويردّد :
ـــ انهم يشخّون على رأسك . انهم يشخون على رأسك .
وكان مينار قد كفّ عن الغناء ؛ وتداعى للتراخي ازاء الخزانة ، ونظر حوله نظرة رعب ، ثم بدأ يسترد اطمئنانه ، وارسل زفرة تحرّر ثم سقط على الارض مغمىً عليه . ولم يتنبّه له احد : كانوا ينظرون امامهم باستقامـــة ، وكانوا بين الفينة والفينة يلقون عـــلى ماتيو نظرة استياء ؛ ولم يكن ماتيو ليعرف بعد ما يصنع بنفسه : كان قـــد دخل من غير ان يفكر بالأذى ، لينجد لونجان . ولكن كان عليـه ان يتنبأ بأن العار والفضيحة سيدخلان معه . ولقد وعى هؤلاء الافراد انفسهم بسببه ؛ انه لم يكن يتحدث بعد بلغتهم ، ومع ذلك فقد اصبح عـــلى غير ارادة منه قاضيهم وشاهدهم . وكان يشمئز من هذه القدر المليئة بالخمر والأقذار ، وفي الوقت نفسه يستنكر هذا الاشمئزاز : « من اكون حتى ارفض الشرب حين يكون رفاقي سكارى ؟ »
وكان لاتيكس يربّت بتفكّر على اسفل بطنه . وفجأة ، التفت نحو ماتيو ، وفي عينيه بريق تحدّ ؛ ثم جذب قصعته الى ما بين ساقيه ، وجعل يغطس عضوه في الخمر وهو يقول :
ـــ اني اعمل له حمّاماً ، لأن ذلك منعش .
فخنق غيكيولي ضحكة ؛ وأدار ماتيو رأسه فالتقى بنظـــر غريمو الساخر ، فقال غريمو :
ـــ انك تتساءل اين وقعت ؟ آه ، انت لا تعرفنـــا ، يا صديقي الصغير : فمعنا ، يجب ان تتوقع كل شيء .
وانحنى الى امام وصاح وهو يغمز غمزة مشاركة :

— ايه ؟ اتحدّاك يا لاتيكس ان تشرب خمرك ؟
فردّ له لاتيكس غمزته :
— لن انزعج أبداً .
ورفع القصعة وشرب بصخب وهو يراقب ماتيو . وكان لونجان يقهقه ، والجميع يبتسمون . كل ذلك بسبي . ووضع لاتيكس قصعته وطقطق لسانه :
— ان له مذاقاً طيباً .
قال غيكيولي : — وإذن ، ما رأيك ؟ ألسنا مزّاحين ؟ ألسنا ماجنين صغاراً ؟
وقال غريمو : — ولم ترَ شيئاً بعد . لم تر شيئاً بعد .
وأخذ يفكّ بيديه المرتجفتين ازرار فتحة بنطاله . وانحنى ماتيو على غيكيولي ، وقال على مهل :
— أعطني قصعتك . اريد ان اشارككم المزاح .
فقال غيكيولي : — لقـــد سقطت في القدر . وليس عليك الا ان تُخرجها .
فغطّس ماتيو يده في القدر ، وحرّك اصابعه في الخمر ، متلمّساً القعر ، ثم اخرج القصعة ملآى . وتجمّدت يدا غريمو ؛ فنظر اليهما ، ثم اعادهما الى جيبه ونظر الى ماتيو . وقال لاتيكس وقد رقّت لهجته:
— آه ! كنت واثقاً من انك لن تستطيع ان تمنع نفسك .
وشرب ماتيو . وكان في الخمر كرات من مادة رخوة لا لون لها، فلفظها وملأ القصعة من جديد . وكان غريمو يضحك بطيبة وقال :
— إن من يرانا يُسقط في يده : فيجب ان يشرب ، آه ! إننـــا نثير رغبته .
فقال غيكيولي مقهقهاً :
— الافضل ان نثير الرغبة لا الشفقة .

وتريّث ماتيو حتى ينقذ ذبابة كانت تتخبّط في الخمر ، ثم شرب. وكان لاتيكس ينظر اليه نظرة معرفة وقال :

– ليس هذا سُكراً ، وانما هو انتحار .

وكانت القصعة فارغة ، وقال ماتيو :

– اني اعاني مشقة كبيرة حتى اسكر .

وملأ القصعة مرة ثالثة . وكان الخمر ثقيلاً ، ذا طعمٍ مسكّر غريب . وسأل ماتيو وقد خامره شك :

– أتراكم قد بُلْتُم فيه ؟

فسأله غيكيولي غاضباً :

– أتكون لئيماً ؟ أتظنّ اننا نريد ان نفسد الخمر ؟

قال ماتيو :

– اوه ! لا يهمني !

وجرع القصعة كلها ثم صفر ، فسأله غيكيولي باهتمام :

– ماذا ؟ هل تحسّ نفسك في حالة أفضل ؟

فهزّ ماتيو رأسه :

– لم ابلغ هذا بعد .

وأخذ القصعة ، وكان منحنياً فوق القدر ، منقبض الاسنان ، حين سمع خلف ظهره صوت لونجان المقهقه :

– يريد ان يثبت لنا انه يقاوم الخمرة خيراً منا .

فالتفت ماتيو :

– هذا غير صحيح ! فأنا أشرب لأستطيع المزاح .

وكان لونجان قد عاد للجلوس متصلباً . وكانت العصابة قد سقطت على انفــه ، وكان ماتيو يرى فوق العصابة عينيه الثابتتين المستديرتين اللتين تشبهان عيني دجاجة عجوز . وقال لونجان :

– اني لا احبك كثيراً ، يا دولارو !

– لقد سبق ان قلتها .

قال لونجان : – والرفاق ايضاً لا يحبونك كثيراً . انك ترهبهم لأن لك ثقافة ، ولكن لا يجب ان تظنّ انهم يحبّونك .

وسأل ماتيو بين اسنانه :

– وعلامَ تريدهم ان يحبوني ؟

فتابع لونجان : – انك لا تفعل اي شيء كالجميع . حتى حين تسكر ؛ فانك لا تسكر مثلنا .

فنظر ماتيو الى لونجان في تبرّم ، ثم التفت ورمى قصعته على زجاج الخزانة ، وقال بصوت قوي :

– انني لا استطيع ان اسكر . لا استطيع . ترون جيداً اني لا استطيع .

فلم ينبس احد بكلمة ؛ ووضع غيكيولي على الارض الخشبية شظية زجاج كبيرة سقطت على ركبتيه . واقترب ماتيو من لونجان ، فأخذه بقوة من ذراعه ، وانهضه على قدميه . فصاح لونجان :

– ما هذا ؟ ما دخلي في الموضوع ؟ إهتم بمؤخرتك ، ايها الارستقراطي !

قال ماتيو : – لقد جئت لأصحبك ، وسأذهب معك .

وكان لونجان يتخبّط في غضب :

– حُلّ عن ظهري ، اقول لك ، حلّ عن ظهري ، وإلاّ آذيتك .

وشرع ماتيو يعمل لإخراجه من القاعة . ورفع لونجان يده محاولاً ان يُدخل اصابعه في عينيه . فقال ماتيو :

– ايها القذر !

وترك لونجان ، وارسل له ضربتين غير قويتين تحت ذقنه . فأصبح لونجان خَرِعاً واستدار على نفسه ، فأدركه ماتيو وحمله على كتفيه

كالكيس ، وقال :

— انتم ترون ، فأنا ايضاً استطيع ان أمزح وأمجن،حين اريد ذلك.

كان يحقد عليهم . وخرج فهبط درجات السلّم مع عبثه ـ وانفجر شارلو ضاحكاً حين ألمّ به :

— ما أشدّ تماسك الأخ !

وعبر ماتيو الطريق فأسند لونجان الى جذع شجرة كستناء . وفتح لونجان احدى عينيه ، واراد ان يتكلم ، فتقيأ . فسأله ماتيو :

— هل ارتحت قليلاً ؟

فتقيأ لونجان من جديد ، وقال بين شهقتين :

— إنّ هذا يريح .

قال ماتيو : — انني اتركك . حتى اذا انتهيت ، حاول ان تنام نومة طيبة .

وكان يلهث حين وصل الى مكتب البريـد . فطرق ، وفتـح له بينيت ، وتأمله بهيئة مسحورة قائلاً :

— آه ! لقد قررتَ اخيراً !

قال ماتيو : — اخيراً ، نعم .

وبدت موظفة البريد في الظلام ، خلف بينيت . وقال بينيت :

— ليست الآنسة خائفة اليوم . وسنقوم بنزهة صغيرة عبر الحقول .

فرمته الصغيرة بنظرة غامضة . وابتسم لها ماتيو ، وكان يفكـر : « انها لا تطيقني » ولكنه كان لا يهتم بذلك إطلاقاً . وقال بينيت :

— إن رائحة الخمر تنبعث منك .

فضحك ماتيو من غير ان يجيب . وارتدت عاملة البريد قفازيهـا الاسودين وأقفلت الباب بالمفتاح ، ثم اخـذوا يسيرون . وكانت قد وضعت يدها على ذراع بينيت ، وكان بينيت يعطي ذراعـه لماتيو . وحيّاهم جنود ألمّوا بهم في الطريق ، فصاح بهم بينيت :

ـ اننا نقوم بنزهة يوم الأحد .

فقالوا :

ـ آه ، إن كل الايام يوم أحد ، ما دام الضباط غائبين ؟

صمتٌ قمريّ تحت الشمس ؛ تماثيل ضخمة من الجبس ، مصفوفة في دائرة بالصحراء ، « سوف تذكّر الانواع القادمة ، بما كان عليه الجنس البشري » . وكانت خرائب طويلة بيضاء تبكي رشحها الأسود جداول جداول . في الشمال الغربي ، قوس نصر ، وفي الشمال معبد روماني ؛ وفي الجنوب جسر يفضي الى معبد آخر ؛ وماء يأسن في حوض ، ومدية من حجر تنفذ نحو السماء. حجر ، حجر مربب في سُكَّر التاريخ ؛ روما ، مصر ، العصر الحجري : ذلك ما كان باقياً من ساحة شهيرة . وردّد : « كل ما كان باقياً » ، ولكن اللذة كانت قد ضعفت قليلا ، ليس ثمة ما هو رتيب كالكارثة ؛ وكان قد بدأ يألفها . واستند الى الحاجز ، ما يزال سعيداً ، ولكنه متعب ، وفي جوف فمه مذاق صيف محموم : كان قد تنزه طوال النهار ؛ وكانت ساقاه الآن تعانيان في حمله ، ومع ذلك ، فلم يكن بد من السير . لا بد من السير ، في مدينة ميتة . وقال في نفسه : « انني استحق حظاً صغيراً غير متوقع . » اي شيء ، شيء ما يزدهر له وحده في زاوية شارع . ولكن لم يكن ثمة شيء . كانت الصحراء في كل مكان : وكانت تقفز فيها شظايا قصور ، بيضاء وسوداء ، حمام وطيور لا تاريخ لها وقد أصبحت حجارة من فرط ما تغذت بالتماثيل . وكانت العلامة الوحيدة المرحة بعض الشيء في هذا المنظر المعدني ، العلم النازي على فندق « كريون » .

« اوه ! يا لراية اللحم تنزف على حرير البحار والزهور القطبية.»

وفي وسط خرقة الدم ، كانت الدائرة بيضاء ، كدائرة الفوانيس السحرية على اغطية طفولتي ، وفي وسط الدائرة ، عقـدة الافاعي السود ؛ « رمز الشر » ، رمزي . ونقطة حمراء تتشكل كل لحظة في ثنايا العلم ، ثم تنفصل وتسقط عـلى الأرض : « الفضيلة » تنزف . وتمتم : « الفضيلة تنزف ! » ولكن ذلك لم يكن يسليه بعد كما كان يسليه عشية الأمس . وطوال ثلاثة ايام ، لم يكن قد وجه الحديث الى احد ، وكان فرحه قد قسا ؛ وذات لحظة غشي التعب نظره ، فتساءل عما اذا كان لن يعود . كلا . لم يكن يستطيع العودة : إن حضوري مطلوب « في كل مكان » فيجب ان امشي . وتلقّى في عزاء تمزّق السماء المصدي : كانت الطائرة تلمع تحت الشمس ؛ وذلك كان هو التبديل ، فقد كان للمدينة الميتة شاهد آخر ، وكانت ترفع نحو عيون اخرى رؤوسها الالف الميتة . وكان دانيال يبتسم : انما كانت الطائرة تبحث بين القبور عنه ، هو بالذات . انما هي هناك من أجلي أنا وحدي . وكانت به رغبة لأن يقذف بنفسه في وسط الساحة ويلوّح بمنديله . ليتها تلقي قنابلها ! سيكون ذلك بعثاً ، وستصدي المدينة بضجيج الحـديد ، كما انها لو كانت تعمل ، وستلتصق بالواجهات ازهار طفيلية جميلة . ومرت الطائرة ؛ فعاد صمت كوني يتشكل حول دانيال . يجب ان يسير ، ان يسير بلا انقطاع على سطح هذا الكوكب الذي برّد .

واستعاد مشيه وهو يجرجر قدميه ؛ وكان الغبار يبيّض حذاءه . وانتفض : كان ثمة جنرال عاطل ومنتصر ، ملصقاً جبينه بزجاج ما ، ويداه خلف ظهره ، يراقب هذا الضائع في متحف الاثريات الباريسية . وأصبحت جميع النوافذ عيوناً ألمانية ؛ وانتصب وعـاود سيره في مرونة ، وهو يتهادى قليلاً ، على سبيل المرح : انني حارس المقبرة . التويلري ، رصيف التويلري ؛ وقبل ان يجتاز الطريق ، أدار رأسه

الى اليسار واليمين ، بداعي العادة ، ولكن من غير ان يرى الا نفقاً طويلاً من اوراق الشجر . وكان علي وشك ان يبلغ جسر سولفرينو حين توقف خافق القلب : ذلك هو الحظّ غير المتوقع . وسرت في جسمه رعشة من ساقيه حتى رقبته ؛ وبردت يداه ورجلاه ، فتجمد وأمسك نفَسه . وكمنت حياتــه كلها في عينيه : كان يأكل بعينيه الفتى الدقيق الذي كان يوليه ظهره ببراءة ، منحنياً فوق الماء . « يا للقاء الرائع ! » وما كان دانيال ليكون أشد تأثراً وانفعالا لو أن ريـح المساء تحولت صوتاً لتناديه ، او لو ان الغيوم قد كتبت اسمه في السماء البنفسجية ، فقد كان واضحاً جداً ان هذا الفتى قد وُضع هناك من أجله هو ، وأن يديه الطويلتين العريضتين ، في نهاية اكمام الحرير ، كانتا كلاماً من لغته السرية : لقد وُهبته ، وكان الفتى طويلا رقيقاً ، ذا شعر أشعث وكتفين مستديرتين ؛ تكادان تكونان نسويتين ؛ وخاصرتين ضيقتين ، وردفين صلبين ، واذنين صغيرتين لذيــذتين ؛ وكان في حوالي التاسعة عشرة او العشرين . وكان دانيــال ينظر الى اذنيه ويفكر : « يا للقاء الرائع ! » وكان ينتابه ما يشبه الخوف . وكان جسمه كله « يتكلف الموت » كالحشرات التي يتهددها خطر ؛ إن شرّ الاخطار بالنسبة لي ، هو الجمال . وكانت يداه تزدادان برودة، وكانت أصابعَ من حديد تغرز في عنقه . كان الجمال ، أخفى الاشراك ، يتقدم ببسمة مشاركة ويسر ، يوميء اليه ، ويبدو وكأنه ينتظره . اية كذبة : إن تلك الرقبة المبذولة لم تكن تنتظر شيئاً ولا أحداً ؛ كانت تداعب ياقة تلك السترة وتتمتع بنفسها ، وكانتا تتمتعان بنفسهما وبحرارتهما ، تانك الفخذان الحارتان الشقراوان المختبئتان في الفلانيل الرمادي . انه يعيش وينظر الى النهر ، ويفكر ، وحيداً ، غير قابل للفهم ، كأنه نخلة ؛ إنه لي ، وهو يجهلني . وأحسّ دانيال بغثيان ضيق ، واهتزّ كل شيء للحظة واحدة : كان الفتى الدقيق ، البعيد ، يناديه من جوف

الهاوية ؛ كان الجمال يناديه ؛ « الجمال » ، قدَري ؛ وفكر : سيبدأ كل شيء من جديد . كل شيء : الأمل ، الشقاء ، العار ، الحماقات . ثم تذكر فجأة بان فرنسا كانت مهزومة : « إن كل شيء مباح ! » فشعّت الحرارة من بطنه الى اطراف أصابعه ، وامحى تعبه ، وتدفق الدم الى صدغيه : « اننا كلينا الممثلان الوحيدان المرئيان للجنس البشري ، الحيان الوحيدان الباقيان من امة قد زالت ، فلا مفر لنا من ان نتبادل الحديث : أهناك ما هو اشد طبعية من ذلك ؟ » وخطا خطوة الى الأمام باتجاه الذي كان قد عمّده بأنه « المعجزة » ، وكان يحس نفسه شاباً وطيباً ، مثقلا بالرسالة المجدة التي كان يحملها له . وما لبث ان توقف : فقد لاحظ ان « المعجزة » كان يرتجف بجميع أعضائه ؛ وكانت حركة تشنجية تقذف بجسمه الى الوراء تارة ، وطوراً تلصق بطنه بالدربزين وهي تلوي له رقبته فوق الماء . وفكر دانيال مغتاظاً « يا للأبله الصغير ! » إن الفتى لم يكن جديراً بهذه الدقيقة المدهشة ، لم يكن حاضراً تماماً في الموعد المحدد ، بل كانت هموم طفولية تشرّد هذه النفس التي كان ينبغي ان تظلّ على استعداد لتلقّي النبأ الطيب . « يا للأبله الصغير ! » وفجأة ، رفع المعجزة رجله اليمنى بحركة غريبة مقتسرة ، كما لو انه كان يريد ان يجتاز الحاجز . وكان دانيال يتهيأ للقفز حين التفت الفتى قلقاً ، وساقه في الهواء ، ولمح دانيال ، فرأى دانيال عينين عاصفتين في وجه طبشوري ؛ وتردد الفتى لحظة ، وسقطت قدمه وهي تصدم الحجر ، ثم شرع يمشي بلا اكتراث ، وهو يجرجر يده على حافة الحاجز . انت ، تريد ان تقتل نفسك !

وتحوّل افتتان دانيال فجأة الى جليد ، إنه لم يكن الا كذلك : صبياً قذراً مستطار اللب ، غير جدير بأن يتحمل عواقب حماقاته . ونفخت عضوه دفقة شهوة ؛ فأخذ يسير خلف الفتى بفرحة الصياد

المثلوجة . كان يبتهج على البارد ؛ وكان يحس نفسه متحرراً ، نظيفاً ، خبيثاً الى أبعد حد ممكن . وكان في أعماقه يؤثر ذلك ، ولكنه كان يتسلى بأن يحفظ ضغينة للفتى : أتريد ان تقتل نفسك ايها الأبله الصغير ؟ لعلك تظن ان هـــذا يسير ! إن من كانوا ادهى منك أخفقوا في ذلك . وكان الفتى يستشعر حضوراً في ظهره ؛ فكان الآن يخطو خطوات واسعة تشبه خطوات حصان مفرطة الارتفاع والصلابة . وفي وسط الجسر ، أحسّ فجأة بوجود يده اليمنى التي كانت تلامس الحاجز : وارتفعت يده في طرف ذراعه ، متصلبة ، قدَرية ؛ فأخفضها قسراً ودسّها في جيبه ، وواصل سيره وهو يُدخل عنقه في كتفيه ؛ وفكر دانيال : انه ذو هيئة « مريبة » ، هكذا أحبهم . وحث الفتى خطاه ، فحذا دانيال حذوه . وكانت ضحكة قاسية تصعد الى شفتيه : انه يتألم ، وهو مستعجل لينتهي من ذلك ، ولكن لا يستطيع لأنني خلفه . هيا ، هيا ، فاني أتركك . وفي نهاية الجسر ، تردّد الفتى ، ثم سلك رصيف « دورسيه » وبلغ سلماً يفضي الى الضفة ، فتوقف والتفت الى دانيال في نفاد صبر ، وجعل ينتظر . ورأى دانيال في لمحة خاطفة وجهاً ساحراً ممتقعاً ذا أنف قصير وفم صغير مسترخ ، وعينين فخورين . فأسبل جفنيه في تقىً زائف ، واقترب على مهل ، فتجاوز الفتى من غير ان ينظر اليه ، ثم ألقى بعد بضع خطوات نظرة سريعة من فوق كتفه : فاذا الفتى قد اختفى . وانحنى دانيال من غير عجل فوق الحاجز فلمحه على الضفة ، مطرقاً، غارقاً في تأمل حلقة قلس كان يركلها بقدمه في تفكر ؛ كان يجب ان يهبط بأقصى سرعة ومن غير ان يدَعه يتنبه اليه . ومن الحظ انه كان ثمة على بعد عشرين متراً سلّم آخر ، درج ضيق من الحديد كان يخفيه نتوء من جدار . وهبط دانيال على مهل ، ومن غير ضجة : كان يجد تسلية عظيمة في ذلك . واذ بلغ أسفل الدرج ، التصق بالجدار ، وكان الفتى ، عند

طرف الضفة الاقصى ، ينظر الى الماء . وكان « السين » مخضوضراً ذا إشعاعات كبريتية يجحف بمجراه أشياء غريبة رخوة ومعتمة ؛ ولم يكن مغرياً جداً ان يغطس المرء في هذا النهر المريض . وانحنى الفتى فالتقط حصاة وألقى بها في الماء ، ثم عاد الى تأمله المهووس ، هيّنًا ، هيّنًا ، لن يتم ذلك اليوم ؛ بعد خمس دقائق ، سيصاب بالخوف . فهل ينبغي انأدع له الفرصة لذلك ؟ هل يجب ان أظلّ مختبئاً . وانتظر حتى يتملى جيداً من حقارته . وحين يبتعد ، أطلق ضحكة كبيرة ! ان هذا لا يخلو من مخاطرة : فربما دفعني ذلك الى احتقار نفسي الى الابد . فاذا ارتميت عليه فوراً ، كما لو اني اريد ان أمنعه من الغرق ، فسيكون مسروراً ان اكون قد حسبته جديراً بذلك ، حتى ولو احتج على الشكل ، وان أجنّبه لقاء فردياً مع نفسه . وأمرّ دانيال لسانه على شفتيه ، وتنفس نفساً عميقاً ، وخرج من مخبأه. فالتفتالفتى مذعوراً وكان يوشك ان يقع لو لم يمسك به دانيال من ذراعه ، وقال :

— اني ...

ولكنه عرف دانيال فبدا وكأنما عاوده اطمئنانه ، فحلّ الغضب في عينيه محل الذعر . انما كان يخشى « شخصاً آخر » . وسأل في تعالٍ :

— ما هذا ؟

ولم يستطع دانيال ان يجيبه على الفور : فقد كانت الشهوة تقطع نفَسه . وقال بمشقة :

— ايها الفتى النرجسي ! ايها الفتى النرجسي !

وأضاف بعد لحظة :

— لقد بالغ نرجس في الانحناء ، ايها الفتى ، فسقط .

قال الفتى : — لست بنرجس . ولديّ حسّ التوازن ، وأستطيع ان استغني عن خدماتك .

وفكر دانيال : انه طالب . وسأله بقسوة :

– كنت تريد ان تنتحر ؟

– هل انتَ مجنون ؟

فأخذ دانيال يضحك ، واحمرّ الفتى ، وقال بلهجة كئيبة :

– حلّ عني !

فقال دانيال وهو يشد ضمته :

– حين يحلو لي ذلك !

فخفض الفتى عينيه الجميلتين ، وأتيح لدانيال الوقت الكافي للارتداد إلى خلف حتى يتفادى ضربة من كعبه . وفكر دانيال وهو يستعيد توازنه : ركلات ! ركلات كيفما جاءت ، حتى من غير ان ينظر إليّ . كان مفتوناً . ولهثا في صمت : كان الفتى مطرق الرأس ما يزال ، وكان بوسع دانيال ان يتأمل شعره الرقيق رقة مدهشة .

– وإذن ؟ أراك ترسل ركلات بقرية ، كأنك امرأة !

فحرك الفتى رأسه من اليمين الى اليسار ، كما لو انه كان يحاول عبثاً رفعه . وبعد لحظة ، قال بفظاظة جاهدة :

– إذهب فانبعص !

وكان في صوته عناد اكثر مما كان فيه ثقة ، ولكنه كان قد رفع رأسه ينظر الى دانيال مواجهة في جرأة مذعورة من نفسها . واخيراً ، انزلقت عيناه الى جانب ، فتمكن دانيال من ان يتأمل على هواه هذا الرأس الكئيب الذي كان كأنه مبذول . وفكر « فخر وضعف ، ونية سيئة . بورجوازي صغير يزرع الاضطرابَ فيه شرودٌ مجرد ؛ ملامح فاتنة ، ولكن بلا سلاح . » وفي تلك اللحظة ، تلقى ركلةً في ساقه ، فلم يستطع ان يخفي كزازة ألم في وجهه .

– ايها الابله الصغير اللعين ! انني لا ادري ماذا يمسكني عن ان أدفيء لك مؤخرتك بجلدة طيبة .

فبرقت عينا الفتى وقال :

– حاول !

فأخذ دانيال يهزّه :

– واذا حاولت ؟ اذا أخذتني الرغبة في ان انزع سروالك على الفور ، أتظن انك انت الذي ستمنعني من ذلك ؟

فاحمرّ الفتى بعنف وأخذ يضحك .

– انك لا تخيفني .

قال دانيال :– عجباً !

وقبض عليه من رقبته وحاول ان يثنيه الى امام ، فصاح الفتى بصوت يائس :

– لا ! لا ! لا !

– هل تحاول مرة اخرى ان تركلني ؟

– لا ، ولكن دعني .

فتركه دانيال يستقيم . وظل الفتى فاغر الفم ، وكان يبدو وكأنه مطارَد . « لقد سبق لك ، ايها الحصان الصغير ، أن عرفت الشكيمة ؛ وقد ادّى لي احدهم خدمةَ ان ابدأ الترويض . أب ؟ عم ؟ عشيق ؟ كلا ، ليس عشيقاً : فيما بعد ، سنعيد هذا ، اما الآن فنحن ابكار » وقال من غير ان يتركه :

– وإذن ، كنت تريد ان تنتحر ، فلماذا ؟

وكان الفتى يلزم صمتاً عنيداً . وقال دانيال :

– اصمت ما حلا لك ، فماذا يهمني في ذلك : لقد فشلت على كل حال في تحقيق غايتك .

فوجه الفتى لنفسه بسمة إقرار صفراء . وفكر دانيال منزعجاً : « اننا غارقـان في الرمل . يجب ان نخرج من الطريق المسدود . »

وعاد يهزّه :

– لماذا تبتسم ؟ اتريد ان تقول لي السبب ؟

فنظر اليه الفتى في عينيه :
ـ لا بد ان ينتهي بك الامر الى تركي وشأني .
قال دانيال : ـ هذا صحيح . بل اني سأتركك على التو .
وحلّ ضمته ووضع يديه في جيبه ، وسأله :
ـ وبعد ذلك ؟
فلم يتحرك الفتى ؛ وكان ما يزال يبتسم . « انه يسخر مني » .
ـ اسمع جيداً . انني سبّاح ماهر . وقد سبق لي ان انقذت شخصين ، أحدهما في بحر عاصف .
فضحك الفتى ضحكة فتاة هازئة :
ـ هذا هوى مهووس !
قال دانيال : ـ ربما كان ذلك . ربما كان هوى مهووساً . (وأضاف وهو يباعد ما بين ذراعيه) اغطس ! اغطس اذا شئت . فسأدعك تشرب كمية من الماء ، وسترى ما أعذب ذلك . ثم أنزع ثيابي واقفز الى الماء ، فأضربك على أمّ رأسك واعود بك نصف ميت .
واخذ يضحك .
ـ لا بد انك تعرف ان من النادر ان يكرر المرء عملية انتحار فاشلة ! فحين اكون قد أعدت لك حواسك ، فلن تفكر في ذلك بعد ابداً .
وخطا الفتى خطوة نحوه كما لو انه سيضربه :
ـ ما الذي يمنحك الحق بان تحدثني بهذه اللهجة ؟ ما الذي يمنحك الحق في ذلك ؟
وكان دانيال ما يزال يضحك :
ـ ها ! ها ! ما الذي يمنحني الحق ؟ ابحث ، ابحث جيداً !
وشدّ على معصمه فجأة :
ـ ما دمت هنا ، فلن تستطيع ان تقتل نفسك ، حتى ولو كنت

تموت رغبة في ذلك . انني سيد حياتك وموتك .

فقال الفتى بهيئة غريبة :

ـ لن تكون هنا دائماً .

قال دانيال : ـ هذا ما يجعلك تخطيء . سأكون « دائماً » هنا .

وارتعش لذة : فقد فاجأ في العينين الجميلتين اللوزيتين بريق فضول .

ـ حتى ولو كان صحيحاً اني اريد ان أقتل نفسي ، فماذا يعنيك من ذلك ؟ انك لا تعرفني حتى اية معرفة .

فأجاب دانيال بمرح :

ـ لقد قلتها : هذا هوس . اني مهووس بمنع النـــاس من ان يفعلوا ما يريدون .

ونظر اليه في طيبة :

ـ ايكون الامر خطيراً الى هذا الحد ؟

فلم يجب الفتى . وكان يبذل كل ما في وسعه حتى لا يبكي . وكان من فرط تأثر دانيال ان أحسّ الدموع تطفر في عينيه .. ومن حسن الحظ ان الفتى كان من شدة الاستغراق بحيث لم يلاحظ ذلك . وتمكن دانيال ، في لحظات اخرى ، من ان يتمالك رغبته في ملامسة شعره ؛ ثم تركت يده اليمنى جيبه من تلقاء نفسها وأقبلت تحط بحركة متلمسة عمياء على رأسه الأشقر . وسرعان ما سحبها كما لو انه احترق: « قبل الاوان ! هذه غلطة ... » ونفض الفتى رأسه بعنف ، وخطا بضع خطوات على الضفة : وكان دانيال ينتظر وهو يمسك أنفاسه : « قبل الاوان ، ايها الاحمق ، كان ذلك مبكراً جداً . » وانتهى الى القول في غضب ، ليعاقب نفسه : « اذا ذهب ، فسأتركه يذهب من غير ان آتي حركة » ولكنه ما كاد يسمع الشهقات الاولى حتى هرع اليه واحاطه بذراعيه . فاستسلم الفتى الى صدره . وقال دانيال مضطرباً :

ـ يا للفتى المسكين ! يا للفتى المسكين !

وكان مستعداً لمنح يده اليمنى ليستطيع ان يواسيه او يبكي معه. وبعد لحظة، رفع الفتى رأسه، وقد كفّ عن البكاء، ولكن دمعتين كانتا تتدحرجان على وجهه اللذيذ؛ وقد ودّ دانيال لو يلتقطهما بضربتين من لسانه ويشربهما ليحس في جوف حلقه بمذاق هذا الألم المالح. وكان الفتى ينظر اليه في تحدّ:

– وكيف حدث انك كنت موجوداً هناك؟

قال دانيال: – كنت ماراً.

– ألست اذن جندياً؟

سمع دانيال السؤال بغير رضى:

– ان حربهم لا تهمني.

وسارع يضيف:

– سأقدّم لك اقتراحاً، الا تزال مصمماً على الانتحار؟

فلم يجب الفتى، ولكنه بدا بمظهر معتم عازم. وقال دانيال:

– حسناً جداً. اسمع إذن. لقد تسليت في إخافتك، ولكني لست ضد الانتحار اذا فكر فيه المرء بنضج، ولا ارى في موتك الا حظاً سيئاً ما دمت لا اعرفك. ولهذا لا افهم لماذا امنعك من الانتحار، اذا كانت لك اسباب وجيهة.

ورأى في فرح خدي الفتى يمتقعان، وفكر: «كنت تحسب انك سوّيت الأمر» وتابع وهو يريه فص خاتمه:

– انظر. إن في داخله سماً صاعقاً. وانا ألبس دائماً هذا الخاتم، حتى في الليل، حتى اذا ألفيتني في وضع لا تستطيع كبريائي احتماله...

وكفّ عن الكلام وفتح الفصّ. فنظر الفتى الى القرصين الأسمرين في حذر مليء بالنفور.

– ستشرح لي قضيتك. فاذا حكمت بوجاهة دوافعك، فسيكون احد هذين القرصين لك: وهو على كل حال ألذّ من حمام بارد.

وسأله ، كما لو انه غيّر رأيه فجأة :
ـ أتريده على التوّ ؟
فأمرّ الفتى لسانه على شفتيه من غير ان يجيب .
ـ هل تريده ؟ انني اعطيك إياه ، وسوف تبتلعه تحت انظاري ، ولن أتركك .
واخذ يده وقال :
ـ سأمسك بيدك ، وسأغمض عينيك .
فنفض الفتى رأسه ، وسأل في مشقة :
ـ وما الذي يثبت لي أنّ هذا سمّ ؟
فانفجر دانيال بضحكة خفيفة نضرة :
ـ أتخشى ان يكون مسهّلا ؟ ابتلعه ، وسترى جيداً .
فلم يجب الفتى : وكان خداه ما يزالان ممتقعين وحدقتاه متمددتين ، ولكنه بسم بسمة خفية مدللة وهو يرمق دانيال .
ـ إنك اذن لا تريده ؟
ـ ليس على التوّ .
فأغلق دانيال فصّ خاتمه ، وقال ببرودة :
ـ كما تشاء . ما هو اسمك ؟
ـ أمن الضروري ان اقول لك اسمي ؟
ـ اسمك الاول ، نعم .
ـ طيب ، اذا كان ضرورياً ... فيليب .
قال دانيال وهو يمرّ ذراعه تحت ذراع الفتى :
ـ اسمع يا فيليب ، ما دمت حريصاً على ان توضح موقفك ، فلنصعد الى بيتي .
ودفعه الى السلم وجعله يصعد الدرجات بخفة ؛ ثم حاذيا الأرصفة ، متشابكي الذراعين . وكان فيليب يخفض رأسه بعناد ، وقد عاودته

الرجفة ، ولكنه كان مستسلماً لدانيال يلامسه بخاصرته في كل خطوة . حذاء بيكاري جميل يكاد يكون جديداً ولا يرجع عهده الى اكثر من عام ، وبذلة من الفلانيل جميلة التفصيل ، وربطة عنق بيضاء ، فوق قميص من الحرير الازرق . وكان ذلك شائعاً عام ٣٨ في مونبارناس .
وتسريحة شعر مهملة بعناية : ولم يكن في هذا كله نصيب قليل من النرجسية . ترى ، لماذا لم يكن جندياً ؟ لا شكّ في انه اصغر سناً من ان يكون كذلك ؛ ولكن كان ممكناً ان يكون اكبر سناً مما يبدو ؛ إن الحداثة تطول لدى الصبية المضطهدين . ومهما يكن من أمر ، فاليس البؤس هو الذي يدفعه للانتحار . وسأله فجأة اذ ألمّا بجسر هنري الرابع :

– أبسبب الألمان كنت تريد ان تُغرق نفسك !

فبدت على فيليب الدهشة ، ولوى رأسه . كان جميلاً كملاك . وفكر دانيال في حماسة : سأساعدك ، سأساعدك . كان يريد ان ينقذ فيليب ، ويجعل منه رجلا ، سوف أعطيك كل ما أملك ، وستعرف كل ما أعرف . وكانت سوق « الهال » خالية وسوداء ، ولم تكن تنبعث منها الروائح بعد . ولكن المدينة كانت قد تغيّرت مظهراً . فقبل ساعة ، كانت نهاية العالم ، وكان دانيال يُحسّ انه تاريخي . اما الآن ، فقد كانت الشوارع تعود ببطء الى نفسها ، وكان دانيال يتنزه في جوف أحد من آحاد ما قبل الحرب ، في تلك الساعة الدائرة التي يبزغ فيها يوم اثنين جميل جديد ، في احتضار الاسبوع والشمس . كان شيء ما سيبدأ : اسبوع جديد ، قصة حب جديدة . ورفع رأسه وابتسم : كان زجاج واجهة مشعة يعكس له المغرب كله ، وكانت تلك علامة ؛ وافغمت منخريه فجأة رائحة لذيذة لفريز مسحوق ، وكانت تلك علامة اخرى ؛ وفي البعيد عبر شارع مونبارس شبح يعدو ، علامة ثالثة . كلما كان الحظ يضع في طريقه الجمال المشعّ لفتى – إلّه ،

كانت السماء والأرض ترسلان له غمزات خبيثة . وكان يخور من الشهوة ، وكان نفسه ينقطع لدى كل خطوة ، ولكنه كان من فرط الألفة للمشي الصامت بالقرب من الحيوات الفتيّة التي لا تثير الريب بحيث انه أصبح يحبّ الصبر اللواطي الطويل لذاته . انني ارصدك ، فانت عار في جوف نظري ، وانا امتلكك على البعد ، من غير ان اعطي شيئاً من نفسي ، بالشمّ والنظر ؛ وقد أصبحت اعرف خاصرتيه الجوفاوين ، وألامسها بيديّ الجامدتين ، وأدخل فيك فلا تشعر بذلك ولو شعوراً . وانحنى ليشمّ عطر هذه الرقبة المحنية ، فأدركته فجأة رائحة نفتلين قوية . وسرعان ما عاد الى استقامته ، وقد برد حسّه وشعر بالتسلية : وكان مغرماً بهذه التنقلات بين الاغتلام والجفاف ، وكان يعبد ثورة الأعصاب . وقال في نفسه بمرح : لنرَ اذا كنت رجل تحرّ ناجحاً . هوذا شاعر شاب يريد ان يلقي بنفسه في الماء ، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس ؛ لماذا؟ دلالة فريدة ، ولكنها رئيسية : ان رائحة النفتلين تنبعث من بذلته ، وهذا يعني انه لم يكن يرتديها بعد . لماذا تراه يغير ثوبه يوم انتحاره ؟ لانه لم يكن يستطيع بعد ان يرتدي ما كان يرتديه أمس فقط .. انه اذن جندي ، ولكن ماذا يفعل هنا ؟ فلو كان مجنداً في فندق كونتيننتال او في خدمات وزارة الطيران ، لكان قد فرّ منذ وقت طويـل الى « تور » مع الآخرين . واذن ، فالامر واضح تماماً . وتوقف ليشير الى البوابة :

– هنا :

فقال فيليب فجأة – : لا اريد .

– ماذا ؟

– لا اريـد الصعود .

– أتفضل ان يلتقطك الألمان ؟

فردد فيليب وهو ينظر الى قدميه :

ــ لا اريد . ليس لديّ ما اقوله لك ، ولست أُعرفك .
قال دانيال : ــ هكذا اذن . هكذا إذن !
وأخذ له رأسه بكلتا يديه فرفعه قسراً ، وقال له :
ــ انت لا تعرفني ، ولكني أعرفك . واستطيع ان ارويهـا لك ، حكايتك .
واستطرد وهو يُغرق نظره في عيني فيليب :
ــ كنتَ في جيش الشمال ، ووقع الذعر في الصفوف فهربت . وبعد ذلك ، لم تجد وسيلة للعودة الى فرقتك ، على مـا افترض . فعدت الى بيتك ، وكانت اسرتك قد اختبأت ، ولبست انت الثياب المدنية ، وذهبت تواً لتلقي بنفسك في السين . وليس مرد ذلك انك وطني بصورة استثنائية ، ولكنك لا تستطيع ان تحتمـل التفكير بأنك جبان . أتراني قد اخطأت ؟
ولم يكن الفتى ليتحرك ، ولكن عينيه كانتا قد زادتا اتساعـاً ؛ وكان دانيال جافّ الفم، وكان يشعر بالضيق يصعد في داخله كالمدّ ، فردّد بصوت اميل الى العنف منه الى الوثوق :
ــ أتراني قد اخطأت ؟
فأرسل فيليب همدرة خفيفة واسترخى جسمه ؛ وتراجع الضيق ، وقطع الفرح نفس دانيال ، وجُن قلبه وخفق في صدره كالأصم ، فتمتم :
ــ إصعد . إنني اعرف العلاج .
ــ علاج أي شيء ؟
ــ علاج هذا كله . عندي أشياء كثيرة أعلمك إياها .
وكان يبدو على فيليب التعب والتأسي ؛ ودفعه دانيال تحت المظلة . ولم يكن قد جرؤ بعد قط على ان يأتي الى بيته بالصبية الجميلين اللذين كان يصطادهم في مونمارتر او مونبارناس . ولكن البوابة ومعظم المستأجرين كانوا اليوم يركضون في الطرق ، بين مونتارجي وجيان ،

فاليوم كان يوم عيد . وصعدا في صمت . ووضع دانيال المفتاح في القفل من غير ان يترك ذراع فيليب . وفتح الباب وانحنّى :

ـ ادخل .

فدخل فيليب بخطوة ناعسة .

ـ الباب المواجه : هناك الصالون .

وأولاه ظهره ، فأقفل الباب بالمفتاح ، ووضع المفتاح في جيبه . وحين عاد الى فيليب ، كان هذا قد انزرع امام الرفوف ينظر الى التماثيل الصغيرة نظرة منتعشة .

ـ انها عظيمة .

قال دانيال : ـ لا بأس بها ، لا بأس بها . وهي خصوصاً « حقيقية » . لقد اشتريتها بنفسي من الهنود .

وسأل فيليب : ـ وهذه ؟

ـ هذه صورة صبي ميت . ففي المكسيك ، حين يموت شخص ما ، يستقدمون رسام الموتى ، فيقيم هناك ويرسم الجثة تحت ملامح رجل حي . فينتج مثل هذا .

فسأل فيليب في شيء من الاعتبار :

ـ وهل سبق ان كنت في المكسيك ؟

ـ بقيت فيها عامين .

وكان فيليب ينظر في نشوة الى صورة هذا الصبي الجميل الكابي الذي كان يرد له نظره عن صدر الموت برصانة ممتهن عارف واكتفائه . وفكر دانيال : انهما متشابهان . كلاهما أشقر ، وكلاهما شامخ ممتقع ، احدهما من هذا الجانب من اللوحة ، والآخر من الجانب الآخر ، الصبي الذي اراد ان يموت ، والصبي الذي مات حقاً : كانا يتبادلان النظر ، وكان الموت هو ما يفصل بينهما : لا شيء ، سطح القماشة المنبسط .

وردد فيليب :

— عظيم .

وفجأة سحق دانيال تعبٌ هائل . فتنفس وتداعى للسقوط في اريكة . وقفزت ملفينا على ركبتيه ، فقال وهو يداعبها :

— لا لا ! كوني عاقلة : يا ملفينا ، كوني جميلة .

والتفت الى فيليب وقال بصوت ضعيف :

— وهناك ويسكي في خزانة المشروب : كلا ، إلى اليمين ، الخزانة الصينية الصغيرة ؛ هناك . وتجد ايضاً اقداحاً ، فتقدّمها لنا ، وتقوم بدور فتاة المنزل .

وملأ فيليب قدحين فناول دانيال أحدهما وبقي واقفاً امامه . وكرع دانيال قدحه بجرعة واحدة فاستشعر النشاط ، وقال له فجأة بلهجة احترام :

— لو كنت شاعراً ، لشعرت بما في لقائنا من شيء خارق للعادة .

فضحك الفتى ضحكة صغيرة مثيرة :

— ومن قال لك اني لست شاعراً ؟

وكان ينظر الى دانيال مواجهة : فمنذ دخل البيت ، تغيّر مظهراً وحركات . وفكر دانيال منزعجاً : إن ارباب العائلة هم الذين يخيفونه : وهو ليس خائفاً مني بعد ، لأنه ادرك اني لست منهم . وتظاهر بالتردّد ، وقال بتفكر :

— اني أتساءل عما اذا كنت ستثير اهتمامي .

فقال فيليب : — كان خيراً لك ان تتساءل عن ذلك قبل هذا بقليل .

وابتسم دانيال :

— لم يفت الاوان . فاذا اضجرتني ، أخرجتك .

قال فيليب : — لا تتحمل هذا الهمّ .

وكان يتجه نحو الباب . فقال دانيال :

ـ إبقَ . انت تعلم انك بحاجة إليّ

فابتسم فيليب بهدوء وعاد يجلس على كرسي . وكانت بوبيه تمرّ بقربه ، فقبض عليها ووضعها على ركبتيه من غير ان تحتج . وكان يداعبها برقة ، وشهوة ، فقال دانيال مندهشاً :

ـ نقطة طيبة لك . فهذه هي المرة الاولى التي تستسلم فيها لأحد .

فبسم فيليب بسمة طوياة متعرجة مزهوة ، وسأله خافض العينين :

ـ كم قطة عندك ؟

ـ ثلاث .

ـ نقطة طيبة لك .

وكان يحك رأس بوبيه التي أخذت تهمهم . وفكر دانيال : هذا العفريت ، يبدو اكثر سروراً مني ، فهو يعرف انه يروق لي . وسأله فجأة ، ليشوّشه :

ـ وإذن ؟ كيف حدث ذلك ؟

فترك فيليب بوبيه وهو يباعد ما بين ركبتيه ، فقفزت القطة الى الارض وفرّت .

وقال : ـ حدث كما تصوّرته . وليس لديّ ما أضيفه .

ـ واين كنت ؟

ـ في الشمال . بلدة صغيرة تدعى « باني » .

ـ وماذا حدث ؟

ـ لا شيء . كان قد مضى على مقاومتنـــا يومان حين جاءت الدبابات والطائرات .

ـ معاً ؟

ـ نعم .

وهل خفت ؟

ـ حتى هذا لا: الا ان يكون الخوف شيئاً آخر غير ما نفكر به .

وكان وجهه قد قسا وشاخ . كان ينظر في الفراغ نظرة متعبة :

– وكان الافراد يركضون ، فركضت معهم .
– وبعد ذلك ؟
– مشيت ، ثم وجدت شاحنة ، ثم مشيت من جديد ، فوصلت الى هنا امس الاول .
وبمَ كنت تفكر وانت تسير ؟
– لم اكن افكر .
– ولماذا انتظرت حتى اليوم لتقتل نفسك ؟
قال فيليب : – كنت اريد ان ارى امي ثانية .
– ألم تكن هنا ؟
– كلا . لم تكن هنا .
ورفع رأسه وتأمل دانيال بعينين تبرقان ، وقال بصوت واضح قاطع :
– ستكون على خطأ اذا اعتبرتني جباناً .
– صحيح ؟ اذن لماذا فررت ؟
– ركضت لان الآخرين كانوا يركضون .
– ومع ذلك ، فقد كنت تريد ان تنتحر ؟
– صحيح كنت افكر بذلك .
– لماذا ؟
– يحتاج شرح ذلك الى وقت اطول مما ينبغي .
قال دانيال :– وهل ثمة ما يدعوك الى العجلة ؟ خذ فصبّ لك قدح ويسكي. وصب فيليب لنفسه وكان خداه قد توردا . وضحك ضحكة صغيرة ، وقال :
– لو لم يكن هناك سواي ، لكان سواء عندي ان اكون جباناً او لا أكون . انني من دعاة السلام . فما هي الفضيلة العسكرية ؟ انها قصور في الخيال . لقد كان الافراد الشجعان هناك فلاحين ، وحوشاً

حقيقيين . كل ما هنالك ان المصيبة قد ارادت ان اولد في اسرة أبطال.

قال دانيال : — فهمت . إن اباك ضابط .

فقال فيليب : — ضابط احتياط . ولكنه مات عام ٢٧ من نتائج الحرب : لقد اختنق بالغاز ؛ قبل الهدنة بشهر واحد . وهذه الميتة المجيدة جعلت امي تستذوق: فتزوجت مرة اخرى عام ١٩٣٣ بجنرال .

قال دانيال : — سوف تصاب بخيبة . ان الجنراليـــة يموتون في أسرّتهم .

فقال فيليب بكراهية : — ليس هذا شأنه ، فهو من اسرة بايار : انه يضاجع ويقتل ويصلي وهو لا يفكر .

— وهل هو في الجبهة ؟

— واين تريده ان يكون ؟ لا بد انه هو نفسه وراء رشاش او انه يزحف نحو العدو على رأس فرقة، فبوسعك ان تعتمد عليه ليضحي برجاله حتى آخرهم .

— أتصوره اسود ذا شعر كثيف وشاربين .

قال فيليب : — تماماً . إن النساء يعبدنه لان له رائحة التيس .

وضحكا وهما ينظران فيما بينهما . وقال دانيال :

— لا يبدو عليك انك تحبه كثيراً .

قال فيليب : — انني أحتقره .

وتورّد ، ونظر الى دانيال باحداد ، وقال :

— اني اعاني عقدة اوديب . الحالة النموذجية .

فسأله دانيال بعدم تصديق .

— أأنت عاشق امك ؟

فلم يجب فيليب : كان يبدو بمظهر جـــدّي وقدَري . وانحنى دانيال الى امام ، وسأله في رقة :

— الست بالأحرى عاشق زوج امك !

فانتفض فيليب واصبح قرمزي اللون ، ثم انفجر ضاحكاً وهو ينظر الى دانيال في عينيه وقال :

— ما اوسع خيالك !

فقال دانيال وهو يضحك كذلك :

— اسمع إذن ! فانما بسببه هو كنت تريد ان تنتحر !

وكان فيليب ما يزال يضحك :

— ولكن على الاطلاق ! اطلاقاً !

— بسبب من اذن ؟ انك تركض الى السين لأنك جبنت ، وتعلن مع ذلك انك تحتقر الشجاعة . انك تخاف ان يحتقرك .

قال فيليب : — بل أخاف ان تحتقرني امي .

— امك ؟ انني متأكد انها تتحلى بكل الرحمات .

فعض فيليب على شفتيه من غير ان يجيب . وقال دانيال :

— حين وضعت يدي على كتفك ، أصبتَ بالذعر . كنت تظن انه هو ، اليس كذلك ؟

فنهض فيليب ، وعيناه تبرقان :

— لقد .. لقد رفع يده عليّ .

— متى ؟

— منذ اقل من عامين . ومنذ ذلك الحين ، وانا أحس به ورائي .

— ألم تحلم قط بأنك عارٍ بين ذراعيه ؟

فقال فيليب وقد أخذه غيظ صادق :

— انت مجنون .

— على كل حال ، ان ما هو مؤكد ، هو أنه يمتلكك . انت تمشي على أربع ، فيركب الجنرال على ظهرك ، ويجعلك تنطنط كالفرس . لست ابداً انتَ نفسك : فتارة تفكر مثله ، وتارة ضدّه . دعوة السلام ، يعلم الله انك لا تكترث لها ، بل لم تكن لتفكر بها لو لم

يكن زوج املك جندياً .

ونهض فأخذ فيليب من كتفيه :

— اتريد ان احررك ؟

فتخلص منه فيليب ، وقد عاوده الحذر :

— وكيف تستطيع ذلك ؟

— قلت لك ان عندي اشياء كثيرة أعلّمك اياها .

— أأنت طبيب نفساني ؟

— شيء من هذا القبيل .

فهزّ فيليب رأسه وسأل :

— اذا افترضنا هذا صحيحاً ، فلأيّ سببٍ تهتمّ بي ؟

فقال دانيال مبتسماً :

— انني هاوي ارواحٍ . (واضاف بانفعال) ولا بد ان روحك لذيذة ، بمجرد ان تحرّر من كل ما يزعجها .

فلم يجب فيليب ، ولكنه بدا مفتوناً ؛ وخطا دانيال بضع خطوات وهو يفرك يديه ، وقال في استثارة فرحة :

— ينبغي البدء بتصفية جميع القيم . انت طالب ؟

قال فيليب : — كنت طالباً .

— حقوق ؟

— ادب .

— حسناً . انك اذن تفهم ما اعني : الشك المنهجي ، نعم ؟ اختلال رامبو النظامي . اننا نهدم كل شيء . ولكن لا بالكلمات : بل بالاعمال . إن كل ما استعرته سيتلاشى دخاناً . وما يبقى ، هو انت . اتفقنا ؟

وكان فيليب ينظر اليه في فضول . واستطرد دانيال :

— بمَ عساك تخاطر ، وقد بلغت النقطة التي انت فيها الآن ؟

فهز فيليب كتفيه :
— بلا شيء .
قال دانيال — عظيم ، انني أتبنّاك . ونحن نبدأ على التو الهبوط الى الجحيم (واضاف وهو يقذفه بنظرة حادة) ولكن على الأخص ، لا تقم بـ « تحويل » علي .
قال فيليب وهو يبادله نظرته : — لست احمق الى هذا الحد .
فقال دانيال من غير ان ينزع عنه بصره :
— سوف تشفى حين تطرحني كقشرة عفنة .
قال فيليب : — لا تخف .
فقال دانيال ضاحكاً : — كقشرة عفنة .
فردد فيليب : — كقشرة عفنة .
وكانا يضحكان كلاهما ، وملأ دانيال كأس فيليب .

قالت الفتاة فجأة : — لنجلس هنا .
— لماذا هنا ؟
— انه مكان أعذب .
قال بينيت : — انظر الى هذا . انهن يحببن ما هو عذب ، آنسات البريد هؤلاء !
ونزع سترته وألقى بها الى الأرض ، وقال :
— تفضلي . ضعي عذوبتك على سترتي .
وتداعوا للسقوط على العشب عند حافة سهل للقمح . وأغلق بينيت قبضته اليسرى ، وهو يراقب الفتاة بطرف عينه ، ثم ادخل ابهامه في فمه وتظاهر بأنه ينفخ : فبرزت عضلته ، كما لو ان منفاخاً نفخها . وضحكت الفتاة قليلا .
— تستطيعين ان تلمسيها .

فوضعت إصبعاً حيّياً على ذراع بينيت : وفي اللحظة نفسها اختفت العضلة وقلد بينيت صوت كرةٍ تنفّس . وصرخت الفتاة :

ــ اوه !

والتفت بينيت الى ماتيو :

ــ هل تتصوّر هذا ؟ ان « مورون » اذا رآني بلا سترتي ، جالساً على حافة الطريق ، فكم تراه سيسعل !

قال ماتيو : ــ إن مورون ما يزال يركض .

ــ انه يركض بسرعة شديدة ، كما لو اني أبعصه !

وانحنى نحو موظفة البريد وقال موضحاً :

ــ إن مورون هو الكابيتن . انه في الطبيعة .

فرددت : ــ في الطبيعة ؟

ــ هو يظن ان ذلك أفضل لصحته (وقهقه) اننا أسياد أنفسنا ؛ فليس ثمة بعد من يأمر ، وبوسعنا ان نفعل ما نشاء ؛ فاذا شئت ؛ صعدنا الى المدرسة ونمنا في سرير الكابيتن ؛ إن القرية لنا .

قال ماتيو : ــ لا لفترة طويلة .

ــ سبب إضافي للافادة من الوقت .

قالت الفتاة : ــ افضّل ان ابقى هنا .

ــ ولكن لماذا ؟ اقول لك ان ليس هناك من يستطيع ان يقول شيئاً .

ــ ما زال في القرية بعض الافراد .

فرمقها بينيت باغراء وقال :

ــ صحيح ، انت موظفة . فيجب الا ترتكبي خطأ ، بالنسبة للادارة . اما نحن (والتفت الى ماتيو ضاحكاً بهيئة مشاركة) فليس لنا من نراعيه . اننا بلا مكان ولا زمان . بلا ايمان ولا قانون . اننا عابرون : اما انتم فباقون ، ونحن نمضي ، نحن طيور عابرة ، نورَ . أليس كذلك ؟ اننا ذئاب ، حيوانات قتال ، اننا ذئاب كبيرة

خبيثة ، ها !

وكان قد انتزع قشة عشب وراح يدغدغ بها ذقن الفتاة ؛ وغنى ، وهو ينظر اليها بعمق ، ومن غير ان يبتسم :

– « من الذي يخشى الذئب الكبير الخبيث ؟ » .

فاحمرّ وجه الفتاة وابتسمت وغنّت :

– « لسنا نحن ، لسنا نحن » .

فقال بينيت مبتهجاً :

– ها ؟ يا لعبة (وتابع بشرود) ها يا لعبة صغيرة ، يا لعبة صغيرة ، يا آنسة لعبة !

وصمت فجأة . كانت السماء حمراء ؛ وعلى الارض ، كان الجو رطباً أزرق . وكان ماتيو يُحس حياة العشب المتشابك ، تحت يديه وتحت فخذيه؛ حياة الحشرات والارض، كأنها شعر كثيف خشن ومبتل ، مليء بالقمل ؛ وكان ضيقاً عارياً لصق راحتيه . محاصرون ! ملايين الرجال محاصرون ، ملايين الرجال محاصرون ، بين جبال الفوج ونهر الرين . محاصرون باستحالة ان يكونوا رجالا : وتلك الغابة المسطحة ستعيش بعدهم ، كما لو اننا لا يمكن ان نبقى في العالم ، إلا ان نكون منظراً طبيعياً او مرجاً او اي حضور كلي غير شخصي . وتحت الايدي ، كان العشب مغرياً كالانتحار ؛ العشب والليل الذي يسحقه على الارض ، والافكار الاسيرة التي كانت تعدو على الارض في هذا الليل ، وهذا العنكبوت الذي كان يتأرجح بالقرب من حذائه ، والذي تشرّم فجأة من جميع أرجله الهائلة واختفى . وتنهّدت الفتاة ، فسألها بينيت :

– ما بك يا صغيرتي !

فلم تجب . كان لها وجه صغير محتشم ومحموم ذو أنف طويل وفم دقيق تبرز شفته السفلى قليلا الى الأمام .

– ما بك ؟ ماذا هناك ؟ قولي لي ما بك ؟

فظلت على صمتها . وعلى مئة متر منهم ، بين الشمس والحقل ، كان اربعة جنود يمرون معتمين في بخـار مذهب . وتوقف أحدهم والتفت نحو الشرق ، ممحواً بالنور ، غير اسود ، بل هو بنفسجي بالنسبة لاحمرارات المغرب ؛ وكان عاري الرأس . وأقبل التالي يصطدم به ويدفعه فيتسلل شبحاهما فوق القمح كأنهما سفينتان ؛ وانزلق ثالث خلفهما ، مرفوع الذراعين ؛ وكان الرابع المتخلف يصفع السنابل بعصا رقيقة .

قال بينيت : — ايضاً !

وكان قد أخذ الفتاة من ذقنها ينظر اليها : كانت عيناها مليئتين بالدمع .

— ولكن ما هذا ؟ انك غير لطيفة .

وكان يجهد في ان يحدثها بقسوة عسكرية ، ولكن كانت تعوزه الثقة : فلقد كانت الكلمات ، اذ تمر بفمه الطفولي ؛ تمتلىء ضجراً . وقالت :

— ان هذا اقوى مني .

فجذبها اليه .

— يجب الا تبكي . (وأضاف ضاحكاً) هل نبكي نحن الآخرين؟

فتركت رأسها يميل على كتف بينيت ، ولامست شعره ؛ وكان يبدو فخوراً .

قالت : — سوف يأخذونكم .

— ما هذا الكلام !

فرددت وهي تبكي : — سوف يأخذونكم .

فقست ملامح بينيت :

— لا حاجة بي الى من يرثي لي .

ـ لا أريد أن يأخذوكم .

ـ من قال لك انهم سيأخذوننا ؟ سترين كيف يقاتل الفرنسيون ؛ وسوف تكونين في وضع طيب .

فرفعت نحوه عينيها الكبيرتين وقد اتسعتا ؛ كانت من شدة الخوف بحيث انها كفت عن البكاء .

ـ يجب ألاّ تقاتلوا .

ـ تا ، تا ، تا .

ـ يجب الا تقاتلوا ؛ فقد انتهت الحرب .

فتأملها بوجه ماتع ، وقال :

ـ ها ! ها ! ها !

والتفت ماتيو ؛ كان راغباً في الذهاب . وعادت الصغيرة تقول :

ـ تعارفنا منذ الأمس فقط .

وكانت شفتها السفلى ترتجف ، وكانت تميل بوجهها الطويل ، فتبدو نبيلة المظهر ، جافلة حزينة ، كالحصان .

وقالت : ـ غداً ...

قال بينيت : ـ اوه ؛ من الآن حتى الغد ..

ـمن الآن حتى الغد ليس ثمة الا ليلة واحدة .

قال وهو يغمز بعينيه :

ـ تماماً : ليلة ، كافية لنتسلّى قليلا .

ـ لا رغبة عندي في التسلية .

ـ لا رغبة عندك في التسلية ؟ أصحيح انك غير راغبة في التسلية ؟

كانت تنظر اليه من غير ان تجيب . قال :

ـ هل انت مهمومة ؟

فظلت تنظر اليه ، فاغرة الفم . وسألها :

ـ من أجلي ؟

ومال عليها في حنو لا يخلو من شرود ، ولكنه سرعان ما استقام وهو يلوي شفتيه ، وكان سيء المظهر ، فقال :

– هيـا ! يجب ألا تهتمي بذلك ، يا صغيرتي : فسوف يأتي آخرون . . يُفقد واحد ، فيوجد عشرة .

– إن الآخرين لا يهمونني .

– لن تقولي ذلك بعد ان تريهم. انهم فتيان طريفون ، لو تعلمين، وأشدّاء ! اكتاف هكذا ، وأجناب هكذا !

– من تعني ؟

– الألمان طبعاً !

– انهم ليسوا رجالا .

– إلى من تحتاجين ؟

– انهم في نظري وحوش .

فبسم بينيت بسمة متجردة وقال بهدوء :

– انت مخطئة . انهم فتيان جميلون ، وجنود اقوياء . صحيح انهم لا يساوون الفرنسيين ، ولكنهم جنود اقوياء .

فردت : – انهم في نظري وحوش .

قال لها : – لا ترددي ذلك ، لأنك ستنزعجين جداً لانك قلتهـا اذ تغيرين رأيك . انهم منتصرون ، فافهمي ذلك . انك لا تستطيعين ان تقاومي انساناً شديداً قد ربح الحرب ، فيجب ان تنحني امامه ، وسوف تشعرين هنـاك بالتأكل . اذهبي فأسألي الباريسيات ! إنهن يتسلّين الأن كثيراً ، الباريسيات !إنهن يقمن بتمرينات للسيقان في الهواء.

فتخلصت الفتاة فجأة وقالت :

– انك تبعث لدي الاشمئزاز .

فسأل بينيت : – ماذا دهاك ، ايتها الصغيرة ؟

قالت الفتاة : – انني فرنسية .

– الباريسيات ايضاً فرنسيات . هذا لا يمنع .
قالت – دعني ، اريد ان اذهب .
فاصفر بينيت وأخذ يقهقه . وقال ماتيو :
– لا تغضبي . لقد قال ذلك ليثيرك .
قالت : – انه يبالغ ! فمن تراه يعتبرني ؟
فقال ماتيو على مهل :
– ليس سهلا ان يكون المرء مهزوماً . انه محتاج الى الوقت ليتعود ذلك . انت لا تعرفين كم هو لطيف عادة . انه حمل .
قال بينيت : – ها ! ها ! ها !
قال ماتيو : – انه يغار .
فسألت الصغيرة وقد عادت اليها رقتها :
– يغار عليّ ؟
– بكل تأكيـد . فهو يفكر بجميع الافراد الذين سيحاولون ان يغازلوك فيما هو يكسر الحصى .
وقال بينيت الذي كان ما يزال يقهقه :
– او فيما هو يأكل الهندباء البرية من جذورها .
وصاحت : – انني امنعكم من ان تعرِّضوا انفسكم للقتل !
فابتسم وقال :
– تتحدثين كامرأة . كفتاة صغيرة (واضاف وهو يدغدغهـا) كفتاة صغيرة جداً .
فقالت وهي تتلوى تحت دغدغاته :
– خبيث ! خبيث ! خبيث !
فقال ماتيو منزعجاً :
– لا تهتمي بأمره كثيراً . سينجلي عنه هذا بكل بساطة ، ثم اننا لا نملك ذخيرة .

فالتفتا اليه في وقت واحد ، وقذفاه بالنظرة الحاقدة المستيقظة نفسها، كما لو انه قد منعهما من ان يناما معاً للمضاجعة . ونظرِ ماتيو الى بينيت في قسوة ؛ وبعد لحظة ، خفض بينيت رأسه ونزع ضمة عشب من بين ركبته ، ووجهه متجهم . وعلى الطريق ، كان ثمة جنود يتسكعون . وكان بينهم واحد يحمل بندقية ؛ وكان يمسك بها كأنها شمعة طويلة ، وهو يضحك .

وقال رجل قصير أسمر ، سمين وأفقد :

— هيا !

فأخذ الجندي البندقية بكلتا يديه من انبوبها ، وأرجحها كعصا الغولف ، ثم ضرب بعقبها حصاة قفزت عشرين خطوة . وكان بينيت ينظر اليهما مقطب الحاجبين فقال :

— هناك من يسيء استعمالها على التو .

فلم يجب ماتيو . وكانت الفتاة قد أخذت يد بينيت على ركبتيها تداعبها ، وقالت :

— ارى معك خاتماً .

فسألها وهو يقبض يده قليلا : — ألم تريه قبل الآن ؟

— بلى ، رأيته ، هل انت متزوج ؟

— ما دام معي خاتم .

قالت بأسى : — نعم .

— انظري ما افعل بخاتمي .

وشد على اصبعه بكزازة ، فنزع خاتمه ورماه في القمح ، فقالت الفتاة مندهشة :

— اوه ! مع ذلك ...

« أخذ السكين من على الطاولة ، وكانت ايفيش تنزف ، فطعن بها راحته .. » حركات ، حركات ، تهديمات صغيرة ، ماذا يجديك

ذلك ، أخذت هذا من اجل الحرية ، وتثاءب .

— كان من ذهب ؟

— نعم .

فتحاملت وقبلته في شفتيه قبلة خفيفة . واستقام ماتيو ثم جلس قائلا :

— انني انسحب .

فنظر اليه بينيت في قلق :

— إبق بعد قليلا .

— لستَ بحاجة إلي .

قال بينيت : — بل إبق ، من اجل ما ستعمله ...

فابتسم ماتيو واومأ الى الفتاة :

— ليست لها رغبة كبيرة بأن أبقى .

— هي ؟ بلى بكل تأكيد ، فهي تحبك كثيراً (وانحنى عليها وقال بصوت ملح) انه صديق . اليس صحيحاً انك تحبينه كثيراً ؟

قالت الصغيرة : — بلى .

وفكر ماتيو : انها تحتقرني ؛ ولكنه بقي ، ولم يكن الوقت ليتقدم : لقد كان يرتجف ، مسترخياً على هذا الحقل الأحمر . حركة مفاجئة وسيحسه ماتيو من جديد في عظمه ، كوجع روماتيزم قديم العهد . وتمدّد على ظهره . السماء ، السماء وردية ومعدومة ؛ ليت بوسع الانسان ان يسقط في السماء ! ولكن عبثاً ، اننا مخلوقات تنتمي الى تحت ، والشر كله صادر من هناك .

وكان الجنود الاربعة الذين رآهم ينسلون بين القمح قد استداروا حول الحقل ليبلغوا الطريق ، وافضوا الى المرج ، في صف هندي . وكانوا من قسم الهندسة لا يعرفهم ماتيو ؛ كان العريف الذي يمشي على رأسهم يشبه بينيت ، وكان يرتدي قميصاً قصير الأكمام ، مثله ، وكان قد فتح قميصه على صدره المشعر ؛ وكان الثاني ، وهو اسمر

ملفوح ، قد ألقى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، وكان يمسك في يده اليسرى سنبلة ، ويتلقى بيده اليمنى حباتهـا ؛ وقلب يده ، فحملها الى فمه ، واخرج لسانه فولغ في هذه الحبات المذهبة وهو يحرك رأسه . اما الثالث ، وهو اطولهم قامة واكبرهم سناً، فهو يسرح شعره الأشقر بأصابعه . كانوا يمشون على مهل ، حالمين ، في مرونة المدنيين . وخفض الأشقر يديه اللتين كانتا تتخللان شعره ، فأمرّهما بعذوبة على كتفيه وعنقه ، كما لو انه يود ان يستمتع بزوايا هذا الجسم الذي انبثق اخيراً تحت الشمس ، خارج الغلاف العسكري الذي لا شكـل له . وتوقفوا الواحد خلف الآخر ، في وقت واحـد تقريباً ، ونظروا الى ماتيو . وتحت هذه العيون المنتمية الى عصر آخر ، احس ماتيو نفسه يذوب حشيشاً ، فكان مرجاً تنظر اليه الدواب . وقال الأسمر :

ـ لقد فقدت حمالتي .

ولم يزعج الصوت هذا العالم اللاإنساني الرقيق : فانه لم يكن كلمة وانما كان واحداً من هذا الهمس الذي يسهم في خلق الصمت . ومن شفتي الأشقر ، أفلت همس مشابه :

ـ لا تحزن ، فلا بد ان الألمان قد أخذوه .

ووصل الرابع بلا ضجة . فتوقف ورفع انفه ، فعكس وجهه خلاء السماء . وقال :

ـ هيه !

وجلس القرفصاء ، فقطف زهرة منثور ، ووضعها في فمه . وحين نهض ، رأي بينيت وهو يضم الفتاة الى صدره ، فأخذ يضحك :

ـ الامور صعبة .

فأقرّه بينيت : ـ صعبة كفاية .

ـ ولكن الطقس يترطّب ، اليس كذلك ؟

ـ لكأنّه .

ـ هذا ما لا يؤسف له .

فاهتزت الرؤوس الأربعة في هيئة ذكاء ذات طابع فرنسي ؛ وامّحى الذكاء ، فلم يبق الا فراغ هائل ، واستمرت الرؤوس في اهتزازها . وفكر ماتيو : « انهم للمرة الاولى في حياتهم يرتاحون .»

كانوا يرتاحون من السير القسري ، ومن استعراضات الثياب ، ومن التمرين ، ومن المأذونيات ، ومن انتظاراتهم ، ومن آمالهم ؛ كانوا يرتاحون من الحرب ومن تعب أقدم عهداً : من السلام . وفي وسط القمح ، وعلى تخوم الغابة ، وعند مخرج القرية ، كان ثمة آخرون في زرافات صغيرة يرتاحون كذلك : كانت قوافل من الناقهين تعبر الريف . وصاح العريف :

ــ هو بيرار .

فالتفت ماتيو . كان بيرار ، مرافق الكابتين مورون ، قد توقف عند حافة الطريق ليبول : لقد كان فلاحاً من مقاطعة بريتاني ، متوحشاً وأبرص . وقد نظر اليه ماتيو في اندهاش : كان المغيب يحمر سحنته الموحلة ، وكانت عيناه قد اتسعتا ، وفقد هيئته المتحدية الماكرة ؛ كان ينظر ، ربما للمرة الاولى ، العلامات المرسومة في السماء ورقم الشمس السري . وكان دفق فاتح ينبع من يديه اللتين كانتا تبدوان وكأنهما نُسيتا عند فتحة بنطاله .

ــ هو بيرار !

فانتفض بيرار . وسأله الكابورال :

ــ ماذا تفعل ؟

فقال بيرار : ــ انني أشم الهواء العليل .

ــ بل انت تبول ايها الخنزير ! إن هناك أوانس .

فخفض بيرار عينيه على يديه ، وبدا مندهشاً ، فسارع يزرر بنطاله ، وقال :

— فعلت ذلك من غير تفكير .

قالت الفتاة : — ليس في ذلك اذى .

وقبعت ملتصقةً بصدر بينيت وابتسمت للكابورال . وكان ثوبها قد انحسر ، فلم تفكر في رده : كانت تعيش في البراءة . ونظروا الى فخذيها ، ولكن بلطف ، وبافتتانٍ حزين . لقد كانوا ملائكة، وكانت لهم نظرات مسطحة .

وقال الأسمر : — حسناً . تحية . اننا نتابعها ، نزهتنا .

فقال الأشقر الطويل ضاحكاً :

— النزهة المشهية .

قال ماتيو : — شهيّة طيبة .

وضحكوا : كان الجميع يعلمون أنه لم يكن ثمة ما يؤكل بعدُ في القرية ؛ وكانت جميع محفوظات « الادارة » قد نُهبت في الساعات الاولى من الصباح .

— ليست الشهية هي التي تنقصنا .

ولْم يكونوا يتحركون ؛ وكفوا عن الضحك ، وبان بعض الضيق في عيني العريف ؛ فكأنهم كانوا يخشون ان يذهبوا . وكاد ماتيو يدعوهم الى الجلوس . وقال العريف بصوت مفرط في الهدوء :

— هيا بنا !

فاستعادوا سيرهم في اتجاه الطريق ؛ وأحدث ذهابهم شقاً سريعاً في رطوبة المساء ؛ وقد سال بعض الوقت من خلال التصدع ، فقام الألمان بقفزة الى الأمام ، وتشنجت خمس أصابع من حديد على قلب ماتيو : ثم كف النزف ، وتجمد الزمن من جديد ، فلم يكن ثمة الا مرج يتنزه فيه ملائكة . وفكر ماتيو : « ما أهول هذا الفراغ ! » وكان شخص هائل قد انسحب فجأة ، تاركاً « الطبيعة » في حراسة جنود من الصف الثاني . « صوت يعدو تحت شمس قديمة : لقد مات «بان»

فاستشعروا الغياب نفسه . » فمن الذي مات ، هذه المرة ؟ فرنسا ؟ المسيحية ؟ الأمل ؟ لقد كانت الارض والحقول تعود على مهل الى لاجدواها الاولى ؛ وكان هؤلاء الرجال يصبحون مجانين ، وسط هذه الحقول التي لم يكونوا يستطيعون حرثها ولا حمايتها . كان كل شيء يبدو جديداً ، ومع ذلك فقد كان المساء مطرزاً بنجوم الليل الاسود القادم ؛ وفي وسط هذا الليل ، سترتمي على الارض نجمة مذنبة . اتراهم سيقصفون ؟ كانت الحفلة منتظرة عما قليل . اتراه كان يوم العالم الاول ام يومه الاخير ؟ كان القمح والمنثور اللذان يسودّان تحت العين يبدوان وكأنهما يولدان ويموتان في الوقت نفسه . واجتاز ماتيو بنظره هذا الالتباس الهادىء وفكر : تلك هي جنة اليأس .

قال بينيت : — انّ شفتيك باردتان .

وكان قد انحنى على الفتاة يقبلها . وسألها :

— هل تحسين البرد !

— لا .

— أتحبين إن أقبلك ؟

— نعم . كثيراً .

— لماذا إذن شفتاك باردتان ؟.

فسألت : — أصحيح انهم يغتصبون النساء ؟

— انت مجنونة .

فقالت بهوس : — قبّلني . لا اريد ان افكر بعد بشيء .

وأخذت رأسه بين يديها وجذبته اليها وهي تتقاب . وقال :

— يا صغيرتي ، يا لعبتي !

ونام عليها ، ولم يرَ ماتيو بعد الا شعراً في العشب . ولكن سرعان ما ارتفع الرأس ، وقد سقط عنه القناع المتجهم الواثق ؛ وكانت العينان ، في عُري رقيق أملس ، تنظران الى ماتيو من غير

ان ترياه ؛ وكانتا تطفحان بالوحدة .

وتنهّدت الفتاة : — يا حبيبي ، تعال ، تعال .

ولكن الرأس كان صلباً ، ابيض ، اعمى ، لا ينحني . وفكر ماتيو وهو ينظر الى هاتين العينين المظلمتين : انه يفعل مهنته كرجل . وكان بينيت قد أضجع هذه المرأة تحته ، وكان يسحقها في الارض ، كان يذيبها بالارض ، وبالعشب المتردد . كان يمسك المرجة مستلقية تحت بطنه ، وكانت تناديه ، وسوف يوصل فيها جذوره بالبطن ، وكانت هي ماءً ، امرأة ، مرآة ؛ فكانت تعكس على كل سطحها البطل البكر للمعارك القادمة ، الذكَر ، الجندي المجيد المنتصر ، كانت « الطبيعة » لاهثة مقاوبة ، تبرئه من جميع الهزائم ، وتتمتم : يا حبيبي ، تعال . ولكنه كان يريد ان يمثل دور الرجل حتى النهاية ، فكان يستند براحتيه على الأرض ، فتبدو ذراعاه المتقلصتان طرفي جناح ، وكان ينصب رأسه فوق هذه الوداعة المتلبدة ، فقد كان يريد ان يكون موضع اعجاب ، وان يكون مشتهى من تحت ، في الظل ، على غير علم منه ، وان يهمل هذا المجد الذي كان ينتقل من الأرض الى جسده ، كأنه حرارة بشرية ، وان يطفو في الفراغ ، في الضيق والقلق ، ليفكر : « وماذا بعد ؟ » وعقدت الفتاة ذراعها حول عنقه وشدت على رقبته . وغرق الرأس في المجد والحب ، وانغلق المرج . ونهض ماتيو بلا ضجة فمضى ؛ واجتاز الحقل ، فأصبح احد اولئك الملائكة الذين كانوا يتسكعون في الطريق المضيئة ، بين ظلال الحور . وكانا هما قد اختفيا في العشب الاسود ، ومر جنود يحملون الباقات ؛ ورفع احدهم ، فيما هو سائر ، باقته نحو وجهه ، فأغرق انفه في الزهور ، وتشمم وسط الزهور بطالته وهمه ومجانيته التي لا مبرر لها . وكان الليل يتأكل اوراق الشجر والوجوه : فكان الجميع متشابهين ؛ وفكر ماتيو : انني اشبههم . ومشى بعد قليلا ، ورأى نجماً يضيء

ولامس متنزهاً غامضاً كان يصفر . والتفت المتنزه ، فرأى ماتيو عينيه؛ وتبادلا بسمة من بسمات عشية الأمس ، بسمة صداقة .

قال الرجل : — الطقس رطب .

قال ماتيو : — نعم ، بدأ الطقس يبرد .

ولم يكن لديهما شيء آخر يقولانه ، ومضى المتنزه ، فتبعه ماتيو بنظره ؛ اينبغي ان يكون الناس قد فقدوا كل شيء ، وحتى الأمل ، لنقرأ في عيونهم ان بوسع الانسان ان يربح ؟ كان بينيت يضاجع ، وكان غيكيولي ولاتيكس قد تدحرجا ثملين حتى الموت على ارض البلدية ؛ وكان ملائكة متوحدون ينزهون في الدروب ضيقهم : لا حاجة لأحد بي . وتداعى للسقوط على الأرض ، على حافة الطريق ، لأنه لم يكن يعرف بعد الى اين يذهب . ودخل الليل في رأسه من فمه، وعينيه ، ومنخريه ، واذنيه : فلم يكن بعد احداً ، ولا شيئاً . لا شيء الا الشقاء والليل . وفكر : شارلو ! ثم قفز على قدميه : كان يفكر بشارلو ، وحيداً مع خوفه ، وكان يشعر بالعار ؛ لقد تصرفت تصرفاً سيئاً مع هؤلاء الخنازير السكارى ، وفي تلك الفترة ، كان هو وحده ، وكان خائفاً ، بتواضع ، وكان بوسعي ان اساعده .

وكان شارلو جالساً في المكان نفسه ؛ وكان منحنياً فوق كتابه ، فاقترب ماتيو وأمرّ يده في شعره :

— انك ستقتلع عينيك .

قال شارلو : — اني لا اقرأ . بل افكر .

وكان قد رفع رأسه ، وكانت شفتاه الغليظتان ترسمان بسمة .

— بمَ تفكر ؟

— بحانوتي ، اتساءل عما اذا كانوا قد نهبوه .

قال ماتيو : — هذا غير مرجح .

واشار الى نوافذ دار البلدية :

ـ ماذا يفعلون في الداخل ؟

قال شارلو : ـ لا ادري . مضت فترة من غير ان اسمع شيئاً .

فجلس ماتيو على درجة :

ـ الامور ليست على ما يرام ، أليس كذلك ؟

فابتسم شارلو بحزن ، وسأله :

ـ أتكون قد عدت من اجلي ؟

ـ انني ضجر . وقد فكرت بانك ربما كنت في حاجة الى رفيق . وهذا بالأحرى في صالحي .

فهز شارلو رأسه من غير انْ يجيب . وسأله ماتيو :

ـ اتريد ان اذهب ؟

قال شارلو : ـ لا ، فانك لا تزعجني . ولكنك لا تستطيع ان تساعدني . ما عساك تقول لي : ان الألمان ليسوا متوحشين ؟ ان علينا ان نكون شجعاناً ؟ انني اعرف هذا كله .

وتنهد ووضع الكتاب الى جانبه ، في حيطة ، وقال :

ـ يجب ان تكون يهودياً ، وإلا لم تستطع ان تفهم .

ووضع يده على ركبة ماتيو وقال له بلهجة اعتذار :

ـ لست انا الخائف ، وانما هو جنسي في داخلي . ولا حيلة لأحد في ذلك .

وصمت ماتيو ، وظلا جنباً الى جنب ، صامتين ، احدهما ممزق ، والآخر لا جدوى منه على الاطلاق ، منتظرين ان يلفهما الظلام .

كانت تلك هي الساعة التي تفيض فيها الاشياء عن نطاقها وتذوب في ضباب المساء القطني ؛ كانت النوافذ تنزلق في ظـــل حركة طويلة جامدة ، وكانت الغرفة زورقاً شراعياً تائهاً ؛ امـــا زجاجة الويسكي

فكانت إلهاً ازتيكياً ؛ وكان فيليب تلك النبتة الرمادية الطويلة التي لا تخيف ؛ والحب ، كان اكثر كثيراً من الحب ، ولم تكن الصداقة هي الصداقة تماماً . وكان دانيال يتحدث ، مختبئاً ، عن الحب ، فلم يكن بعد الا صوتاً هادئاً حاراً . واسترد نفسه ، فانتهزها فيليب فرصة ليقول :

— ما أشدّ الظلام هنا ! الا تظنّ أن بوسعنا ان نضيء النور ؟

قال دانيال بجفاف : — اذا لم تكن الكهرباء مقطوعة .

ونهض على مضض : كانت اللحظة قد آنت لتقبّل امتحان الضوء. وفتح النافذة ، وأطلّ فوق الفراغ وشمّ رائحة بنفسج الصمت : كم من مرة ، في هذا المكان نفسه ، اردت ان أهرب ، وكنت اسمع صوت خطى يتنامى ؛ كانوا يمشون على افكاري . كان الليل عذباً ووحشياً ، وكان لحم الليل الذي تمزّق مرات قد التأمت جراحه . ليلة ريّا وعذراء ، ليلة جميلة بلا رجال ، برتقالة حمراء بلا بزور . وأغلق المصاريع على مضض ، فأدار المفتاح ، فارتمت الغرفة خارج الظل ودخلت الاشياء في نفسها من جديد . واندفع وجه فيليب بازاء عيني دانيال ، وكان دانيال يُحسّ هذا الرأس الكبير الدقيق يتحرك في نظره ، وهو حديث عهد بقصّ الشعر ، مرتدّ الى خلف ، بتينك العينين الطافحتين بالذهول واللتين كانتا تسحرانه كما لو انهما تريانه للمرة الاولى . « يجب ان أتصرّف بدقة وحكمة . » ورفع يده ، منزعجاً ، ليضع حداً لتمثيلية الأشباح ، فقرص ظاهر سترته بين اصابعه ، وابتسم ؛ كان خائفاً من ان يُكتشف .

— ما بالك تنظر إليّ ؟ هل تجدني جميلاً ؟

فقال فيليب بصوت محايد :

— جميلاً جداً .

وانفتل دانيال فوجد في المرآة ، من غير استياء ، وجهه الجميل

الغامض . وكان فيليب قد أسبل جفنيه ؛ وخنق ضحكة وراء يده .

— انت تضحك كطالبة داخلية .

فكفّ فيليب عن الضحك . وألح دانيال :

— لماذا تضحك ؟

— هكذا .

وكان نصف ثمل ، من الخمر ، وعدم الثقة ، والتعب . وفكر دانيال : إنه في الحالة المناسبة . شريطة ان يفعل كل شيء «بالضحك» كمزاح مدرسي ؛ فسيدع الفتى نفسه ينقلب على الديوان ، ويلامس ، ويقبّل وراء الاذن : ولن يدافع عن نفسه إلا بالضحكة المجنونـــة . وأولاه دانيال ظهره فجأة ، وخطا بضع خطوات في الغرفة : إن هذا مبكر جداً ، مبكر اكثر مما ينبغي ، فحذار من الحماقات ! سوف يذهب غداً فينتحر ، او انني سأقتله . وقبل ان يعود باتجاه فيليب ، زرّر سترته وشدها على فخذيه ليخفي بداهة اضطرابه .

وقال : — واخيراً هكذا !

قال فيليب : — هكذا !

— انظر إليّ .

وغطس نظره في عينيه وهزّ رأسه في رضى ؛ وقال على مهل :

— لستَ بالجبان . وقد كنت متأكداً من ذلك .

ومدّ سبابته وضرب صدره :

— انت تهرب خوفاً ؟ كفى ، كفى ! إن هذا لا يناسبك : كل ما هنالك انك ذهبت ؛ تركت هذه القضية تُسوّى بدونك . ولماذا تُراك تقتل نفسك من أجل فرنسا ؟ لماذا ؟ ان فرنسا لا تهمك ، أليس كذلك ؟ انها لا تهمك ، ايها المكار الصغير !

فأومأ فيليب برأسه ، واستعاد دانيال مشيته عبر الغرفة ، وقال في

انفعال مليء بالمرح :

— لقد انتهى هذا كله . انتهى وُصفّي . إن لك حظاً لم يكن لي في عمرك . لا ، لا (قالها في حيوية بحركة من يده) لا ، لا ، لا أقصد بذلك لقاءنا . إن حظلك هو الاتفاق « التاريخي » : أتريد ان تهدم الاخلاقية البورجوازية ؟ حسناً : إن الألمان هنا لمساعدتك . ها ! سترى ضربة المكنسة هذه ؛ سترى آباء الأسر يزحفون ، ستراهم يلحسون الأحذية ، ويمدون أقفيتهم الضخمة لركلات الأرجل ؛ سترى زوج امك مقلوباً على بطنه ؛ إنه هو المهزوم الأكبر في هذه الحرب ، وكم ستستطيع ان تحتقره !

وضحك حتى سالت دموعه : « اية ضربة مكنسة ! » ثم التفت فجأة نحو فيليب :

— يجب ان تحبهم .

فسأله فيليب مذعوراً : — من ؟

— الألمان ، انهم حلفاؤنا .

فردد فيليب : — أن احبّ الألمان ؟ ولكني ... لا اعرفهم .

— لا تخف ، فسنعرف بعضهم : سنتعشى لدى قادة المقاطعات ، ولدى الفيلدمرشالات : وسوف يأخذوننا للتنزه معهم في سياراتهم المرسيدس السوداء الضخمة ، بينما يتنزه الباريسيون على اقدامهم .

وخنق فيليب تثاؤبة ، فهزّه دانيال من كتفيه وقال له بلهجة كثيفة :

— يجب ان تحب الألمان . ستكون تلك تجربتك الروحية الاولى .

فلم يبد على الفتى انفعال خاص ؛ فتركه دانيال ، وفتح ذراعيه على سعتهما وقال :

— ها هو زمن القتلة يجيء .

وتثاءب فيليب للمرة الثانية : فرأى دانيال لسانه المروّس . وقال فيليب بلهجة اعتذار :

— انني ناعس . ها هما ليلتان لم اغمض فيهما عيني .

فبدا لدانيال ان يغضب ، ولكنه كان مرهقاً ، هو ايضاً ، كما يحدث له على اثر كل لقاء جديد . ولفرط ما اشتهى فيليب ، فقد أحس بنهك ثقيل في أربيته . وأحس فجأة بتعجل ليجد نفسه وحيداً ، فقال :

— حسناً ، انني اتركك . وستجد منامة في درج الخزانة .

فقال الفتى برخاوة : — لا حاجة بي الى ذلك ، فيجب ان اعود الى البيت .

فنظر اليه دانيال باسماً :

— ستفعل ما تشاء ؛ ولكنك توشك ان تقع على دورية ، والله وحده يعلم ما سيصنعون بك : انت جميل كفتاة ، والألمان جميعاً لوطيون . وحتى لو فرضنا انك بلغت منزلك ، فانك ستجد فيه ما تريد ان تهرب منه . إن على الجدران صوراً لزوج امك ، اليس كذلك ؟ وعطر امك يطفو في غرفتها ؟

فلم يبد على فيليب انه كان يسمعه . وبذل جهداً لينهض ، ولكنه تداعى على الديوان وقال بصوت نائم :

— هاهه ...

ونظر الى دانيال فبسم له بهيئة حائرة :

— اظن ان من الأفضل لي ان ابقى هنا .

— إذن ، تصبح على خير .

فقال فيليب متثائباً : — تصبح على خير .

واجتاز دانيال القاعة ؛ وإذ ألم بالمدخنة ، كبس على مربع ناتيء ، فاستدار رف من المكتبة على نفسه ، كاشفاً صفاً من الكتب ذات الغلاف الاصفر . وقال :

— هذا هو «الجحيم» . ستقرأ هذا كله فيما بعد : فهو يتحدث عنك .

فردد فيليب من غير ان يفهم :

– عني ؟

– نعم ، اقصد عن حالتك .

ودفع الرف الى مكانه ثم فتح الباب . وكان المفتاح قد بقي في الخارج ، فأخذه دانيال ورمى به الى فيليب وهو يقول ساخراً :

– اذا خفت من الأشباح او من اللصوص ، فبوسعك ان تقفل على نفسك .

واغلق الباب عليه ، ودلف في الظلام الى جوف الغرفة ، فأضاء المصباح وجلس على سريره . ها انا وحدي اخيراً ! ست ساعات من المشي ، وطوال اربع ساعات ، هذا الدور أمثله مرتدياً مشد امير الشر : انني مرهق . وتنهد ، رغبة منه في ان يحس وحدته ، ورغبة في الا يُسمع ، أنّ بنعومة : « إن بيضتيّ تؤلمانني كثيراً . » ورغبة منه في ألا يُرى ، حرّك وجهه حركة بكائية ، ثم ابتسم وتداعى للسقوط الى خلف كما لو انه في حمّام دافيء : وكان قد تعود هذه الرغبات التجريدية ، وهذه التورمات الخفية اللامجدية ؛ وكانت التجربة قد علمته ان ألمه يخف اذا ظل متمدداً . وكان المصباح يعكس دائرة نور عسلي السقف ، وكانت الوسائد رطبة ، كان دانيال يرتاح ، ساكناً ، ميتاً ، مبتسماً . « هاديء ، هاديء : لقد اقفلت باب الدخول بالمفتاح ، والمفتاح في جيبي ، والواقع انه من جهة اخرى ، سوف ينهار تعباً ، وسينام حتى الظهر ، من دعاة السلام : فتأمل ! بالاجمال ، لم تسر الأمور جيداً . ولا شك في انه كان ثمة خيوط للشدّ ، ولكني لم اعرف ان اعثر عليها . » كان دانيال يجعل من امثال « ناتانايل » و « رامبو » قضيته ؛ ولكن الجيل الجديد كانه يحيّره : « اي مزيج غريب : نرجسية ، وافكار اشتراكية . إن هذا لا يجاري المعقول . » ومع ذلك ، فان الامور بالاجمال لم تسر سيراً

رديئاً : كان الفتى هنا ، مقفلا عليه . ففي حالة الشك ، لن يكون سيئاً ان يلعب المرء ورقة الاختلال النظامي . فلقد كان ذلك ينجح دائماً بعض الشيء . كان يثير الغرور . وفكر : « سأحصل عليك ، وسأغسل مبادئك ، يا ملاكي . افكار اشتراكية ! سترى ما سوف تنتهي اليه ! » وكانت هذه الحميّا التي بردت تثقل على معدته ، وكان بحاجة الى كمية طيبة من الوقاحة ليكنسها : « اذا استطعت ان احتفظ به وقتاً طويلا ، كانت مسألة طيبة : فانا بحاجة الى التخفف ، وافتقر الى شخص في البيت . . » حفلات الكرميس ، غراف وتوتو ، العمّة دونفلور ، ماريوس ، « الحسّ » الممنوع : كل ذلك قد انتهى . وانتهت الانتظارات عند حواشي محطة « غارديست » وابتذال المأذونين الذين تنبعث من اقدامهم الروائح الكريهة : انني اصلح سيرتي . (انتهى الارهاب !) وجلس على السرير وبدأ ينزع ثيابه ، وصمم : ستكون علاقة جدية رصينة . وكان يحس النعاس ، وكان هادئاً ، ونهض ليأخذ حوائجه ، فلاحظ انه كان هادئاً ، وفكر : عجيب ألا اكون في ضيق وقلق . وفي تلك اللحظة ، كان خلف ظهره احد ، فالتفت ، فلم ير احداً ، فشقه الضيق شقين . « مرة اخرى بعد ! مرة اخرى بعد ! » وكان كل شيء يبدأ من جديد ، وكان يعرف كل شيء ، وكان بوسعه ان يتنبأ بكل شيء ، كان يستطيع ان يروي دقيقة فدقيقة سنوات الشقاء التي ستلي ، السنوات الطويلة ، الطويلة ، اليومية ، المملة التي لا أمل فيها ، ثم النهاية القذرة الأليمة : كل شيء كان هنا . ونظر الى الباب المغلق ، وكان يلهث ، وكان يفكر : « هذه المرة ، سأموت بذلك » وكان في فمه مرارة الآلام القادمة .

قال عجوز : — انها تحترق جيداً .

وكان الجميع في الطريق ، جنوداً وعجائز وفتيات . وكان المدرس يصوّب عصاه نحو الأفق ؛ وفي اقصى العصا ، كانت شمس زائفة تدور ، كرة من نار تخفي فجراً ممتقعاً : كانت تلك « روبيرفيل » التي تحترق .

— انها تحترق جيداً .

— اجل ! اجل !

وكان المسنّون يتراقصون قليلا ، وايديهم خلف ظهورهم ، وكانوا يقولون : اجل ! اجل ! باصواتهم العميقة الهادئة وترك شارلو ذراع ماتيو ، وقال :

— إن هذه مصيبة !

فأجابه عجوز :

— انه قَدَر الفلاح . فحين لا تكون الحرب ، يكون الثلج او الجليد : فليس ثمة سلام على الأرض ، بالنسبة للفلاح .

وكانت ايدي الجنود تجس الفتيات في الظلام فتثير الضحكات ؛ وكان ماتيو يسمع خلف ظهره صرخات الصبية الذين كانوا يلعبون في ازقة القرية المهجورة . وتقدمت امرأة ، وكانت تحمل صبياً بين ذراعيها ، فسألت :

— ايكون الفرنسيون هم الذين اشعلوا النار ؟

فقال لوبيرون : — هل انت مجنونة ، ايتها الأم الصغيرة ؟ انهم الألمان ، نعم .

فهزّ عجوز رأسه وقال غير مصدّق :

— لقد سبق للألمان ان جاءوا ، في الحرب الماضية ، ولم يفعلوا شراً كبيراً : انهم لم يكونوا رجالاً مؤذين .

فسأل لوبيرون مغتاظاً :

ـ ولماذا ترانا نشعل نحن النار ؟ اننا لسنا متوحشين .

ـ ولماذا تراهم يشعلونها ، هم ؟ أين سيقيمون ؟

ورفع جندي ملتحٍ يده فقال :

ـ لا بدّ ان بعض اللؤماء عندنا ارادوا ان يتخابثوا : فأطلقوا النار . فاذا سقط قتيل واحد من الألمان ، أحرقوا القرية .

فالتفتت اليه المرأة قلقة ، وسألت :

ـ وانتم ؟

ـ ماذا ، نحن ؟

ـ ألن تفعلوا حماقات ؟

فأخذ الجنود يضحكون ، وقال أحدهم في أقتناع :

ـ آه ! تستطيعين ان تنامي قريرة العين، معنا . اننا نعرف الحياة.

وكانوا يتبادلون النظر ويضحكون بهيئة مشاركة :

ـ نعرف الحياة ، نعرف الحياة .

ـ اتظنّين ، اننا سنختلق اسباب الخصام مع الألمان ، عشية توقيع السلام ؟

وكانت المرأة تداعب رأس صغيرها ؛ وسألت بصوت متردّد :

ـ أهو السلام ؟

فقال المدرّس في قوة :

ـ نعم ، هو السلام . هو السلام . هذا ما ينبغي ان نقوله :

فحدثت رعشة في الجمع ، وسمع ماتيو خلف ظهره نسمةً صغيرة من كلام فرح :

ـ انه السلام ، انه السلام .

كانوا ينظرون الى روبيرفيل تحترق ويرددون فيما بينهم : لقد انتهت الحرب ، انه السلام ؛ وكان ماتيو ينظر الى الطريق : كانت تفلت من الليل ، على بعد مئتي متر ، وتسيل بياضاً متردداً حتى قدميه

ثم تمضي خلفه فتغسل البيوت ذوات المصاريع المغلقة . طريق جميلة تغري بالمغامرة والموت ، طريق جميلة ذات اتجاه واحد . كانت قد وجدت وحشية الأنهار القديمة : وهي ستحمل غداً حتى المدينة سفناً محمّلة بالقتلة . وتنهّد شارلو ، فشدّ ماتيو على ذراعه من غير ان يقول شيئاً .

وقال صوت : — ها هم اولاء !

— ماذا ؟

— الالمان ، اقول لك : ها هم أولاء !

وكان الظلام قد تحرّك ، وكان جنود في وضع استكشاف ، يخرجون واحداً اثر واحد من ماء الليل الأسود، وبنادقهم تحت اذرعهم . كانوا يتقدمون على مهل ، وحذر ، مستعدّين للإطلاق .

— ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وصُدم ماتيو ودُفع: كان اهتزاز واسع مبهم ينفض الجمع حوله .

وصاح لوبيرون :

— لنهرب ايها الرفاق !

— هل انت مجنون ؟ لقد رأونا ، فلم يبق الا ان ننتظرهم .

— ننتظرهم ؟ سوف يطلقون النار علينا ، نعم .

وأطلق الجمع زفرة هائلة مرهقة ؛ وثقب الليلَ صوت المدرّس الحاد:

— النساء الى الوراء . والرجال : اتركوا بنادقكم اذا كان لديكم بنادق ، وارفعوا ايديكم في الهواء .

وصاح ماتيو مجروحاً :

— يا لكم من فروج حمقى ! انكم ترون جيداً انهم فرنسيون .

— فرنسيون ...

وسادت لحظة توقّف ، ووطء مُراوِح ، ثم قال واحد بلهجة تحدّ :

— فرنسيون ؟ ومن أين يخرجون ؟

كانوا فرنسيين ، زهاء خمسة عشر رجلا يقودهم ملازم : وكانت لهم وجوه قاسية سوداء . واصطف أهالي القرية على حافتي الطريق ينظرون اليهم قادمين ، بلا صداقة . فرنسيون ، أجل ، ولكنهم كانوا قادمين من مقاطعة اجنبية وخطرة . ومعهم بنادق . عند الليل الهابط . فرنسيون يخرجون من الظلام والحرب ، ويعودون بالحرب الى هذه القرية التي سبق للسلام ان قام فيها . فرنسيون . باريسيون ، ربما ، او من سكان بوردو ؛ ليسوا ألماناً تماماً ؛ ومرّوا بين سياجين من العداء الرخو ، من غير ان ينظروا الى أحد ؛ وكان يبدو عليهم الفخر . وأطلق الملازم امراً فتوقفوا .

وسأل : — أية فرقة هنا ؟

ولم يكن يوجّه كلامه الى احد معين. وساد صمت ، فكرّر سؤاله، فقال رجل بلهجة مستاءة :

— الواحدة والستون .

— واين هم رؤساؤكم ؟

— مشطوبون .

— ماذا ؟

فكرر الجندي في اعتزاز واضح :

— مشطوبون .

ولوى الملازم حنكه ولم يجب .

— اين دار البلدية ؟

فتقدم شارلو وقال بملاطفة :

— الى اليسار ، في آخر الطريق . امامك مئة متر تمشيها .

فانفتل الضابط فجأة على نفسه ورمقه قائلاً :

— ما هذه الطريقة في التحدث الى رئيس ؟ الا يمكنك ان تقوم الوضع ؟ وهل يخنقك ان تقول لي : يا سيدي الملازم ؟

ومرّت لحظات صمت . وكان الضابط ينظر الى شارلو في عينيه ، وحول ماتيو ، كان الافراد ينظرون الى الضابط . وأدى شارلو التحية العسكرية .

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي الملازم .

ـ حسناً .

والقى الضابط نظرة احتقار دائرية ، وقام بحركة ، فعاود الفريق سيره . وتطلع اليهم الافراد ينغمسون في الليل دون ان ينسبوا بكلمة . وسأل لوبيرون بمشقة :

ـ ألم ننته من الضباط بعد ؟

فردّد صوت عصبي بمرارة :

ـ الضباط ؟ انك لا تعرفهم . سيظلون يبعصوننا حتى النهاية .

وصاحت امرأة فجأة :

ـ انهم لن يقاتلوا هنا ، على الاقل ؟

فندت ضحكات من الجمع ، وقال شارلو بصوت مفرط الحلم :

ـ لا تخافي يا ماما ، فليسوا مجانين .

وعاد الصمت من جديد . وكانت جميع الرؤوس قد التفتت نحو الشمال . كانت روبيرفيل المعزولة التي أصبحت خارج نطاق الادراك ، وباتت اسطورية ، تحترق من نكد الطالع في بلدٍ أجنبي ، من الجهة الاخرى من الحدود. ان الصدام والقتال والحريق امور تناسب روبيرفيل، وليست اموراً يمكن ان تحدث لنا نحن . وعلى مهل ، وبلا اكتراث ، أنفصل افراد عن الجمع وتوجهوا نحو القرية . كانوا عائدين ليناموا نومتهم القصيرة ، حتى يكونوا علي استعدادٍ ، حين يصل الألمان عند الفجر . وفكر ماتيو : « اية قذارة ! » .

قال شارلو : ـ انني إذن انسحب .

ـ انت ذاهب للنوم ؟

ـ يقولون .

ـ اتريد ان أصحبك ؟

قال شارلو وهو يتثاءب :

ـ لا تزعج نفسك .

وابتعد ؛ وبقي ماتيـــو وحده . وفكر : « اننا عبيد ، نعم ، عبيد . » ولكنه لم يكن عاتباً على الرفاق ، فلم تكن تلك غلطتهم : لقد قضوا عشرة أشهر في الأشغال الشاقة ، وكان ثمة الآن نقل السلطة ، فهم ينتقلون الى ايدي الضباط الألمان ، وسوف يحيون « الفيلدووبل » و « الاوبرلوتنان » . ولم يكن الفرق كبيراً ، فان طبقة الضباط عالمية ؛ كل ما في الأمر ، أن الأشغال الشاقة مستمرة . وفكر : انما أعتب على نفسي . ولكن كان يعتب على نفسه انه عتب على نفسه ، لأن تلك كانت طريقة في التعالي على الآخرين . كان رحيماً مع الجميع ، قاسياً مع نفسه : حيلة اخرى من جيل الكبرياء . بريء ومذنب ، مفرط القسوة ومفرط الرحمة ، عاجز ومسؤول ، متضامن مع الجميع ، ومرفوض من كل انسان ، متبصّر غاية التبصّر ، ومخدوع غاية الخداع ، عبدٌ وسيّد : الواقع اني كجميع الناس . وأحس بيدٍ على ذراعه . وكانت يد موظفة البريد . كانت عيناها تحرقان وجهها .

ـ إمنعه ، إن كنت صديقه .

ـ ماذا ؟

ـ انه يريد ان يقاتل : فامنعه .

وبدا بينيت خلفها ، ممتقعاً ، ميت العينين ، وعلى شفتيه بسمة رديئة .

فسأله ماتيو :

ـ ماذا تريد ان تفعل إذن ، ايها العنيد الصغير ؟

ـ أقول لك انه يريد ان يقاتل ، لقد سمعته : فهو قد ذهب يلقى الكابيتن ويقول له انه يريد ان يقاتل .

ـ اي كابيتن ؟

ـ الذي مر مع رجاله .

وكان بينيت يقهقه ، ويداه خلف ظهره .

ـ لم يكن « كابيتين » ، بل هو ملازم .

وسأله ماتيو : ـ أصحيح انك تريد ان تقاتل ؟

فأجاب : ـ انكم جميعاً تزعجونني !

وقالت موظفة البريد : ـ أترى ! أترى ! لقد قال انه يريد ان يقاتل . وقد سمعته .

ـ ولكن من قال لك انهم سيتقاتلون ؟

ـ ألم ترهم اذن ؟ ان في عينيهم الجريمة . وهو (واومأت بأصبعها الى بينيت) انظر اليه ، انه يخيفني . فهو شيطان !

وهز ماتيو كتفيه :

ـ ماذا تريدين مني ان افعل به ؟

ـ ألست صديقه ؟

ـ بلى .

ـ اذا كنت صديقه ، فعليك ان تقول له انه لا يحق له ان يعرّض نفسه للقتل .

وتشبثت بكتفي ماتيو :

ـ لا يحق له ذلك !

ـ ولماذا ؟

ـ انت تعرف السبب جيداً .

فبسم بينيت بسمة قاسية ورخوة :

ـ انا جندي ، فيجب ان أقاتل : إن الجنود قد خلقوا لذلك .

– كان ينبغي اذن الا تأتي للبحث عني .
وقبضت على ذراعه ، وأضافت بصوت راعش :
– انك لي .
فتخلص بينيت :
– لست لأحد .
قالت : – بلى ، انت لي (والتفتت الى ماتيو ونادته بلهجة نارية) ولكن ، قل له انت ! قل له انه لا يحق له بعد ان يعرّض نفسه للقتل ! انه واجبك ، ان تقول له ذلك .
وصمت ماتيو ، فتقدمت نحوه ، ووجهها يلتهب : وللمرة الاولى، وجدها ماتيو قابلة للاشتهاء .
– انت تزعم انك صديقه ، وسواء لديك ان يناله بعد ذلك أذى ؟
– كلا ، ليس الأمر سواء لدي .
– أتجد من المستحسن ان يذهب فيطلق بندقيته كالأحمق على جيش برمته ؟ وليت ذلك يفيد شيئاً بعد ! ولكنك تعلم جيداً ان ليس ثمة من يقاتل بعد .
قال ماتيو : – أعلم .
– ماذا تنتظر اذن لتقول له ذلك ؟
– انتظر أن يسألني رأيي .
– هنري ! أبتهل اليك : اطلب منه النصيحة ، فهو اكبر منك سناً ، ولا بد ان يعرف .
فرفع بينيت يده علامة الرفض ، ولكن جاءته فكرة فترك ذراعه تسقط وهو يغض عينيه بهيئة مرائية لم يكن ماتيو يعهدها فيه :
– أتريدين ان أناقش الأمر معه ؟
– نعم ، ما دمت لا تحبني حباً كافياً لتصغي الي .
– حسناً . اتفقنا . ولكن يجب ان تذهبي .

– لماذا ؟
– لأني لا اريد ان اناقش بحضورك .
– ولكن لماذا ؟
– هكذا ! ليست هذه شؤوناً نسائية .
– انها « شؤوني » ما دام الأمر متعلقاً بك .
فقال مغتاظاً : – آه ، انك تفقرين لي بيضتي !
وغرس مرفقه في جنب ماتيو ، فقال ماتيو بحيوية :
– لا حاجة بك حتى لأن تذهبي : فسوف نتمشى قليلاً على الطريق، وليس عليك الا ان تنتظرينا هنا .
– نعم ، ثم لا تعودان .
قال بينيت : – انك مجنونة ! اين تريديننا ان نذهب ؟ سنكون على بعد عشرين متراً منك ، وسترييننا طوال الوقت .
– واذا قال لك صديقك بالا تقاتل ، فهل تصغي اليه ؟
قال بينيت : – بالتأكيد . انني افعل دائماً ما يقوله .
فتعلقت بعنق بينيت .
– أتقسم لي بأن تعود ؟ حتى ولو قررت ان تقاتل ؟ حتى ولو نصحك صديقك ؟ انني أفضل تحمّل كل شيء على الا اراك ثانية . أتقسم لي ؟
– نعم ، نعم ، نعم .
– قل انك تقسم ! قل : أقسم على ذلك .
قال بينيت : – أقسم على ذلك .
فقالت لماتيو : – وانت ، هل تقسم على ان تعيده الي ؟
– طبعاً .
قالت : – لا تبقيا طويلاً ، ولا تبتعدا .
ومشيا بضع خطوات على الطريق ، في اتجاه روبيرفيل ، وكانت

ادغال واشجـــار تنبثق من الظلام . وبعد لحظة ، التفت ماتيو : فاذا موظفة البريد منتصبة متوترة ، يكاد الليل يمحوها ، وهي تجهد لتميّزهما في الظلمات . خطوة اخرى ، وامحت تمـــاماً . وفي تلك اللحظة ، صاحت :

— لا تذهبا بعيداً ، فانا لا اراكما بعد .

فأخذ بينيت يضحك ، وكور يديه فوق فمه وصاح :

— اوهو ! اوهوهو ! اوهوهوهو !

فتابعا سيرهما . وكان بينيت ما يزال يضحك :

— كانت تود ان تجعلني اصدّق انها عذراء ؛ هذا هو السبب .

— آه !

— هذا ما تقوله هي . اما انا ، فلم ألاحظ ذلك .

— هناك فتيات على هذا النحو : تحسب انهن يكذبن عليك ، ثم تتبين انهن عذراوات حقاً .

فقال بينيت مقهقهاً : — هكذا اذن ؟

— هذا يحدث .

— ماذا تقول ! حتى ولو أقررت ذلك ، فسيكون اتفاقاً عجيباً ان يحدث هذا لي بالذات .

فابتسم ماتيو من غير أن يجيب ، وهز بينيت رأسه في الخلاء .

— ثم اسمع . انني لم أغتصبها . حين تكون الفتاة رصينة ، فهي تجعلك تجهد كثيراً حتى تصل اليها . خذ مثلاً زوجتي : لقد كنـــا كلانا نموت رغبة ، ولكن لم يحدث شيء قط قبل ليلة العرس .

وشق الهواء بيد قاطعة :

— لا تخلط الامور : فهذه الفتاة ، كان يتأكلهـــا حيث افكر ، واعتقد جيداً انني انا الذي اديت لها خدمة .

— واذا جعلتها تحمل ؟

فقال بينيت دهشاً : ــ انا ؟ آه ، لا ، لا ! انك لا تعرفني . فانا النكّاح القــانوني . لم تكن زوجتي تريد اولاداً لأننا كنا فقيرين اكثر مما ينبغي ، فتعودت ان اراقب نفسي . لا ، لا . لقد حصلت على لذتها ، وانا كذلك : فنحن سواء .

قال ماتيــو : ــ اذا كانت هذه هي المرة الاولى حقاً ، فسيكون امراً نادراً جداً ان تكون قد حصلت على لذة .

قال بجفاء : ــ طز ! انها في هذه الحالة هي المخطئة .

وصمتا . وبعد لحظــة ، رفع ماتيو رأسه وبحث عن عيني بينيت في الظلام .

ــ أصحيح انهم سيقاتلون ؟

ــ صحيح .

ــ في القرية ؟

ــ واين تريد ان يقاتلوا ؟

فانقبض قلب ماتيو ، ثم فكر فجأة في لونجان متقيئاً تحت شجرته ، وفي غيكيولي متمرغاً على الارض الخشبية ، وفي لوبيرون الذي كان ينظر الى روبيرفيــل تحترق فيصيح : « انه السلام » . وضحك من فرط الغضب .

ــ لماذا تضحك ؟

قال ماتيو : ــ بسبب الرفاق . سيواجهون مفاجأة طريفة .

ــ صحيح ؟

ــ هل يريدك الملازم ؟

ــ اذا كان معي بندقية . قال لي : تعال اذا كانت معك بندقية .

ــ وهل انت مصمم تماماً ؟

فضحك بينيت ضحكة متوحشة . وبدأ ماتيو يقول :

ــ هناك ...

فالتفت بينيت فجأة اليه :
– انني بالغ سد الرشد . فلست بحاجة الى نصيحة .
قال ماتيو : – حسناً . اذن ، لنرجع .
فقال بينيت : – لا ، بل تقدَّم .
فتقدما بضع خطى . وقال بينيت بغتةً :
– اقفز في الحفرة .
– كيف ؟
– هيا ! اقفز !
وقفزا ، وتسلقا الكثيب ، فالفيا نفسهما وسط القمح ، وقال بينيت موضحاً :
– الى اليسار ، هناك ممر يفضي الى القرية .
وتعثّر ماتيو ، فسقط على ركبته ، وقال :
– يلعن دين ! أية حماقة تجعلني ارتكبها ؟
فأجاب بينيت : – انني لا أطيق ان أراها بعد .
وسمعا صوت امرأة آتياً من الطريق :
– هنري ! هنري !
قال بينيت : – كم هي لصقة ملحاح !
– هنري ! لا تتركني !
وجذب بينيت ماتيو من ذراعه ، فانبطحا بين القمح ، وكان صوت موظفة البريد يسمع وهي تعدو في الطريق ، وتطايرت حزمة سنابل على وجه ماتيو ، وفرّ حيوان من بين يديه .
–هنري ! لا تتركني ، افعل ماتشاء ، ولكن لا تتركني . عد اليّ . هنري ، لن اقول شيئاً ، أعدك بذلك ، ولكن عُدْ ، ولا تتركني هكذا ! هنري – ي – ي – ي ! لا تتركني من غير ان تقبّلني .
ومرّت الفتاة بقربهما ، لاهثة . وهمس بينيت :
– من حسن الحظ ، ان القمر لم يظهر بعد .

وكان ماتيو يتنسم رائحة ارض قوية ؛ كانت الارض رطبة ورخوة تحت يديه ، وكان يسمع نفَسَ بينيت الأبح ويفكر : « سوف يقاتلون في القرية . » وصاحت الفتاة مرتين اخريين بصوت يقطعه القلق ، وفجأة ارتدت على اعقابها وأخذت تعدو باتجاه معاكس .

قال ماتيو : — انها تحبك .

فأجاب بينيت : — طز فيها !

ونهضا . فرأى ماتيو ، الى الشمال الشرقي ، فوق السنابل تماماً ، الكرة النارية التي كانت تنوس . « اذا سقط للالمان قتيل واحد ، احرقوا كل شيء . »

وسأله بينيت في تحدٍّ :

— وإذن ؟ أتراك لن تؤاسيها ؟

قال ماتيو : — انها تزعجني . ومهما يكن ، فان حكايات الفرج لا تثير حماستي اليوم . ولكنك قد أخطأت في مضاجعتها ، اذا كان قصدك ان تتركها بعد ذلك .

قال بينيت : — آه ، خراء ! الانسان معك ، دائماً على خطأ .

قال ماتيو : — هذا هو الممر .

ومشيا لحظة . وقال بينيت :

— القمر !

فرفع ماتيو رأسه ، ورأى ناراً اخرى في الافق : كان ذلك حريقاً فضياً .

قال بينيت : — سنكون لهم كرتوناً سهلا !

قال ماتيو : — على اي حال ، لا اعتقد انهم سيأتون قبل صباح الغد .

وأضاف بعد لحظة ، من غير ان ينظر الى بينيت :

— ستعرُضون انفسكم حتى يقتلوكم عن آخركم .

قال بينيت بصوت أبح :

ـ انها الحرب .

قال ماتيو : ـ الحقيقة ان لا . انها ليست الحرب « بعد » .

ـ لم توقّع الهدنة .

وأخذ ماتيو يد بينيت فشدّها قليلا بين اصابعه : كانت مثلجة ..

ـ هل انت متأكد بأنك راغب في ان تُقتل ؟

ـ لست راغباً في ان أُقتل : وانما انا راغب في قتل الماني ..

ـ الأمران مرتبطان .

وخلص بينيت يده من غير ان يجيب . وأراد ماتيو ان يتكلم ، وكان يفكر :

« انه يموت من اجل لا شيء » وكان هذا يخنقه . ولكنه أصيب فجأة بالبرد ، فصمت : « بأي حق امنعه من ذلك ؟ وماذا لديّ لأهبه إياه ؟ » والتفت الى بينيت وصفر بهدوء : كان بينيت غير قابل للادراك ؛ كان يمشي اعمى في ليله الاخير ؛ كان يمشي ، ولكنه لم يكن يتقدم : كان قد وصل ، وكان موته ومولده قد اتصلا ، كان يمشي تحت القمر ، وكانت الشمس القادمة قد بدأت تضيء جروحه . كان قد كف عن ان يجري وراء نفسه ، فقد كان حاضراً كله في ذاته ، بينيت برمته ، كثيفاً ومغلقاً . وتنهّد ماتيو وأخذ له ذراعه في صمت ، اخذ ذراع موظف شاب في المترو ، نبيل وعذب وشجاع ورقيق كان قد قتل يوم ١٨ حزيران ١٩٤٠. وبسم له ، ومن اعماق الماضي ، بسم له بينيت ؛ ورأى ماتيو البسمة واحس بأنه وحيد تماماً. ينبغي لتحطيم هذه القشرة التي تفصله عني ألاّ اريد بعدُ مستقبلا آخر غير مستقبله ، ولا شمساً اخرى غير التي سيراها غداً للمرة الاخيرة ؛ ولكي اعيش الدقائق نفسها ، في الوقت نفسه ، يجب ان اريد ان اموت الميتة نفسها . وقال بهدوء :

– الحقيقة ان عليّ أنا ان اذهب للقتال بدلاً منك. لأنني انا ، لا املك بعد اسباباً للحياة كما تملك .

فنظر اليه بينيت في فرح ، كانا قد عادا فأصبحا تقريباً متعاصرين.

– انت ؟

– لقد خدعت نفسي منذ البدء .

قال بينيت : – حسناً ، ليس لك الا ان تأتي . اننا نمحو كل كل شيء ونبدأ من جديد .

فابتسم ماتيو وقال :

– نمحو كل شيء ، ولكننا لا نبدأ من جديد .

فوضع بينيت يده حول عنقه ، وقال في شغف :

– دولارو ، يا صديقي الصغير ، تعال معي ، تعال . انه ليسرني ، لو تعلم ، ان نكون معاً نحن الاثنين : فأنا لا اعرف الآخرين .

وتردد ماتيو : ان يموت ، فيدخل في خلود هذه الحياة التي سبق لها ان ماتت ... ان يموتا معاً ... وهز رأسه :

– لا

– ماذا ، لا ؟

– لا اريد .

– هل انت خائف ؟

– لا ، بل اجد ذلك سخيفاً .

ان يشق يده بضربة سكين ، ان يقذف خاتم الزواج ، ان يطلق النار على الالمان: ثم ماذا بعد ذلك ؟ التحطيم والتخريب: ليس ذلك بالحل ؛ وضربة عناد ، ليس هذا هو الحرية . ليتني فقط استطيع ان اكون « متواضعاً » . وسأل بينيت مغتاظاً :

– ولماذا تراه سخيفاً ؟ اريد ان اقتل المانياً ؛ ليس في ذلك ايّ سخف .

— بوسعك ان تقتل مئة ، فان الحرب ستكون خاسرة مع ذلك .
فقهقه بينيت :
— سأنقذ الشرف !
في نظر من ؟
وكان بينيت يسير خافض الرأس ، من غير ان يجيب. وقال ماتيو :
— وحتى لو نصبوا لك تمثالاً ، حتى ولو نثروا رمادك تحت «قوس النصر» . ايستحق ذلك تعريض قرية برمتها للحرق ؟
قال بينيت : — لتحترق ، فهذه هي الحرب .
— هناك نساء واطفال .
— ليس عليهم الا ان يلتجئوا الى الحقول . آه ! (واضاف بهيئة بلهاء) يجب ان تنفجر الفرقعات !
ووضع ماتيو يده على ذراعه :
— ألى هذا الحد تحبها اذن ، زوجتك ؟
— ما دخلها في هذا ؟
فسأله ماتيو : — أمن اجلها تريد تعريض نفسك للموت ؟
فصاح بينيت : — انك تضحكني ! لقد مللت تفسيراتك . اذا كان هذا هو كل ما تنتجه الثقافة ، فسوف أتعزّى من انني لا املكها.
وكانا قد بلغا بيوت القرية الاولى؛ وبغتة، اخذ ماتيو يصيح هوايضاً:
— كفى ! كفى ! كفى !
وتوقف بينيت لينظر اليه :
— ماذا دهاك ؟
فقال ماتيو مشدوهاً :
— لا شيء . انني اصبح مجنوناً .
فهز بينيت كتفيه وقال :
— يجب ان ادخل الى المدرسة . ان البنادق موجودة في غرفة الدرس.

وكان الباب مفتوحاً : فدخلا . وكان ثمة جنود يناموں على بلاط الرواق . واخرج بينيت مصباح جيبه ، فارتسمت على الجدار دائرة مضيئة .

— هنا .

وكان ثمة ركام من البنادق ، فأخذ بينيت احداها ، وتفحصها طويلاً على ضوء مصباحه ، ثم وضعها وأخذ غيرها وفحصها بعناية . وكان ماتيو يستشعر الخجل لكونه قد صرخ : يجب ان ينتظر المرء وان يحتفظ بذهنه صافياً . ان يحتفظ بنفسه لفرصة مناسبة. إن ضروب العناد لا تيسر أمراً . وبسم لبينيت .

— يبدو عليك وكأنك تختار سيكاراً .

وأخذ بينيت السلاح فوضعه راضياً على كتفه :

— اني آخذها . هيا بنا .

قال ماتيو : — اعطني مصباحك .

وأمرّ نور المصباح على البنادق : فكانت تبدو ضجرة ، ادارية ، كأنها آلات كاتبة . وقد كان صعباً ان يفكر المرء ان بوسعه ان يقتل بمثل هذه الادوات . وانحنى فتناول احداها بلا تمييز .

وسأله بينيت مندهشاً :

— ماذا تفعل ؟

قال ماتيو : — كما ترى : انني آخذ بندقية .

قالت المرأة ، وهي تصفق الباب في وجهه :

— لا .

وظل على الدرج ، مسترخي الذراعين ، على تلك الهيئة المظلومة التي يتخذها حين لا يستطيع بعدُ ان يخيف ، وتمتم « ايتهـا الساحرة

العجوز » بصوت مرتفع بما فيه الكفاية حتى اسمعه ، ومنخفض بما فيه الكفاية حتى لا تسمعه ، كلا ، كلا ، ياعزيزي المسكين جاك : كل شيء ما عدا « ســاحرة عجوز » . اخفض الآن ، اخفض عينيك الزرقاوين ، وانظر ما بين قدميك : إن العدالة، لعبتك الرجالية الجميلة، هي مهشمة ، عُد الى السيارة « بخطوتك » الأليمة الى ابعد حد ، انا اعرف : ان الاله الرحيم مدين لك بحساب ، ولكنكما ستسويان الأمر يوم الحساب (وعاد الى السيارة « بخطوته » الأليمة الى ابعد حد) . اما بشأن « ساحرة عجوز » فلا ؛ كان بوسعه ان يجد شيئاً آخر ، ان يقول « جلد قديم ، حطام قديم ، شيء قديم ، ولكن لا « ساحرة عجوز » انك تحسدينه على لغتــه العامية ؛ كلا ، ما كان ليقول شيئاً ، كان الناس ليفتحوا لنا ابوابهم على سعتها ، وليعطونا سريرهم وأغطيتهم وقمصانهم ، وكان ليجلس على حافة السرير ، فيضع باطن يده الكبيرة على الغطاء الاحمر ، وكان ليقول في احمرار : « اوديت، انهم يظنوننا زوجاً وامرأة » وما كنت لأقول شيئاً ، وكان ليقول : « سأنام على الارض الخشبية » وكنت لأقول : « ولكن لا ، لا بأس، انها ليلة وتنقضي بسرعة ، فلننم في السرير نفسه ؛ تعال يا جاك ، تعال ، فأغلقْ عيني ، واسحق فكري ، اشغلني ، كن ثقيلاً ، متطلباً، مستأثراً ، لا تتركني وحدي معه » وأتى ، فهبط الدرج ، شفافاً ، متوقّعاً جداً حتى ليشبه ذكرى ، سوف تنشق وأنت ترفع حاجبك الأيمن ، وستطبّل على الغطاء ، وستنظر اليّ بعمق ، وقام بنشقته ، وبرفع حاجبه ، وبنظرته العميقة المفكرة ، وكان هنا ، منحنياً فوقها ؛ كان يطفو في هذا الليل الضخم القاسي الذي كانت تداعبــه بأطراف اصابعها ، يطفو ، بلا كثافة ، عادياً وعتيقاً ، فأرى عبره المزرعة المظلمة الكثيفة، والطريق ، والكلب الذي يروح ويجيء ، كل شيء جديد ، كل شيء ما عداه ، انه ليس زوجــاً ، بل فكرة عامة ، اناديه ، ولكنه لا

يساعد . وبسمت له ، لأنه ينبغي دائماً ان تبسم لهم ، ومنحته الهدوء وعذوبة الطبيعة ، تفاؤل المرأة السعيدة الواثق ؛ وكانت من تحت تذوب في الليل ، تذوب في هذا الليل النسائي الكبير الذي كان يخفي ماتيو ، في مكان ما من قلبه ؛ ولم يبتسم ، وحك أنفه ، تلك حركة استعارها مع أخيه ، وانتفضت : ولكن بمَ تراني قد فكرت ، انني أنام واقفة ، فلست بعد هذه المرأة العجوز الوقحة ، لقد حلمت ، واستغرق الكلام في ليل حلقها ، ونُسي كل شيء ، ولم يكن باقياً على السطح الا عموميتهما المزدوجة الهادئة . وسألت بمرح :

— وإذن ؟

— غير وارد . يدعون ان ليس عنـــدهم عنبر ؛ ولكني أراه ، عنبرهم . إنه في اقصى الحـــديقة . ليست لي مع ذلك هيئة لص يجوب الطرقات .

قالت : — اسمع ، لا شك في اننا لا نبدو في حالة لامعة ، بعد اربع عشرة ساعة من السير .

فنظر اليها بمزيد من التنبه ، فأحست ان انفها ، تحت النظر ، يبرق كأنه منارة ؛ سيقول لي إن انفي يبرق ، وقال :

— ان تحت عينيك جيوباً ، يا عزيزتي المسكينة : فلا بـــدّ انك مرهقة .

فأخرجت بحيوية علبة البودرة من حقيبتهـــا ، ونظرت في المرآة بقسوة ؛ انني أخيف : لقد كان وجهها ، تحت ضوء القمر ، يبدو مرخماً بلطخات سود ؛ قد تكون البشاعة محتملة ، ولكني استفظع القذارة. وسأل جاك في تبرّم :

— ما عسانا نفعل ؟

وكانت قد سحبت ممسحتها ، فجعلت تمررها على وجنتيها وتحت عينيها ، وقالت :

ـ ما تشاء .

ـ انني أستشيرك .

وكان قد التقط اليد التي تمسك بالممسحة فجمدها بسلطة باسمة . انني استشيرك ، استشيرك هذه المرة ، كلما استشرتك ؛ يا صديقي العزيز ، انت تعلم جيداً انك لن تتبع رأيي . ولكنه كان بحاجة الى نقد افكار الآخرين ، ليعي أفكاره . وقالت كيفما تأتى لها :

ـ لنتابع ، فربما وجدنا اناساً ألطف .

ـ لا ، شكراً ! إن التجربة تكفيني . ها ! (وأضاف بقوة) انني احتقر الفلاحين !

ـ اتريد ان نظل سائرين طوال الليل بالسيارة ؟

ـ طوال الليل ؟

ـ سنكون صباح الغد في غرنوبل ، فيكون بوسعنا ان نرتاح لدى اسرة « بليريو » ، ثم نستأنف بعد الظهر لننام في كاستيلان : وسنصل الى « جوان » بعد الظهر .

ـ انك لا تقدرين هذا !

واتخذ هيئته الرصينة ليضيف :

ـ انني متعب جداً ، وسوف أنام وراء المقود ونستيقظ في الحفرة .

ـ أستطيع ان أحل محلك .

ـ يا حبيبتي ، ضعي دائماً في رأسك فكرة انني لن ادعك ابداً تسوقين في الليل . فستكون العملية ، بسبب نظرك الحسر ، عملية قتل . إن الطرقات مزدحمة بالعربات والشاحنات والسيارات : أشخاص لم يمسوا المقود في حياتهم ، وقد انطلقوا مع ذلك ، يخبطون خبط عشواء ، بدافع الذعر . كلا : اننا بحاجة الى أعصاب رجل .

وانفتحت مصاريع ، فبرز رأس على نافذة ، وقال صوت خشن :

ـ اترانا نستطيع ان ننام بهدوء ؟ إذهبا فتحدثا بعيداً ! يلعن دين !

فقال جاك بسخرية صافعة :

— شكراً كثيراً يا سيدي ، انك مؤدب جداً ومضياف !

وغرق في السيارة ، فصفق البـاب وأقلع بوحشية ؛ ونظرت اليه اوديت بطرف عينها : كان الأفضل ان تصمت ؛ انه يسير ثمانين على الاقل ، مطفئاً كـل أنواره لأنه كان يخشى الطائرات ؛ ومن حسن الحظ ، ان القمر بدر . وانقذفت الى الباب :

— ماذا تفعل ؟

كان قـد حاد بالسيارة ، من غير ان يخفف السير ، الى طريق معترضة . وسار فترة اخرى ، ثم توقف فجأة • فصف السيارة في آخر الطريق ، تحت باقة من الشجر .

— سننام هنا .

— هنا ؟

وفتح الباب ، فهبط من غير ان يجيب ، فانسلت خلفه ، وكان الهواء رطباً تقريباً .

— اتريد ان ننام خارجاً ؟

— كلا .

فنظرت بأسف الى العشب الأسود الرقيق ، وانحنت فجسته كما تجس الماء .

— اوه ! جاك ! سنكون في وضع مريح ؛ وبوسعنا ان نخرج الأغطية مع وسادة .

فردد : — كلا (وأضاف بحزم) سننام في السيارة ، فنحن لا نعرف من يمر على الطرقات في هذه اللحظة .

وكانت تنظر اليه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، يداه في جيبه ، وخطوته فتية راقصة ؛ فاي شيطان يغني في الأشجار ، فيضطر جاك الى القفز والرقص على الإيقاع . وأدار نحوها سحنة مهمومة شائخة ،

ذات عينين هاربتين : هناك أمرٌ ذو بال ؛ لكأنه كان يشعر بالعار ؛ وعاد الى السيارة ، وكانت نضارة الآلة السحرية وانطلاقها قـــد ذابا فيه ، وسالا حتى قدميه يستخفّانه بجذل . كان يكره النوم في السيارة . فمن تراه يعاقب ؟ أيعاقب نفسه ، ام يعاقبني ؟ وكانت تحس نفسها مذنبة ، من غير ان تعرف الذنب . وسألها :

— لماذا تبدين متجهمة هكذا ؟ ها نحن على دروب المغامرة الكبيرة: فينبغي ان تكوني مسرورة .

فخفضت عينيها : لم اكن اريد الرحيل ، يا جاك ، انني أسخر بالألمان ، وكنت اريد ان ابقى في بيتي : فـــاذا استمرت الحرب ، قُطعنا عنه ، بل لن نعرف إن كان قد قتل . وقالت :

— افكر في اخي وفي ماتيو .

قال جاك في بسمة مريرة :

— إن راوول في هذه اللحظة، موجود في كاراكاس ، في سريره .

— وليس ماتيو .

فاجاب جاك : — اذكري جيداً ان أخي قد عُيّن في الخدمات الفرعية . وهو بهذا لا يجابه ايّ خطر . كل مـــا في الامر انه قد يكون أسيراً . انت تتصورين ان جميع الجنود أبطال . ولكن لا ، يا عزيزتي المسكينة : إن ماتيو كاتب بسيط في اركان حرب غير محدد؛ فهو لا يقل اطمئناناً عما اذا كان في المؤخرة، بل لعله اكثر اطمئناناً منا في هذه اللحظة . وهم يسمون هذا « مخبأ » في لغتهم الخاصة . والحق اني أهنيء نفسي من أجله .

فقالت اوديت من غير ان ترفع عينيها :

— ليس طريفاً ان يكون المرء أسيراً .

فتأملها برصانة .

— لا تقوّليني ما لم أقله ! إن مصير ماتيو يُحدث لي قلقاً كبيراً .

ولكنه شخص صلب ، يعرف ان يتدبر أمره بشطارة . بلى ، بلى ، شاطر اكثر مما تظنين ، بالرغم من منظره الشارد ، وانا اعرفه خيراً مما تعرفينه . إن في تردداته ، السرمدية عمقاً وصلابة ، وهو صاحب شخصية . وسوف يتدبر امره هناك لايجاد الوضع المناسب : انني أتمثله ناجحاً في ان يكون سكرتيراً لضابط ألماني ، او طباخاً ... إن هذا يناسبه كما يناسب القفاز يداً ! (وابتسم وردد بتلذذ) طباخ ، أجل ، طباخ ، كالقفاز (وأضاف في مسارّاة) اذا اردت ان تعرفي فاني اعتقد ان الأسر سيثقل رأسه ويزيل شروده ، فيعود الينا رجلاً آخر .

فسألت اوديت ، منقبضة الحلق :

— وكم يدوم الأسر !

— كيف تريدينني أن أعرف ذلك ؟

وهز رأسه وقال :

— ان ما يمكنني ان اقوله لك هو اني لا ارى ان الحرب يمكن ان تدوم وقتاً طويلاً . ان الهدف التالي للجيش الالماني هو انكلترا ... و « الشانيل » ضيق جداً ...

قالت اوديت : — سيدافع الانكليز عن أنفسهم .

— بكل تأكيد . بكل تأكيد (وباعد بين ذراعيه في ارهاق) وانا لا ادري ان كان علينا ان نتمنى ذلك .

ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ كان الامر في البدء يبدو بسيطاً : كانت قد ظنّت انها ينبغي ان تتمنى النصر ، كما في عام ١٤ . ولكن لم يكن ثمة من يبدو عليه انه يشتهيه . لقد ابتسمت في جذل . كما رأت امها تبتسم ، ساعة هجوم « نيفل » ، ورددته بقوة : « أجل ! سننتصر : ويجب ان نقول بيننا اننا « لا يمكن » الا ننتصر . » وكان ذلك يوحي لها بالاشمئزاز من نفسها ، لأنها كانت تحتقر الحرب حتى ولو في النصر . ولكن الناس كانوا يهزون رؤوسهم

من غير ان يجيبوا ، كما لو انها كانت تعوزها البصيرة ، فلزمت اذ ذاك الصمت ، وحاولت ان تجعل الجميع ينسونها ؛ كانت تسمعهم يتحدثون عن ألمانيا ، وعن انكلترا ، وعن روسيا ، فلم تكن تدرك حتى ما يريدونه ؛ وكانت تفكر : « لو كان هنا ، لشرح لي . ولكنه لم يكن هنا ، بل هو لم يكن حتى ليكتب : فطوال تسعة أشهر ، أرسل رسالتين لجاك . ما هو رأيه ؟ لا بدّ انه يعرف ، لا بد انه يدرك ، واذا لم يكن يدرك ؟ اذا لم يكن ثمة أحد يدرك ؟ ورفعت رأسها فجأة : كانت تودّ لو تجد لدى جاك تلك الهيئة من الوثوق القرير الذي كان ما يزال يطمئنها احياناً ، كانت تودّ لو تقرأ في نظره ان كل شيء على ما يرام ، وان الناس كانوا يملكون اسباباً للامل كانت تغيب عنها . أمل في اي شيء ! أصحيح ان انتصار الحلفاء لا يمكن ان يفيد غير روسيا ؟ كانت تسأل هذا الوجه المألوف اكثر مما ينبغي ، وفجأة بدا لها وجهاً جديداً : لقد رأت عينين مسودّتين بالقلق ؛ وكان قد بقي بعض العبوس عند زاويتي الشفتين ، ولكن ذلك كان غطرسة متجهمة لصبي اكتُشفت غلطته . « إنه يشكو شيئاً ، فهو غير مطمئن . » والواقع انه كان يتصرف بغرابة ، منذ تركا باريس ، فيبدو تارة اعنف مما ينبغي ، وطوراً أرق مما ينبغي . انه لمريع ان يبدو الرجال وكأنهم يُحسّون بأنهم مذنبون . وقال :

— انني اموت رغبة في التدخين .

— أليس معك سكاير بعد ؟

— لا .

قالت : — خذ ، بقي معي اربع منها .

وكانت سكاير « دوريزك » ، فمطّ شفتيه ، وتناول احداها متحدياً ، وقال وهو يضع العلبة في جيبه :

— انها من القش !

ولاول نفثة نفثها ، شمّت اوديت رائحة التبغ ؛ وجففت حلقهـا رغبةٌ في التدخين . لمدة طويلة ، وبالرغم من انها كفت عن ان تحبه، كان يروق لها ان تستشعر العطش حين كان يشرب بقربها ، والجوع بينما يأكل ، وان تنعس إذ تنظر اليه نائماً ، كان ذلك يطمئنها : لقد كان يأخذ منها رغباتها ، فيطهّرها ، ويُشبعها لها ، على نحو اكثر رجولة واخلاقية وحسماً . اما الآن ..

وقالت بضحكة خفيفة :

ــ اعطني منها واحدة على الاقل .

فنظر اليها من غير ان يفهم ، ثم رفع حاجبيه .

ــ اوه ! عفــواً ، يا عزيزتي المسكينة : لقــد كانت مني حركة آلية .

وأخرج العلبة من جيبه ، فقالت :

ــ تستطيع ان تحتفظ بالعلبة ، ولكن أعطني منها واحدة .

ودخنا في صمت ، وكانت خائفــة من نفسها ؛ كانت تتذكر الرغبات العنيفة والتي لا تقاوم التي كانت تزرع فيها الاضطراب اذ كانت فتاة . ربما كانت ستعاودها الآن . وسعل مرتين او ثلاثــاً ليصفي صوته : انه يريد ان يحدثني . ولكنه يتباطأ كالعادة . وكانت تدخن بصبر : انه سيدخل موضوعه من جانب ؛ كالعقارب . وكان قد استقام ، فألّف ملامح وجهه ونظر اليها في قسوة . وقال :

ــ هكذا ، يا عزيزتي المسكينة اوديت !

فبسمت له بإبهام . لمجرد ما سيقول . ووضع يده على كتفها :

ــ يجب ان تقرّي الآن انها مغامرة شاقة .

قالت : ــ نعم . نعم . انها كذلك .

وظلّ ينظر اليها . واطفأ سيجارته على عتبة السيارة وسحقها تحت

قدمه ، واقترب منها ، وقال لها بقوة ، كأنما ليقنعها :

— ولكننا لا نواجه اي خطر .

فلم تجب ، وتابع بصوت ملحّ ورقيق :

— انني على ثقة من ان الألمان سيتصرفون جيداً ، سيحرصون على ان يتصرفوا تصرفاً جيداً .

وكان هذا هو ما فكرت به دائماً . ولكنها قرأت في عيني جاك الجواب الذي كان ينتظره منها ، فقالت :

— من يدري ؟ واذا أغرقوا باريس بالخراب ؟

فهزّ كتفيه :

— ولكن كيف تظنين ذلك ؟ الحق ان هذه افكار نسوية !

وانحنى عليها ، وأوضح لها بصبر :

— اسمعي يا اوديت ، وحاولي بان تفهمي : لا شك في ان برلين ستكون لديها الرغبة ، بعد الهدنة مباشرة ، ان تجعل فرنسا ممثلة في عداد اعضاء « المحور » ، بل ربما كانوا يعتمدون هناك على نفوذنا في امريكا ليبقوا الولايات المتحدة خارج الحرب . هل تتابعينني جيداً ؟ وبكلمة واحدة ، إن لنا مزايا كثيرة ، حتى ولو هُزمنا . (وأضاف بضحكة صغيرة) بل سيكون هناك دور هام يلعبه رجالنا السياسيون اذا أحسوا انهم قادرون على ذلك . حسناً . في مثـــل هذه الشروط ، لا يمكن حتى ان نتخيّل الألمان وهم يوشكون ان يثيروا عليهم الرأي العام الفرنسي بارتكاب أعمال عنف غير مجدية .

فقالت منزعجة : — هذا رأيي بالذات .

— آه ؟

وكان ينظر اليها وهو يعضّ شفته ، وكان يبدو من شدة الحيرة ، بحيث اسرعت تضيف :

— ولكن مع ذلك ، كيف لنا ان نتأكد ؟ افرض انهم أطلقوا

عليهم النار من النوافذ ؟

فالتمعت عينا جاك :

ــ لو كان ثمة من خطر ، لبقيت . فانما صممت على الذهاب لأني كنت متأكداً من انه لم يكن هناك خطر .

وكانت تتمثله يدخل الصالون في هدوء كبير مستطــار ، وتسمعه مرة اخرى يقول بأوضح صوت يملكه ، وهو يشعل سيجارة بيــد ترتجف : « اوديت ، احزمي امتعتك ، فالسيارة تحت ، وسنرحــل بعد ثلاثين دقيقة . » فما الذي يقصده ؟ وندّت منه ضحكة سيئة ؛ وقال في شكل من اختتام الحديث :

ــ على كل حال ، هذا ما يُسمّى « ترك المركز » .

ــ ولكن لم يكن لك مركز ؟

قال : ــ بل كنت قائد حاملة طائرات . (ودفع براحته اعتراضاً ممكناً) اعرف ان هذا مضحك ؛ وانا لم اقبل الا على إلحاح شامبوتوا. ولكن حتى هناك ، كان يمكنني ان اقدم خدمة . ثم انه كان علينا ان نكون قدوة .

وكانت تنظر اليه بلا ود : نعم ، نعم ، « نعم » كان عليك ان تبقى في باريس ، فلا تعتمد عليّ لأقول لك العكس . وتنهد :

ــ مهما يكن . ما حصل قد حصل . كان الامر يكون مريحاً اكثر مما ينبغي لو لم يكن لدينا الا واجبات متوافقة . (واضاف) انني أضجرك يا عزيزتي المسكينة . فهذه وساوس رجالية .

قالت : ــ احسب اني استطيع ان أفهمها .

ــ طبعاً ، يا صغيرتي ، طبعاً (وبسم بسمة رجولية متوحدة ثم أخذ معصمها وقال لها بصوت مطمئن) ولكن لنفكر : ماذا كان عساه يحدث لي ؟ في اسوأ الظروف كانوا ليأخذوا الرجــال الأصحاء الى المانيا ، وبعد ذلك ؟ إن ماتيو هنــاك . صحيح أنه ليس له قلبي

الملعون . ولكن تذكرين ، حين سرّحني ذلك الماجور الأبله ؟
— نعم .
— لقد كنت مجنوناً من الغضب ، وكنت مستعداً ان افعل اي شيء : اتذكرين ؟ اتذكرين كم كنت غاضباً ؟
— نعم .
وجلس على عتبة السيارة ، ووضع رأسه بين يديه ؛ وكان ينظر امامه باستقامة ؛ وقال وعيناه ثابتتان :
— لقد بقي شرفوز .
— ماذا ؟
— لقد بقي . التقيت به هذا الصباح في المرأب ، وقد بدت عليه الدهشة ان أرحل .
فقالت بآلية : — ولكن الامر معه يختلف .
قال في مرارة : — نعم . في الواقع . فهو عازب .
وكانت اوديت واقفة الى يساره ، تنظر الى جلدة رأسه التي كانت تلمع ، في اماكن ، تحت شعره ، وتفكر : هذا هو السبب إذن !
وكانت عيناه غائمتين . وقال بين أسنانه :
— لم يكن ثمة من أستودعه إياك .
فتصلبت :
— ماذا ؟
— اقول اني لم اكن استطيع ان استودعك احداً . ولو جرؤت على انّ ادعك تذهبين وحدك الى بيت عمتك ...
فسألته بصوت مرتجف :
— أتعني انك انما رحلت بسببي ؟
فأجاب : — كانت هذه حالة ضميرية .
وكان ينظر اليها بشغف :

ـ في هـــذه الايام الأخيرة ، كنت ثائرة الأعصاب جداً : كنت تخيفيني .

وكانت بكماء من الذهول : ولكن لماذا يجب ؟ لماذا يعتقد نفسه مضطراً ؟

وكان يتابع بمرحٍ يثير الأعصاب :

ـ كنت تُبقين النوافذ مغلقة ، وكنا نعيش طوال النهار في الظلام ، وكنت تراكمين المعلبات ، وكنت امشي على عاب السردين .. وأظن بعد ذلك ان لوسيان كانت تسيء اليك كثيراً ، وحين كانت تخرج من بيتنا ، تتغيرين تماماً : لقد كانت شديدة الذعر ، وساذجة جداً ايضاً ، وتميل الى تصديق جميع قصص الاغتصاب والأيدي المقطوعة .

لا اريد . لا اريد ان اقول له ما يريد ان يحملني على قوله . فماذا يبقى لي في الدنيا اذا احتقرته ؟ وتراجعت خطوة الى الوراء ، وكان يحدد فيها نظراً فولاذياً ، ويبـــدو وكأنه يقول : « قوليها ، ولكن آن لك ان تقوليها ! » ومن جديد كان يشعر تحت هذا النظر النسري، هذا النظر الزوجي ، بأنه مذنب ، ربمـــا ظن بأنه كانت لي رغبة في الرحيل ، وربما كنت ابدو خائفة ، وربما كنت خائفة من غير ان ادري . فما هو الصحيح ؟ ان ما كان صحيحاً حتى الآن ، هو ما كان يقوله جاك ، فاذا كففت عن تصديقه ، فماذا أصدق ؟ وقالت وهي تخفض رأسها :

ـ ما كنت احب ان أبقي في باريس .

فسألها بطيبة : ـ هل كنت خائفة ؟

قالت : ـ نعم . كنت خائفة .

وحين رفعت رأسها ، كان ينظر اليها وهو يضحك ، وقال :

ـ كفى ! كل هـــذا ليس خطيراً : صحيح ان قضاء ليلة تحت ضوء القمر لا يناسب عمرنا بعد ، ولكننا ما نزال نجد في ذلك بعض

السحر . (وداعب رقبتها قليلاً) اتتذكرين « هيار » عام ٣٦ ؟ لقد نمنا تحت الخيمة ، وهذه من ذكرياتي الجميلة .

فلم تجب ، وكانت قد وضعت يدها على مقبض الباب تشده بكل قواها . وخنق تثاؤبة .

– ولكن اصبح الوقت متأخراً . اتريدين ان ننام ؟

فأومأت برأسها ايجاباً . وصاح حيوان ليلي ، فانفجر جاك ضاحكاً، وقال :

– إن هذا ريفي ! ادخلي الى السيارة (قالها بملاطفة) وتستطيعين ان تمدّي ساقيك قليلاً ، اما انا ، فسأنام على المقود .

ودخلا السيارة ، وأقفل بالمفتاح الباب الأيمن ، ودفع كاب الأيسر .

– هل انت مرتاحة ؟

– مرتاحة جداً.

وأخرج المسدس وتفحّصه في متعة ، وقال :

– هذا وضع كان يمكن ان يسحر جدي القرصان (وأضاف بمرح) اننا كلنا في الاسرة لا نخلو من طبع القرصنة .

ولم تكن تقول شيئاً . والتفت من مقعده فأخذ بيده ذقنها :

– قبّليني يا حبيبتي .

وشعرت بفمه الحار المفتوح ينسحق على فمها ، ولحس قليلاً شفتيها كما كان يفعل في السابق ، فارتعشت ، وفي الوقت نفسه احست يداً تتسلل تحت إبطها وتداعب نهدها ، وقال بحنان :

– عزيزتي المسكينة اوديت ، عزيزتي الصغيرة .

وارتمت الى خلف . وقالت :

– انني اموت من النعاس .

قال باسماً : – تصبحين على خير ، يا حبيبتي .

وانفتل فشبك ذراعيـــه على المقود وترك رأسه يسقط على يديه .

وظلت هي جالسة ، مستقيمة الصدر ، منزعجة : كانت ترصده . زفرتان ، ليس هذا بعد . فهو ما يزال يتحرك . ولم تكن تستطيع ان تفكر بشيء ما دام ساهراً وفي رأسه هذه الصورة عنها ، لم تستطع قط ان تفكر بشيء ما دام بالقرب منهـا . حسناً : لقد ارسل أناته الثلاث ، واسترخى قليلاً : فهو ليس بعد الا حيواناً . كان نائماً ، وكانت الحرب نائمة . وكان عالم البشر نائماً ، غارقاً في هذا الرأس ، المستقيم في الظلام ، بين النافذتين المغبرتين ، في جوف بحيرة قمرية . كانت اوديت ساهرة ، وعاود ذهنها انطباع قديم جداً ، كنت أعدو على درب صغير وردي ، وكنت في الثانية عشرة ، فتوقفت وقلبي يخفق بفرحة قلقة ، وقلت بصوت مرتفع : انني لازمة ولا غنى عني . ورددت : انني لازمة ولا غنى عني ، ولكنهـا لم تكن تعرف لأي شيء ، وحاولت ان تفكر في الحرب ، وكان يخيل اليها انها ستجد الحقيقة : « أصحيح ان النصر لن يفيد الا روسيا ؟ » وسرعان ما تركت ، وانقلبت فرحتها الى اشمئزاز : انني لا اعرف من الأمر ما فيه الكفاية .

وأخذتها الرغبة في التدخين . ليست حقاً رغبة ، وانما هي عصبية. وانتفخت الرغبة وانتفخت ، فملأت نهديها . رغبةٌ حاسمةٌ وفاتحة ، كما كان يحـدث في زمن طفولتها المتغطرسة ، لقد وضع العلبة في جيب سترته ، لماذا تراه يدخن بعد ؟ ان مذاق التبغ ذاك في فمه ، لا بد ان يكون مضجراً جـداً ، اصطلاحياً جداً ، فلماذا تراه يدخن ولا أدخن ؟ وانحنت فوقه ، وكان يتنفس ، فدست يدها في جيبه ، وأخرجت السكاير ثم فتحت الباب على مهل وهي ترد الكلب ، وانسلت الى الخارج . ان القمر عبر الاوراق ، وبحيرات القمر على الطريق ، وهذه النسمة الرطبة ، وصرخة ذلك الحيوان . كل هذا لي انا . وأشعلت سيكارة ، ان الحرب تنام ، وبرلين تنام ، وموسكو ، وتشرشل ،

والمكتب السياسي ، ورجالنا السياسيون ينامون ، كل شيء ينام ، وليس ثمة من يرى ليلي ، انني لازمة ولا غنى عني ، والمعلبات كانت لجنودي الذين أهتم بهم في الحرب . ولاحظت فجأة انها كانت تحتقر التبغ ، وسحبت نفسين آخرين من سيكارتهـــا ثم رمتها : انها لم تكن لتعرف لماذا شاءت ان تدخن . وكان حفيف الشجر ينبعث بعذوبة ، وكان الريف يقضقض كالأرض الخشبية . وقد كانت النجوم حيوانات : وكانت هي خائفة ، كان ينام ، وكانت هي قد وجدت ثانية عالم طفولتهـــا المظلم ، غابة الاسئلة التي ليس لها أجوبة ، كان هو الذي يعرف اسماء النجوم ، والمسافة الدقيقة التي تفصل الأرض عن القمر ، وعدد سكان المنطقة ، وتاريخهم وشواغلهم ، هو ينام ، وانا احتقره ولا اعرف شيئاً ، وكانت تحس نفسها ضائعة في هذا العالم غير القابل للاستعمال ، في هذا العالم الذي « يُرى ويُلمس » . وهرعت الى السيارة ، وكانت تود ان توقظـــه على الفور ، ان توقظ « العلم » و « الصناعة » و « الاخلاق » . ووضعت يدها على المقبض ، وانحنت على الباب ، فرأت عبر الزجاج فماً كبيراً فاغراً . وقالت في نفسها : ما الفائدة ؟ وجلست على العتبة ، وأخذت ككل مساء ، تفكر في ماتيو .

كان الملازم يرقى السلم المظلم راكضاً ، وكانوا يركضون ويدورون حوله ، وتوقف في وضح الليل ، فدفع برقبته باب سقف ، فبهرهم ضوء فضي .

ـــ اتبعوني .

فانبثقوا في السماء الباردة النيرة المليئة بالذكريات وبالأصوات الخفيفة .

وقال صوت :

ـــ ما هذا ؟

قال الملازم : – هذا أنا .

– انتبهوا !

قال : – استراحة .

وكانوا يجدون انفسهم فوق سطح مربع ، في رأس برج الأجراس. وكانت اربعة اعمدة تسند السقف ، لدى الزوايا الأربع . وبين الأعمدة كان يركض إفريز حجري بارتفاع مترٍ تقريباً . وكانت السماء في كل مكان . وكان القمر يعكس على الارض الخشبية ظل عمـود مائلاً .

قال الملازم :

– هل الامور على ما يرام ، هنا ؟

– لا بأس ، يا سيدي الملازم .

وكان ثلاثة افراد يواجهونه : وكانوا ثلاثتهم طوالاً هزالاً يحملون البنادق . وكان ماتيو وبينيت واقفين خلف الملازم ، خائفين . وسأل احد الجنود الثلاثة :

– هل نبقى هنا ، يا سيدي الملازم ؟

قال الملازم : – نعم (وأضاف) لقد أقمت « كلاسون » واربعة افراد في دار البلدية ، اما البـاقون فيحتلون المدرسة معي . وسيقوم دراير بعملية الاتصال .

– وما هي الاوامر ؟

– اطلاق النار كما تريدون . وباستطاعتكم تصفية الذخيرة .

– ما هذا ؟

نداءات مخنوقة ، وجرجرة اقدام : وكانت الاصوات صادرة عن الشارع . وابتسم الملازم :

– انهم فاتنـو اركان الحرب الذين حبستهم في قبو البلدية . ان المكان ضيِّق عليهم ، ولكن ذلك سيكون لليل فحسب : فغداً صباحاً ، يتسلمهم الالمان بعد ان يفرغوا منا .

ونظر ماتيو الى الجنود ، كان يشعر بالعار من أجل الرفاق ، ولكن الوجوه الثلاثة ظلت جامدة . وقال الملازم :

– آه ! في الساعة الحادية عشرة سيجتمع سكان القرية في الساحة، فلا تطلقوا عليهم النار . انني ارسلهم ليقضوا الليل في الغابات . وبعد مرورهم ، أطلقوا النار على كل من يعبر الطريق . ولا تهبطوا لأية ذريعة : فاذا فعلتم ، اطلقنا نحن النار عليكم .

وتوجه نحو باب السقف . وكان الجنود يحدجون ماتيو وبينيت في صمت .

قال ماتيو : – يا سيدي الملازم ...

فالتفت الملازم ، وقال :

– لقد نسيتكما . ان هذين يريدان ان يقاتلا (متوجهاً الى الآخرين) إن معهما بندقيتين ، وقد اعطيتهما جرابين للطلقات. فانظروا ما تفعلون بهما . فاذا أساءا اطلاق النار ، فاستردوا منهما الجرابين .

ونظر الى الجنود في صداقة .

– وداعا ايها الرفاق ، وداعا .

فقالوا بأدب : – وداعا يا سيدي الملازم .

وتردد لحظة وهو يهز رأسه ، ثم هبط درجات السلم متقهقراً، ورد دونه باب السقف . وكان الافراد الثلاثة ينظرون الى ماتيو وبينيت من غير فضول ولا ود . وقام ماتيو بخطوتين الى الخلف ، فاستند الى عمود . وكانت بندقيته تزعجه ؛ كان احياناً يحملها في كثير من اللامبالاة، وأحياناً اخرى يمسكها كشمعدان . وانتهى بأن أضجعها على الارض في حيطة . ولحق به بينيت ، وكان كلاهما يولي القمر ظهره ، وعلى العكس ، كان الجنود الثلاثة في صميم النور . وكان الزبد الأسود نفسه يلطخ وجوههم الطبشورية ؛ وكان لهم نظر واحد يشبه نظر طيور الليل .

قال بينيت : – لكأننا في زيارة .

فابتسم ماتيو ؛ ولم يبتسم الافراد الثلاثة . واقترب بينيت من ماتيو وهمس :

– لا يبدو انهم يتقبلوننا تقبلاً حسناً .

قال ماتيو : – صحيح !

وسكتا منزعجين . ومال ماتيو ، فرأى تحته تموّج اشجار الكستناء. وقال بينيت :

– انني ذاهب للتحدث معهم .

– لا ، إلزم هدوءك .

وكان بينيت قد تقدم باتجاه الجنود :

– اسمي بينيت . اما رفيقي ، فهو دولارو .

وتوقف ينتظر . وأومأ اكبرهم برأسه ، ولكنهم لم يعرّفوا انفسهم. وتنحنح بينيت وقال :

– نحن هنا لنقاتل .

فظلوا على صمتهم ، وكزّ الطويل الاشقر وصرف رأســه . وتردد بينيت مرتبكاً .

– فأي عمل نعمله ؟

وكان الطويل الاشقر قد ارتد الى خلف يتثاءب . ورأى ماتيو انه كان « عريفاً » .

وكرر بينيت :

– اي عمل نعمله ؟

– لا شيء .

– كيف ، لا شيء ؟

– لا شيء ، الآن .

– وبعد ذلك ؟

ـ سنبلغكما .
وابتسم ماتيو لهم :
ـ اننا نبعصكم ، أليس كذلك ؟ انكم تفضلون ان تكونوا وحدكم.
ونظر اليه الاشقر الطويل بتفكر ، ثم التفت الى بينيت :
ـ ما مهنتك انت ؟
ـ موظف في المترو .
فضحك الكابورال ضحكة قصيرة ، ولكن عينيه لم تكونا تضحكان .
ـ أتحسب نفسك قد عدت مدنياً ؟ انتظر قليلاً .
ـ آه ! تعني : هنا ؟
ـ نعم .
ـ مراقب .
ـ وهو ؟
ـ على المخابرات التلفونية .
ـ مساعد ؟
ـ نعم .
فنظر اليه العريف في جهد ، كما لو انه يجد مشقة في تثبيت انتباهه عليه :
ـ ما الذي تشكوه ؟ يبدو عليك القوة والشدة ...
ـ القلب ...
ـ هل اطلقت النار في حياتك على رجال ؟
قال ماتيو : ـ ابداً .
فالتفت العريف نحو رفاقه . وكانوا ثلاثتهم يهزون رأسهم . وقال بينيت بصوت مخنوق :
ـ سنبذل جهدنا للتصويب جيداً .
وحدثت لحظة صمت طويلة . وكان العريف ينظر اليهم وهو يحك

رأسه . وأخيراً تنهد وبدا عليه انه صمّم . ونهض فقال بصوت اجش:

– إنني أُدعى كلابو . ويجب ان تطيعاني انا . اما الآخران فهما شاسيريو ودانديو ، وما عليكما ان تفعلا الا ما يقولانه لكما ، لأن خمسة عشر يوماً قد انقضت ونحن نقاتل ، فألفنا ذلك .

فردد بينيت غير مصدق :

– منذ خمسة عشر يوماً ؟ وكيف حدث ذلك ؟

فأجاب دانديو : – كنا نغطي انسحابكم .

فاحمر بينيت وخفض انفه . وأحس ماتيو بفكيه ينقبضان . وأوضح كلابو بلهجه اكثر مصالحة :

– مهمه تأخير .

وتبادلوا النظر من غير ان يقولوا شيئاً . وأحس ماتيو بالضيق ؛ وكان يفكر : « لن نكون ابداً منهم . لقد قاتلوا خمسة عشر يوماً متتالية ، وكنا نحن نهرب على الطرقات ، وسيكون الامر ايسر مما ينبغي اذا كان يكفي ان ننضم اليهم حين يطلقون الاسهم النارية النهائية. لن نكون ابداً منهم ، ابداً . ان الذين نمت اليهم هم تحت ، في القبو ، يأسنون في العار والشقاء ، ومكاننا بينهم ، وقد تخلينا عنهم في اللحظة الاخيرة بدافع الكبرياء . » وانحنى فرأى البيوت السوداء ، والطريق التي تلمع ؛ وكان يردد لنفسه : « ان مكـــاني هو تحت ، مكاني تحت . » وكان يعلم في صميم قلبه انه لن يستطيع بعد ان يهبط من جديد . وجلس بينيت راكباً الافريز ، ليمنح نفســه التماسك من غير شك .

وقال كلابو : – انزل من هنا ، فانك قد ترشدهم الينا .

– ان الالمان ما يزالون بعيدين !

– وما ادراك ؟ اقول لك ان تنزل .

فقفز بينيت على الارض الخشبية في استياء ، وفكر ماتيو: «انهم لن

يقبلونا ابداً . » وكان بينيت يزعجه : كان يتحرك ويتحدث حين كان ينبغي له ان يمحّي ويُمسك انفاسه ويجعل الناس ينسونه . وانتفض ماتيو : فقد انفجر في اذنه انفجار هائل ، ثقيل ودبق ، ثم انفجار آخر ، وثالث : صرخـــات برونزية ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه . وضحك بينيت ضحكة عصبية :

— لا حاجة بك للخوف : انها الساعة تدق .

وألقى ماتيو نظرة على الجنود ، فلاحظ برضى انهم كانوا هم ايضاً قد انتفضوا مذعورين .

قال بينيت : — انها الساعة الحادية عشرة .

وارتعش ماتيو : كان يحس البرد ، ولكن ذلك لم يكن بلا لذة . كان عالياً جداً في السماء ، فوق السقوف ، وفوق الرجال ، وكان يشعر بالبرد ، وكان الظلام سائداً . « كلا ، لن انزل ثانيـــة ، لن انزل بأي ثمن . »

— ها هم المدنيون يرحلون .

وانحنوا جميعاً فوق الافريز . ورأى حيوانات سوداء تتحرك تحت الاوراق ، فكأنها اعماق البحر تتحرك . وفي الشارع الكبير ، انفتحت ابواب ببطء ، وكار رجال ونساء واطفال ينسلّون الى الخارج ، وكان معظمهم يحملون حزماً او حقائب. وتشكّلت جماعات صغيرة في الشارع : وكان يبدو انهم ينتظرون . ثم ذابت الجماعات في موكب واحد تحرك ببطء نحو الجنوب .

قال بينيت : — لكنها جنازة !

قال ماتيو : — يا للمساكين!

فأجاب دانديو بجفاء :

— لا ترْثِ لهم . فسوف يعودون الى بلدهم . ونادراً ما يشعل الالمان النار في القرى .

قال ماتيو وهو يشير الى روبيرفيل :

– وتلك ؟

– ليس الامر سواء : فقد كان الفلاحون يطلقون النار معنا .

واخذ بينيت يضحك :

– لم يكن الامر اذاً كما هو هنا ! فكم كان الفلاحون هنا هادئين !

فنظر اليه دانديو :

– انكم لم تكونوا تقاتلون : واظن ان ليس على المدنيين ان يبدأوا.

فسأل بينيت في غضب :

– ومن هو المذنب ؟ من هو المذنب اذا لم نكن نقاتل ؟

– لا ادري .

– الضباط ! ان الضباط هم الذين خسروا الحرب .

قال كلابو : – لا تتحدث بالسوء عن الضباط . فليس لك الحق ان تتحدث عنهم بالسوء .

– ان هذا لا يزعجني .

قال كلابو بحزم : – لن تتحدث عنهم بالسوء امامنا . لأني سأقول لك : فباستثناء الملازم ، وهي ليست غلطته ، فان جميع ضباطنا بقوا .

وأراد بينيت ان يوضح رأيه ، فمد ذراعيه نحو كلابو ، ثم تركهما تسقطان ، وقال في ارهاق :

– اننا لا نستطيع ان نتفاهم .

وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في فضول :

– ولكن لماذا اتيت الى هنا اذن ؟

– لقد جئنا لنقاتل ، كما قلت لك من قبل .

– ولكن لماذا ؟ انت لست مجبراً على ذلك .

وكان بينيت يقهقه بهيئة بليدة .

– هكذا ! لنتلوى من الضحك !

قال كلابو بلا عذوبة :

ـ حسناً ! ستتلويان من الضحك ! أؤكد لكما ذلك !

وكان دانديو يضحك اشفاقاً :

ـ اسمعهما : لقد جاءا يزوراننا ، ليتلويا من الضحك ، ليريا كيف يكون البارود ؛ وهما يريدان ان يتمرنا على اصابة المرمى ، كما في صيد الحمام . ثم انهما غير مجبرين حتى على ذلك !

فسأله بينيت : ـ وانت ، يا ابله ، من يجبرك على ان تقاتل ؟

ـ نحن ، ليس الامر مشابهاً : فاننا جنود مطاردة .

ـ يعني ؟

ـ لو كنتَ كذلك ، لقاتلت .

فهز رأسه :

ـ انت تتحدث كما لو انني سأطلق النار على الرجال لمجرد لذتي .

وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في مزيج من الذهول والنفور :

ـ هل تدرك انك تجازف بروحك ؟

فهز بينيت كتفيه من غير ان يجيب . وتابع شاسيريو :

ـ اذا كنت مدركاً ذلك ، فانك اشد بلاهة مما يبدو عليك . فليس من سلامة الحسّ ان يجازف المرء بحياته اذا لم يكن مجبراً على ذلك .

قال ماتيو فجأة :

ـ كنا مجبرين على ذلك . كنا مجبرين . فقد كنا ضجرين ، ولم نكن نعرف ما ينبغي لنا ان نعمل .

وأشار الى المدرسة تحتهم .

ـ كان امامنا ان نختار بين برج الاجراس والقبو .

فبدا على دانديو الاهتمام ، وتقلصت ملامحه قليلاً . وتابع ماتيو :

ـ فما عساكم تفعلون ، لو كنتم في وضعنا ؟

ولم يكونوا يجيبون ، فألحّ قائلاً :

– ما عساكم تفعلون ؟
فهز دانديو رأسه :
– ربما كنت اختار القبو . فسترى : ان عملنا ليس بالطريف .
قال ماتيو : – صحيح ، ولكن ليس من الطريف ايضا ان نبقى في القبو حين يحارب الآخرون .
قال شاسيريو : – لا انكر ذلك .
وأقرّه دانديو : – نعم ، لن يشعر المرء في هذا الوضع بالاعتزاز.
وبدا عليهم انهم اصبحوا اقل عداء . وحدج كلابو بينيت في شيء من الدهشة ، ثم انتقـــل واقترب من الافريز . وامّحت قسوة نظره المحمومة ، وكانت هيئته مبهمة عذبة ، وكان ينظر بابهام الى الليل العذب ، والريف الطفولي الاسطوري ، ولم يكن ماتيو يعرف اذا كانت عذوبة الليل هي التي تنعكس على هذا الوجه ، ام ان وحدة هذا الجو هي التي تنعكس على ذلك الليل .
قال دانديو : – هو ! كلابو !
فاستقام كلابو واستعاد هيئة الاخصائي الجادة :
– ماذا تريد ؟
– اريد ان اقوم بجولة في الغرفة التحتية : فقد رأيت فيها شيئاً ما.
– اذهب .
واذ كان دانديو يرفع باب السقف ، صعد اليهم صوت امرأة :
– هنري ! هنري !
وأطل ماتيو على الشارع . فكان ثمة متخلّفون يعدون في كل اتجاه، كأنهم نملٌ مجنون ؛ ورأى في الشارع ، بالقرب من البريد ، طيفا صغيراً :
– هنري !
فاسود وجه بينيت ولكنه لم يقل شيئا . وكان ثمة نساء يمسكن بذراع

عاملة البريد ويحاولن أن يجررنها . ولكنها كانت تتخبط وهي تصيح :

ـ هنري ! هنري !

وتحللت منهن ، ثم ارتمت داخل قاعة البريد ، واغلقت الباب دونها ؛ وقال بينيت بين اسنانه :

ـ إن هذا لبلاهة !

وكان يحك اظافره بحجر الافريز :

ـ يجب ان تذهب مع الآخرين .

قال ماتيو : ـ صحيح .

ـ وإلا أصيبت بشر .

ـ من المسؤول عن ذلك ؟

فلم يجب . وارتفع باب السقف :

ـ ساعدوني .

فردوا الباب الى خلف ، وانبثق دانديو من الظل ؛ وكان يحمل على ظهره فراشين .

ـ لقد وجدت هذا .

فابتسم كلابو للمرة الاولى : وكان يبدو على هيئته ابتهاج ، وقال :

ـ اننا محظوظون .

وسأل ماتيو : ـ ماذا تريدون ان تفعلوا بهذا ؟

فنظر اليه كلابو في دهشة :

ـ لأي شيء يستعمل هذا ، في رأيك ؟ لإخفاء الجواهر ؟

ـ هل تراكم ستنامون ؟

قال شاسيريو : ـ سنكسر الصفرة اولاً .

ونظر اليهم ماتيو ينشغلون حول الفراشين ، ويخرجون من قربهم علبا من لحم القرد : اتراهم لا يدركون انهم سيموتون ؟ وكان شاسيريو قد عثر على مفتاح علب ، ففتح ثلاث علب بحركات سريعة

ودقيقة ، ثم جلسوا وسحبوا مُداهم من جيوبهم .

والقى كلابو نظرة الى ماتيو ، من فوق كتفه ، وسأل :

— هل انتما جائعان ؟

وكان قد انقضى يومان لم يأكل ماتيو فيهما شيئا ؛ وكان اللعاب يملأ فمه . فقال :

— انا ؟ كلا .

— ورفيقك ؟

فلم يجب بينيت . كان مطلاً من فوق الافريز ينظر الى بناية البريد. قال كلابو :

— هيا ، كُلا : فليس الطعام هو ما ينقصنا .

قال شاسيريو : — ان من يقاتل يحق له ان يأكل .

وفتش دانديو في قربة ، فأخرج منها علبتين مدّهما لماتيو . وتناولهما ماتيو وضرب على كتف بينيت ، فانتفض بينيت :

— ماذا تريد ؟

— هذا لك : كل !

وأخذ ماتيو مفتاح العلب الذي مدّه له دانديو ، فأسنده على حافة العلبة وشد بكل قواه ؛ ولكن الشفرة انزلقت من غير ان تعض ، وقفزت خارج الخط فأتت تصدم ابهامه الايسر .

وقال بينيت : — كم انت عادم الحذق ! هل آذيت نفسك ؟

قال ماتيو : — لا .

— هاته .

وفتح بينيت العلبتين ، واخذا يأكلان في صمت ، بالقرب من من عمود : ولم يكونا قد جرؤا على الجلوس . وكانا يحفران بمديتهما في لحم القرد ، ويعلّقان القطع على رأس الشفرتين . وكان ماتيو يمضغ باهتمام ، ولكن حنجرته كانت مشلولة : انه لم يكن يحس طعم اللحم ،

وكان يشق عليه ان يبتلع . وكان الجنود الثلاثة جالسين على الفراشين، منحنين فوق طعامهم بهيئة مجدة ؛ وكانت مداهم تبرق تحت ضوء القمر.
وقال شاسيريو حالماً :
— لذيذ ان نأكل في برج كنيسة .
في برج كنيسة . وخفض ماتيو عينيه . كانت تحت أقدامهم رائحة البهار والبخور تلك ، وهذه الرطوبة ، وذلك الزجاج المقطع الذي كان يلمع لمعاناً خفيفاً في ظلام الايمان . كان تحت اقدامهم الثقة والأمل . وكان يشعر بالبرد ، وكان يرى السماء ، ويتنشق السماء ، وكان يفكر تفكيراً ممزوجاً بالسماء ، كان عارياً على كومة جليد ، في الأعـــالي ؛ وبعيداً جداً تحته ، كانت طفولته .
وكان كلابو قد قلب رأسه ، وكان يأكـــل وهو ينظر الى السماء.
وقال بصوت منخفض :
— انظر الى القمر .
قال شاسيريو : — ما به ؟
— أليس هو اليوم اكبر من العادة ؟
— كلا .
— آه ! انني أجده اكبر من العادة .
وخفض عينيه فجأة :
— تعالا فكلا معنا : إن المرء لا يأكل واقفاً .
فتردد ماتيو وبينيت . قال كلابو :
— هيا ! هيا !
قال ماتيو لبينيت : — تعال !
وجلسا ؛ وكان ماتيو يشعر بحرارة كلابو ازاء خاصرته . وكانوا صامتين : كانت هذه آخر وجبة لهم ، وكانت مقدسة .
وقال دانديو : — عندنا «روم» ولكنه غير كثير : جرعة واحدة لكل انسان .

وأمرّوا تنكة ، ووضع كل منهم شفتيه حيث شرب الآخرون . وانحنى بينيت على ماتيو .

— أظنّ انهم تبنّونا .

— نعم .

— ليسوا جماعة سيئين . إنني أحتملهم جيداً .

— وانا ايضاً .

واستقام بينيت في انتفاضة كبرياء ، وكانت عيناه تلتمعان .

— كنا نكون شبيهين بهم ؛ لو كان لنا قائد .

ونظر ماتيو الى وجوههم الثلاثة وهز رأسه .

— أليس صحيحاً ما أقول ؟

قال ماتيو : — ربما .

وكانت قد مضت لحظة على بينيت وهو ينظر الى يدي ماتيو ، وانتهى بان لامس مرفقه :

— ما بك ؟ انك تنزف ؟

فأخفض ماتيو عينيه على يديه : كان قد جرح ابهامه الايسر . وقال :

— آه ، لا بدّ ان ذلك حدث بمفتاح العلب ، منذ لحظة .

— وتركته ينزف ، ايها الثقيل ؟

قال ماتيو : — لم أحسّ بشيء .

فقال بينيت بلهجة توبيخ وافتتان :

— آه ! ما عساك كنت تفعل ، لو لم أكن هنا !

وكان ماتيو ينظر الى ابهامه ، دهشاً ان يكون له جسم : انه لم يكن يشعر بعد بشيء ، لا بطعم اللحم ، ولا بطعم الخمر ، ولا بالألم ، كنت أحسبني من ثلج . وضحك .

— ذات مرة ، كان معي مدية في مرقص ..

وتوقف . وكان بينيت ينظر اليه في دهشة :
– وماذا حدث ؟
– لا شيء . لاحظ لي مع الآلات القاصة .
قال كلابو : – هات يدك .
وكان قد اخرج من رزمته ملفاً من الشاش وزجاجة زرقاء . وسكبه المائع المحرق على ابهام ماتيو ولفه بالشاش . وحرك ماتيو الدمية وتأملها مبتسماً : هذه العناية كلها للحؤول دون ان يسيل الدم قبل الاوان .

قال كلابو : – هكذا !
قال ماتيو : – هكذا !
واستشار كلابو ساعته :
– الى الفراش ، ايها الرفاق : سيحل منتصف الليل .
وأحاطوا به ، فقال وهو يلفت نظر دانديو الى ماتيو :
– ستقوم بالحراسة معه يا دانديو .
– حسناً .
وتمدد شاسيريو وبينيت وكلابو جنباً الى جنب على الفراشين . وأخرج دانديو غطاء من رزمته فألقاه على أجسامهم الثلاثة . وتمطى بينيت بشهوة ، وغمز ماتيو غمزة خبيثة وأسبل جفنيه .
وقال دانديو : – انا احرس من هنا ، وانت من هناك . فاذا سمعت طلقات ، فلا تفعل شيئاً قبل ان تخبرني .
ومضى ماتيو الى ركنه فاستعرض الريف بعينيه ؛ وكان يفكر بأنه سيموت ، فيبدو له ذلك طريفاً . كان ينظر الى السقوف المظلمة ، وتلألؤ الطريق بين الأشجار الزرقاء وكل هذه الأرض الفخمة غير المسكونة ويفكر : انني اموت من اجل لا شيء . وانبعث شخير ناعم فجعله ينتفض ، والتفت : فاذا النوم قد استغرق الافراد ؛ وكان

كلابو يبتسم للملائكة ، مغمض العينين ، منتعش الشبـــاب ؛ وكان بينيت يبتسم ايضاً . وانحنى ماتيو فوقه ونظر اليه طويلا ؛ وكـــان يفكر : « يا للخسارة ! » . وفي الجهة المقابلة من السطيحة ، كـــان دانديو قد انحنى الى امام ، ويداه على مؤخرته ، في وضع حارس مرمى . وقال ماتيو بصوت منخفض :

– هيه !

– هيه !

– أكنت حارس مرمى ؟

فالتفت اليه دانديو مندهشاً :

– وما ادراك بذلك ؟

– هذا واضح .

وأضاف :

– وهل كنتَ موفقاً ؟

– مع بعض الحظ ، كنت سأصبح محترفاً .

وتبادلا تحية صغيرة باليد ، وعاد ماتيو الى مركزه . وكان يفكر: سأموت من أجل لا شيء . وأخذته الشفقة على نفسه . وذات لحظة ، أصدت ذكرياته كاوراق الشجر تحت الريح . جميع ذكرياتـــه : كنت أحب الحياة . وكان سؤال حائر يكمن في جوف حلقه : أكنت علي حقّ بأن اترك الرفاق ؟ واستقام . فاستند بكلتا يديه على الافريز ، وهزّ رأسه في غضب « كفى ، كفى ! هـــم وشأنهم اولئك ، هم وشأنهم ، الجميع . لقد انتهى الندم ، والتحفظات ، والتقييدات : ليس هناك من هو قاضيّ ، فليس ثمة من يفكر بي ، ولن يكون هناك من يتذكرني ، ولا يستطيع أحد ان يقرر بدلاً مني .» وقرر بلا ندم ، واعياً كل الوعي . لقد قرر ، وفي اللحظة نفسها ، تدحرج قلبه الموسوس المشفق من غصن الى غصن ؛ ولم يبق ثمة قلب

جعد : لقد انتهى . انني اقرر ان الموت كان المعنى السّري لحياتي ، وانني عشت لأموت ؛ انني اموت لأشهد بان من المستحيل ان يعيش الانسان ؛ وسوف تطفيء عيناي العالم وتغلقانه الى الأبد .

وكانت الأرض ترفع نحو هـذا المقبل على الموت وجهها المقلوب ، وكانت السماء المقلوبة تسيل عَبْره بكل نجومها : ولكن ماتيو كان يترصّد ، من غير ان يتنازل لالتقاط هذه الهدايا اللاامجدية .

الثلاثاء ١٨ حزيران ، الساعة ٥,٤٥

– لولا !

وأفاقت على اشمئزاز ، ككل صباح ، وعادت تقيم ككل صباح في جسمها القديم الفاسد .

– لولا ، هل تنامين ؟

قالت : – لا . كم هي الساعة ؟

– الخامسة وخمس واربعون .

– الخامسة وخمس واربعون ؟ وقد أفاق سارقي الصغير ؟ لقد عيّروه لي .

قال : – تعالي .

ففكرت « لا . لا اريد ان يلمسني »

– بوريس ...

ان جسمي يثير اشمئزازي ، فاذا لم يكن يثير اشمئزازك ، فهذا تدجيل ؛ انه فاسد ، وانت لا تعرف ذلك ، ولو كنت تعرفه للأثار نفورك .

– بوريس ، انني متعبة .

ولكنه كان قد أمسك بها من كتفيها ؛ وكان يثقل عليها . انك

انما « سوف تدخل في جرح » . حين كان يلمسني ، كنت أصبح مخملاً . اما الآن ، فان جسمي تراب جافّ ؛ وتحت أصابعه أتصدّع وأتفتت ؛ انه يدغدغني . كان يمزقها حتى أعمق أعماق بطنها ، وكان يحرك في بطنها ما يشبه السكين ، وكان يبـــدو وحيداً ذا هوَس ، حشرة ، ذبابة تصعد زجاجاً فتسقط ثم تصعد ثانية . ولم تكن تُحس، إلاّ الوجع ؛ إنه يلهث ، وهو غارق في العرق ، انه يكابد اللذة ؛ في دمي يكابد لذته ، في ألمي . وفكرت : طبعاً ، انقضت ستة أشهر عليه بلا امرأة ؛ وهو الآن يضاجع كجندي في ماخور . وتحرك فيها شيء ما ، خفق أجنحة ، ولكن لا : لا شيء . والتصق بها ، وكان نهداها وحدهما يتحركان ، ثم ابتعد فجأة ، فأحدث نهدا لولا صوت محجم يُنزع عن اللحم ؛ وأخذتها الرغبة بان تضحاك ، ولكنها نظرت الى وجه بوريس فزالت الرغبة ؛ وكان قد اتخذ هيئة قاسية متوترة ، إنه يضاجع كما يثمل المرء ، فلا شك في انه يريد ان ينسى شيئاً ما . وانتهى بان تداعى للسقوط عليها ، نصف ميت ، ولامست رقبتـــه وشعره بآلية ؛ كانت باردة وهادئة ، ولكنها كانت تشعر بخفقات جرس كبيرة تصعد سريعة من بطنها الى صدرها : لقد كان ذلك قلب بوريس يخفق فيهــا . انني مسنة اكثر مما ينبغي ، مسنة جداً . وبدت لها هذه الرياضة الجسدية غريبة مضحكة ، فدفعته عنها على مهل .

— انسحب مني .

— ماذا ؟

وكان قد رفع رأسه ينظر اليها باندهاش ، فقالت :

— بسبب قلبي . انه يخفق أقوى مما يجب ، وانت تخنقني .

وبسم لها ، وانزلق عنها ، وظلّ نائمـــاً على بطنه ، وجبينه في الوسادة ، وعيناه مغمضتان ، وفي زاوية فمه ثنية غريبة . وتحاملت على مرفقها فنظرت اليه ، فاذا هيئته من شدة الألفة والاعتياد بحيث لم تكن

تستطيع بعد ان تراقبه . ليس إكثر مما لو كان يدها بالذات ، انني لم احس شيئاً . أمس ، حين ظهر في الباحة ، جميلا كفتـــاة ، لم أحس شيئاً ، حتى ولا ذلك المذاق من الحمى في فمي ، حتى ولا ذلك الثقل الكثيف في بطني : كانت تنظر الى هذا الرأس الذي تألفه ألفة مفرطة وتفكر : انني وحيـــدة . يا للرأس الصغير ، الرأس الصغير الذي كانت تتدحرج فيه غالباً اسرار مرائية ، كم أخذته بين يديهـــا وضمته ؛ كانت تتهالك ، وتسأل ، وتبتهل ، وكانت تود لو تفتحه كرمانة وتلحس ما كان في داخله ؛ وفي النهاية ، كان السر يفلت ، فلا يكون ، كما في الرمّان ، الا بعض ماء مسكر . كانت تنظر اليه في حقد ، وكانت تأخذ عليه انه لم يُحسن إثارتها ، وكانت تنظر الى ثنية فمه المريرة : اذا فقد مرحه ، فماذا يبقى له ؟ وفتح بوريس عينيه فبسم لها :

– كم انا مسرور ان تكوني هنا ، ايتها العجوز المجنونة .

فبادلته بسمته : انا الآن من يكنُ سراً ، وبوسعك ان تحاول ان تحملني عـــلى البوح به . ونهض فدفع الغطاء ونظر الى جسم لولا في تنبُّه ؛ ولامس نهديها بيد خفيفة ، فكانت تشعر بالانزعاج .

وقال : – عاج .

وفكرت في الحيوان القذر الذي كان يتكاثر في ليل لحمها ، فصعد الدم الى رأسها .

وقال بوريس : – انني فخور بك .

– لماذا ؟

– هكذا ! لقد جعلتُ الافراد ، في المستشفى ، ينقلبون على أقفيتهم.

فضحكت لولا ضحكة صغيرة :

– ألم يسألوك عما عساك تفعل مع هذه العجوز ؟ ألم يظنُّوني أمك ؟

فقال بوريس معاتباً : – لولا ...

وضحك ، وقد أجذلته ذكرى ، فعادت الفتوة تفيض على وجهه .

ــ ما الذي يضحكك ؟

ــ انه فرانسيون . فان صاحبته مكونة تكويناً رائعاً ، وهي لما تبلغ الثامنة عشرة ؛ ومع ذلك ، فقد قال لي : اذا اردت ، قمتُ بالمبادلة على الفور .

قالت لولا : ــ انه مؤدب جداً .

وتسللت فكرة ، كالغيمة ، على وجه بوريس ، فاسودّت عيناه ؛ وكانت تنظر اليه من غير ودّ : طبعاً ، طبعــاً ، إن لك همومك كجميع الناس . لو كنت أطلعه على همومي : فماذا يفعل ؟ ما عساك تفعل لو قلت لك : « ان في رحمي دمّلاً ، ويجب ان اجري عملية ؛ وقد تكون نتيجة ذلك ، بالنظر لعمري ، سيئة جداً . » إنك إذن ستفتح عينيك البغيتين ؛ وتقول لي : « هذا غير صحيــح ! » فأقول لك بلى ، فتقول ان هذا غير ممكن ، وان ذلك يُشفى جيداً بالعقاقير ، والأشعة ، وأنني واهمة . وسأقول لك : انني لم أعد الى باريس من أجل المال ، وانما من اجل استشارة « لوغوبيل » وقد كان قاطعاً . » فتقول لي ان «لوغوبيل» حمار ، وليس هو الشخص الذي كان ينبغي ان أتوجه اليه : وسوف تنكر وتحتج وتحرك رأسك بهيئة من هو مطارد ، ثم ينتهي بك الأمر الى السكوت ، على ضيق شديد ، وستنظر إليّ بعينين مكروثتين طافحتين بالحقد . ورفعت ذراعها العارية وأمسكت بوريس من شعره :

ــ هيا ؟ ايها الدجال الصغير ! لِدْ ! قل لي ما الذي تشكوه .

فقال بلهجة مزيفه : ــ كل شيء على ما يرام .

ــ انك تدهشني . فليس من عادتك ان تستيقظ في الخامسة صباحاً .

فردّد بلا اقتناع :

ــ كل شيء على ما يرام .

ـ ارى ذلك . ان عندك ما تقوله لي ، ولكنك تريد ان أحملك على ان تلدَ .

فابتسم ووضع رأسه في إبط لولا ، فتشممه وقال :

ـ إن رائحتك لذيذة .

فهزّت كتفيها :

ـ وإذن ؟ هل تتكلم ام لا تتكلم ؟

فهزّ رأسه مسحوقاً . وصمتت ، واستلقت بدورها على ظهرها : حسناً ، لا تتكلم ! فما عسى ذلك ان ينفعني ؟ إنه يحدثني ، ويضاجعني ولكني سأموت وحيدة . وسمعت بوريس يتنهد ، فأدارت رأسها اليه . وكان له فم حزين قاس لم تكن تعهدُه فيه . وفكرت بلا حماسة : « حسناً سأهتم بأمرك. » كان لا بـــدّ من سؤاله ، وترصّده ، وتفسير هيئاته ، كما في العهد الذي كانت تغار فيه ، واجهـــاد نفسها لتحمله على ان يعترف اخيراً بما كان يموت رغبة للاعتراف به وجلست :

ـ حسناً ! أعطني الروبديشامبر وسيجارة .

ـ ولماذا الروبديشامبر ؟ انت هكذا أفضل .

ـ أعطني الروبديشامبر . انني أشعر بالبرد .

فنهض ، أسمر عارياً ، وأدار عينيه ، وتناول الروبديشامبر عند قدم السرير فمدّه لها ، فارتدته : وتردّد لحظة ، ثم انزلق في بنطاله وجلس على كرسي .

وسألته : ـ هل وجدت عذراء ، وتريد ان تتزوج ؟

فنظر اليها بانشداه شديد ، حتى انها احمرت وقالت :

ـ حسناً ، حسناً .

وساد صمت قصير ، ثم استطردت :

ـ ما الذي تنوي ان تفعله إذن ، حين يسرحونك ؟

قال – أتزوجك .

فتناولت سيكارة وأشعلتها ، وسألته :

– ولماذا ؟

– يجب ان أكون محترماً . وليس بوسعي ان آخذك الى كاستيلنوداري اذا لم تكوني زوجتي .

– وماذا انت ذاهب تفعل في كاستيلنوداري ؟

فقال في قسوة : – أكسب معيشتي . كلا ، بلا مزاح : سأكون استاذاً في كلية .

– ولكن لماذا في كاستيلنوداري ؟

قال : – سترين ، سترين . ستكون كاستيلنوداري .

– وهل تعني انني سأدعى السيدة سرغين ، وسأضع قبعة لأذهب فأرى زوجة مدير المدرسة ؟

قال بوريس : – إنه يدعى رئيساً . نعم . هذا ما ستفعلينه . وأنا سألقي في آخر العام خطاب حفلة توزيع الجوائز .

فقالت لولا : – هكذا !

قال بوريس :– وستأتي ايفيش فتعيش معنا .

– انها لا تستطيع ان تطيقني .

– صحيح ، ولكن هذا هو الوضع .

– وهي التي تريد ؟

– نعم . انها مبعوصة جداً لدى أهل زوجها ، وهي تكاد تجنُّ معهم ، حتى انك ستنكرينها اذ ترينها .

وساد صمت . وكانت لولا تراقبه من طرف عينها . وسألته :

– وهل رتَّبتَ كل شيء ؟

– نعم .

– واذا كان ذلك لا يروق لي ؟

قال : — اوه ، لولا ، فكيف تريدين ؟

قالت لولا : — لأنك تفكر طبعاً بأنني سأكون دائماً مسرورة لمجرد ان أعيش معك .

وحسبت شعاعاً يضيء في عيني بوريس ؛ وسألها بوريس :

— أليس ذلك صحيحاً ؟

قالت : — بلى ، صحيح . ولكنك دجّال صغير ، وانت تبالغ في الثقة بمفاتنك .

وانطفأ الشعاع ؛ كان ينظر الى ركبتيه ، وكانت لولا ترى فكيه يتحركان .

وسألته : — وهل تروقك ، تلك الحياة ؟

فقال بوريس بأنس : — سأكون دائماً مسروراً اذا استطعت ان اعيش معك .

— كنت تقول انك تستفظع ان تكون استاذاً .

— ماذا تريدين ان افعل غير ذلك ، الآن ؟ (واضاف) سأشرح لك الأمر : حين كنت اقاتل ، لم اكن أطرح على نفسي الأسئلة . غير انني اتساءل الآن لأي شيء خلقت ؟

— كنت تريد ان تكتب .

— انني لم افكر بذلك قط بصورة جدية : فليس لديّ ما أقوله . انت تدركين ، كنت احسب اني سأبقى في الميدان ، فأخذتُ على حين غرّة .

فنظرت اليه لولا بتنبه :

— ايؤسفك ان تكون الحرب قد انتهت ؟

قال بوريس : — انها لم تنته . فالانكليز يقاتلون ، وقبل مضي ستة أشهر سيدخل الاميركيون الحلبة .

— على كل حال ، انتهت بالنسبة اليك .

قال بوريس : — بالنسبة لي ، نعم .
وكانت لولا ما تزال تنظر اليه . وقالت :
— بالنسبة لي ، ولجميع الفرنسيين .
فقال في حماسة :
— لا بالنسبة للجميع ! إن هناك من هم في انكلترا ، وسيحاربون حتى النهاية .
قالت لولا : — فهمت .
وسحبت نفساً من سيكارتها وألقت بالعقب على الأرض الخشبية . وقالت بلطف :
— هل تملك الوسائل للسفر الى هناك ؟
فقال بوريس بلهجة اعجاب وعرفان :
— اوه ، لولا ! نعم ، نعم . املك الوسائل .
— اية وسائل ؟
— طائرة .
فرددت من غير ان تفهم :
— طائرة ؟
— بالقرب من مارينيان . هناك مطار صغير خاص ، بين تلتين . وقد حطّت فيه طائرة عسكرية منـــذ خمسة عشر يومـــاً ، لأنها كانت مضطرة . وقد أصلحت الآن .
— لكنك لست طياراً .
— عندي اصدقاء طيارون .
— اي اصدقاء ؟
— هناك فرانسيون : الشخص الذي قدمته لك . ثم غابيل ، وتيراس .
— وقد اقترحوا عليك أن تذهب معهم ؟
— نعم .

ـ وماذا قلت ؟

فقال بسرعة : ـ لقد رفضت .

ـ صحيح ؟ الم تقبل بكل رضى وانت تقول لنفسك : سأمهد للعجوز قليلا قليلا ؟

قال : ـ لا .

وكان ينظر اليها بحنو . وكان نادراً ان يظهر بهساتين العينين المائعتين تقريباً : في الماضي ، كنت مستعدة لقتل نفسي من أجل نظرة كهذه .

وقال : ـ انت امرأة عجوز ومجنونة . ولكني لا أستطيع ان أتركك : فلن ترتكبي الا الحماقات اذا لم أكن هنا لأحملك على السير باستقامة .

قالت لولا : ـ وإذن ؟ متى نتزوج ؟

فقال بلامبالاة : ـ متى شئت . المهم ان نكون متزوجين عند بدء الفصل الدراسي .

ـ بدء فصل الدراسي في ايلول ؟

ـ كلا : في تشرين الاول .

قالت : ـ حسناً . ان لدينا متسعاً من الوقت .

ونهضت وأخذت تذرع الغرفة . وكان على الارض الخشبية أعقاب ملطخة بالأحمر : وكان بوريس قد انحنى ليلمّها بهيئة بلهاء . وسألته :

ـ متى يسافر رفاقك ؟

وكان بوريس يصف الأعقاب بعناية على بلاط طاولة الليل ، فقال من غير ان يلتفت :

ـ غداً مساء .

قالت : ـ أبهذه السرعة ؟

– نعم : يجب ان يعجلوا .

– بهذه السرعة !

ومشت حتى بلغت النافذة ففتحتها : وكانت تنظر الى سواري قوارب الصيد المهتزة ، والى الارصفة الخالية ، والى السماء الوردية وتفكر : غداً مساء . وكان ثمة قلس واحد بعد ينبغي ان يقطع ، قلس واحد . وحين يقطع القلس ، سوف تلتفت ، وفكرت : فليكن غـــداً مساء بدلاً من يوم آخر . وكان الماء يحرك بهدوء موجاته الفجرية ، وسمعت لولا في البعيد صفارة سفينة ، وحين احست انها أصبحت حرة تماماً ، التفت اليه ، وقالت :

– اذا اردت ان تذهب ، فلست انا التي أحول بينك وبين ذلك .

وكانت العبارة قد خرجت بمشقة وجهد ، ولكن لولا كانت تشعر الآن بالفراغ والعزاء . كانت تنظر الى بوريس ، وتفكر ، من غير ن تعرف السبب : يا للفتى المسكين ، يـــا للفتى المسكين ، وكان بوريس قد نهض فجأة ، فأقبل عليها وأمسك بذراعها :

– لولا .

قالت : – انك توجعني .

فتركها : ولكنه كان ينظر اليها نظرة ارتياب .

– إن ذلك لن يعود عليك بالهم ؟

فقالت بصوت متعقل : – بلى ، سيشق علي ذلك ، ولكني افضل ذلك على ان تكون استاذاً في كاستيلنوداري .

فبدا مطمئناً بعض الاطمئنان ، وسألها :

– انت ايضاً ، لا تستطيعين ان تعيشي فيها ؟

قالت : – نعم . انا ايضاً لا أستطيع .

وكان يحني كتفيه ويتهالك بذراعيه ؛ للمرة الاولى في حياته ، كان يبدو مرتبكاً بجسمه . وحمدت له لولا ان لا يظهر فرحه . وقال :

ـــ لولا !

ومد يده فأراحها علي كتف لولا ، فكانت بها رغبة لأن تنزع هذه اليد عن كتفها ، ولكنها تمالكت نفسها . كانت تحس بثقل يده، وبأنه كفّ عن ان يكون لها ، فقد كان في انكلترا الآن، وقد ماتا ، كل من جهته .

وقال بصوت راجف :

ـــ لقد سبق ان رفضت ، لو تعلمين ، لقد رفضت ،

ـــ أعرف ذلك .

قال : ـــ انني لن اخونك . لن انام مع أحد .

فابتسمت :

ـــ يا لصغيري المسكين !

وكان وجوده في تلك اللحظة « زائداً عن اللزوم » . فقد كانت تود لو تكون الآن في مساء اليوم التالي . وضرب جبينه فجأة :

ـــ خراء !

فسألته : ـــ ماذا هناك بعد ؟

ـــ انني لن اذهب ! لا استطيع ان اذهب !

ـــ لماذا ؟

ـــ ايفيش ! لقد قلت لك انها كانت تريد ان تعيش معنا .

فقالت لولا غاضبة : ـــ اسمع يا بوريس ! اذا لم تبق من أجلي ، فأمنعك ان تبقى من أجل ايفيش .

ولكن ذلك كان غضباً « سابقاً » ما لبث ان انطفأ . وقالت :

ـــ سأهتم بأمر ايفيش .

ـــ أتأخذينها معك ؟

ـــ ولِمَ لا ؟

ـــ ولكن احداكما لا تطيق الأخرى .

قالت لولا : ــ وماذا يمكن لذلك ان يُنتج ؟
وكانت تحس بتعب فظيع ، فقالت :
ــ ارتد ثيابك ونم ، فسوف تُلحق بنفسك الأذى .
وتناول منشفة واخذ يدلك صدره . وكان يبدو مشدوهاً . وفكرت : هذا طريف : لقد قرر الآن حياته كلها . وجلست على السرير ، وكان يدلك نفسه بقوة ، ولكنه ظل متجهماً . وسألته :
ــ ماذا هناك بعد ؟
قال : ــ كل شيء على ما يرام . ولكن كم نزفت من العرق !
ونهضت على مشقة ، فأمسكته من خصلته ورفعت له رأسه :
ــ انظر إلي ؛ ماذا هناك بعد ؟
فصرف بوريس عينيه :
ــ انني أجدك غريبة .
ــ لماذا غريبة ؟
ــ لا اراك غاضبة لذهابي كما كنت أتوقع . وهذا ما يصدمني !
فرددت لولا : ــ هذا ما يصدمك ؟ هذا ما يصدمك ؟
وانفجرت ضاحكة .

دمدم ماتيو وجلس ، ثم حكّ رأسه . وكان ديك يغني ، وكانت الشمس حارة جذلة ، ولكنها كانت ما تزال منخفضة .
قال ماتيو : ــ الطقس جميل .
فلم يجب احد : كانوا جميعاً راكعين وراء الافريز . ونظر ماتيو الى ساعته فرأى انها كانت السادسة : وسمع هديراً بعيداً ومتعدداً ، فركع على ركبتيه وانضم للرفاق :
ــ ما هذا ؟ طائرة ؟

ـ لا : انهم هم ، فرقة المشاة الآلية .
فارتفع ماتيو فوق اكتافهم ، فقال كلابو :
ـ حذار ! تخفَّ جيداً ، فان معهم مناظير .
وكانت الطريق ، على بعد مئتي متر قبل البيوت ، تنعطف نحو الغرب ، وتختفي خلف رابية معشبة ، وتنساب بين ابنية المطحنة العالية التي كانت تقنّعها ، لتأتي فتحاذي القرية بشكل مائل ، في اتجاه الجنوب الغربي . ورأى ماتيو ، في البعيد البعيد ، سيارات كانت تبدو ثابتة ، ففكر : « انهم الالمان ! » واصابه الخوف ، خوف غريب ، يكاد يكون دينيا ، نوع من الرعب المقدس . كانت الاف العيون الاجنبية تلتهم القرية ، عيون رجال فوق الرجال ، وحشرات . وغمرت ماتيو بدهية فظيعة :
« سوف يرون » جثتي .
وقال بالرغم عنه :
ـ سيكونون هنا بعد دقيقة .
فلم يجيبوا . وبعد لحظة ، قال دانديو بصوت ثقيل بطيء :
ـ لو نطلق النار وقتاً طويلا !
قال كلابو : ـ الى الخلف .
فتراجعوا وجلسوا هم الاربعة على فراش . لكأن شاسريو وداندبو خوختان متشابهتان ، وكان بينيت قد اخذ يشبههما : كانت لهم جميعاً السحنة المتربة نفسها والعيون الكبيرة العذبة التي لا جوف لها ؛ وفكر ماتيو : « ان لي هاتين العينين الوعليتين . » وكان كلابو قد تداعى للسقوط على عقبيه ، فأخذ يحدثهم من فوق كتفه :
ـ سوف يتوقفون عند مدخل القرية ، وسيرسلون عيوناً للاستطلاع فحذار ان تطلقوا عليهم .
وتثاءب شاسريو ، وهذه التثاؤبة نفسها ، اللذيذة كالغثيان ، كانت

تفتح فم ماتيو . وحاول ان يقاوم الضيق وان يحرّ نفسه بالغضب ، فقال في نفسه « اننا مقاتلون ، ولسنا ضحايا ! » ولكن ذلك لم يكن غضباً « حقيقياً » . وتثاءب من جديد ، وكان شاسيريو ينظر اليه في ود ، وقال :

– البداءة قاسية ، وفيما بعد ، سيتحسن الوضع .

واستدار كلابو على نفسه وجلس القرفصاء تجاههم ، وقال لهم :

– ليس هنالك الا امر واحد : الدفاع عن المدرسة ودار البلدية ، فيجب الا يقتربوا منهما ، والرفاق تحت هم الذين سيعطون الاشارة ، فما ان يبدأوا بالاطلاق ، حتى تطلقوا كما تشاءون . وتذكروا : لن يكون دورنا الا دور حماية ، ما استطاعوا ان يقاتلوا .

وكانوا ينظرون اليه بهيئة وادعة مجدة . وسأل بينيت :

- وبعد ذلك ؟

فهز كلابو كتفيه وقال :

– اوه ! بعد ذلك ..

قال دانديو : – لا اعتقد اننا سنقاوم طويلا .

– لا نستطيع ان نعرف . من المرجح ان يكون معهم مدفع للمشاة . فيجب ان نحاول منعهم من تركيزه . سنواجه مصاعب ، ولكن اذا وجدت هذه المصاعب ، فستكون لهم ايضاً ، لان الطريق والساحة يكوّنان زاوية .

وعاد يركع على ركبتيه ، وزحف حتى الافريز . كان يراقب الريف مختبئاً وراء عمود .

– دانديو ؟

– نعم ؟

– تعال .

واوضح من غير ان يلتفت :

ـ كلا يا دانديو ، سنأخـــذهم مواجهة ، وانت يا شاسيريو قف الى اليمين ، ودولارو الى اليسار . وانت يا بينيت ، ستنتقل الى الجهة الاخرى ، اذا انعطفوا حولنا .

وسحب شاسيريو فراشاً الى الغرب ، فأسنده الى الافريز ، واخذ ماتيو الغطاء ، فتداعى للسقوط فوقه على ركبتيه . وكان بينيت يقول في غضب :

ـ انني أريهم ظهري ، هؤلاء الملعونين .

قال شاسيريو : ـ اراك تشكو . ستكون الشمس في صميم وجهي .

وكان ماتيو ملتصقاً بالعمود ، ودار البلدية تجاهه ، فكان اذا انحنى قليلا الى اليمين يستطيع ان يرى الطريق . اما الساحة ، فكانت حفرة ظل سامة ، شركا : وكان يؤذيه ان ينظر اليها . وكانت عصافير تغني في شجر الكستناء .

ـ حذار !

فأمسك ماتيو نفسه : كان راكبا دراجتين اسودان يرتديان قبعتين يدلفان الى الشارع ، فارسان من فرسان ما فوق الطبيعة : وحاول عبثا ان يتميز وجهيهما : فانه لم يكن لهما وجهان . قامتان دقيقتان ، اربع سيقان طويلة متوازية ، رأسان اسودان املسان ، لا عينان فيهما ولا فم . وكانا يسيران بتقطعات آلية ، وفي كبرياء صلبة تشبه كبريـــاء الاشخاص الاليين الذين يتقدمون تحت وجه الساعات القديمة حين تدق الساعة . وكانت الساعة على وشك ان تدق .

ـ لا تطلقوا النار !

وقامت الدراجتان بدورة الارض وهما تضرّطان ، ولم يتحرك شيء . باستثناء بعض عصفور الدوري الذي تطاير : كانت تلك الساحة المزورة تظهر بمظهر الموت وكان ماتيو يفكر ، مسحوراً : « انهم ألمان » . وارتدا الى مقربة من دار البلدية ، ومرا تحت ماتيو تماماً فرأى ايديهما

الضخمة الجلدية ترتجف على المقودين ، ودلفا الى الشارع الكبير . وبعد لحظة ، عـادا الى الظهور ، مستقيمين ، مركوزين فوق سرجيهما المترجرجين ، ثم عادا بسرعة الى الطريق الذي جاءا منه . وكان ماتيو مسروراً ان كلابو قد منعهم من الاطلاق : فقد كانا يبدوان له غير قابلين للجرح . وتطايرت العصافير مرة اخرى ، ثم اندست بين الاوراق.

وقال كلابو : — جاء دورنا .

وأنّت فرملة ، واصطفقت ابواب ، وسمع ماتيو اصواتاً وخطى . فسقط في اشمئزاز يشبه النعاس : كان عليه ان يجالـد ليُبقي عينيه مفتوحتين ، وكان ينظر الى الطريق عبر جفنيه نصف المغلقين ، ويشعر بنفسه ميالا للمصالحة ؛ اذا هبطنا ونحن نلقي بنادقنا ، فسيحيطون بنا ، وربما قالوا لنا : « ايها الاصدقاء الفرنسيون ، لقد انتهت الحرب . » وكانت الخطى تقترب ، انهم لم يفعلوا لنا شيئاً ، وهم لا يفكرون بنا، ولا يريدون بنا شراً . واغمض عينيه تماماً : ان الحقد سيتدفق حتى يبلغ السماء . سيرون جثتي ، وسيركلونها باقدامهم . ولم يكن يخاف ان يموت ، وانما كان يخاف الكراهية والحقد .

انتهى الامر ! وطقّ الطلق شديداً في اذنيه ، ففتح عينيه : فاذا الشارع خال صامت ، وحاول ان يصدق انه حلم . فان احداً لم يطلق ..

وتمتم كلابو : — يا للحمقى !

فانتفض ماتيو : — اي حمقى ؟

— افراد دار البلدية ، لقد تعجلوا اطلاق النار ، لا بـد ان في الهواء اصوات انفجار ، والا لتركوهم يجيئون .

وتطلع ماتيو في مشقة الى الطريق ، وانزلق نظره على البلاط ، وعلى ادغال من العشب بين البلاط ، حتى زاوية الشارع . لا احد . الصمت . « انها قرية في شهر آب ، فالرجال في الحقول . » ولكنه كان يعلم انهم كانوا يخترعون موته فيما وراء هذه الجدران : انهم يعملون على

ان يلحقوا بنا اكبر اذى ممكن . وغرق في الحنو ، كان يحب جميع الناس : الفرنسيين ، الالمان ، هتلر . وفي حلم دبق ، سمع صرخات ، تبعها انفجار عنيف وتكسر زجاج ، ثم تتابعت اصوات الانفجــار . وشنّج يده على قبضة بندقيته ليحول دون سقوطها .

قال كلابو بين اسنانه : — ان مدى القنبلة اقصر مما ينبغي .

وكانت الطلقات تتوالى دون انقطاع ، وكان الالمان قــد اخذوا يطلقون ، وانفجرت قنبلتان اخريان . ليت هذا يمكن ان يتوقف دقيقة لأتنفس ، ولكن الطلقات كانت مستمرة ، والانفجارات تتزايد ، وفي رأسه كانت عجلة مخرمة تدور بسرعة متنامية : وكانت كــل تخريمة طلقة نارية ، يلعن دين ! واذا كنت ، فوق هذا كله ، جبانــاً ! والتفت فنظر الى رفاقه : كان كلابو ودانديو يراقبان مقرفصين على اعقابهما ، ممتقعين ، وعيونهما تلتمع في قسوة . وكان بينيت موليــاً ظهره ، متصلب الرقبة ، وكانت كتفاه تقفزان ، فكأنه كــان في رقصة ، او في ضحك جنوني . واحتمى ماتيو بالعمود ، واطل بحذر . ونجح في الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين ، ولكنه لم يستطع ان يقسر نفسه على لفت رأسه نحو دار البلدية : كان ينظر الى الجنوب القاحل الهادىء ، وكان يفر نحو مارسيليا ، نحو البحر . وحدث انفجار جديــد تبعته تدحرجات جافة على احجار برج الاجراس . فحملق ماتيو بعينيه ولكن الطريق كانت تجري تحته باقصى سرعتها ، فالاشياء تنسرب وتنسرب وتنزلق وتختلط وتبتعــد ، فكأن ذلك حلم ، وكانت الحفرة تنحفر وتجذبه ، كان ذلك حلما ، وكانت عجلة النار تدور وتدور كعجلة باعة الحلويات الناعمة ، وكان موشكاً على ان يستيقظ في سريره حين لمح ضفدعاً يزحف نحو المعركة . ونظر ماتيو لحظة الى هذا الحيوان المسطح في غير اكتراث ، ثم اصبح الضفدع رجلا ، وكان ماتيو يرى بوضوح مدهش ثنيّي رقبته الحليقة ، وسترته الخضراء ، ونطاقه وحذاءه

الطري الاسود . « لا بد انه قام بالدورة عبر الحقول ، وهـا هو يزحف الآن باتجاه البلدية ليلقي قنبلته . » وكان الالماني يزحف على مرفقيه وركبتيه ، وكانت يده اليمنى التي كان يرفعها في الهواء تشد عصًا تنتهي باسطوانة معدنية في شكل مرجل . وقال ماتيو : « ولكن ، ولكن ... » وتوقفت الطريق عن الجري ، وجمدت العجلة ، وقفز ماتيو على قدميه ، وركز بندقيته على كتفه ، وقست عينـاه : كان واقفاً كثيفاً ، في عالم يتكون من شديدي الاسر ، وهو يمسك عدواً في طرف انبوب بندقيته ، ويصوب بهدوء الى جبينه . وقهقه قهقهة ترفّع قصيرة : ان الجيش الالماني العظيم ، جيش الرجـال الذين هم فوق الرجال ، جيش الجراد ، انما كان هذا الشخص المسكين ، الذي يبعث على الرأفة لفرط ما هو مخطيء ، والذي كان يستغرق في الخطأ وفي الجهل ، والذي كان منهمكـاً انهماك صبي مضحك ، ولم يكن ماتيو ليعجل ، كان يحدج صاحبه بفضول ، وكـان لديه متسع من الوقت : ان الجيش الالماني « قابل للجرح » . واطلق ، فقام الرجل بقفزة غريبة على بطنه وهو يرمي ذراعيه الى امـام ، فكان يشبه من يتعلم السباحة ، واطلق ماتيو مرة اخرى ، وقد ابهجه ذلك ، فانتفض الرجـل المسكين باعين او ثلاثة وهو يترك القنبلة التي تدحرجت على الطريق من غير ان تنفجر . انه الآن هاديء، مضحك ، لا خطر منه، ميت ، وقال ماتيو بصوت منخفض : « لقد هدّأته، لقد هدّأته . » وكان ينظر الى الميت ويفكر : « انهم كسائر البشر » وكان يحس بنفسه قوياً نشيطاً .

وحطت يد على كتفه : كان كلابو قد اتى ينظر الى عمل الهاوي . وتأمل الحيوان الميت وهو يهز رأسه ، ثم التفت :

ــ شاسيريو !

فجرّ شاسيريو نفسه على ركبتيه حتى بلغهما ، فقال كلابو :

ـ راقب قليلا من هنا .

فقال ماتيو متضايقاً :

ـ لست بحاجة الى شاسيريو .

قال كلابو : ـ سيأتون لاخـــذه ، فاذا كان عددهم كبيراً ، تغلبوا عليك .

وانطلق صوت رشاش ، فرفع كلابو حاجبيه ، وقال وهو يعود الى مركزه :

ـ هيه ! لقد بدأ الاطلاق جدياً .

والتفت ماتيو الى شاسيريو ، وقال في حيوية :

ـ حسناً ! اظن اننا نحدث للالمان مصاعب .

فلم يجب شاسيريو ، كان يبدو ، ثقيلا ، خاماً ، شبه نائم ، وسأله ماتيو منزعجاً :

ـ الا ترى كم هم بطيئون ؟ كنت احسب انهم سيصفّون حسابنا في ضربتي ملعقة !

فتأمله شاسيريو في دهشة ، ثم نظر الى ساعة يده ، وقال :

ـ لم تنقض ثلاث دقائق على مرور الدراجات .

فانحسر هياج ماتيو ، واخذ يضحك . لقد حاول طوال اعوام ان يعمل ولكن عبثاً : فقد كانت افعاله تُسرق منه بالتتالي . اما هذا العمل، فلم يسرق منه شيء علي الاطلاق . لقد ضغط على الزناد ، فحدث شيء ما ، في هذه المرة ، وفكر وهو يزداد ضحكاً : شيء حاسم . وكانت اذنه مثقوبة بالانفجارات والصراخ ، ولكنه كان لا يكاد يسمعها ، كان ينظر الى ميته في رضى ، وكان يفكر : « يلعن دين ! لقد احس به بمر . لقد فهم ، ذاك ، لقد فهم ! » ميته « هو » ، عمله « هو » ، اثر مروره « هو » على الارض ، واخذته الرغبة بان يقتل آخرين : كان ذلك مسلياً وسهلا ، كان يريد ان يُغرق المانيا في الحداد .

– حذار !

كان شخص يزحف بحذاء الجدار ، وفي يده قنبلة ، وصوب ماتيو على هذا الكائن الغريب المرغوب فيه ، وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة .

– خراء !

لقد اخطأه . وانطوى الشيء على نفسه ، فاصبح رجلا تائهاً ينظر فيما حوله من غير ان يفهم ، واطلق شاسيريو ، فتمدد الرجـل كأنه زنبرك ، وانتصب ، فقفز في الهواء وهو يطوي ذراعه ، وقذف قنبلته ، ثم انهار على ظهره في وسط الشارع . وفي اللحظة نفسهـا ، تطايرت الواح زجاج ورأى ماتيو ، في نهار ممتقع باهر ، اشباحـاً تتلوى في الطابق الاسفل من دار البلدية ، ثم عاد الليل ، وكانت سمادير صفراء تنسحب في عينيه ، وكان غاضباً على شاسيريو ، وردد :

– خراء ! خراء ! خراء !

قال شاسيريو : – لا تحزن ، فقد اخطأ هدفه على كل حال : ان الرفاق في الطابق الاول .

وكان ماتيو يطرف بعينيـه وينفض رأسه ليتخلص من السمادير الصفراء التي كانت تبهره . وقال :

– حذار ! انني اعمى .

قال شاسيريو : – سيزول ذلك ، يلعن دين ! انظر الى الشخص الذي رميته ، انه يحرك ساقيه .

فاطل ماتيو ، وكانت قد تحسنت رؤيته ، فاذا الالماني الملقى على ظهره ، مفتوح العينين على سعتهما ، يحرك ساقيه ، وركز ماتيو البندقية على كتفه فقال شاسيريو :

– هل انت مجنون ؟ لا تبذر طلقاتك !

فاراح ماتيو بندقيته في كزازة . وفكر : « ربما استطاع هذا الفرج ان ينجو بنفسه . »

وانفتح باب البلدية على سعته ، وظهر شخص على العتبة ، فتقدم بخيلاء . وكان عارياً حتى النطاق : لكأنه رجـــل مسلوخ . وكانت تتدلى من خدَيه الاحمرين اللذين يبدوان كأنهما منحوتان ، برايات من اللحم . واخذ فجأة يصرخ ، فانطلقت عشرون بندقية في وقت واحد ، فتهاوى ، وهوى بانفه ثم سقط على درجات الحاجز .

وقال شاسيريو : – انه ليس من فرقتنا .

فقال ماتيو بصوت يخنقه الغضب :

– كلا ، بل هو من فرقتنا ، واسمه لاتيكس .

وكانت يداه ترتجفـــان ، وكانت عيناه تؤلمانه ، وكـــان يردد بصوت مبحوح :

– كان يدعى لاتيكس . وعنده ستة اولاد .

ثم انحنى فجأة ، فصوب الى الجريح الذي كانت عيناه الكبيرتان تبدوان وكأنهما تنظران اليه :

– ستدفع الثمن ، ايها القذر .

قال شاسيريو : – انت مجنون . قلت لك ألا تبذر طلقاتك .

قال ماتيو : – حلّ عن ديني !

ولم يكن يعجل في الاطلاق : اذا رآني ، هذا القذر ، فسيكون في وضع شاق ، وكان يصوّب على رأسه ، واطلق : فانفجر الرأس، ولكن الرجل ظل يحرك رجليه .

وصاح ماتيو : – قذر ! قذر !

– حذار ! يلعن دين ! حذار ! الى اليسار !

وكان خمسة المان أو ستة قد ظهروا ، فأخذ شاسيريو وماتيو يطلقان ، ولكن الالمان كانوا قد غيروا خطتهم . كانوا يبقون واقفين ، مختفين في الزوايا ، وكأنهم ينتظرون . وقال شاسيريو :

– تعال يا كلابو ! يا دانديو ! لقد تكاثروا .

قال كلابو : — لا استطيع .
فصاح ماتيو : — بينيت !
فلم يجب بينيت ، ولم يجرؤ ماتيو على الالتفات .
— حذار !
كان الالمان قد اخذوا يركضون ، واطلق ماتيو ، ولكنهم كانوا قد عبروا الشارع ، وصاح بهم كلابو من مكانه :
— عجباً ! ان هناك المانأ تحت الاشجار في هــذه الساعة ، فمن تركهم يمرون ؟
فلم يجيبوا ، كانت ثمة تحركات تحت الاشجار . واطلق شاسيريو على هواه .
— سيكون مستحيلا ان نخرجهم من اماكنهم .
وكان افراد المدرسة قد اخذوا يطلقون ، وكان الألمان يجيبونهم ، وهم في مخابئهم خلف الاشجار . وكفت البلدية عن اطلاق النار بتاتاً . وكان الشارع يصعد الدخان ببطء ، على مستوى الارض .
وصاح كلابو : — لا تطلقوا في الاشجار ، فسيكون ذلك بارودا ضائعا .
وفي اللحظة نفسها ، انفجرت قنبلة على واجهة البلدية ، في مستوى الطابق الاول ، وقال شاسيريو : — انهم يتسلقون الاشجار .
فقال ماتيو : — اذا تسلقوا الاشجار ، سهل علينا اصطيادهم .
وكان نظره يحاول ان يخرق الاوراق ، ورأى ذراعاً ترتفع فأطلق. ولكن ذلك بعد فوات الاوان : لقد انفجرت البلديــة ، فانتزعت نوافذ الطابق الاول ، ومن جديد ، اعماه ذلك النور الاصفر الفظيع ، واطلق كيفما تأتى له : فسمع ثماراً ضخمة ناضجة تتدحرج من غصن لغصن ، ولم يكن يعلم ان كان الاشخاص يسقطون ام يهبطون .
قال كلابو : — لقد كفت البلدية عن الاطلاق .

وارهفوا آذانهم ، ممسكين انفاسهم ، كان الالمان ما يزالون يطلقون ولكن البلدية لم تكن تجيب . وارتعش ماتيو ، ماتوا ، قطع من اللحم الدامي فوق ارض مبعوجة ، في قاعات فارغة .

وفجأة ، خرجت من نوافذ الطابق الاول دوامات دخان ، وتميز ماتيو ، عبر الدخان ، لهبا احمر واسود . واخذ احدهم يصيح في دار البلدية ، وكان صوتاً حادا ابيض ، صوت امرأة . واحسّ ماتيو فجأة انه سيموت . وأطلق شاسيريو النار .

وقال له ماتيو : – انك مجنون ، هأنت الآن تطلق علــى دار البلدية ، انت الذي تأخذ علي ان ابذر الطلقات .

وكان شاسيريو يصوب على نوافذ البلدية ، واطلق ثلاث مرات في اللهيب ، وقال :

– انه هذا الذى يزعق ، لا استطيع بعد ان اسمعه .

قال ماتيو : – ما يزال يزعق .

وكانا يصغيان ، مثلوجين ، وضعف الصوت .

– انتهى .

ولكن الصرخات ما لبثت ان عادت بصورة اقوى ، وكانت لا انسانية ، كانت اصداء هائلة ضخمة تزداد حدة وثقوبا. واطلق ماتيو بدوره على النافذة ، ولكن بلا جدوى .

قال شاسيريو : – انه لا يريد ان يموت .

وفجأة انقطع الصراخ ، فقال ماتيو :

– أف !

قال شاسيريو : – انتهى . مات . شُوي .

ولم يكن ثمة بعد ما يتحرك ، لا تحت الشجر ، ولا في الشارع ، وكانت الشمس تذهّب مثلث دار البلدية الملتهب . ونظر شاسيريو الى ساعته . فقال :

— سبع دقائق .

وكان ماتيو يتلوى في اللهب ، انه لم يكن بعد الا حرقاً ، وكان يختنق ، ووجب عليه ان يشد يديه على صدره ويهبط بهما رويداً حتى بطنه ، ليتأكد من انه كان سليما . وقال كلابو فجأة :

— هناك جنود على السقوف .

— على السقوف ؟

— تجاهنا تماماً . انهم يطلقون على المدرسة ، خراء ! هكذا اذن !

— ماذا !

— انهم ينصبون رشاشاً ، (وصاح) بينيت !

فانزلق بينيت الى الخلف .

— تعال الى هنا ! ان افراد المدرسة سيتعرضون للقتل .

وانحنى بينيت على اربع : وكان ينظر اليهم بهيئة غائبة ، وكان وجهه رماديا .

وسأل ماتيو : — هل تشكو شيئاً ؟

فقال بجفاء : — الامور على أحسن ما يرام .

وجر نفسه نحو كلابو ، وركع .

قال كلابو : — اطلق ، اطلق في الشارع لتشغلهم ، اما نحن ، فسنتولى امر الرشاش .

واخذ بينيت يطلق ، من غير ان يقول كلمة . فقال كلابو :

— اطلق بطريقة افضل ، يلعن دين : ان الانسان لا يطلق ، وعيناه مغمضتان .

فارتعش بينيت وبدا وهو يبذل جهداً عنيفاً على نفسه ، فعاود حديثه بعض الاحرار ، وصوب وهو يحملق بعينيه ، وكان كلابو وداندبو ، الى جانبه ، يطلقان بلا انقطاع ، ثم اطلق كلابو صيحة انتصار :

ـ حسناً ! حسناً ! لقد اغلق الرشاس فمه .

وارهف ماتيو اذنه : لم يكن يُسمع شيء بعد ، وقال :

ـ نعم ، ولكن الرفاق لا يطلقون بعد .

كانت المدرسة صامتة ، واجتاز الطريق ركضا ثلاثة ألمان كانوا قد اختبأوا تحت الاشجار وارتموا على باب المدرسة فانفتح . ودخلوا، ثم ظهروا بعد لحظة مطلين من نوافذ الطابق الاول ، يصرخون ويأتون بالحركات . واطلق كلابو ، فاختفوا ، وبعد لحظات ، سمع ماتيو ، للمرة الاولى منذ الصباح ، ازيز رصاصة ، ونظر شاسيريو الى ساعته :

ـ عشر دقائق .

قال ماتيو : ـ نعم ، انها بداية النهاية .

كانت البلدية تحترق ، وكان الالمان يحتلون المدرسة : فكأن فرنسا هُزمت مرة اخرى .

ـ اطلقوا ، يلعن دين !

وكان بعض الالمان قد ظهروا، حذرين ، في مدخل الشارع الكبير واطلق شاسيريو ، وكلابو : فاختفت الرؤوس .

ـ لقد اهتدوا الى مكاننا ؛ هذه المرة .

وعاد الصمت من جديد ، صمت طويل ، وفكر ماتيو : « ماذا تراهم يُعدّون ؟» في الشارع الخالي ، كان ثمة اربعة قتلى ، وعلى بعد قليل ، اثنان آخران : هذا كل ما استطعنا ان نفعله . اما الآن ، فيجب ان ننجز مهمتنا : ان نُقتَل . وبالنسبة اليهم ، ماذا يشكل ذلك ؟ عشر دقائق تأخير عما هو مقرر .

وقال كلابو فجأة : ـ عليهم !

كان شيطان صغير كثيف يجري نحو الكنيسة ، وكان يلتمع في الشمس ، وقال دانديو بين اسنانه :

ــ « شنلفورا كنون » .

وزحف ماتيو نحوهم . كانوا يطلقون ، ولكن لم يكن يُرى احد ، وكان يبدو ان المدفع يسير من تلقــاء نفسه . كانوا يطلقون ارضاء لضمائرهم ، لانه كان ثمة بعد طلقات ، وكانت لهم وجوه جميلة هادئة ومتعبة ، وجوههم الاخيرة .

ــ الى الوراء !

وبدا فجأة الى شمال المدفع رجل يرتدي قميصاً بنصف كم ، ولم يكن يسعى للاحتماء بشيء ، بل كان يصدر اوامره في هدوء ، وهو يرفع ذراعه . وانتصب ماتيو بغتة : كان هذا الرجل القصير ذو العنق العارية يُلهبه رغبة .

ــ الى الوراء ، وعلى بطونكم !

وارتفع فم المدفع في هدوء ، ولم يكن ماتيو قد تحرّك : كان على ركبتيه يصوِّب ناره على نائب الضابط ، وصاح به كلابو :

ــ هل سمعت امري ؟

فدمدم ماتيو : - اسكت !

واطلق ، فصدم مقبض بندقيته كتفه ، وحدث انفجار هائل كأنه صدى مضخم لطلقة بندقيته ، ورأى لوناً احمر . ثم سمع ضجة تمزُّق ، طويلة ، مائعة .

قال كلابو : ــ أخطأوا الهدف ، لقد صوّبوا اعلى مما ينبغي .

وكان نائب الضابط يتخبط ، وساقاه في الهواء . وكان ماتيو ينظر اليه وهو يبتسم . وكان يوشك ان يجهز عليه حين بدا جنديان فحملاه ، وزحف ماتيو القهقرى ، واتى يتمدد بالقرب من دانديو ، وكان كلابو قد بدأ برفع باب السقف .

ــ عجّلوا ، لنهبط !

فهز دانديو رأسه :

ـ تحت ، ليس ثمة من نوافذ .
وتبادلوا النظر ، وقال شاسيريو :
ـ اننا لا نستطيع ان ندع الطلقات تذهب هدرا .
ـ وهل بقي معك منها كثير ؟
ـ مشطان .
ـ وانت ، يا دانديو ؟
ـ مشط واحد .
فعاد كلابو يغلق باب السقف ، وهو يقول :
ـ انت علي حق ، لا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .
وسمع ماتيو خلفه نفساً أبح ، فالتفت : كان بينيت قد امتقع حتى الشفتين وكان يتنفس بمشقة .
ـ هل انت مجروح ؟
فنظر اليه بينيت نظرة قاسية :
ـ لا .
ونظر كلابو الى بينيت بتنبه :
ـ اذا اردت ان تهبط ، يا صغيري ، فلست مجبرا علي البقاء ، ليس ثمة من هو مدين لاحد بشيء . انها كما تعلم طلقاتنا . ولا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .
قال بينيت : ـ خراء اذن ! ولماذا تراني اهبط ، اذا لم يهبط دولارو ؟ .
وزحف حتى الافريز ، واخذ يطلق .
وصاح ماتيو : ـ بينيت !
فلم يجب بينيت . وكان الرصاص يصفر فوقهم ، وقال كلابو :
ـ دعه وشأنه . فان هذا يشغله .
واطلق المدفع طلقتين متتاليتين ، فسمعوا صدمة قاسية فوق رؤوسهم ، وانفصل عن السقف وابل من احجار الجبس ، وسحب شاسيريو ساعته :

ـ اثنتا عشرة دقيقة .

وزحف ماتيو وشاسيريو حتى الافريز . وجلس ماتيو القرفصاء ، بالقرب من بينيت ، وكان شاسيريو ، الى يمينه ، واقفاً منحنياً الى امام . وقال شاسيريو :

ـ لا بأس بها ، اثنتا عشرة دقيقة حتى الآن . لا بأس بها .

وهبت الريح وأنّت وصفعت ماتيو على وجهه : ريح حارة ثقيلة كأنها الحساء ، وسقط ماتيو جالساً على الارض . وكان الدم يعميه ، كانت يداه حمراوين حتى المعصمين ، وكان يفرك عينيه فيمزج دم يديه بدم عينيه ، ولكن ذلك لم يكن دمه : فان شاسيريو كان جالساً على الافريز ، بلا رأس . كان مزيج من الدم والفقاعات يخرج من عنقه .

قال بينيت : ـ لا اريد ، لا اريد !

ونهض فجـأة ، فركض الى شاسيريو وضربه في صدره بمقبض بندقيته ، فتهاوى شاسيريو وهوى من فوق الافريز . ورآه ماتيو يسقط بلا انفعال : كان ذلك بداية موته هو بالذات .

وصاح كلابو : ـ اطلقوا النار كما تشاءون .

وفجأة ، اصبحت الساحة تنغل بالجنود ، وعاد ماتيو الى مركزه واخذ يطلق . وكان دانديو يطلق بالقرب منه .

وقال دانديو ضاحكاً : ـ ان هذه مذبحة !

وترك بندقيته التي سقطت في الشارع ، ونام على ماتيو وهو يقول :

ـ يا عزيزي ! يا عزيزي !

فدفعه ماتيو عنه بضربة كتف . فسقط دانديو الى الخلف ، واستمر ماتيو يطلق النار . وكان ما يزال يطلق حين انهار السقف عليه . وتلقى عارضة عـلى رأسه ، فترك بندقيته وسقط . وفكر في جنون ، خمس عشرة دقيقة ، انني اهب كل شيء لاقاوم خمس عشرة دقيقة ! وكانت قبضة بندقيته تخرج من فوضى الخشب المحطم والاحجـار المتناثرة ،

فسحبها اليه ، كانت البندقية دبقة بالدم ، ولكنها معبأة بالطلقات .

وصاح بينيث : — ماتيو !

فلم يجب احد ، كان انهيار السقف يسد شمال السطيحة كله . وكانت الانقاض والعوارض تسد باب السقف ، وكانت عصا من حديد تتدلى من السقف الفاغر ، كان ماتيو وحيداً .

وقال بصوت مرتفع : — يلعن دين ! لن يقال اننا لم نقاوم خمس عشرة دقيقة .

واقترب من الافريز واخذ يطلق واقفاً . وكان ذلك ثأراً هائلا . كانت كل طلقة تثأر له من وسواس قديم ، طلقة على لولا التي لم اجرؤ على سرقتها ، وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها ، وطلقة على اوديت التي لم ارد ان اضاجعها . وهذه للكتب التي لم اجرؤ على كتابتها ، وتلك للرحلات التي امتنعت عن القيام بها ، وهذه الاخرى على جميع الاشخاص ، جملة ، الذين كنت راغباً في احتقارهم والذين حاولت ان افهمهم ، كان يطلق ، وكانت القوانين تتطاير في الهواء ، ستحب قريبك كما تحب نفسك ، طق في فم هذا الفرج ، لن تقتل ابداً ، طق في الطرح المزيف الساكن قبالتي . كان يطلق على الانسان ، على « الفضيلة » على العالم : « الحرية » هي « الارهاب » ، كانت النار تشتعل في البلدية ، تشتعل في رأسه : كان الرصاص يئز ، حراً كالهواء ، سينفجر العالم ، وانا معه ، واطلق ، ونظر الى ساعته : اربع عشرة دقيقة وثلاثون ثانية ، لم يبق ما يُطلب بعدُ الا مهلة نصف دقيقة ، ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميل الفخور الذي كان يعدو نحو الكنيسة : واطلق على الضابط الجميل ، على كل « جمال » الارض ، على الشارع ، على الازهار ، على الحدائق ، على كل ما سبق له ان احبه ، وغطس « الجمال » غطسة داعرة ، واطلق ماتيو مرة اخرى . اطلق : وكان نقياً ، وكان قديراً ، وكان حراً .

خمس عشرة دقيقة .

القسم الثاني

الليل ، النجوم ؛ نار حمراء في الشمال ، انهـا دسكرة تحترق في الشرق والغرب ، بروق حرّ طويلة وجافة : انها مدافعهم . إنهم في كل مكان ، وسيعتقلونني غداً . ويدخل الى القرية النـائمة ؛ ويعبر الساحة ، ويقترب من بيت يراه ، فيطرق بابه ، لا جواب ، ويشد على المقبض ، فينفتح الباب . ويدخل ، ويغلق الباب خلفه : الظلام . عود ثقاب . هو في الممر ، وتخرج مرآة من الظلام بغموض ، فيرى فيها نفسه : انني بأشد الحاجة الى حلق ذقني . وينطفيء عود الثقاب . وقد أُتيح له ان يلمح سلماً يهبط الى اليسار . ويقترب منه متحسساً : السلم يهبط منعطفاً ، وينعطف برونيه ، فيلمح ضياء غامضاً منتشراً ، وينعطف مرة اخرى : القبو . إن رائحة الخمر والفطر تنبعث منه . براميل ، كومة قش . رجل ضخم في قميص الليل والبنطلون ، جالس على القش بالقرب من شقراء نصف عارية تمسك طفلا بين ذراعيها . وينظرون الى برونيه ، فاغري الافواه ، خائفين . ويهبط برونيه درجات السلم ، والرجل لا ينفك ينظر اليه . ويظـل برونيه يهبط ، ويقول الرجل فجأة :

— إن زوجتي مريضة .

فيسأل برونيه : — يعني ؟

— لم ارد ان تقضي الليل في الغابات .

قال برونيه : — تقول لي هذا ، وهو لا يهمني على الاطلاق . وهو الآن في القبو . وينظر اليه الرجل في تحدّ :

— ولكن ماذا تريد ؟

قال برونيه : — اريد ان أنام هنا .

فكزّ وجه الرجل ، وظل ينظر :

— هل انت ملازم ؟

فلم يجب برونيه . فسأله الرجل بارتياب :

ــ اين هم رجالك ؟
قال برونيه : ــ لقد ماتوا .
واقترب من كومة القش ، وقال الرجل :
ــ والألمان ، اين هم ؟
ــ في كل مكان .
قال الرجل : ــ لا اريد ان يجدوك هنا .
ونزع برونيه سترته فطواها ووضعها على برميل . وصاح الرجل :
ــ أتسمع ؟
فقال برونيه : ــ أسمع .
ــ إن لي امرأة وطفلا : فلا اريد ان ادفع ثمن حماقاتكم .
قال برونيه : ــ لا تهتم بالأمر .
وجلس . ونظرت اليه المرأة في حقد . وقالت :
ــ هناك فرنسيون سيقاتلون فوق . فكان ينبغي لك ان تكون معهم .
ونظر اليها برونيه ، فرفعت قميص النوم على نهديها ، وصاحت :
ــ اخرج من هنا ، اخرج من هنا . يكفي انكم خسرتم الحرب ، فلا تعرضونا فوق ذلك للقتل .
فقال لها برونيه : ــ لا تخافي . فليس عليكما الا ان توقظاني حين يصبح الالمان هنا .
ــ وماذا ستفعل ؟
ــ سوف استسلم .
قالت المرأة : ــ قذارة ! بينما هناك اخيراً أناس يعرضون انفسهم للذبح .
وتثاءب برونيه وتمطى ثم ابتسم . انه يقاتل منذ ثمانية ايام ، من غير أن ينام ، ومن غير ان يأكل تقريباً ، وقد اوشك عشرين مرة ان يقتل . ولقد انتهى القتال الآن ، لقد خسرت الحرب ، وهناك ما ينبغي ان يعمل . عمل كثير . وتمدد على القش ، وتثاءب ، ونام .

قال الرجل : ــ هيا ! ها هم اولاء !

وفتح برونيه عينيه ، فرأى وجهاً ضخماً أحمر ، وسمع طلقات وانفجارات .

ــ هل وصلوا ؟

ــ نعم . والقتال دائر . انني لا استطيع ان احتفظ بك عندي .

ولم تتحرك المرأة . انها تنظر الى برونيه بعينيها المتوحشتين ، وهي تضمّ ولدها النائم في ذراعيها .

وقال برونيه : ــ انني ذاهب .

ونهض ، وتثاءب ، واقترب من نافذة ، وفتّش في قربته ، فأخرج منها قطعة مرآة وآلة للحلاقة . ونظر اليه الرجل ، مذهولا من شدة الغيظ :

ــ اتراك ستحلق ذقنك ؟

فسأله برونيه : ــ ولِمَ لا ؟

ويحمرّ وجه الرجل :

ــ اقول لك انهم سيرموننا بالرصاص اذا وجدوك هنا !

ويقول برونيه : ــ سأنتهي بسرعة .

ويشدّه الرجل من ذراعه ليخرجه :

ــ انني لا اريد ذلك ، فلي امرأة وطفل ، ولو علمت ، لما تركتك تدخل .

فتخلص برونيه بانتفاضة ، ونظر باشمئزاز الى هذا المائع الخروع الذي يُصرّ على الحياة ، والذي سيحيا في جميع العهود ، متواضعاً ، مخاتلا ، وسيحيا من اجل لا شيء . وارتدّ الرجل عليه ، فقذفه برونيه على الجدار :

ــ اهدأ والا

وتوقف

الكحوليتين ؛ وكانت تنبعث منه رائحة موت وزبل . واخذ برونيه يحلق ذقنه ، بلا صابون ولا ماء ، وكان جلده يحرقه ؛ والى جانبه ، كانت المرأة ترتجف خوفاً وغيظاً ، وعجَّل برونيه : اذا استمر ذلك طويلا ، أصبحت مجنونة . ووضع آلته في قربته : إن الشفرة ما زالت تصلح مرتين :

– ارأيت ؟ لقد انتهيت . إن الامر لم يكن يستحق كل هـــذه المشاكل .

فلم يجب الرجل ، وصاحت المرأة :

– اخرج من هنا ، ايها القذر ، ايها الجبان ، إنك ستعرّضنا للقتل !

وارتدى برونيه سترته ، وأحسّ نفسه نظيفاً ، جديداً وصلبـــاً ، وكان وجهه أحمر .

– اخرج من هنا ! اخرج من هنا !

وحيّا باصبعين وقال :

– شكراً على اي حال .

ورقي السلم المظلم ، واجتاز مدخلا : وكان باب الدخول مفتوحـــاً على سعته ؛ وفي الخارج ، كان شلال النهـــار الابيض ، وطقطقة الرشاشات العنيدة ، كان البيت مظلماً ورطباً . واقترب من الباب : يجب ان يغطس في زبد هذا النور . ساحة صغيرة ، الكنيسة ، المقبرة ، زبل امـــام الأبواب . وبين بيتين يحترقان ، كانت الطريق الوطنية ، مورّدة بالصباح . وكان الألمان هناك ، زهاء ثلاثين رجلا منهمكين ، عمال في اثناء عملهم ، يطلقون النار على الكنيسة ، ويُطلق عليهم من برج الأجراس ، فكأنهم في ورشة . وفي وسط الساحة ، كان الجنود الفرنسيون في قمصـــانهم تحت النيران المتشابكة ، وعيونهم متوردة من النعاس ، يمشون على رؤوس أصابعهم ، بخطى صغيرة مسرعة ، كما لو أنهم يسيرون في استعراض لاحدى مسابقات الجمال . وكانوا رافعين

أيديهم المتقعة فوق رؤوسهم ، والشمس تتلاعب بين أصابعهم . وينظر اليهم برونيه ، وينظر الى برج الاجراس ، والى يمينه بنـــاء ضخم يحترق . ويحس الحرارة على خده ، ويقول : « خراء ! » ، ويهبط درجات السلم الثلاث . وهكذا : لقد أُخذ . ويحتفظ بيديه في جيبه ، وهما ثقيلتان كأنهما من رصاص . « ارفع يديك ! » ويصوّب عليه ألماني ببندقيته . ويحمرّ وجهه ، وترتفع يداه ببطء ، وها همـــا في الهواء فوق رأسه : سيدفعون لي ذلك دماً . وينضمّ الى الفرنسيين فيرقص معهم ، فكأنه فيلم سينمائي ، لا شيء يبدو حقيقياً ، وهذا الرصاص الذي يئز لا يمكن ان يقتل ، والمدفع يطلق باروداً ابيض . وينحني فرنسيٌ في شكل تحية ثم يسقط ، فيتجاوزه برونيه . وينعطف غير معجل عنـــد زاوية البيت الأسمر ثم يسلك الشارع الكبير ، في الوقت الذي ينهار فيه برج الأجراس . ليس من ألمان بعـــد ، وليس من رصاص ، انتهى الفيلم ، وها هو الريف الحقيقي ، ويعود فيضع يديه في جيبيه . انهم فرنسيون فيما بينهم . جمع من الفرنسيين القصار في ثيـــاب الكاكي ، متسخون ، طويلو اللحى ، مسودّة وجوههم من الدخان ، يضحكون ويمزحون ويهمسون ، موجة من الرؤوس العارية ، أو طاقيات رجال الشرطة ، وليس من قبعة واحدة ؛ ويعرف بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحيات : « لقد رأيتك في سافيرن في شهر كانون الاول . هيد ! جيرار ، مرحباً ، يجب ان تحدث الهزيمة لنلتقي من جديد ، كيف حال ليزا ؟ » ويحرس قطيع المهزومين الصغار جندي ألماني يبدو عليه الضجر ، وسلاحه على كتفه ، وهو يرافق كردحتهم المستعجلة بخطوات واسعة بطيئة . ويكردح برونيه مع الآخرين ، ولكنه في طول الألمان ، وهو حليق الذقن مثلهم . والطريق الوردية تسيل بين العشب ، ليس من نسمة هواء ، والحر حرّ هزيمة . إن رائحة الرجال منبعثة ، وهم يثرثرون والعصافير تغني . ويلتفت برونيه الى جاره ،

وهو رجل سمين يبدو عليه اللطف ويتنفس من فمه فيسأله :

– من اين انتم قادمون ؟

– كنا نازلين من « سافيرن » وقد قضينا الليل في المزارع .

قال برونيه : – اما أنا فقد جئت وحدي . إن هذا لطيف ، فقد كنت أحسب القرية خالية .

وكان شاب أشقر برونزي يسير على بعد صفّين منه ، عارياً حتى النطاق ، وبين راسليه قشرة ضخمة دامية . وارتفع في ظهر برونيه ضجيج طبيعي هائل ، من الضحك والصراخ واصطدام الاقدام بالأرض ، مما يشبه صوت الريح في الشجر . والتفت : إن آلاف الرجال هم الآن خلفه ، وقد جُمعوا من كل مكان ، من الحقول ، ومن الدساكر ، ومن المزارع . وانتصبت كتفا برونيه ورأسه متوحدة فوق هذا السهل المتموّج .

وقال الشخص السمين : – اسمي مولو ، وانا من « بارلودوك » .

وأضاف باعتزاز : – انني اعرف المنطقة .

وفي طرف الشارع ، كانت مزرعة تحترق ، وكان اللهيب اسود في وجه الشمس ، وكان كلب يعوي . وقال مولو لجاره :

– أتسمع الكلب ؟ لقد سجنوه في الداخل .

والجار هو بكل تأكيد من الشمال ، أشقر ، وليس قصيراً جداً ، وله بشرة حليبية ، وكان يشبه الألماني الذي يحرسهم . ويقطّب حاجبيه ويدير عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، نحو مولو :

– ماذا ؟

– الكلب مسجون في الداخل ؟

قال « الشتيمي » : – يعني ؟ إنه كلب .

– اواه ! اواه ! اواه ! اواه !

ولم يكن الكلب هو الذي ينبح ، هذه المرة : وانما كان الفتى ذا

الظهر العاري . وأقبل واحد يجرّه ويضع يده على فمه ؛ وأتيح لبرونيه ان يلمح وجهه الممتقع الضخم المشدوه ذا العينين اللتين لا أجفان لها . وقال مولو للشتيمي :

— لا يبدو على « شاربان » انه في حالٍ طيبة .

فنظر اليه الشتيمي :

— ماذا تقول ؟

— اقول إن رفيقك شاربان لا يبدو في حال طيبة .

وضحك الشتيمي فبدت اسنانه البيضاء :

— لقد كان دائماً غريباً .

وكانت الطريق صاعدة ، وكانت ترافقهم رائحة طيبة لأحجار ساخنة وحطب محروق ، وكان الكلب يعوي في ظهرهم . وبلغوا قمة الشاطيء ، فانحــدرت الطريق في مهبط صلب . وأشار مولو باصبعه الى العمود الذي لا ينتهـي :

— اوه ! من اين تراهم يخرجون ، هؤلاء ؟

والتفت الى برونيه :

— كم يبلغ العدد ؟

— لا ادري . ربما عشرة آلاف ، وربما اكثر .

فنظر اليه مولو غير مصدق :

— وتستطيـع ان ترى ذلك هكذا ، بمجرد نظرة ؟

ويفكر برونيه في ايام ١٤ تموز ، وايام اول ايار ؛ كانوا يوقفون الأفراد في جادة ريشار — لونوار ، ثم يقومون باحصائهم وفقــاً لمدة العرض ، جموع صامتة وحارّة ؛ وكان يحترق اذ يكون في وسطهم . أما هذا الجمع ، فهو صاخب ، ولكنه بارد وميت . ويبتسم ويقول :

— لقد ألفت ذلك .

فسأل الشتيمي :

ـ واين هم ذاهبون ؟
ـ لا أدري .
ـ واين هم الألمان ؟ ومن الذي يقود ؟

ولم يكن ثمة المان ، باستثناء زهاء عشرة يتفكهون في الشارع . كان القطيع الهائل ينسرب حتى منخفض الشاطيء ، كما لو انه يستجيب لثقله وحده ، وقال مولو :

ـ هذا طريف .

قال برونيه : ـ نعم ، هذا طريف .

هذا طريف ؛ كان بوسعهم ان يرتموا على الألمان ، فيخنقوهم ويفروا عبر السهول : ولكن ما جدوى ذلك ؟ كانوا يسيرون باستقامة ، أيان تقودهم الطريق . وها هم اولاء في اسفل الشاطيء ، في حفرة شبه مغلقة . وها هم الآن يصعدون ثانية ، وهم يحسون بالحر . ويسحب مولو من جيبه رزمة من الرسائل يربطها خيط من المطاط ، فيقلبها لحظة بين أصابعه الضخمة المرتبكة . ويخلف العرق لطخات على الورق ، فيكمد الحبر البنفسجي في مواضع . وينزع مولو الخيط المطاط ، ويأخذ يمزّق الرسائل بانتظام ، من غير ان يعيد قراءتها ، الى قصاصات صغيرة ينثرها شيئاً فشيئاً ، في حركة باذر . ويتابع برونيه بعينيه طيران القصاصات اللاهث : وكان معظمها يسقط نثاراً على اكتاف الجنود ، ومن ثمّ تحت أقدامهم ؛ وتطايرت قصاصةٌ لحظة ، ثم حطّت على باقة عشب ، فانثنى العشب قليلا وحملها كمظلة . وعلى طول الطريق ، كان ثمة اوراق اخرى ، ممزقة ومدعوكة ومكوّرة ، في الحفر ، وبين البنادق المحطمة ، والقبعات المبعوجة . وكان برونيه يلتقط كلمة في عبوره ، اذ يكون الخطّ كبيراً وعالياً : كُلْ جيداً ، تغط جيّداً ، جاءت هيلين مع الصغار ، في ذراعيك يا حبيبي ـ الطريق كلها رسالة غرام ملطخة . وكانت مسوخ صغيرة مائعة تزحف

على الارض ، وتنظر الى قطيع المهزومين المرح بعيونها التي لا حدق فيها : اقنعة للوقاية من الغازات السامة . ويدفع مولو مرفق برونيه ، ويومىء الى قناع :

— إن من حظنا على كل حال اننا لم نحتج اليها للاستعمال .

فلا يجيب برونيه ؛ ويبحث مولو عن مشاركين آخرين :

— ايه ! لامبير !

فالتفت رجل كان بالقرب من برونيه ، فنبهه مولو الى قناع ، من غير تعليقات ، فأخذا يضحكان ، وكان الباقون يضحكون حولها : كانوا يحتقرونهم ، هؤلاء الدعاميص الطفيليين ، وكانوا يخافون منهم ، ومع ذلك فقد كان ينبغي إطعامهم والاعتناء بهم . انهم الآن ملقون تحت اقدامهم ، امواتاً ، وهم يرونهم فيتذكرون بان الحرب قد انتهت . وكان فلاحون آتون ، على مألوف عادتهم كل يوم ، ليشتغلوا في الحقول ، ينظرون اليهم يمرون وهم يستندون على مقالبهم ؛ وأخذ لامبير الجذل ، فصاح بهم : « مرحباً يا اولادي ! هذا هو الصف ! » فرددت عشرة أصوات ، مئة صوت ، في لهجة تحدّ : « هذا هو الصف ! هذا هو الصف ! اننا عائدون الى بيوتنا » . ولم يجب الفلاحون ، بل لم يكن يبدو عليهم انهم يسمعون . وسأل شاب أسمر مجعد الشعر يبدو عليه انه باريسي ، سأل لامبير :

— كم تظنّ عددهم ؟

قال لامبير : — قليل ، يا بلوندنيه ، قليل .

— اتعتقد ؟ هل انت متأكد ؟

— ما عليك الا ان ترى . اين هم الأشخاص الذين يجب ان يحرسونا ؟ لو كنا حقاً من الأسرى ، لرأيت كيف كنا نكون محاطين .

فسأل مولو : — لماذا أخذونا اذن ؟

— أخذونا ؟ انهم لم يأخذونا : وانما هم ركنونا جانباً حتى لا

نكون بين سيقانهم ، فيما هم يتقدمون .

فتنهد الأشقر : — حتى في هذا الوضع ، يمكن لذلك ان يدوم طويلاً .

— هل انت مجنون ؟ انهم لا يستطيعون حتى ان يركضوا في مثل السرعة التي نهرب بها .

وكان يبدو جذلا ويقهقه :

— إن الالمان لا يكترثون بذلك ، فهم يتنزهون : دجاجة صغيرة في باريس ، قدح خمر في ديجون ، وسمك مطبوخ في مارسيليا . ولكن ينتهي الأمر في مارسيليا ، فعليهم ان يتوقفوا هناك : لأن البحر أمامهم . وفي تلك اللحظة يتركوننا ، فنكون في بيوتنا ، في منتصف آب .

ويهز بلوندنيه رأسه :

— شهران ! إن هذا طويل .

— يبدو انك مستعجل جداً . ولكن اسمع : يجب ان يصلحوا الخطوط ، حتى يستطيع القطار ان يمرّ .

قال مولو : — القطار ؟ انني اهديهم إياه . اذا كان الأمر مقتصراً على ذلك ، فاني مستعد للعودة الى بيتي مشياً على الاقدام .

— خراء إذن ! أما انا فلا ، لقد انقضى عليّ خمسة عشر يوماً وأنا أمشي ، وقد امتلأت مؤخرتي مشياً ، واريد ان ارتاح .

— أليست لك رغبة إذن في ان تضاجع صاحبتك ؟

— ولكن بأيّ شيء أفعل ذلك ؟ لقد أفرطت في المشي ، حتى لم يبق لي شيء في البنطلون . اريد ان أنام ، وأنام وحدي .

وكان برونيه يستمع اليهم ، وينظر الى رقابهم ، ويفكر بأن هناك عملا كثيراً يُعمل . شجر الحور ، شجر الحور ، جسر على ساقية ، شجر الحور . وقال مولو :

— انني عطشان .

فقال الشتيمي : — ليس هو العطش ، وانما الجوع : فانا لم أقضم لقمة منذ الأمس .

وكان مولو يكردح ويعرق ، ويلهث ، ونزع سترته ، ووضعها على ذراعه ، وفكّ ازرار قميصه وقال مبتسماً :

— نستطيع الآن ان نخلع ستراتنا ، فنحن أحرار .

توقفٌ مفاجيء . وصدم برونيه بصدره ظهر لامبير . والتفت لامبير ؛ وكانت لحيته متصلة بسالفيه ، وكانت له عينان حيتان تحت حاجبين كثيفين اسودين .

— الا تستطيع ان تنظر امامك ، ايها الابله ؟ أليست عيناك في ثقبيك ؟

وكان ينظر الى ثوب برونيه العسكري في قحة :

— انتهى عهد المائعين . وليس هناك من يأمر . ليس هناك إلا بشر .

ونظر اليه برونيه بلا غضب ، وصمت الرجل . وتساءل برونيه عما يستطيع ان يعمل اذ يعود مدنياً . تاجر صغير ؟ عامل ؟ طبقة وسطى ، على أي حال . إنهم مئات الوف على هذا الوضع : ليس ثمة أي حس للسلطة أو للنظافة الشخصية . ولا بد من نظام حديدي . وسأل مولو :

— لماذا توقفنا ؟

فلم يجب برونيه . إن هذا هو أيضاً بورجوازي صغير ، شبيه كل الشبه بالآخر ، ولكنه اكثر بلاهة : فلن يكون مناسباً العمل هنا . وتنهد مولو رضى وتروّح :

— لعل لدينا متسعاً من الوقت للجلوس على الأرض .

ووضع قربته في الطريق وجلس عليها ، واقترب منهم الجندي الألماني ، فأدار نحوهم وجهه الجميل الخالي من التعبير ، وكانت غشاوة مبهمة من الودّ تطوّف بعينيه الزرقاوين ، وقال في اهتمام :

– يا للفرنسيين المساكين ، لقد انتهت الحرب : فعودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟ اننا سنعود الى بيوتنا ؟ طبعاً سنعود الى بيوتنا ، خراء ، يا جوليان ، أتسمع ؟ سنعود الى بيوتنا ، إسأله متى ، أجل ، إسأله متى نعود الى بيوتنا ؟

– قل لي ، يا ألمانيّ ، متى نعود الى بيوتنا ؟

كانوا يكلمونه بلا كلفة ، بألفة وودّ . إنه الجيش المنتصر كله ، وليس هو الا عسكرياً بسيطاً . وردد الألماني ، فارغ العين :

– عودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ولكن متى ؟

– ايها الفرنسيون المساكين ، عودوا الى بيوتكم .

ويستأنفونِ السير ، ايتها الحور ، ايتها الحور . ويئنّ مولو ، انه يعاني الحر ، ويعاني العطش ، ويعاني التعب ، ويودّ لو يقف ، ولكن ليس ثمة من يستطيع ان يوقف هذا السير العنيد الذي لا يقوده احد . وأنّ شخص آخر : « إن بي صداعاً » ومشى ، وثقلت الثرثرة ، تقطعها لحظات صمت طويلة ؛ وقالوا فيما بينهم : « أنظل نمشي هكذا حتى برلين ؟ » وظلوا يمشون ؛ وكانوا يتبعون من يسبقهم ، مدفوعين بمن يليهم . قرية ، كومة قبعات وأقنعة وبنادق في الساحة الكبرى . وقال مولو :

– بودرو : لقد مررت من هنا أمس الاول .

فقال بلوندينه : – عجباً ، وأنا ، أمس . وكنت في الشاحنة : وكان ثمة ناس على عتبات بيوتهم ، ولم يكن يبدو عليهم انهم ينظرون الينا باحترام .

وكانوا ما يزالون هناك ، على عتبات بيوتهم ، صامتين ، متشابكي الذراعين . نساء ذوات شعر أسود ، وعيون سوداء ، وثياب سوداء ،

وشيوخ . انهم ينظرون . وامام هؤلاء الشهود ، كان الأسرى ينتصبون، فتصبح وجوههم وقحة مروّسة ، وتتحرك أيديهم ويضحكون ويصرخون: « مرحباً بالأم الصغيرة ! مرحباً بالأب ! هذه هي العودة الى الصف ، انتهت الحرب ، مرحبـــاً . » ويمرّون ويحيّون ، ويرسلون غمزات وبسمات مثيرة ، فيصمت الشهود وينظرون . وتتمتم السمّـــانة الطيبة السمينة وحدهـــا : « يا للشبـــاب المساكين ! » . ويبتسم الشتيمي باقتضاب ، ويقول للامير :

– من حسن الحظ اننا لسنا في الشمال .

– لماذا ؟

– لو كنا هناك ، لقذفونا بالكراسي والصحون .

نبع ، عشرة أشخـــاص ، مئة شخص ينفصلون عن الصفوف ، ويذهبون ليشربوا . ويهرع مولو ، فينحني بارتباك ونَهَم . وكانوا يتلامسون من التعب فترتعش اكتافهم ، ويسيل الماء على وجوههم . ولم يكن يبدو على الحارس انه يراهم : لسوف يبقون في القرية اذا شاءوا وإذا كانت لديهم الجرأة على مجابهة الأنظار . ولكن لا ، انهم يعودون واحداً واحداً ، معجلين كما لو انهم يخشون ان يفقـــدوا مراكزهم : ويعدو مولو كأنه امرأة ، وهو يلوي ركبتيه ، ويتدافعون ويضحكون ويصرخون ، يثيرون الدهشة والتحدي ؛ وكانت افواههم تنشقّ عن جروح ضـــاحكة تحت عيون تشبه عيون كلابٍ مضروبة . ومسح مولو شفتيه وقال :

– كان ذلك منعشاً .

ونظر الى برونيه في دهشة :

– ألم تشرب أنت ؟ ألست عطشاً ؟

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ؛ مؤسف الا يكون هـــذا القطيع محاطـــاً بخمسمئة جنـــدي مسلح ينغزون مؤخرات المتخلفين ،

ويقتلون الثرثارين بأعقاب البنادق : لو كـان الأمر كذلك ، لكانت هيئتك مختلفة الآن . ونظر الى يمينه ، والى يساره ، والتفت ، باحثاً عن وجه شبيه بوجهه في هذه الغـابة من الوجوه المهجورة ، الثملة ، التي يعذّبها مَرَحٌ لا يُقهر . اين هم الرفاق ؟ إن الشيوعي يُعرف من النظرة الاولى . وجه ، وجه واحد قاس وهادىء ، وجه انسان . ولكن لا : انهم يمشون منحنين الى أمام ، قصاراً ، قبيحين ، تسوق السرعة أجسامهم السقيمة المفتشة ، ويلهو على سحنهم القذرة كـلّ الذكاء الفرنسي ، فيشدّ على زوايا الافواه بخيوط ، ويقلص المناخر أو يمدّدهـا ، ويجعّد الجبـاه ، ويلهب العيون ؛ انهم يقدّرون ، ويميّزون ، ويحاكمون ، ويحكمون ، وينتقدون ، ويزنون الحسنات والسيئات ، ويتذوقون اعتراضاً ، ويدللون وينتهون الى نتائج ، جَدَل لا ينتهي يشكل كل وجه فيه طرفاً . انهم يسيرون بوداعة ، ويحاكمون وهم سائرون ، انهم هادئون : فلقد انتهت الحرب ؛ ولم تحدث معارك ضارية ، فالألمان لا يبدون مفرطين في الوحشية . هادئون لأنهم يحسبون أنهم قدّروا بلمحة واحدة أسيادهم الجدد ؛ وقد عادت وجوههم تفرز ذكاء ، لأن هـذا صنفٌ كماليّ باذخ يختص به الفرنسيون ، ويمكن منحه للألمان في الوقت المناسب لقاء منافع دقيقة . شجر الحور ، شجر الحور ، والشمس تصفع ، والوقت ظهر : « ها هم اولاء ! » ويمحي الذكاء . ويئنّ القطيع برمته من الشهوة ، ولم يكن ذلك صرخة ، حتى ولا تنهدة ، بل كان نوعاً من التهالك الإعجابي ، وحفيفـاً عذباً لاوراق شجرٍ تنحني تحت ثقل المطر . « ها هم اولاء ! » وكـان ذلك يعدو من أمام الى خلف ، وينتقل من رأس الى رأس كنبأ سارّ ، ها هم اولاء ! هـا هم اولاء ! وتتزاحَم الصفوف ، وتتدافع في الجوانب ، وترتعش دودة الفراش الطويلة : إن الألمان يمرون في الطريق ، على الدراجات ، وفي العربات والشاحنات ، حليقي الذقون ، مرتاحين ،

برونزيين ، بوجوه جميلة هادئة غامضة كأنها المراعي . انهم لا ينظرون الى أحد ، ونظرهم محدّق في الجنوب ، انهم يلجون في فرنسا ، وينقلون بالمجان ، انهم فرقة المشاة راكبة ، وانا أسمّي ذلك خوض الحرب ، انظر الى الرشاشات ، اوه ! والمدافع الصغيرة ، ما اروع ذلك ، وليس مستغرباً بعد ان نكون قد خسرنا الحرب . انهم مفتونون بان يكون الألمان اقوياء الى هذا الحد . ويحسون بأنهم غير مذنبين : « انهم لا يُقهرون ، فليس هناك من شك ، انهم لا يقهرون ! »

وينظر برونيه الى هؤلاء المهزومين المشدوهين ، ويفكر : هذه هي المادة . صحيح انها تساوي ما تساوي ، ولكن لا أملك سواها . بوسعنا ان نعمل في كل مكان ، ولا شك في ان هناك ، في النصيب ، من هم قابلون للاسترداد . ويمرّ الألمـــان ، وتزحف الدودة الى خارج الطريق ، وها هم اولاء على ساحة لكرة السلة يملأونها بضمغهم الأسود ، فيجلسون ويضطجعون ، ويصنعون من صحف شهر ايار قبعات كبيرة تقي من الشمس ، فكأنهـــا الارض الخضراء لحلبة سباق ، أو غابة « فانسين » يوم أحد .

— كيف حدث ان توقفنا ؟

قال برونيه : — لا ادري .

ونظر في غيظ الى هذا الجمع المقلوب ، ولم تكن به رغبة للجلوس ، ولكن تلك حماقة ، فينبغي ألا يُحتقروا ، فتلك خير وسيلة للقيام بعمل سيء ، ثم من يدري الى اين نحن ذاهبون ، فلا بدّ له من مراعاة قواه ، وجلس . ومرّ ألمانيّ خلفه ، ثم آخر : فنظر اليه وهما يضحكان بودّ ، وسألا في سخرية أبوية :

— أين هم الانكليز ؟

ونظر برونيه الى حذاءيهما الأسودين الطريين ، ولم يجب ، فمضيا ، وظلّ نائب ملازم طويل في الخلف وردّد في حزن مليء بالعتاب :

– اين هم الانكليز ، ايها الفرنسيون المساكين ، أين هم الانكليز ؟
فلم يجب أحد ؛ وهزّ رأسه بضع مرات . وحين ابتعد الألمان ، أجابهم لامبير من بين أسنانه :
– في مؤخرتي هـم الانكليز ؛ وانت لا تستطيع ان تركض بالسرعة التي يبعصونك بها !
قال مولو : – اويه !
– ماذا ؟
فأوضح مولو : – من الممكن ان يبعص الانكليز الألمان ، ولكن ليس هنـاك كيلومترات طويلة حتى يصبحوا مبعوصين بدورهم ، وبطريقة قذرة !
– ليس هذا مؤكداً .
– بلى ، بالتأكيد ، ايها المحوون ! إنهم يتطاوسون لأنهـم في جزيرتهم ، ولكن انتظر قليلاً لترى كيف يجتـاز الالمان المانش ، وسترى ! وانا اقول لك ، اذا لم يستطع الجندي الفرنسي ان يقاوم ، فليس الانكليز هم الذين سيربحون الحرب !
اين هم الرفاق ؟ ويُحسّ برونيه بأنه وحيد . ها هي عشرة اعوام تنقضي من غير ان يشعر بمثل هذه الوحدة . انه جائع وعطش ، وهو خجلٌ ان يحسّ الجوع والعطش . ويلتفت اليه مولو :
– سيعطوننا طعاماً .
– صحيح ؟
– يبدو ان نائب الملازم قد قـال ذلك : سوف يوزعون خبزاً ومعلبات .
وابتسم برونيه : هو يعلم بأنهم لن يعطوهم شيئاً يأكلونه . يجب ان يسيل لعابهم لذلك ، ولن يسيل لعابهم بما فيه الكفاية ابداً . وفجأة نهض رجال ، وتبعهـم آخرون ، ثم نهض الجميع ، ومضوا .

ويستبدّ الغضب بمولو ، ويُبدى استياءه :

ـ من الذي أمر بأن نمضي ؟

فلم يجب أحد ، فصاح مولو :

ـ لا تذهبوا ، يا جماعة ، فسوف يعطوننا ما نأكله .

ولكن القطيع كان قد انخرط في السير ، أعمى أصمّ . كانوا يمشون . غابة ؛ أشعة صفراء وحمراء تتخلل الاوراق ، ثلاثة مدافع عيار ٧٥ متروكة ، ما تزال تهدّد الشرق ، الرجال مسرورون لأن هناك ظلاً ؛ وتمرّ فرقة من ممهدي الطرق الألمان . فينظر اليهم الأشقر ببسمة دقيقة ، ويتسلّى بان يراقب المنتصرين عليه عبر أجفانه نصف المغلقة ، ويلاعبهم كما يلاعب القط الفأرة ، ويتنعّم بتفوقه ، ويقبض مولو على ذراع برونيه ويهزّه .

ـ انظر هناك ؟ المدخنة الرمادية !.

ـ يعني ؟

ـ انها «بكارا» .

وينتصب على رؤوس أصابعه ، ويكوّر يده حول فمه ويصيح :

ـ بكارا ! عجّلوا يا رفاق : اننا نصل الى بكارا .

الرجال متعبون ، والشمس في عيونهم ؛ وهم يردّدون بوداعة : « بكارا ، بكارا » ولكنهم لا يبالون . ويسأل بلونديته برونيه :

ـ بكارا ، أهي التخريم ؟

قال برونيه : ـ كلا ، هي معمل الزجاج .

فقال بلونديته بلهجة غموض واحترام .

ـ آه ! آه !

والمدينة سوداء تحت السماء الزرقاء ، والوجوه تحزن ، ويقول رجل بحزن : ـ طريف ان نرى مدينة .

وهبطوا شارعاً خالياً مسرعين ؛ وكانت شظايا زجاج تملأ الرصيف

والطريق ، ويضحك بلوندينه مشيراً اليها باصبعه، ويقول :

ـ هذا هو مصنع زجاج بكارا .

ويرفع برونيه رأسه : البيوت سليمة ولكن جميع الزجاج محطم ، ويردّد صوتٌ خافه :

ـ طريف ان نرى مدينة .

جسر ؛ ويتوقف العمود ، وتلتفت ملايين العيون نحو النهر : خمسة ألمان عراة تماماً يلعبون في الماء ، ويتراشقون به وهم يطلقون صرخات صغيرة ؛ وعشرون الف فرنسي ترشح اثوابهم بالعرق ينظرون الى تلك البطون والأفخاذ التي حماها متراس المدافع والدبابات مدة عشرة أشهر والتي تعرض نفسها الآن بطراوتها في قحة هادئة . كان الأمر كذلك ، ولم يكن الا كذلك : إن المنتصرين عليهم هم هــذا اللحم الأبيض الرخص. ومزّقت الجمع تنهدة منخفضة وعميقة: لقد تحمّلوا بلا غضب عرض جيش منتصر على دبابات النصر ؛ اما هؤلاء الألمان العراة الذين يلعبون في الماء ، فانهم إهانة . وانحنى لامبير فوق الإفريز ، فنظر الى الماء وتمتم :

ـ لا بدّ انه ماء لذيذ !

وكان ذلك اقلّ من رغبة : لم يكن إلا أسفَ ميت . وعــاد الجمع ، وهو ميت ، منسيّ ، مدفون في حربٍ فات أوانها ، عاد يسير في الجفاف والحرّ ودوّامات الغبار ، وانفتحَ باب كبير وهو يصرّ ، وتقاربت جدران عالية ، داخل ساحة هــائلة ، عبر الهواء الذي يرتعش ، ورأى برونيه ثكنة ذات نوافذ مغلقة ؛ وتقدم ، ودفع من الخلف ، فالتفت :

ـ كفى دفعاً ، سندخل جميعاً .

واجتاز العتبة ، وضحك مولو راضياً :

ـ انتهينا اليوم .

انتهى عالم المدنيين والمنتصرين ، عالم الحور والانهار المرتعشة من الشمس ، وهم سيكفّنون بين هذه الجدران حربهم القديمة القذرة ، سينسلقون في مرقهم ، بلا شاهد ، فيما بينهم . ويتقدّم برونيه ، ويُدفع من خلف ، يتقدّم حتى داخل الساحة ، ويتوقف عند الجرف الرمادي . ويدفعه مولو من مرفقه :

هذه ثكنة الحرس المتحرك .

مئة شباك مغلق ؛ وسلم من ثلاث درجات يفضي الى باب مقفل . والى يسار السلم ، على بعد مترين من الثكنة ، أقيم متراس صغير من القرميد ارتفاعه متر وطوله متران ؛ واقترب منه برونيه فأسند جانبه اليه . وامتلأت الساحة ، وكان تيّار متصل يركم القادمين الاول بعضهم لصق بعض ويدفعهم الى جدار الثكنة ، وكانوا لا ينقطعون لحظة ؛ وفجأة دار مصراعا الباب الثقيلان على نفسهما وانغلقا . وقال مولو :

ــ حسناً ، ها نحن في بيتنا .

ونظر لامبير الى الباب وقال في رضى :

ــ هناك جمع لم يستطع ان يدخل : فينبغي ان يناموا خارجاً .

وهزّ برونيه كتفيه :

ــ ان تنام في الساحة او في الشارع ..

قال لامبير : ــ ليس الأمر سواء .

فوافق الأشقر برأسه ، وقال موضحاً :

ــ نحن هنا ، لسنا خارجاً .

وأضاف لامبير :

ــ اننا في بيت لا سقف له .

واستدار برونيه ، فأخذ يتفحص الأمكنة ، مولياً الثكنة ظهره : كانت الساحة امامه تهبط في منحدر دقيق حتى جدار السور ، وكان مركزا مراقبة يقومان على قمة الجدار ، يفصل بينهما مئة متر : وكانا

خاليين . وكان صف من الاوتاد المغروسة حديثاً والتي مُدت بينهما أسلاك حديدية وحبال ، يقسم الساحة الى قسمين غير متساويين ، كان أصغرهما — وهو رقعة أرض ضيقة نسبياً تمتد بين السور والاوتاد — فارغاً . اما في القسم الآخر ، بين الاوتاد والثكنة ، فقد كان الجميع متراكمين . الرجال منزعجون ، وكأنهم في زيارة ، وليس ثمة من يجرؤ على الجلوس ؛ وهم يحملون قربهم ورزمهم في ايديهم وفوق أذرعتهم ، والعرق يسيل على خدودهم ، وقد غادر الذكاء الفرنسي وجوههم ، ودخلت الشمس الى عيونهم الفارغة ، وهم يفرون من الماضي والمستقبل القريب الى موت صغير مزعج وموقت . ولم يكن برونيه ليعترف لنفسه بأنه عطش ، وقد أراح قربته ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يصفر . وأدى رقيبٌ التحية العسكرية له ، فبسم له برونيه من غير ان يرد له التحية . واقترب الرقيب :

— ماذا ننتظر ؟

— لا ادري .

وكان رجلا طويلا هزيلا صلباً ذا عينين كبيرتين كدّرهما الكبر ؛ وكان شارب يعترض وجهه المعظم ، وكانت له حركات حية قاسية قد تعلمها . وسأل :

— من يأمر ؟

— ومن تريد ان يأمر ؟ انهم الألمان .

— ولكن عندنا ؟ اين هم المسؤولون ؟

فضحك برونيه وقال :

— إبحث عنهم .

فأمتلأت عينا الرقيب بلوم محتقر : كان بوده ان يأمر في المحل الثاني ، ان يجمع شكر الطاعة الى لذة اصدار الأوامر ؛ ولكن برونيه لا يريد بعد ان يأمر قط ؛ لقد انتهت قيادته حين سقط آخر رجاله

ميتاً . اما الآن فان في رأسه شيئاً آخر . وسأل الرقيب بنفاد صبر :

— لماذا يترك هؤلاء المساكين على أهبة الاستعداد ؟

فلم يجب برونيه ؛ ورماه الرقيب بنظرة غاضبة ، وقرر ان يأمر في المحل الاول . وتجمهر ، وأحاط فمه بيديه وصاح :

— ليجلس الجميع !

فالتفتت رؤوس ، حيرى ، ولكن الأجسام لم تتحرك . وكرر الرقيب :

— ليجلس الجميع ! الجميع !

فجلس البعض بهيئة مستنيمة ، ورددت أصواتٌ الصدى : ليجلس الجميع ؛ وتماوج الجمع ورقد . واستدارت الصيحة فوق الرؤوس ، ليجلس الجميع ، وانسلت الى الجانب الآخر من الساحة ، فاصطدمت بالجدار ، وعادت مقلوبة بطريقة سرية : ليقف الجميع ، ليبقوا واقفين ، انتظروا الاوامر . وينظر الرقيب الى برونيه في حيرة : إن له هناك منافساً ، من جانب الباب الكبير . ونهض بعض الرجال قافزين ، فتناولوا قربهم وضموها الى صدورهم وهم يرسلون نظرات مطاردة في كل مكان . ولكن معظمهم يظل جالساً ، ثم يعود من كان وقف الى الجلوس رويداً رويداً . ويتأمل الرقيب عمله في ضحكة بلهاء :

— لم يكن ثمة إلا ان آمر .

فنظر اليه برونيه وقال له :

— اجلس ، يا رقيب .

فطرف الرقيب بعينيه ، فردد برونيه :

— اجلس : الأمر هو ان تجلس .

فتردد الرقيب ثم تداعى للسقوط على الأرض بين لامبير ومولو : وأحاط ركبتيه بذراعيه ، ونظر الى برونيه من تحت الى فوق ، فاغر الفم . وشرح له برونيه :

– انا أبقى واقفاً لأني ضابط صف .

ولا يريد برونيه ان يجلس : لقد كانت الاوجاع تصعد من ركبتيه الى فخذيه ، ولكنه لا يريد ان يجلس . ويرى الوفاً من الظهور وأمشاط الأكتاف ، ويرى رقاباً تتحرك ، واكتافاً تهتز ؛ إن لهذا الجمع حركاته وعاداته . وكان ينظر اليه يحترق ويخفق ، وكان يفكر بلا ضجر ولا لذة : تلك هي المادة . انهم ينتظرون متوترين ؛ ولا يبدو عليهم بعد أنهم جائعون .. فلا بد ان الحرارة قد أفسدت معدهم . فهم خائفون، منتظرون . وما عساهم ينتظرون ؟ أمراً أو كارثة أو الليل : اي شيء يحررهم من ذواتهم . ويرفع احتياطي ضخم رأسه الممتقع ، ويومىء الى احد برجي المراقبة :

– لماذا يتغيب الحراس عنه ؟ ماذا تراهم يفعلون ؟

ويتلبث لحظة ، وتغمر الشمس عينيه المقلوبتين ، ثم ينتهي الى ان يهز كتفيه ويقول بصوت خائب قاس :

– عندهم كما عندنا ، ينتهزون عدم التنظيم .

وينظر برونيه ، وهو واقف وحده ، الى الرؤوس ويفكر : إن الرفاق هنا في الداخل ، ضائعين كالإبر في التبن ، ويحتاج تجميعهم من جديد الى الوقت . وينظر الى السماء ، والى الطائرة السوداء في السماء ، ثم يخفض عينيه ويدير رأسه ، فيلمح الى يمينه شخصاً طويلا لم يجلس . انه عريف ؛ وهو يدخن سيكارة . وتمر الطائرة في ضجة هادرة ، ويحول الجمع ، وهو مقلوب كالسهـــل ، من الاسود الى الابيض ، ويزدهر : فبدلا من الرؤوس القاسية السوداء ، تتفتح بالألوف زهرات كاميليا كبيرة : وتلتمع نظارات ، شظايا زجاج وسط الزهرات . ولم يتحرك العريف : بل انه يقوس كتفيه العريضتين وينظر الى الأرض بين قدميه . ويلاحظ برونيه في ود انه كان حليق الذقن . ويلتفت العريف وينظر الى برونيه بدوره : إن له عينين كبيرتين محاطتين بدائرة مزرقة في

ولولا أنفه الأفطس ، لكان جميلا على وجه التقريب ، وفكر برونيه : « لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما . » ولكن اين « انه لا يذكر بعد » فكثيرة هي الوجوه التي رآها ! وتخلى عن التذكر ؛ ليس لذلك كبير أهمية ، ثم إن الرجل لم يبد عليه انه عرفه . وفجأة صاح برونيه:

— ايه !

فرفع الرجل عينيه :

— ماذا ؟

ولا يبدو السرور على برونيه : لم تكن به رغبة قط في ان ينادي هذا الشخص . غير ان الآخر كان واقفاً ، ونظيفاً تقريباً ، وحليقاً .. وقال برونيه بغير حماسة :

— تعال من هنا . اذا اردت ان تظل واقفاً ، فبوسعك ان تستند الى الجدار الصغير .

فانحنى الرجل ، والتقط رزمته ، ولحق ببرونيه وهو يتخطى الأجسام . إنه شديد البأس ، ولكنه سمين بعض الشيء .

وقال : — مرحباً ، يا صاح .

قال : — مرحباً .

قال الرجل : — سأقف هنا .

فسأله برونيه : — هل انت وحدك ؟

قال الرجل : — لقد مات رجالي .

قال برونيه : — ورجالي أيضاً . ما اسمك ؟

فسأله الرجل : — ماذا تقول ؟

— أسألك عن اسمك .

— آه ، نعم : اسمي شنايدر . وأنت ؟

— برونيه :

ولزما الصمت : ما حاجتي الى مناداة هذا الرجل ؛ انه سيزعجني .

ونظر برونيه الى ساعته : انها الخامسة ؛ الشمس مختبئة خلف الثكنة ، ولكن السماء تظل ساحقة ؛ لا غيمة ، ولا رعشة : البحر الميت . ليس ثمة من يتكلم ؛ وحول برونيه ، يحاول البعض ان ينام ، وهم يدسون الرأس بين الذراعين ، ولكن القلق يخلِّفهم يقظين : فيستقيمون أو يتنهدون أو يحكّون رؤوسهم ، وقال مولو :

— ايه ! ايه ! ايه !

فالتفت برونيه : كان عشرة من الضباط يقودهم حارس ألماني يمرّون خلفه وهم يلامسون الجدران ، وسأل الأشقر ، من بين اسنانه:

— الا يزال هناك بعضهم ؟ ألم يلوذوا جميعاً بالفرار ؟

ويبتعد الضباط في صمت ، من غير ان ينظروا الى احد ؛ ويقهقه الرجال في انزعاج ويصرفون رؤوسهم لدى مرورهم : فكأنهم يخافون بعضهم بعضاً . ويبحث برونيه عن نظر شنايدر ، ويتبادلان بسمة . انفجار صيحات على الأرض : انه الرقيب يضحك مع بلوندينه . وقال البلوندينه الأشقر :

— جميعاً ! في السيارات ، وعلى الدراجات ، لقد افرنقعوا جميعاً وتركونا في الخراء .

وشبك الرقيب ذراعيه :

— من المؤلم ان نسمع هذا . من المؤلم ، بالرغم من كل شيء .

فأجاب الأشقر :

— والدليل ان الألمان قالوها لنا . قالوها لنا حين اصطادونا ، قالوا لنا : الجيش الفرنسي جيش بلا قائد !

— والحرب الماضية ، ألم يربحها القواد ؟

— لم يكونوا القواد انفسهم .

— بل كانوا هم انفسهم ! ولكن كانت لديهم فرقٌ اخرى .

— يعني ؟ أنحن الذين خسرنا الحرب ؟ الصف الثاني ؟ ولكن قلها،

ما دمت تعنيها !

فأجاب الرقيب : - انني أقولها . اقول انكم هربتم امام العـدو وسلمتم فرنسا .

واحمر لامبير الذي كـان يستمع اليهما من غير ان يقول كلمة ، وانحنى على الرقيب :

- ولكن قل لي : يا صديقي الصغير ، كيف حدث انك هنا ، لو لم تهرب ؟ لعلك تظن انك متّ في ساحة الشرف ، واننا الآن في الجنة ؟ اما انا ، فأظن انهم قبضوا عليك لأنك لم تكن تستطيع ان تركض بسرعة كافية !

- لست صديقك الصغير : فانا رقيب ، ويمكنني ان اكون اباك . ثم انني لم اهرب : فقد قبضوا عليّ حين نفد رصاصي .

وزحف اليهم رجال من كـل صوب ، فاستشهدهم الأشقر وهو يضحك :

- أتسمعونه ؟

فضحك الجميع . والتفت الأشقر الى الرقيب :

- نعم ، يا بابا ، نعم ، لقد أسقطت عشرين مظلياً ، واوقفت دبابة بمفردك . وبوسعي ان أقول مثل ذلك : فليس هناك من أدلة .

فأشار الرقيب الى ثلاثة أمكنة فاتحة على سترته ، والتمعت عيناه :

- المدالية العسكرية ، جوقة الشرف ، صليب الحرب : لقد حصلت عليها في حرب ١٤ ، حين لم تكونوا قد ولدتم بعد ؛ هذه هي أدلّتي .

- وأين هي أوسمتك ؟

- لقد نزعتها حين وصل الألمان .

وكان الجميع يصرخون حوله ، مستلقين على بطونهم ، أو مقوسين من الأقدام حتى الرقبة ، فكـأنهم الفقم ؛ كانوا ينبحون ، وكانت الحماسة تلون وجوههم ؛ وكـان الرقيب في جلسته يشرف عليهم ،

وحيداً ضد الجميع . وصاح رجل :

– ايه ! قل لي ايها المنفوخ ، اتظن اني كنت مستعداً للقتال حين كانت اذاعة الاب بيتان تهتف في آذاننا أن فرنسا طلبت الهدنة ؟

وقال آخر : – وكنت تريد ان نعرّض نفوسنا للقتـــل بينما كان الجنرالية يُصفّون الحساب مع الألمان في قصر تاريخي ؟

فأجاب الرقيب في غضب :

– ولِمَ لا ؟ إن الحرب قد صنعت لقتل الناس ، أليس كذلك ؟

فصمتوا لحظة ، مشدوهين بالغيظ ، فانتهزها الرقيب فرصة ليتابع :

– مضى وقت طويل وانا اراكم قادمين ، انتم فتيان الـ ٤٠ ، الضراطين الصغار ، والسحن الغرامية ، وجماعة الاحتجاجات . لم يكن أحد يجرؤ على التحدث اليكم ، وكان يجب على الكابتين ان يضع قبعته بيده حتى يوجه اليكم الكلام : عفواً ، المعذرة ، هل يزعجكم كثيراً ان تقشروا البطاطا ؟ وكنت اقول لنفسي : حذار ! سيأتي يوم تقع فيه الحرب ، فماذا تراهم سيفعلون ، قوّادي الأشداء ؟ ثم جاءت نهاية كل شيء : المأذونيات . آه ! حين رأيت المأذونيات قلت لحقيبتي وداعاً ! مأذونيات ! لا بد انهم كانوا يجدونكم منفوخين جداً ، فكانوا يرسلونكم سريعاً لتمصكم صاحباتكم حتى يزلن نفختكم قليلاً . أكنا نأخذ مأذونيات في عام ١٤ ؟

– نعم ، كنتم تأخذون مأذونيات . لقد أخذتم بالفعل !

– وكيف عرفت ذلك ايها الطفل ؟ هل كنت في تلك الحرب ؟

– لم اكن فيها ، ولكن كان لي فيها صديق ، وهو الذي أخبرني .

– إن صديقك كان يخوض الحرب في مارسيليا . اما نحن ، فقد انتظرناها عامين ، هذه المأذونيات ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تُلغى لادنى سبب ، أتعرف كم قضيت من الوقت في بيتي خلال اثنين وخمسين شهراً من الحرب ؟ قضيت اثنين وعشرين يوماً . أجل ، اثنان وعشرون

يوماً ، يا صغيري ، فهل يدهشك هذا ؟ وهناك من يقول اني كنت محظوظاً .

قال لامبير : — كفى ، لا تقصّ علينا حياتك .

— اني لا أقصّ عليكم حياتي ، وانما اشرح لكم لماذا ربحنا حربنا ، ولماذا خسرتم حربكم .

والتمعت عينا بلوندينه بالغضب :

— ما دمت ذكياً الى هذا الحد ، فربما كان باستطاعتك ان تشرح لنا لماذا خسرتم السلم ؟

فقال الرقيب مندهشاً : — السلم ؟

فصاح الآخرون : — نعم ! السلم ! لقد فقدت السلم .

قال بلوندينه : — انتم المحاربين القدامى ، كيف تراكم قد حميتم ابناءكم ؟ هل جعلتم المانيا تدفع الثمن ؟ هل نزعتم سلاحها ؟ وريتانيا ؟ والرور ؟ وحرب اسبانيا ؟ والحبشة ؟

وقال فتى طويل ذو رأس شبيه برغيف سكّر :

— ومعاهدة فرساي ! أأنا الذي وقعتها ؟

فقال الرقيب ضاحكاً من الغيظ :

— بل ربما كنت أنا !

— نعم ، أنت ! انت تماماً ! كنت تنتخب ، أليس كذلك ؟ انا لم اكن انتخب ، لاني في الثانية والعشرين ، انني لم انتخب قط .

— وعلامَ يدلّ هذا ؟

— هذا يدلّ على انك كنت تنتخب كالحمار ، وانك ألقيت بنا في الخراء . كان امامك عشرون عاماً لتُعدّها او لتتجنبها ، هذه الحرب ، ماذا فعلت ؟ اقول لك يا صديقي انني انا اساويك ، ولو كان لي ذادة وسلاح ، لحاربت مثلك . ولكن قل لي : بمَ تريدني ان احارب ؟ لم يكن معي حتى الرصاص .

فسأله الرقيب : — وعلى من يقع الذنب ؟ من الذي كان يصوّت لستالين ؟ من الذي كان يعلن الاضراب لمجرد ضرطة ، لا لشيء إلاّ ليبعص رب العمل ؟ من الذي كان يطالب بالزيادات ؟ من الذي كان يرفض الساعات الاضافية ؟ السيارات والدراجات ، أليس كذلك ؟ المومسات الصغيرات ، العطل المدفوعة ، ايام الأحد في الارياف ، نوادي الشبيبة والسينما ؟ لقد كنتم كسالى الى ابعد حد . اما انا ، فقد اشتغلت حتى في ايام الأحد ، وطوال حياتي الكلبة كلها .

وأصبح وجه الاشقر أحمر ، فاقترب من الرقيب زاحفاً على اربع وصاح في وجهه :

— كرّرها ، كرّر اني لم أشتغل ! قلها ثانية ! انني ابن ارمل ، ايها الفرج ! وقد تركت المدرسة وانا في الحادية عشرة لأساعد امي .

كان يحتمل ، في أقسى الظروف ، ان يكون قد خسر الحرب ، ولكنه لا يسمح ان يتهم بأنه لم يعمل . وفكر برونيه : قد يكون في هذا ما يفيد . وركع الرقيب ، هو ايضاً ، على اربع ، وأخـذا يصيحان معاً ، جبيناً لجبين. وانحنى شنايدر ، كما لو انه يريد التدخل؛ فوضع برونيه يده على ذراعه :

— دعهما : انهما يمضيان الوقت .

فلم يُصر شنايدر ، واستوى وهو يرمق برونيه بنظرة غريبة .

وقال مولو : — كفى ، كفى ، لا تتقاتلا .

فعاد الرقيب الى الجلوس وهو يطلق ضحكة قصيرة ، وقال :

— انت على حق في ذلك ! لقد فات الاوان قليلاً لنتقاتل . لو كان يرغب في ذلك ، فما كان عليه الا ان يفعله مع الألمان .

فهزّ الأشقر كتفيه وعاد يجلس بدوره . وقال :

— عجباً ! إنك تحدث لي ألماً في بطني !

صمت طويل . انهم جالسون جنباً الى جنب ؛ وينتزع الأشقر باقات

عشب ، ويتسلى في جدلها ؛ وينتظر الآخرون لحظة ، ثم يعودون الى أمكنتهم زاحفين ، ويتمطى مولو ويبسم ، ويقول بصوت مصالح :

— هذا كله غير جدّي ، هذا غير جدي .

ويفكر برونيه بالرفاق : كانوا يخسرون معارك ، وأسنانهم منقبضة ، ومن هزيمة الى هزيمة ، كانوا يسيرون الى النصر . وينظر الى مولو ـ انني لا اعرف هذا النوع . انه بحاجة الى ان يتكلم : إن شنايدر هنا ، ويتحدث اليه برونيه :

— اترى ؟ لم تكن بك حاجة الى التدخل .

فلا يجيب شنايدر . ويقهقه برونيه ، مقلداً مولو :

— هذا غير جدّي !

فلا يجيب شنايدر بشيء : ويظلّ وجهه الثقيل الجميل محايـــداً . وينزعج برونيه ويوليه ظهره : إنه يكره المقاومة السلبية .

ويقول لامبير : — اريد ان آكل .

فيوميء مولو باصبعه الى الحيّز الذي يفصل السور عن الاوتاد ، ويتكلم بصوت بطيء حارّ ؛ كأنه ينشد قصيدة :

— سيأتي الطعام من هناك ، سينفتح الحاجز ، وتدخل الشاحنات ، فيلقون الينا بالخبز من فوق الشريط الحديدي .

وينظر برونيه الى شنايدر من زاوية عينه ويقهقه مردّداً :

— أترى ؟ يخطيء من ينفعل . فالهزيمة ، والحرب ، ليسا شيئاً جدياً . إن الطعام هو المهم .

فتسيل نظرة هازئة قصيرة بين أجفان شنايدر ، ويقول بلهجة مشاركة :

— ماذا فعلوا لك ، يا صديقي المسكين ؟ فانه لا يبدو عليك انك تطيقهم .

قال برونيه بجفاء : — لم يفعلوا لي شيئاً ، ولكني أسمعهم .

ويخفض شنايدر عينيه على يده اليمنى نصف المغلقة ، وينظر الى أظافره ، ويقول بصوته الأجشّ اللامبالي :

– من الصعب ان نساعد الآخرين حين لا نكنُّ لهم الودّ .

ويقطب برونيه حاجبيه : كانت صورتي غالباً ما تظهر في الصفحة الاولى من « الاومانيتيه » ، فمن السهل معرفتي .

– ما الذي يجعلك تعتقد اني أريد مساعدتهم ؟

فانطفأ وجه شنايدر ، وقال برخاوة ،

– يجب علينا جميعاً ان نساعد بعضنا بعضاً :

قال برونيه : – بكل تأكيد .

ويحنق على نفسه : كان ينبغي عليه اولاً ألاّ يغضب . ولكنه كان يؤاخذ نفسه خاصة لأنه أظهر غضبه لهذا الأبله الذي يرفض ان يشاطره إياه . وابتسم ، وهدأ .

وقال وهو يبتسم :

– انني لست الومهم هم .

– ومن تلوم إذن ؟

فنظر برونيه الى شنايدر بتنبّه :

– الذين تلاعبوا بهم .

فضحك شنايدر ضحكة رديئة ، وصحّح :

– الذين تلاعبوا بنا . فكلنا مركونون تحت لافتة واحدة .

وأحسّ برونيه غيظه يولد من جديد ، فكاد يختنق ، وقال بصوت مفرط الحلم :

– اذا شئت . ولكني انا ، لو تعلم ، لم اكن مخدوعاً بذلك .

قال شنايدر : – وانا ايضاً . وماذا يؤثر ذلك ؟ فمخدوعين كنا ام لا ، فنحن هنا .

– وبعد ذلك ؟ لماذا لا نكون هنا ، وفي مكان آخر ايضاً ؟

أصبح الآن هادئاً تماماً ، وفكر : ان لي مكاني وعملي ، حيثما يوجد الرجال . وكان شنايدر قد أدار عينيه نحو الباب ؛ ولم يقل شيئاً بعد . وينظر اليه برونيه بلا كراهية : ترى ، ما هذا الشخص ؟ مثقف ؟ فوضوي ؟ ما كانت مهنته في عهد السلم ؟ انه مفرط السمنة وبه شيء من عدم الكلفة ، ولكنه بالاجمال متماسك ، ربما كان باستطاعته ان يخدم .

وهبط المساء ، رمادياً مورداً على الجدران ، وعلى المدينة السوداء التي لا ترى ؛ إن الرجال محدّدو النظر ، وهم يتطلعون الى المدينة عبر الجدران . انهم لا يفكرون بشيء، ولا يتحركون بعد قط ، فقد هبط الصبر العسكري الطويل عليهم مع المساء : انهم ينتظرون . لقد انتظروا البريد ، والمأذونيات ، والهجوم الالماني ، وكانت تلك طريقتهم في انتظار نهاية الحرب . ولقد انتهت الحرب ، وما يزالون ينتظرون . ينتظرون الشاحنات المليئة بالخبز ، والحرّاس الالمان ، والهدنة ليحتفظوا فقط بكسرة مستقبل أمامهم ، وحتى لا يموتوا . وبعيداً في المساء ، في الماضي يقرع جرس . ويبتسم مولو :

— ايه يا لامبير ! لعلها الهدنة !

فأخذ لامبير يضحك ، وتبادلا غمزة مفهومة . وشرح لامبير للآخرين :

— لقد تعاهدنا على أن نأكل وجبة لذيذة هائلة !

قال مولو : — سنفعل ذلك يوم الصلح .

وقهقه البلوندينه الأشقر لهذه الفكرة وقال :

— اما انا ، فلن افيق من سكري خمسة عشر يوماً .

وقال الافراد من حوله :

— خمسة عشر يوماً ، بل شهراً ! حتى نموت من السكر ، يلعن ديرو!

كانوا بحاجة الى ان تُهدم آمالهم واحداً واحداً ، وفي صبر ، وأن

تفجّر اوهامهم وان يُكشف لأعينهم وضعهم المريع عارياً ، وان يُثار اشمئزازهم من كل شيء ، ومن الجميع ، ومن أنفسهم باديء ذي بدء . اذ ذاك فقط ... وكان شنايدر هو الذي ينظر اليه هذه المرة ، كما لو انه كان يقرأ فكرته . نظرة قاسية . وبادله برونيه نظرته .

وقال شنايدر : — سيكون صعباً .

وانتظر برونيه ، مرفوع الحاجبين .

وردّد شنايدر : — سيكون صعباً .

— ما الذي سيكون صعباً ؟

— ان نُعطى وعياً . فنحن لسنا طبقة . لسنا اكثر من قطيع . قليل من العمال : فلاحون ، وبورجوازيون صغار . بل نحن لا نعمل : فنحن مجرّدون .

فقال برونيه بالرغم منه :

— لا تحزن ، فسوف نعمل ...

— نعم ، بكل تأكيد . ولكن كعبيد ، وليس هذا عملا يحرر ، ولن نكون ابداً الا تكملة . فأي عملٍ مشترك يمكن ان يُطلب منا ؟ إن الاضراب يمنح المضربين وعياً بقوتهم . ولكن حتى ولو شبك جميع الاسرى الفرنسيين أذرعتهم ، فان الاقتصاد الألماني لن يتأثر بذلك .

وتبادلا النظر ببرودة ، وفكر برونيه : لقد عرفتني إذن ؛ لا بأس ، سوف أسهر عليك . وفجأة أضاء الحقد وجه شنايدر ، ثم انطفأ كل شيء . ولم يدر برونيه الى من كان هذا الحقد متجهاً . وندّ صوت مندهش مفتون :

— ألماني !

— اين هو ؟ اين هو ؟

ورفع الجميع أنوفهم ، فاذا بجنديّ يبرز في برج المراقبة الأيسر ، مرتدياً قبعة ، والرشاش في يده ، والقنبلة في الرزمة ؛ وتبعه آخر يحمل بندقية .

وقال رجل : — اوه ! لقد تأخروا في الاهتمام بنا .

فبدا على الجميع العزاء : هـا هو عالم الرجـال يعود ، بقوانينه ونواميسه وممنوعاته ؛ هذا هو النظام البشري . والتفتت الرؤوس نحو برج المراقبة الآخر . إنه ما يزال خالياً ولكن الناس ينتظرون بثقة ، كما ينتظرون فتح النوافذ في البريد أو مرور القطار الأزرق. وبدت قبعة على ارتفاع الجدار ، ثم اثنتان : مسخان يرتديـان قبعتين ويحملان رشاشاً يركزانه على محمله ويصوّبانه الى الأسرى . ليس ثمة من يخاف، ويقيم الجنود في البرجين ، ويعلن هؤلاء الحرس الواقفون على قمة الجدار ليلاً لا مغامرة فيه ؛ لن يأتي أي امر فيخرج الأسرى من سباتهم ليلقي بهم في الطرقات ؛ انهم يستشعرون الطمأنينة . وسحب فتى كبير يضع نظارتين من حديد كتاباً كهنوتياً من جيبه وجعل يقرأه مدمدماً . وفكر برونيه : « انه يمارس البغاء » ولكن الغضب انزلق عليه من غير ان يخترقه . وارتاح . للمرة الاولى منذ خمسة عشر عاماً ، يسير نهارٌ ببطء شديد ، وينتهي بمساء جميل ، من غير ان يكون لديه مـا يفعله . وصعدت بطالة قديمة من ايام حداثته ، وكانت السماء هنا ، قد حطت على الجدار ، متوردة ، قريبة ، غير صالحة للاستخدام . ونظر اليها برونيه في خجل ، ثم نظر الى الافراد عند قدميه يتحركون ويهمسون ويحلون رزمهم ويربطونها : مهاجرون عـلى ظهر سفينة . وفكر : « ليس الذنب ذنبهم » وأخذته الرغبة في ان يبتسم لهم . وفكر بان قدميه تؤلمانه ؛ وجلس بالقرب من شنايدر ، فحـلّ سير حذائه . وتثاءب ، وأحسّ بجسمه ، غير صالح للاستخدام كالسماء ، وقال : « بدأ الطقس يبرد » غداً سوف يبدأ العمـل . وكان اللون الرمادي يشمل الأرض ، وسمع صوت مصفّقات ، صوتاً صغيراً عذباً ، ضجة صغيرة متلاحمة وغير منتظمة ، فأصغى اليها ، وحاول ان يتابع إيقاعها، وتسلى بالتفكير بأنها « مورس » وفكر فجأة : « بل هو شخص يصفق

أسنانه » واستوى ، فميّز أمامه ظهراً عارياً عليه قروح متصلبة سوداء ، انه الشخص الذي كان يصرخ في الطريق ، وزحف اليه : كان الرجل مقشعراً .

قال برونيه : — ايه !

فلم يجب الرجل ، فأخرج برونيه صدرة من قربته .

— ايه !

ولمس الكتف العارية ، فأخذ الرجـــل يهمدر ، والتفت فنظر الى برونيه لاهثاً ، وكان المخاط يسيل من منخريه حتى فمه . ورآه برونيه مواجهة للمرة الاولى : انه فتى جميل نضر ذو خدين أزرقين وعينين عميقتين ، ولكن بلا جفون . وقال له برونيه بهدوء :

— لا تنفعل ايها الصغير . اردت ان أعطيك صدرة .

فأخذ الفتى الصدرة بهيئة خائفة ، فارتداها بوداعة وظلّ جامداً ، متباعد الذراعين . وكان كماها مفرطين في الطول بحيث كانا يبلغـــان أظافره . وضحك برونيه :

— شمرهما .

فلم يجب الفتى ، وكانت اسنانه تصطك ؛ وأخـــذ برونيه ذراعيه فشمّر كميه ، وقال الفتى :

— انها لهذا المساء .

قال برونيه : — ما الذي هو لهذا المساء ؟

قال الفتى : — المجزرة .

قال برونيه : — حسناً ، حسناً .

وبحث في جيب الفتى ، فأخرج منه منديلا قذراً وملطخاً بالدم ، فرماه وأخذ منديله الخاص فمدّه له :

— بانتظار ذلك ، تمخّط .

فتمخّط الفتى ، ووضع المنديـــل في جيبه وبدأ يهذي . فلامس

برونيه رأسه بلطف ، كما يلامس رأس حيوان ، وقال له :

— أنت على حق .

فهدأ الفتى ، وكفّت أسنانه عن الاصطكاك . واستدار برونيه الى جيرانه :

— من يعرفه ؟

فتحامل قصير أسمر ذو هيئة حيّة على مرفقيه وقال :

— انه شاربان .

قال برونيه : — راقبه بين وقت وآخر ، حتى لا يرتكب حماقات .

قال الرجل : — سأراقبه .

وسأله برونيه : — ما اسمك ؟

— فيرنييه .

— ماذا كنت تفعل ؟

— كنت عامل مطبعة في ليون .

عامل مطبعة : حظ من ثلاثة ؛ سأتحدث اليه غداً .

قال برونيه : — ليلة سعيدة .

فقال عامل المطبعة : — ليلة سعيدة .

وعاد برونيه الى مكانه ، فجلس ، واستعرض الوضع . مولو : تاجر ، هـذا مؤكد . لن نفيد شيئاً كثيراً منه . وكذلك الرقيبَ ، لا يمكن إصلاحه ؛ فهو من نوع كاغول . لامبير : شرس معاند . وهو الآن في إبان التحلـل تحت وقاحته . يمكن كسبه . الشتيمي : فلاح . جدير بالاهمال . ولم يكن برونيه يحب الفلاحين . البلوندينه الأشقر : هو ولامبير من طينة واحدة ؛ ولكن الأشقر اكثر ذكاء ، ثم انه يملك حسّ احترام العمل . انه ثمرة ناضجة . عامل المطبعة : هو بالأغلب رفيق جديد ؛ وألقى برونيه نظرة على شنايدر الذي يدخن ، جامداً ، مفتوح العينين على سعتهما . « اما هذا ، فسنرى أمره . »

ووضع الكاهن كتابه ، وتكلم ؛ وكان ثلاثة فتية مضطجعين بالقرب منه ، يصغون اليه في ألفة تقيّة . لقد كسب ثلاثة : سوف يهزمني بسرعة ، في الفترة الاولى على الأقــل . وفكر برونيه : إن هؤلاء الفتية محظوظون . فبوسعهم ان يعملوا في وضح النهار ؛ سيتلون يوم الأحد قدّاسهم . وتنهد مولو :

— لن تأتي بعد هذا المساء .

فسأله لامبير : — من تعني ؟

— الشاحنات . فالليل مفرط الظلام .

ونام على الأرض ، واضعاً رأسه على قربته . وقال لامبير :

— انتظر . إن عندي شراع خيمة . كم يبلغ عددنا ؟

قال مولو : — سبعة .

قال لامبير : — سبعة . انه يسعنا جميعاً . وسننام عليه نحن السبعة.

وبسط شراعه امام السلم .

— ومن معه لحاف ؟

فأخرج مولو لحافه ، وبسط الرقيب والشتيمي لحافيهما . ولم يكن بلوندينه يملك لحافاً . وكذلك برونيه . وقال لامبير :

— لا بأس . سوف نتدبر الأمر .

وخرج من الظل وجه خجول مبتسم :

— اذا تركتموني أنام على شراع الخيمة ، شاركتكم بغطائي .

فنظر لامبير وبلوندينه الى الدخيل ، وقال بلوندينه :

— لم يبق مكان لك .

وأضاف مولو في لهجة اكثر وداً :

— انك تفهم ، فنحن رفاق فيما بيننا .

واختفت البسمة ، وقد التهمها الليل . وهكذا : تشكل فريق وسط هذا الجمع ، فريق مصادفة ، بلا صداقة ولا تضامن حقيقي ، ولكنه

قد بدأ ينغلق من دون الآخرين ؛ وكان برونيه في داخله . وقال له شنايدر :

ـ تعال . فسوف ننام كلانا تحت غطائي .

فتردد برونيه :

ـ بعد قليل . لا رغبة لي بالنوم .

قال شنايدر : ـ وأنا كذلك .

وظلا جالسين جنباً الى جنب بينما كان الآخرون يلتفون بأغطيتهم ، وكان شنايدر يدخن وهو يخفي سيكارته في يده بسبب الحرس . وأخرج علبة « غولواز » فمدها الى برونيه .

ـ سيكارة ؟ اذا اردت ان تشعلها فاذهب وراء الجدار الصغير ، فانهم لا يرون اللهب .

وكان برونيه راغباً في التدخين . ورفض :

ـ شكراً . ليس الآن .

إنه لن يلعب لعب التلاميذ ، فهو ليس بعد في السادسة عشرة : ان معصية الألمان في الامور الصغيرة هي طريقة للاعتراف بسلطتهم .

وأضاءت النجوم الاولى . وفي الجانب الآخر من الجدار ، كانت تُسمع موسيقى حامزة ، موسيقى المنتصرين . وكان النوم يتدحرج على عشرين الف جسم مهترىء ، وكل جسم موجة . وكان هذا التموّج يهدر كالبحر . وبدأ برونيه يشعر بالضجر من ان لا يفعل شيئاً ؛ إن من الممكن تقليب اوراق سماء جميلة ، ونحن في الانتظار . ومثل ذلك النوم . والتفت الى شنايدر وهو يتثاءب ، وفجأة قست عيناه ، فاستوى : لم يكن شنايدر متنبهاً ، فقد انطفأت سيكارته ولم يشعلها من جديد ، وتدلت من شفته السفلى ، وكان ينظر الى السماء بأسى ، آن الاوان لمعرفة ما بداخله .

وسأل برونيه : ـ أنت من باريس ؟

ـ لا .

فاتخذ برونيه هيئة اللامبالاة وقال :

ـ امـــا انا فأسكن باريس ، ولكني من كومبلو ، بالقرب من سانت إتيان .

صمت . وبعد لحظة ، قال شنايدر على مضض :

ـ انني من بوردو .

قال برونيه : ـ آه ! آه ! انني أعرف بوردو جيـــداً . مدينة جميلة ، ولكنها حزينة ، أليس كذلك ؟ أهناك كنت تعمل ؟

ـ نعم .

ـ وماذا كنت تعمل ؟

ـ ماذا كنت أعمل ؟

ـ نعم .

ـ مساعد . مساعد محام .

قال برونيه : ـ آه !

وتثاءب ؛ لا بدّ من ان يتدبّر الأمر لرؤية دفتر شنايدر العسكري . وسأله شنايدر :

ـ وأنت ؟

فانتفض برونيه :

ـ انا ؟

ـ نعم .

ـ وكيل .

ـ وعمّ كنت تتوكل ؟

ـ كل شيء تقريباً .

ـ فهمت .

وتداعى برونيه للاستناد الى الجدار الصغير ، ثم رفع ركبتيه حتى

تفه وقال بصوت قصي ، كما لو انه يستعرض أحداث يومه قبل أن ينام :

ـ وهكذا !

قال شنايدر بالصوت نفسه :

ـ هكذا ! هكذا !

قال برونيه : ـ لقد عرّوا لنا مؤخراتنا .

قال شنايدر : ـ كان ذلك مؤكداً .

قال برونيه : ـ بالرغم من هزيمتنا ، فمن حسن الحظ ان ذلك انتهى بسرعة : إن النزف أقلّ .

فقهقه شنايدر : ـ سوف ينزفوننا شيئاً فشيئاً : وستكون النتيجة واحدة .

فرمقه برونيه : ـ يبدو لي انك انهرامي .

ـ لست انهزامياً ، ولكني أحقّق الهزيمة .

فسأله برونيه : ـ اية هزيمة ؟ ليس ثمة من هزيمة اكثر مما هناك من خراء !

وتوقف ظاناً ان شنايدر سيحتجّ ، ولكنه لم يبال . وكان ينظر الى قدميه في كسل : وكان عقب سيكارته ما يزال متدلياً من زاوية شفته . ولم يكن برونيه ليستطيع ان يتوقف الآن : فيجب ان يبسط فكرته ؛ ولكنها « ليست بعد » الفكرة نفسها . فلو ان هذ الأحمق قد سأله مجرّد سؤال ، لألقاها برونيه عليه كالخاطوف ؛ اما الآن ، فينفره ان يتكلم . إن الكلمات ستنزلق على هذه الكتلة الضخمة اللامبالية من غير ان تخلف فيها أثراً .

ـ يظنّ الفرنسيون ان الحرب خاسرة ، بدافع من الشوفينية . انهم يتصورون دائماً انهم وحدهم في الدنيا ، فاذا تلقّى جيشهم الذي لا يُقهر صفعةً ما ، أقنعوا أنفسهم بأن كل شيء قد ضاع وهلك .

فأرسل شنايدر صوتاً مخناً صغيراً ، وعزم برونيه على ان يكتفي

به واستطرد :

– إن الحرب في بدايتها يا صديقي . وبعد ستة أشهر سنقاتل من « الكاب » الى مضيق « بهرنغ » .

فقهقه شنايدر وقال :

– نحن ؟

قال برونيه : – نحن الفرنسيين ، سنتابع الحرب في ميادين اخرى؛ إن الالمان يريدون ان يجعلوا صناعتنا عسكرية ؛ وتستطيع البروليتاريا ويجب عليها ان تمنعهم من ذلك..

فلم يكن لدى شنايدر اي ردّ فعل ، وظل جسمه العتاليّ جامداً . ولم يكن برونيه يحبّ ذلك ، فان الصمت الثقيل المربك ، هو من اختصاصه ؛ لقد هُزم على أرضه بالذات ؛ كان يريـــد ان يحمل شنايدر على الكلام ، وكان هو الذي ابتلع الصنّارة في آخر المطاف . وصمت بدوره ، وظلّ شنايدر على صمته : وكان يمكن لذلك ان يدوم طويلاً . وبدأ برونيه يقلق : إن هذا الرأس افرغ مما ينبغي ، او أملأ مما ينبغي . وكان ثمة ، غير بعيد عنهما ، رجلٌ يعوي عواء خفيفاً . وكان شنايدر هو الذي قطع الصمت هـــذه المرة ، فتكلم في شيء من الحرارة :

– أتسمعه ؟ إنه يظنّ نفسه كلباً .

فهز برونيه كتفيه : لم يكن ذلك اوان التعطّف على فتىً يحلم ، وليس لي وقت أضيعه . وقال شنايدر بصوت ثقيل متحمّس :

– يا للمساكين ! يا للمساكين !

وصمت برونيه ، فأضاف شنايدر :

– انهم لن يعودوا ابداً الى بيوتهم . ابداً .

والتفت الى برونيه وجعل ينظر اليه في كراهيـــة ، فقال برونيه ضاحكاً :

ـ هيه ! لا تنظر اليّ هكذا ، فليس لي في الامر دخل .
فأخذ شنايدر يضحك ، وارتخى وجهه ، وانطفأت عيناه :
ـ صحيـح ، لا دخل لك في الأمر .
وصمتا ؛ وخطرت لبرونيه فكرة ، فاقترب من شنـايدر وسأله بصوت منخفض :
ـ اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا لا تحاول ان تفرّ ؟
قال شنايدر : ـ يعني !
ـ هل انت متزوج ؟
ـ وعندي طفلان .
ـ ألست متفاهماً مع زوجتك ؟
ـ انا ؟ بل نحن نعبد بعضنا بعضاً .
ـ واذن ؟
قال شنايدر : ـ لا ادري . وانت ؟ هل ستفرّ !
قال برونيه : ـ لا ادري ، سنرى ذلك فيما بعد .
وحاول ان يرى وجه شنايدر ، ولكن الليل لفّ الساحة ، فلم يكن يُرى شيء بعد ابداً ، الا ظلّ برجي المراقبة دون السماء . وقال برونيه وهو يتثاءب :
ـ أظنّ انـي سأنام .
قال شنايدر : ـ طيّب . وانا ايضاً .
وتمدّد على شراع الخيمة ، ودفعا قربتيهما الى الجـدار ؛ ونشر شنايدر غطاءه فالتفّا به . وقال شنايدر :
ـ مساء الخير .
ـ مساء الخير .
وانقلب برونيه على ظهره ووضع رأسه على قربته ، واحتفظ بعينيه مفتوحتين ، وأحسّ بحرارة شنايدر ، وحدس بان عيني شنايـدر

مفتوحتان . وفكر : «كنت بحاجة شديدة الى ان أرتبك بهذا الشخص.» وتساءل أيهما حاور الآخر وناوره . وبين الفينة والفينة ، كان انهيارٌ مضيء صغير يخطّ السماء بين باقات النجوم ؛ وتحرّك شنايدر على مهل تحت الغطاء وقال :

— هل نمت يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه ، وكان ينتظر . ومرّت لحظة ، فسمع شخيراً صغيراً مخنّاً ؛ لقد نام شنايدر . وسهر برونيه وحده : ضوءاً وحيداً وسط هذه الليالي العشرين ألفاً . وابتسم ، وأغمض عينيه واستسلم ؛ وكان عربيان يضحكان في الغابة الصغيرة :

— اين عبد الكريم ؟

فأجابت العجوز : — لن يدهشني كثيراً ان يكون في مخزن الثياب .

وكان ، في الواقع ، هناك ، جالساً امام طاولة عمل ، هادئاً جداً وهو يهدر « قتَلة ! قتلة ! » وينزع ازرار ثوبه ، فيحدث كل زرٍّ انفجاراً جافاً والتماعاً .

وقال شنايدر : — خلف الجدار ، اسمع !

فاستوى برونيه جالساً ، وحكّ رأسَه ، فاذا هو امام ليل غريب مليء بالضجيج :

— ماذا هناك ؟

— اسمع ! اسمع !

فرمى برونيه الغطاء وانبطح خلف الجدار الصغير مع شنايدر . وانتحب صوت :

— قتَلة !

وصرخ أحدهم بالالمانية، ثم كانت طلقات الرشاش الجافة . وتطلع برونيه بحذر من فوق الجدار ، فرأى على ضوء الالتماعات ، فرقةً برمّتها من الشجر الكسيح ، رافعاً نحو السماء أغصاناً معقدة وملويّة ،

فتألمته عيناه ، وأحسّ رأسه فارغاً فقال :
ـ الانسانية المتألمة .
فجرّه شنايدر الى خلف :
ـ الانسانية المتألمة ، طز فيها ؛ انهم يضحّون بنا .
فبكى الصوت : ـ كالكلاب ! كالكلاب !
وكفّ الرشّاش عن الإطلاق ، وأمرّ برونيه يده على جبينه ، واستيقظ تماماً
ـ ما الذي يحدث ؟
قال شنايدر : ـ لا أدرى . لقد أطلقوا مرتين ؛ في المرة الأولى ربما كان ذلك في الهواء ، اما في الثانية ، فقد كان الأمر جدّاً .
وكانت الغابة تنغل حولها : ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ ويجيب قادة مرتجلون : اسكتوا ، لا تتحركوا ، ابقوا نائمين . ويبدو برجا المراقبة أسوديں ازاء السماء الحليبية ، وفيهما رجال يرصدون ، والاصبع على زناد الرشاشات . وكان برونيه وشنايدر راكعين خلف الجـدار ، يريان في البعيد العين المستديرة لمصباح كهربائي . ويقترب المصباح ، تؤرجحه يد غير مرئية : فيكنس بضوئه حشرات رمادية ومسطحة . ويتحدّث صوتان أجشـان باللغة الالمانية ، ويتلقى برونيه المصباح ملء وجهه ؛ فيغمض عينيه ، وقد أعماه النور ، ويسأل صوتٌ بلهجة قوية :
ـ من الذي صرخ ؟
فقال برونيه : ـ لا أدري .
ونهض الرقيب ، وكان بالغ السرور ، منتصباً باستقامة تحت النور الكهربائي ، قريباً وبعيداً في وقت واحد :
ـ انه جندي أصيب بالجنون ، فأخذ يصرخ ، وخاف رفاقه فنهضوا ، وعند ذاك أطلق الحارس النار .
فلم يفهم الألمانيان ، فحدّثهما شنايدر بالألمانية ، ودمدم الألمانيان

بدورهما ، فالتفت شنايدر نحو الرقيب .
– يقولان ان تسأل ان كان هناك جرحى .
فاستوى الرقيب ، ووضع يديه حول فمه بحركة دقيقة حيّة وصاح :
– أخبرونا عن الجرحى .
فأجابته أصوات ضعيفة من كل صوب ؛ وأضاءت منارتان فجأة ، وهبط كالثلج نور ساحر يداعب الجمع الراكع ؛ وأجتاز ألمان الساحة بالحمّالات ، فلحق بهم ممرضون فرنسيون ، وسأل الضابط الألماني في جهد :
– اين المجنون ؟
فلم يجب أحد ، ولكن المجنون كان هناك واقفاً ، مرتجف الشفتين أبيضهما ، ودموع تسيل على خديه ، فأحاط به الجنود وأخذوه ، فاستسلم لهم مذهولاً ، ومسح أنفه وفمه بمنديل برونيه . وكان الرجال منتصبين نصف انتصاب ، ينظرون الى هذا الشخص الذي تألم ألمهم حتى ذروته ؛ وكان لذلك مذاق الهزيمة والموت . واختفى الألمان ، وتثاءب برونيه ، وكان النور يؤلم عينيه . وسأل مولو :
– ماذا سيفعلون به ؟
فهزّ برونيه كتفيه ، واكتفى شنايدر بالقول :
– ان النازيين لا يحبون المجانين .
وكان رجال يروحون ويجيئون بالحمالات ، وقال برونيه :
– اعتقد ان بوسعنا ان نعود الى النوم .
فعادوا الى النوم . وضحك برونيه : ففي المكان نفسه الذي كان متمدّداً عليه ، كان ثمة ثقب في شراع الخيمة ، ثقب ذو أطراف مشيّطة ؛ وأشار اليه ، فاخضرّ مولو وارتجفت يداه وقال :
– اوه ! اوه ! اوه !
وقال برونيه وهو يبتسم لشنايدر :

– لقد انقذت حياتي بالاجمال .
فلم يبتسم شنايدر ، بل نظر الى برونيه نظرة جدّ وتبرم وقال ببطء :
– نعم ، لقد انقذت حياتك .
وقال برونيه وهو يلتفّ بالغطاء :
– شكراً على كل حال .
قال مولو : – اما انا ، فسأنام خلف الجدار .

وانطفأت المنارتان فجأة ، وصرّت الغابة ، وطقطقت ، وضجت ، وهمست ، واستوى برونيه ، وملء عينيه شمس ، وملء رأسه نعاس ، ونظر الى ساعته : الساعة السابعة . وكان الرجال منهمكين في طيّ أشرعة الخيم ، ولفّ الأغطية . وأحسّ برونيه بأنه متسخ دَبِق : لقد رشح في اثناء الليل وكان قميصه يلتصق بجسمه . وقال بلوندينه :
– يلعن دين ! انني جائع !
وبحزن ، سأل مولو بعينيه الباب الكبير المغلق :
– يوم آخر بلا طعام !
ففتح لامبير عينه غاضباً :
– لا سمح الله !

ونهض برونيه ، فحدج الساحة ، فرأى تجمّعاً حول انبوب سقاية ، فاقترب ؛ كان رجل ضخم عارٍ تماماً يغتسل وهو يطلق صرخات امرأة . ونزع برونيه ثيابه ، فأخذ دوره ، وتلقى على ظهره وعلى بطنه وابلاً مثلجاً قاسياً ؛ وارتدى ثيابه من جديد من غير ان يتجفف ، وراح يُمسك بالانبوب ، ويغسل الثلاثة التالين . وكان هواة « الدوش » قليلين ، فقد كان الرجال يحرصون على عرقهم الليلي . وسأل برونيه :
– دور مَنْ ؟
فلم يجب أحد ، فوضع الانبوب في شيء من الغضب ، وفكر : « هكذا ! هكذا الرجال ! » سيكون الأمر قاسياً . ووضع سترته تحت

ذراعه ، ليخفي أوسمته ، واقترب من جمع يتحدث بصوت منخفض رغبة منه في معرفة الجوّ . إن هنـــاك تسعة حظوظ على عشرة أنهم يتكلمون عن الطعام . ولن يشكو برونيه من ذلك : فالطعام نقطـــة ممتازة ؛ ان ذلك شيء بسيط ومحسوس ، انه حقيقيّ : فان الانسان الجائع عجينة يسهل العمل فيهـــا . ولكنهم لم يكونوا يتحدثون عن الطعام ؛ وعرفه شاب طويل هزيل ذو عينين حمراوين :

ــ أأنت الذي كنت الى جانب المجنون ؟

قال برونيه : ــ نعم .

ــ ماذا فعل ، تماماً ؟

ــ لقد صرخ .

ــ هذا كل شيء ؟ خراء إذن ! المجموع : اربعة قتلى ، وعشرون جريحاً .

ــ كيف عرفت ذلك ؟

ــ لقد أبلغنا ذلك غارتيزر .

وكان غارتيزر رجلاً مربوعاً ذا خدين رخوين ، وعينين كئيبتين تنمّان عن الاهتمام . وسأله برونيه :

ــ انت ممرّض ؟

فأومأ غارتيزر برأسه : نعم ، انه ممرض ، وقد أخذه الألمان الى الاصطبلات ، خلف الثكنة ، ليُعنى بالجرحى .

ــ وكان في الجرحى من مات بين يديّ .

وقال رجل : ــ إن هـذا لؤم . لؤم ان نموت هنا ، قبل ثمانية ايام من العودة .

فسأل برونيه : ــ ثمانية أيام ؟

ــ ثمانية ايام او خمسة عشر اذا شئت . فلا بدّ ان يُطلقونا مـــا داموا لا يستطيعون إطعامنا .

وسأل برونيه : — والمجنون ؟

فبصق غارتيزر بين قدميه :

— لا تتحدث عنه !

— ماذا ؟

— لقد ارادوا ان يسكتوه ، فقام أحدهم يضع يده على فمه ، واذ ذاك عضّه . اوه ؟ يا امي ليتك رأيتهم ! لقد أخذوا يصرخون بلغة غير مفهومه ، ودفعوه الى زاوية من الاصطبل وراحوا يضربونــه بقبضات ايديهم وأعقاب بنادقهم ، وكان ذلك في النهاية يسليهم ويثير ضحكهم ، وكان ثمة أشخاص من عندنا يحمّسونهم لأن ابن البغي هذا هو ، على حد قولهم ، سبب كل شيء . واخيراً ، لم يكن الفتى جميلاً ، كان فمه شورباء ، وعينه جاحظة ، فوضعوه على حمّالة وساقوه الى حيث لا ادري ، ولكن لا بدّ انهم تسلوا معه مرة اخرى ، لأني سمعته يزعق حتى الساعة الثالثة صباحاً .

وأخرج من جيبه شيئاً ما ملفوفاً بقصاصة جريدة :

— انظروا هذا .

وفتح الورقة :

— إنها سنّ . لقد وجدتها هذا الصباح في المكان الذي سقط فيه .. ثم طوى الورقة بعناية ، ووضعها في جيبه ، وقال :

— انني احتفظ بها كتذكار .

واولاهم برونيه ظهره ، وعاد بهدوء الى السلّم . وصاح به مولو من بعيد :

— هل عرفت النتيجة ؟

— اية نتيجة !

— نتيجة هذه الليلة : عشرون قتيلا وثلاثون جريحاً .

قال برونيه : — فظاعة !

قال مولو : ــ لا بأس .
وابتسم بسرور غامض وردّد :
ــ كنتيجة ليلة اولى ، لا بأس على الاطلاق .
وسأل لامبير : ــ ما حاجتهم الى تبذير رصاصهم ! اذا ارادوا ان يتخلصوا منا فليس عليهم الا ان يتركونا نموت جوعاً ، كما بدأوا .
قال مولو : ــ لن يدعونا نموت جوعاً .
ــ وما يدريك ؟
فابتسم مولو : ــ ليس لك الا ان تفعل مثلي : انظر الى الباب الكبير ، فهذا يسليك ، ثم ان الشاحنات ستأتي من هنا .
وغطّى صوته ضجيج محرّك ، فصاح الشتيمي :
ــ انظر الى الطائرة .
وكانت طائرة مراقبة تحلق على ارتفاع خمسين متراً ، سوداء لامعة ، وكانت تمرّ فوق الساحة ، ثم انعطفت على جناحها الايسر مرتين ، ثلاث مرات ، وكان عشرون الف رأس تتابعها ، والساحة كلها تدور معها . وقال المجعّد الشعر في لامبالاة :
ــ واذا قصفونا ؟
قال مولو : ــ قصفونا ؟ ولماذا ؟
ــ لأنهم لا يستطيعون إطعامنا .
ونظر شنايدر الى الطائرة وهو يطرف بعينيه ؛ وقال وهو يكزّ في الشمس :
ــ بل أعتقد انهم يصوروننا ...
فسأل مولو : ــ لماذا ؟
فأوضح شنايدر بغموض : ــ مراسلو حرب .
فاحمر خدّا مولو السمينان ، وتحوّل خوفه الى غضب ، فاذا به يستوي فجأة . ويمدّ ذراعيه نحو السماء ويصيح :

ـ مدّوا لهم ألسنتكم ايها الرفاق ، مدّوا لهم ألسنتكم ، فيبدو انهم يصوروننا .

وتسلّى برونيه : إن رعشة غضب قد سرت في الجموع ؛ فمدّ جنديّ قبضته ، بينما ابرز جندي آخر بطنه ، وأدخل بنصره في شقّ بنطاله ونصب إبهامه نحو الطائرة كأنه عضو تناسلي ، وارتمى الشتيمي على أربع ، فخفض رأسه ورفع مؤخرته :

ـ قفاي ، سيصورونه !

ونظر شنايدر الى برونيه وقال :

ـ اترى ، ما تزال لدينا قوة .

ومضت الطائرة في الشمس . وقال برونيه :

ـ هذا لا يدل على شيء .

وقال مولو : ـ إذن سيرون مخي في جريدة « الفرنكفورتر » ؟

وكان لامبير قد اختفى وعاد هائجاً :

ـ يبدو ان باستطاعتنا ان نؤثث انفسنا بثمنٍ غير مرتفع .

ـ ماذا تقول ؟

ـ إن وراء الثكنة أثاثاً ، كالفُرُش والدلاء ، والآنية ، وليس علينا الا ان ننحني لنأخذها ، ولكن يجب ان تعجّلوا لأن هذه سوق السرقة !

ونظر الى رفاقه بعينين ملتمعتين :

ـ هل يأتي الرفاق ؟

قال المجعد وهو يقفز على قدميه :

ـ انا آتي .

ولم يحرّك مولو ساكناً ، فقال لامبير :

ـ تعال يا مولو .

قال مولو : ـ لا ، فأنا أقتصد . فما دمت لم آكل ، فلن أتحرّك .

فقال الرقيب : – اذن ، احرس الامتعة .

ونهض وانضمّ الى الآخرين وهو يعدو . وحين بلغوا زاوية الثكنة ، صاح بهم مولو بصوت رخو :

– انكم تبذرّون قواكم ، ايها الفروج الحمير !

وتنهَّد ، ونظر الى برونيه وشنايدر في قسوة ، وقال هامساً :

– ما كان ينبغي لي حتّى ان أصرخ .

وسأل شنايدر : – هل نلحق بهم ؟

فسأله برونيه : – وماذا نفعل بدلو ماء ؟

– اوه ! لنُذهبَ فقط خدرَ سيقاننا .

وكان في الجهة الاخرى من الثكنة ساحة اخرى وبناية طويلة ذات طابق واحد ذي اربعة ابواب : الاصطبلات . وكان مركوماً في زاوية منها فرش قديمة ورفاصـــات وسرر ذات أُطر ، وخزائن مرتعشة ، وطاولات عرجاء . وكان الجنود يتدافعون حول هذه البقايا ؛ واجتاز احدهم الساحة حاملا فراشا ، بينما احتمل آخر تمثالا من الخيزران . وطاف برونيه وشنايدر بالاصطبلات ، فاكتشفـــا تلة صغيرة معشبة . وسأل شنايدر :

– هل نرقاها ؟

– لنصعد .

وأحسّ برونيه بالضيق : ماذا يريـــد ، صاحبنا ؟ صداقة ؟ إن ذلك لا يناسب بعدُ عمري . وفي أعلى التلة ، رأيا ثلاث حفر مردومة حديثاً ، فقال شنايدر :

– اترى ، انهم لم يقتلوا الا ثلاثة .

وجلس برونيه على العشب بالقرب من القبور .

– أعطني مديتك .

فناوله شنايدر إياها ، ففتحها برونيه وبدأ يفتق أوسمته . فقـــال

شنايدر :

– أنت على خطأ ، إن نواب الضباط معفون من العمل .

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ، ووضع الأوسمة في جيبه ثم نهض . وعاد الى الساحة الاولى ، فاذا بالاشخاص ينتقلون ؛ وكان فتى جميل ذو وجه وقح يتأرجح في أريكة هزّازة ؛ وامام خيمة منصوبة ، جرّ رجلان طاولة وكرسيين ، وراحا يلعبان بالورق في انتصار ؛ وكان غارتيزر جالساً على حافة سرير فارسي منقطة بالحروق . وقال برونيه :

– إن ذلك يذكرني « بسوق البراغيث »[1]

وقال شنايدر : – أو بسوق عربية .

واقترب برونيه من لامبير :

– بمَ تراك قد ُعدت ؟

فرفع لامبير رأسه في زهو وقال :

– صحون .

وأشار الى نضد من الصحون المثلمة ذات القعر المسودّ .

– وماذا تريد ان تفعل بها ؟ أن تأكلها ؟

قال مولو : – دعه وشأنه ، فربما جاء ذلك بالطعام .

وكانت الصبيحة بطيئة : وقد سقط الرجال مرة اخرى في الخدر ؛ وكانوا يحاولون ان يناموا ، أو يتمددون على ظهورهم ، وسحنهم متجهة الى السماء ، وعيونهم مفتوحة ثابتة ؛ كانوا جائعين . وانتزع المجعد الشعر العشب الذي ينبت بين الحصى وأخذ يمضغه ؛ وأخرج الشتيمي مديته وأخذ ينقش قطعة من خشب . وأشعلت جماعة من الرجال ناراً تحت قدر صدئة . ونهض لامبير ، فذهب يرى ، وعاد خائباً ،

---

(١) هي سوق يباع فيها الاثاث القديم الذي قد تعشش فيه الحشرات والبراغيث لقدمه ، وهي معروفة في باريس (المترجم) .

وقال موضحاً وهو يتداعى للسقوط بين المجعد ومولو :
ـ انه حساء القرّاس . وهو لا يغذّي .
تبديل الحراس الألمان ، وقال الرقيب بلهجة غائبة :
ـ ذهبوا يأكلون .
وقام برونيه يجلس بالقرب من عامل المطبعة ، وقال له :
ـ هل نمت جيداً ؟
قال عامل المطبعة : ـ لا بأس .
ونظر اليه برونيه في رضى : كان على هيئة واضحة ونظيفة ، مع شعاع مرح في عينيه ؛ حظان من ثلاثة .
ـ قل لي ، كنت اودّ ان أسألك : أفي باريس كنت تعمل ؟
قال عامل المطبعة : ـ لا ، بل في ليون .
ـ اين ؟
ـ في مطبعة ليفرو .
قال برونيه : ـ آه ! ليفرو ، لا أعرف غيرها . لقد قمتم باضراب رائع عام ٣٦ ، اضراب جريء ومنظم .
فضحك عامل المطبعة ضحكة اعتزاز . وسأله برونيه :
ـ لا بدّ اذن ان تكون قد عرفت بيرنو ؟
ـ بيرنو ، الممثل النقابي ؟
ـ نعم .
ـ طبعاً .
ونهض برونيه : ـ تعال لنقم بدورة . اريد ان اكلمك :
وحين أصبحا في الساحة الثانية ، نظر اليه برونيه مواجهة :
ـ هل أنت في الحزب ؟
فتردّد العامل ، وقال له برونيه :
ـ أنا برونيه ، من جريدة « الاوما » .

قال العامل : — هكذا إذن . كنت اقول لنفسي ...

— هل لك رفاق هنا ؟

— اثنان أو ثلاثة .

— أشخاص شجعان ؟

— اشداء جداً . ولكني أضعتهم أمس في الصفوف .

قال برونيه : — حاول ان تجدهم . وتعال لتراني معهم : فيجب ان نتجمَّع من جديد .

وعاد يجلس بالقرب من شنايدر ، فرماه بنظرة سريعة ، فاذا وجه شنايدر هادىء لا يعبّر عن شيء .

وسأل شنايدر : — كم الساعة ؟

قال برونيه : — الساعة الثانية .

وقال المجعّد : — انظر الى الكلب .

وكان يعبر الساحة كلب كبير أسود ، متدلي اللسان ، وكان الرجال ينظرون اليه نظرة غريبة . فسأل الرقيب :

— من اين هو قادم ؟

قال برونيه : — لا ادري .

وربما كان في الاصطبلات . وتحامل لامبير على مرفق ، وتابع بعينيه الكلب في تململ . وقال كأنما يحدث نفسه :

— إن لحم كلب ليس رديئاً بالدرجة التي يقولون .

— هل أكلت منه ؟

فلم يجب لامبير ؛ واتى بحركة انزعاج ، ثم تداعى للسقوط على ظهره في استسلام قدري . وكان الشخصان اللذان يلعبان بالورق امام الخيمة قد تركا ورقهما على الطاولة ونهضا بهيئة اهمال ؛ وكان أحدهما يحمل تحت ذراعه شراع خيمة . وقال لامبير :

— بعد فوات الاوان .

لقد اختفى الكلب خلف الثكنة ، فتبعاه بلا عجلة ، واختفيا خلفه وقال الشتيمي :

– اتراهما سيقبضان عليه ؟ ام لا ؟

وبعد لحظة ، عاد الرجلان : وكانا قد عقدا الشراع حول شيء ضخم وحملاه كلٌّ بطرف ، كأرجوحة للنوم . وحين ألمّا ببرونيه، سقطت نقطة من الشراع ، وانسحقت حمراء على الحصى . وقال الرقيب ملاحظاً :

– مادة رديئة . فقد كان على القماش ان يكون كتيماً .

فهزّ رأسه ودمدم :

– كل شيء متشابه . فكيف كنت تريد ان نربح الحرب ؟

وألقى الرجلان رزمتهما في الخيمة ، ودخلها احدهما على أربع ، بينما ذهب الآخر يبحث عن خشب لإيقاد النار . وتنهّد المجعّد :

– على كل حال ، سيخلّف ذلك اثنين من الأحياء .

وكان برونيه نائماً ، فأيقظه في ذعر صرخة من مولو :

– ! هاي ؟ هاي ! الطعام .

وانفتح الباب على مهل . ونهض مئة شخص : سيارة شحن .

ودخلت السيارة مغطّاة ، وعلى ظهرها زهور واوراق ، كأنها المدفع ، منبر المفتشين . وسلكت السيارة الطريق بين جدران السور والحاجز . ونهض برونيه ، فاذا هو مدفوع ، مسحوب ، ملقى على الاسلاك الحديدية . وكانت السيارة فارغة . وكان ألمانيّ عارٍ حتى النطاق ينظر اليهم قادمين بتثاقل . بشرة سمراء ، شعر أشقر. عضلات طويلة مغزلية الشكل ، عليه هيئة رجل مترف ، من هؤلاء الشباب الجميلين الذين يتزلقون نصف عراة في سان موريتز . وارتفع نحوه الف زوج من العيون ، فكان ذلك يسلّيه : كان ينظر في ابتسام الى هذه الحيوانات الليلية الجائعة التي تلتصق بقضبان قفصها لتراه رؤية

أفضل . وبعد لحظة انحنى الى خلف ، ونادى حراس البرجين الذين أجابوه وهم يضحكون . وانتظر الجمـع مبهوراً ، وكان يترصد حركات سيّده ، ويهذي من فرط السرور ونفـاد الصبر . وانحنى الألماني ، فالتقط كرة من الخبز في قعر السيارة ، وأخرج مدية من جيبه ففتحها وسنّها بنعله وقطع شريحة . وخلف برونيه ، أخذ شخص يلهث . وحمل الألماني الشريحة الى أنفه وتظاهر بأنه يشمّها في تلذّذ ، وعيناه نصف مغمضتين ، وكانت الحيوانات تزمجر ، وأحسّ برونيه بان الغضب يلوي حلقه . ونظر اليهم الألماني من جديد ، فابتسم وتناول الشريحة بين الابهام والسبابة كالملطّة ، وصوّب الى مكان أقرب مما ينبغي — وربما عن قصد — فسقطت بين السيارة والاوتاد . وكان رجال قد انحنوا لينسلّوا تحت الاسلاك الحديدية : فصاح حارس البرج بأمر جافّ وصوّب اليهم رشّاشه . وظلّ الرجـال ملتصقين بالحاجز ، فاغري الفم ، وفي عيونهم الجنون . وتمتم مولو وهو ملتصق ببرونيه :

— سيسوء الوضع ، فأريد ان اذهب .

ولكن ضغط الجمـع يسحقه على برونيه ، فيحاول عبثاً ان يتحلّل ويصيـح :

— ارجعوا ، ارجعوا ، ايها الحمقى ؛ الا ترون ان الأمر سيُعاد من جديد ، كما حدث هذه الليلة ؟

...

وفي السيارة ، كان الألماني يقطع شريحة ثانية ؛ وقذف بها فدارت في الهواء وسقطت بين الرؤوس المرفوعـة ؛ وأخذ برونيه في اهتزاز هائل ، فأحسّ بأنه مدفوع ، مُزاح ، مضروب ، ورأى مولو تحمله دوّامة فيرفع يديـه في الهواء ، كما لو انه كان يغرق . وفكر : « يا للقذرين ! يا للقذرين ! » وكان يودّ لو يضرب الرجال الذين يحيطون به ، بيديه او بقدميه . وسقطت شريحة اخرى ، وثالثة ، وكان الرجال يتنازعون : وتخلّص شخص شديد البأس وهو يضغط في

يده شريحة ، فقبضوا عليه ،وحاصروه ، فدسّ الشريحة برمتها في فمه وهو يدفعها بظاهر يده ليدخلها ؛ وتركوه ، فمضى بخطى بطيئة وهو يدير عينين قلقتين . وظلّ الألماني يتسلّى ، فيرسل الشرائح الى اليمين والشمال ، ويتصنّع حركات ليخيّب الجمهور . وسقطت قطعة خبز تحت قدمي برونيه ، فرآه عريف اول ، فانزلق وهو يصدم برونيه ؛ وقبض عليه برونيه من كتفيه فألصقه به . وكان الجمع قد انقذف على القطعة الراقدة في الغبار. ووضع برونيه قدمه على القطعة ونكث الارض بنعله ، ولكن عشر أيدٍ قبضت على ساقه ، فأزاحتها والتقطت الفتات الملوّث بالتراب . وكانَ العريف الاول يتخبّط بغضب : لقــد سقطت قطعة اخرى ازاء حذائه .

— هل لك ان تتركني ، ايها الفرج القذر ! هل تتركني ؟

ولكن برونيه يقاوم بشدّة ، فيحاول الرجل ان يضرب ، ويتفاداه برونيه بمرفقه ، ويضغط بكل قواه : وكان مسروراً . وقال الرجل بصوت أبيض :

— انك تخنقني !

ويظلّ برونيـه يشدّ ، ويرى الشرائح تمرّ فوق رأسه في طيران أبيض ، فيظلّ يشدّ ويزداد سروراً ، فيستسلم الرجل بين ذراعيه . وقال صوت :

— انتهى .

فارتدّ برونيه برأسه الى خلف : كان البربري يُغلق مدينته . ويفتح برونيه ذراعه : فيتهادى العريف الاول ، ثم يخطو خطوتين جانبيتين ليستعيد توازنه ، ويسعل وهو ينظر الى برونيه في ذهول حاقد . وابتسم برونيه ، ونظر الرجل الى كتفي برونيه ، فتردد ثم تمتم :

— فرج قذر !

وانفتل . وسال الجمع ببطء خائباً ، ولكن فخوراً . وكان بعض

المحظوظين ما يزالون يمضغون ، في إحساس من العار ، وايديهم امام أفواههم ، وهم يديرون عيوناً طفولية. وكان العريف الاول قد انزرع بازاء وتد ، وكانت شريحة خبز ترقد في الغبار المفحم ، بين سيارة الشحن والحاجز ، فكان ينظر اليها . وقفز الألماني من سيارة الشحن ، فسار محاذياً الجدار ، وفتح باب كوخ والتمعت عينا العريف الاول ، وراح يترصد . وأدار الحراس رؤوسهم ، فأرتمى على أربع ، وانسل تحت اسلاك الحديد ، فمدّ يده ؛ همدرة : وصوّب اليه الحارس . واراد ان يتقهقر ، فأومأ له الحارس الآخر بان يظلّ جامـــداً . وانتظر ممتقعاً ، لا تزال يده ممدودة ، ومؤخرته في الهواء . وكان ألماني سيارة الشحن قد عاد أدراجه ، فاقترب على غير عجل ، ورفع الرجل بيده ، وباليد الاخرى ارسل له صفعة شديدة ، وضحك برونيه حتى سالت دموعه وقال صوتٌ وراءه بهدوء :

– انك لا تحبنا كثيراً .

فانتفض برونيه واستدار . انه شنايدر . وساد صمت ؛ وتابع برونيه بعينيه العريف الاول الذي كان الألماني يقوده بركلات شديدة نحو الكوخ ، ثم قال شنايدر بصوت محايد :

– اننا جائعون .

فهزّ برونيه كتفيه :

– لماذا تقول « اننا » ؟ هل التقطت الشرائح انت ؟

قال شنايدر : – طبعاً ، فانا جائع كجميع الآخرين .

قال برونيه : – ليس هذا صحيحاً . لقد رأيتك .

فهزّ شنايدر رأسه :

– سواء التقطت الشرائح ام لا ، فالأمر سواء .

وراح برونيه ، خافض الجبين ، ينكث الأرض بعقبه ليدفن الفتات في الغبار ؛ وعراه إحساس غريب جعله يرفع رأسه بسرعـــة ؛ وفي اللحظة نفسها ، انطفأ شيء ما في عيني شنايدر ، فلم يبق بعدُ الا

غضب مائعٌ يثقل وجهه ، وقال شنايدر :

ـ نعم ، نحن جشعون ! نعم ، نحن جبنــاء ، نحن منحطّون . اتكون هذه غلطتنا ؟ لقد سرقوا منا كل شيء : مهننا ، وأسرنـا ، ومسؤولياتنا . ولكي تكون شجاعاً ، فيجب ان يكون لديك شيء تفعله ، وإلا فانت تحلم . ولم يكن لدينا « شيء » ما نفعله بعد ، حتى ولا ان نكسب قوتنا ، لم يُحسب لنا بعد حساب . اننا نحلم ؛ واذا كنا جبناء، ففي الحلم . أعطنا عملا ، وسترى كيف نستيقظ .

وكان الألماني قد خرج من الكهف ؛ وكان يدخن ؛ وخرج العريف الاول خلفه وهو يعرج : وكان يحمل مجرفة ومعولا . قال برونيه :

ـ ليس عندي عمل اعطيك إياه . ولكن ، حتى بلا عمل ، يستطيع المرء ان يتصرف تصرفات سليمة .

فرفعت رعشةٌ شفة شنايدر العليا ، ثم سقطت . وابتسم شنايدر :

ـ كنت أحسبك اكثر واقعية . تستطيع بكل تأكيــد ان تتصرف تصرفاً سليماً ، ولكن ماذا يغيّر ذلك : إنك لن تساعد احداً ، ولن يفيد ذلك الا بخلق رضى شخصي . (وأضاف بسخرية) الا ان كنت تؤمن بفضيلة القدوة .

ونظر برونيه ببرودة الى شنايدر وقال له :

ـ لقد عرفتني ، أليس كذلك ؟

قال شنايدر : ـ نعم ، انت برونيه من « الاوما » ، غالباً مــا رأيت صورتك .

ـ هل كنت تقرأ « الاوما » ؟

ـ كان يتفق لي ذلك أحياناً .

ـ هل أنت منّا ؟

ـ كلا ، ولكني لست ضدكم .

فكزّ وجه برونيه . وعادا بهدوء الى السلم وهما يتخطيان الأجسام :

كان الرجال قد عادوا الى النوم،بعد ان أرهقهم عنف رغبتهم وخيبتهم، فهم مزرقّون وعيونهم ملتمعة. وكان لاعبا الورق قد بدأا لعبة «المانيل» بالقرب من خيمتهما ؛ وكان تحت الطاولة عظامٌ ورماد . وحدج برونيه شنايدر من طرف عينه ؛ وكان يسعى لأن يجد على هذا الوجه هيئة الألفة التي لاحظها بالأمس . ولكنه كان قد رأى ملياً هذا الأنف الكبير وهذين الخدّين : فتلاشى انطباعه . وقال بين أسنانه :

– انت تعلم ما يعني ان يكون المرء شيوعياً حين يسقط بين ايدي النازيين ؟

فابتسم شنايدر من غير ان يجيب . وأضاف برونيه :

– سنكون قساة مع الثرثارين .

وظل شنايدر يبتسم ، وقال :

– لست ثرثاراً .

وتوقف برونيه ، فتوقف شنايدر ايضاً ، وسأله برونيه :

– أتريد ان تعمل معي ؟

– وماذا ستفعل ؟

– سأقول لك . ولكن أجبْ اولا .

– لِمَ لا ؟

وحاول برونيه ان يستقريء هذا الوجه الضخم الناعم المائع تقريباً ، وقال من غير ان يغادر شنايدر بنظره :

– لن يكون العمل طريفاً كل يوم .

قال شنايدر : – لم يبق لي ما أفقده بعد . ثم إن ذلك سيشغلني .

وعادا الى الجلوس ، وتمدّد شنايدر ، عاقداً يديه خلف رقبته ، وقال وهو يغمض عينيه :

– هذا لا يمنع انك لا تحبنا قط ، وهذا ما يقلقني .

واضطجع برونيه بدوره . ما عساه يكون هـذا الشخص ؟ ايكون

من المؤيدين المتعاطفين ؟ وفكر : لقد قبلت ذلك ، لقد قبلت ذلك ، فلن اتركك بعد . ونام ، ثم استيقظ ، فكان المساء ، وعاد ينـــام ، فكان الليل ، ثم كانت الشمس ، واستوى ونظر فيما حوله ، وتساءل اين يكون، ثم تذكر واحس برأسه فارغاً. وكان بلوندينه الأشقر جالساً، وعليه هيئة الخبل والأسى ، وكانت ذراعاه تتدليان بين ساقيه المنفرجتين. وسأله برونيه :

ــ هل تشكو شيئاً ؟

ــ انني جائع . أتظن انهم سيطعموننا هذا الصباح ؟

ــ لا ادري .

ــ اتظن أنهم يريدون ان يميتونا جوعاً ؟

ــ لا أظن .

وتنهّد بلوندينه : ــ انني مبعوص . فانا غير معتادٍ ان أظــل بلا عمل .

ــ تعال إذن فاغتسل .

فنظر الأشقر جهة انبوب السقاية بغير حماسة .

ــ سيكون الماء بارداً .

ــ تعال .

ونهضا . وكان شنايدر نائماً . وكان مولو نائماً ، وكان العريف راقداً على ظهره مفتوح العينين على سعتهما ، وكـــان يمضغ شاربه ؛ وكان على الأرض آلاف العيون . آلاف العيون المفتوحة ، وأخرى كانت الحرارة والشمس تفتحانهـــا رويداً رويـــداً ؛ وتهادى الأشقر على ساقيه :

ــ خراء ! لا استطيع بعد ان أتماسك على ساقيّ ، وسوف اسقط في الهواء .

وفكّ برونيه انبوب السقاية ، فأثبته في الصنبور وأداره . وكان

يحس نفسه ثقيلا . وتعرّى الأشقر : انه قاس ومشعر ، ذو عضلات ضخمة مكتلة . واحمرّ لحمه وتكوم تحت الفوارة ، ولكن وجهه ظل رمادياً . وقال برونيه :

ـ هذا دوري .

فأخذ الأشقر الانبوب وقال :

ـ الحقيقة انه ثقيل الوزن .

وتركه ثم التقطه . ووجه الفوارة نحو برونيه ، فاصطكت ركبتاه وترك الانبوب فجأة ، ثم قال :

ـ إن ذلك يتعبني .

وارتديا ثيابهما . وظـــل الاشقر جالساً على الارض فترة طويلة ، واحدى طاقتيه في يده ، وهو ينظر الى الماء الذي ينبجس بين الحصى ، ويتابع بعينيه الانبوب الموحل وقال :

ـ اننا نفقد قوانا .

وأغلق برونيه الصنبور ، وساعد المجعد على النهوض ، فعاد به الى السلم . وكان لامبير قد استيقظ ، فنظر اليهما مقهقهاً :

ـ انكما لا تسيران سيراً مستقيما وتبدوان مرهقين .

وتداعى المجعد للسقوط على شراع الخيمة ، ودمدم :

ـ لقد أتعبني ذلك ، ولن استعيد ما فقدت .

ونظر الى يديه الضخمتين المرتجفتين المشعرتين :

ـ بمثل هاتين اليدين ، لا يمكن لرد الفعل ان يحدث .

قال برونيه : ـ تعال نتنزّه .

فالتفّ بغطائه وأغمض عينيه . ومضى برونيه الى الساحة الخلفية ، وكانت فارغة . ثلاثون دورة بخطوة رياضية . ولدى الدورة العاشرة ، كان رأسه يدور ؛ ولدى التاسعة عشرة اضطر للاستنـــاد الى جدار ، ولكنه كان متماسكـــاً ، وكان يريد ان يروّض جسمه ، ومضى حتى

النهاية ، ثم توقف لاهثــاً . وكان قلبه ينبض حتى رأسه ، ولكنه سعيد : إن الجسم قد خُلق ليطيع . سأقوم بهذا كل يوم ، وسأتابع حتى أتمكن من القيام بخمسين دورة . ولم يكن يشعر بالجوع ، وكان سعيداً بالا يشعر بالجوع : إن هذا هو اليوم الخامس من صيــامي ، وما زلت متماسكاً بما فيه الكفاية . وعــاد الى الساحة الأمامية . وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ؛ وكان جميع الافراد مضطجعين ، جامدين وبكماً ، فكأنهم الجثث . وكان برونيه يودّ ان يتحدث الى عامل المطبعة ، ولكن عامل المطبعة كان ينام ايضاً . وعاد يجلس ، ما يزال خفق قلبه على شدّته ؛ وأخذ الشتيمي يضحك ، فالتفت برونيه : كان الشتيمي يضحك وعيناه منخفضتان على العصا التي ينقشها ؛ وكان قد نقش تاريخاً ، وهــا هو الآن يرسم زهوراً برأس مدينته . وسأل لامبير :

– ما بك تضحك ؟ اتجد هذا طريفاً ، انت ؟

فظل الشتيمي يضحك ، وقال موضحاً ، من غير ان يرفع عينيه :

– أضحك لأنه قد انقضت ثلاثة ايام عليّ دون ان أخرأ .

قال لامبير : – هذا طبيعي . فمَّ تريد ان تخرأ ؟

قال مولو : – هناك مع ذلك من يخرأون . وقد رأيت بعضهم .

قال لامبير : – انهم محظوظون صغار . أشخاص جلبوا معهم علباً من لحم القرود .

واستوى الرقيب ، ونظر الى مولو وهو يشدّ على شاربه :

– ما هي اخبار سيارات شحنك ؟

قال مولو : – سوف تصل ، سوف تصل .

ولكن لم يكن في صوته بعدُ كثير من الاقتناع . وقال الرقيب :

– ولكن يجب عليها ان تستعجل ، وإلا فلن تجد بعدُ احداً .

وظل مولو ينظر الى البوابة ، وسمعت قرقرة مائعة منغمة ، فاعتذر

مولو وقال :

ــ انها معدتي !

واستيقظ شنايدر ، فأخذ يفرك عينيه ، وابتسم وتمتم :

ــ واحد قهوة بحليب .

فقال المجعد : ــ مع « الكرواسان »[1] .

قال الشتيمي : ــ اما انا فأفضل حساء طيباً ، مع قليل من الخمر الأحمر فيه .

وسأل الرقيب : ــ أليس مع احد منكم سكاير ؟

فمدّ له شنايدر علبته ، ولكن برونيه أوقفه منزعجاً : إنه لم يكن يحب حركات السخاء الفردية :

ــ الأفضل ان نجعلها مشتركة .

قال شنايدر : ــ كما تريد . إن معي علبة ونصف العلبة .

فقال برونيه : ــ وانا معي علبة .

واخرجها من جيبه ووضعها على شراع الخيمة . وأخرج مولو علبة من الحديد الابيض من قربته ففتحها :

ــ بقي معي سبع عشرة .

فسأل برونيه : ــ أهــذا كل شيء ؟ وانت يا لامبير ، أليس معك سكاير ؟

قال لامبير : ــ لا .

فقال مولو : ــ غير صحيح . كانت علبتك ملأى ، مساء امس .

ــ دخنتها هذه الليلة .

ــ تدجيل ! لقد سمعتك تشخر .

قال لامبير : ــ خراء اخيراً ! اريد عن رضى ان اعطي الرقيب

(١) نوع من المعجنات على شكل هلال ــ المترجم .

سيكارة ، اذا لم تكن معه سكاير ، ولكن اذا لم ارد ان اجعل سكايري مشتركة ، فهذا يعنيني .

قال برونيه : — انت حر يا لامبير في ان تلمّ شراع خيمتك وان تذهب الى مكان آخر ، ولكن اذا شئت ان تبقى معنـــا ، فينبغي ان تتبنى روح الجماعة وتألف ان تضع كل شيء في حالة الاشتراك . هات سكايرك .

فهزّ لامبير كتفيه وقذف علبته بغضب على غطاء شنايدر . وجعل مولو يعدّ السكاير .

— ثمانون . اي احدى عشرة لكـــل رأس ، وتبقى ثلاث تجري عليها القرعة . فهل نوزعها ؟

قال برونيه : — لا . إذا وزعتها ، فهناك اشخاص يدخنونها كلها من الآن حتى المساء . اني احتفظ بها . وسوف اعطيكم ثلاثاً منها كل يوم لمدة ثلاثة ايام ؛ وفي اليوم الرابع اعطيكم اثنتين . اتفقنا ؟

كان الافراد ينظرون اليه ، ويدركون بغموض انهم بسبيـــل ان يتخذوا قائداً لهم . وكرر برونيه :

— اتفقنا ؟

إنهم لا يكترثون بهذا ، في آخر المطاف : فانهم يودون ان يأكلوا، هذا ما كان همهم . وهزّ مولو كتفيه وقال :

— اتفقنا .

ووافق الآخرون بايماءة رأس ، فوزع برونيه ثلاث سكاير لكـــل منهم ووضع الباقي في قربته . واشعل الرقيب سيكارة ، فسحب منهـــا اربع مجّات واطفأها ، ثم وضعها خلف اذنه . وأخذ الشتيمي احـــد سكايره ، فشق ورقتها ووضع التبغ في فمه ، وقال موضحاً ، وهو يمضغ :

— إن ذلك يخدع الجوع .

ولم يقل شنايدر شيئاً : انه اكثرهم خسراناً في هذه الصفقة ، ولكنه

لم يقل شيئاً . وفكر برونيه : « ربما كان كسباً طيباً في جماعتنا . » وفكر في شنايدر ثم في شيء آخر ؛ وتساءل فجأة بمَ كان يفكر ، ولم يبلغ ان يتذكر ذلك بعد . وظـــل لحظة ثابت العينين ، وقبضة من الحصى في يده ، ثم نهض بتثاقل ؛ وكان عامل المطبعة قد استيقظ ، فسأل برونيه :

ـ وإذن ؟

قال عامل المطبعة : ـ لا ادري أين هم . لقد طفت بالساحة ثلاث مرات ، فلم استطع العثور عليهم .

قال برونيه : ـ استمر ولا تثبط همتك .

وراح يجلس ، ونظر الى ساعته وقال :

ـ هذا غير ممكن . كم هي الساعة ، ايها الرفاق ؟

قال مولو : ـ الرابعة وخمس وثلاثون .

ـ إذن هذا هو الأمر ، هذا هو تماماً .

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون ولم أفعل شيئاً ، كنت احسب انهـــا كانت الساعة العاشرة صباحاً . وخيل اليه ان الوقت قـــد سُرق منه . « وعامل المطبعة الذي لم يعثر على رفاقه ... » إن كل شيء هنا بطيء . بطيء ، متردد ، معقد ؛ ولا بد من اشهر طويلة قبل تحقيق شيء ما . إن السماء ذات زرقة فجة ، والشمس قاسية . ورقت شيئاً فشيئـــاً ، وتوردت السماء ، ونظر برونيه الى السماء ، وفكر في طير الزمج ، وكان به نعاس ، ورأسه يطن ، ولم يكن جائعاً ، وكان يفكر : لم اشعر بالجوع طوال النهار ، واستنام ، وحلم بأنه جائع ، واستيقظ ، فلم يكن جائعاً ، وانما كان ثمة غثيـــان خفيف ودائرة من نار حول رأسه . السماء زرقاء مرحة ، والهواء رطب ؛ وبعيداً في الريف ، كان صوت ديك أبحّ يصرّ ، وكانت الشمس مختفية ، ولكن أشعتها كانت تتسلل ضباباً ذهبياً من فوق قمة جدار ؛ وكانت ظلال بنفسجية كبيرة

ما تزال تتمدد في الساحة. وصمت الديك، وفكر برونيه : اي صمت! وخيل اليه لحظة انه وحيد في العالم، واستوى على مشقة وجلس : كان الرجال هناك، حوله، الوف الرجال الجامدين النائمين . فكأنها ساحة معركة . ولكن جميع العيون مفتوحة على سعتها . ورأى برونيه حوله سحناً مقلوبة وسط شعر متناثر، وعيون تترصد . والتفت نحو شنايدر ورأى عينيه الثابتتين، فقال برقة :

– شنايدر ! ايه ! شنايدر !

فلم يجب شنايدر . ورأى برونيه في البعيد افعى طويلة رخوة يسيل لعابها : انبوب السقاية . وفكر : يجب ان اغتسل . وكان رأسه ثقيلا، وخيل اليه انه يشده الى خلف، فعاد يضطجع، وانتابه شعور الطفو . « يجب ان أغتسل » وحاول ان ينهض من جديـــد، ولكن جسمه لم يكن ليطيعه بعد ؛ كانت ساقاه وذراعاه رخوة، ولم يكن يحس بهـــا بعد، فقد كانت موضوعة الى جانبه كأنها امتعة . وبدت الشمس من فوق الجدار : يجب ان اغتسل، وكان يزعجه ان يكون ميتـــاً بين هؤلاء الموتى المفتحي العيون، وتشنّج، وجمع اعضاءه، وانقذف الى امام . وها هو ذا واقف، ولكن ساقيه تصطكان، وجسمه يرشح، وخطا بضع خطوات، وكان يخشى ان يسقط ؛ واقترب من عامـــل المطبعة فقال :

– مرحباً !

فاستوى العامل ونظر اليه نظرة غريبة . قال برونيه :

– مرحباً ! مرحباً !

فسأله العامل : – الا تريد ان تجلس ؟ هل تشكو شيئاً ؟

قال برونيه : – كلا، فالامور على ما يرام . وانا افضـــل ان أبقى واقفاً .

اذا جلس، فليس هو على ثقة من انه يستطيع ان ينهض ثانية .

وجلس عامل المطبعة ، وكان يبـدو منتعشاً ، وكانت عيناه اللوزيتان تلتمعان في وجهه الانثوي الجميل . وقال بفرح :

— لقد عثرت على احدهم ، واسمه بيران . وهو عامل في السكة الحديدية باورليان . وقد أضاع رفاقه ، فهو يبحث عنهم ، فاذا وجدهم ، جاءوا ثلاثتهم ظهراً .

ونظر برونيه الى ساعته : انها العاشرة ، ومسح بكمه جبينه الذي يرشح عرقاً وقال : « ممتاز » ،وخيل اليه انه يريد ان يقول شيئاً آخر، ولكن لا يدري بعد ما هو . وظلّ لحظة يتهادى فوق عامـل المطبعة وهو يكرر : « ممتاز ! ممتاز ! » ثم عاد الى السير في جهد ، ورأسه يشتعل ناراً ؛ وتداعى للسقوط بتثاقـل على شراع الخيمة ، وفكر : « انني لم اغتسل » وتحامل شنايدر على مرفقه في قلق :

— هل تشكو شيئاً ؟

فقال برونيه منزعجاً : — لا ، لا ، لا أشكو شيئاً .

واخرج منديلا فمدّه على وجهه بسبب الشمس . ولم يكن به نعاس: ليس هو تماماً بالنعاس . كان رأسه فارغاً ، وكان يخيل اليه أنه يهبط في مصعد . وسعل احدهم فوق رأسه ، فنزع منديله : إنه عامـل المطبعة مع ثلاثة اشخاص آخرين ، ونظر اليهم برونيه في دهشة ، وقال بصوت دبق :

— هل جاء وقت الظهر ؟

ثم حاول ان يستوي : كان يحس الخجل ان تأخذه الدهشة ؛ وفكر في انه لم يحلق ذقنه وانه لا يقل قذارة عن الآخرين ؛ وبذل جهـداً عنيفاً فاستقام على قدميه ، وقال :

— مرحباً .

فنظر اليه الأشخاص في فضول ؛ انهم فتيان كما يحبهم ان يكونوا: شديدو البأس ، نظيفون ، ذوو عيون قاسية . ادوات طيبة . وكانوا

ينظرون اليه ، فيفكر :

« ليس لهم هنا بعد غيري » واحس بالانتعاش . وقال :

– هل نسير قليلا ؟

فتبعوه . وانعطف عند زاوية الثكنة ، فمضى حتى الساحة الاخرى ، والتفت فبسم لهم . وقال رجل شديد السمرة ذو رأس حليق :

– انني اعرفك .

فقال برونيه : – كان يخيل الي جيداً اني سبق ان رأيتك في مكان ما .

فقال الأسمر : – لقد جئت اراك عام ٣٧ ، واسمي ستيفان ؛ وكنت من « الفرقة العالمية » .

وقال الآخران اسميهما : بيران ، من اورليان ، وداوروكير ، من لانس .

واستند برونيه الى جدار الاصطبلات . ونظر اليهم وفكر ، في غير ما رضى ، بأنهم شبّان . وتساءل عما اذا كانوا جائعين . وقال ستيفان :

– وإذن ماذا ينبغي لنا ان نفعل ؟

فنظر اليهم برونيه ، ولم يتذكر بعد ما كان يريد ان يقوله لهم ؛ وصمت ، وقرأ الدهشة في عيونهم ، ثم فتح فمه :

– لا شيء . ليس هناك ما يعمل في الوقت الحاضر . سوى ان تعدّوا بعضكم ، وتظلوا على اتصال .

وسأله بيران : – أتريد ان تجيء معنا ؟ ان معنا خيمة .

فقال برونيه بحيوية : – كلا . لنبق حيث نحن ، وحاولوا ان تروا اكبر عدد ممكن من الاشخاص ، وميّزوا الرفاق ، وتدبروا الأمر لتعرفوا قليلاً ما يدور في رؤوس الآخرين. ولا تقوموا بالدعاية، لا تقوموا بها بعد .

فكزّ وجه داوروكير وقال :

ــ إن ما يدور في رؤوس الآخرين ، أعرفه. ليس هناك شيء على الاطلاق . انهم يفكرون في معدهم .

وخيّل لبرونيه ان رأسه بدأ ينتفخ ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وقال :

ــ يمكن ان يتغيّر هذا . هل في قطاعاتكم كهنة ؟

قال بيران : ــ نعم ، في قطاعي . بل هم يقومون بأعمال مجدية .

قال برونيه: ــ دعوهم يعملون، ولكن احترسوا من ان يعرفوكم . اما اذا فتحوا لكم ابواباً ، فلا تسدّوها في وجوههم . مفهوم ؟

فأومأوا برؤوسهم علامة الايجاب ، وقال لهم برونيه :

ــ الموعد ، غداً عند الظهر .

ونظروا اليه ، وترددوا قليلاً ، فقال لهم في لهجة لا تخلو من انزعاج :

ــ هيا : اذهبوا ! انني باق هنا .

فذهبوا . ونظر اليهم برونيه ذاهبين ، وانتظر حتى انعطفوا عند الزاوية ليقدّم رجلاً : لم يكن متأكداً من أنه لن ينهار . وفكر : « ثلاثون دورة لخطوة رياضية . » وخطا خطوتين وهو يتهادى ، وأصعد الغضبُ الدمَ الى وجهه ، وكانت تصفق رأسه ضربات عنيفة : ثلاثون دورة ، على الفور ! وانتزع نفسه عن الجدار ، وتقدم ثلاثة امتار ، ثم تمدّد على بطنه . وعاد ينهض ويسقط ، وهو يمزّق يده . ثلاثون دورة كل يوم . وتشبث بحلقة حديدية معلقة في الجدار ، فاستوى واقفاً ، وقام باندفاعة . عشر دورات ، عشرون دورة . واصطكت ركبتاه ، وكانت كل خطوة تشبه سقطة ، ولكنه كان يعلم أنه سيسقط اذا توقف . تسع وعشرون دورة ؛ وبعد الثلاثين ،انعطف لدى زاوية الثكنة وهو يعدو ، ولم يبطيء الا حين ولج الساحة الامامية . وتخطى الأجسام ، فبلغ السلّم . ولم يتحرك أحد : كانوا

كومة طافية من السمك الميت ، وبطونه في الهواء . وابتسم . واقف وحده . اما الآن ، فيجب ان أحلق ذقني . والتقط قربته ، واقترب من نافذة ، فأخذ آلة الحلاقة ، ووضع قطعة المرآة بطريقة جانبية على طرف النافذة ، وحلق ذقنه بلا ماء ؛ الألم الذي يغمض العينين نصف إغماضة . وسقطت آلة الحلاقـة ، فانحنى ليلمها ، وترك المرآة التي انكسرت تحت قدميه ، فوقع على ركبتيه . وكان « يعلم » هذه المرة انه لن يستطيـع بعد ان ينهض . وعاد الى مكانه ، زحفاً على أربـع ، وتداعى للسقوط على ظهره ؛ وجنّ جنون قلبه ، فكان يطرق طرقات كبيرة في صدره، ولدى كل ضربة، كان حدٌ من نار يثقب رأسه.ورفع شنايدر له رأسه بلا كلمة فدسّ تحت رقبته غطاء مطوياً الى اربـع . ومرت غيوم ، وكانت فيها غيمة تشبه راهبة ، واخرى تشبه غندولا . وشده أحدهم من كمّه :

ــ قف ! اننا ننتقل !

فنهض من غير ان يفهم، فدفعوه الى السلم، وكان الباب مفتوحاً، ودلفت موجة لا تنقطع من الاسرى تتجه الى الثكنة . وأحسّ بأنـه يصعد درجاً ، واراد ان يقف ، ولكنه دُفع من الخلف ، وقـال له صوت :

ــ استمرّ في الصعود .

ولكن قدميه لم تحتملاه ، فسقط ويداه الى أمام . وأخذه شنايدر وعامل المطبعة كل من ذراع ، فحملاه . واراد ان يتخلص ، ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك . وقال :

ــ انني لا أفهم .

فضحك شنايدر بلطف :

ــ انت بحاجة الى طعام .

ــ مثلك تماماً ، لا اكثر .

فقال عامل المطبعة :

— انت اطول وأصلب . فأنت بحاجة الى طعام اكثر .

ولم يستطع برونيه أن يتكلم بعد ، فرفعاه حتى العنبر ، وكان ممرٌّ طويل مظلم يخترق الثكنة من جانب الى جانب ، وعلى جانبيه شقق تفصل بينها حواجز ذات شقوق . وولجوا أحداهـا . ثلاثة صناديق فارغة ، هذا كل شيء . لا نوافذ . كانت ثمة كوة بين كل شقتين او ثلاث ؛ وكانت كوّة الشقة المجاورة تنثر عليهم نوراً مائلاً يعكس على الأرض الخشبية ظلالاً كبيرة للحواجز الخشبية . ومدّ شنايدر غطاءه على الأرض ، فتداعى برونيه للسقوط عليه . ورأى ذات لحظة وجه عامل المطبعة مائلاً عليه ، فقال له :

— لا تبق هنا ، بل اذهب الى بعيد ، وموعدنا غداً عند الظهر .

واختفى الوجه ، فبدأ الحلم . وانسلّ ظلّ الحواجز متمهلاً على الارض ، انسل واستدار على الأجسام المقلوبة ، وتسلق الصناديق ، ودار ودار وامتقع ، وصعد الليل على طول الجدار ؛ وبدت الكوة ، عبر القضبان ، أشبه بجرح ، جرح ممتقع ، جرح أسود ، ثم بدت فجأة عيناً صافية مرحة ، فاستعادت القضبان دورتها ، فدارت ، ودار الظلّ كالمنارة . الوحش في القفص ، وتحرّك رجالٌ لحظة ثم اختفوا ، وجنحت الباخرة مع جميع المحكومين الذين ماتوا جوعاً في أقفاصهم . لهب عود ثقاب ، وانبثقت من الظل كلمة مرسومة بأحرف حمراء ، وانعكست على احد الصناديق : « **سريع العطب** » وكان في القفص المجاور قرود شامبانزي تحشر رؤوسها الفضولية بين الحواجز ، وتمد أذرعها الطويلة نحو القضبان ، وكانت لها عيون حزينة ومجعدة ، فالقرد هو الحيوان الذي يملك أحزن العيون بعد الانسان . لقد حدث شيء ما ، وتساءل : ما الذي حدث ، كارثة . اية كارثة ؟ ربما بردت الشمس ؟ وارتفع صوت من جوف الاقفاص : « سأقول لك ذات

مساء أشياء رقيقة . » كارثة ، والجميع في المغطس . اية كارثة ؟ ما الذي سيفعله الحزب ؟ إنه لمذاق عذب لأناناس نضر ، مذاق طري مرح بعض الشيء ، طفولي ، ومَضغَ الأناناس وفتت مرونتها العضلية الناعمة ، متى أكلت منها للمرة الأخيرة ؟ لقد أحببت الأناناس ،وكان أشبه بخشب مقشور لا يملك الدفاع عن نفسه ، ومضغ ، فصعد المذاق الطريّ الخشبي الأصفر من جوف حاقه كبزوغ الشمس المتردد ، وتفتح على اللسان ، وهو « يريد ان يقول » شيئاً ، فما الذي يريد أن يقوله ، هذا الشراب الشمسي ؟ لقد احببت الأناناس ، اوه ! منذ وقت طويل ، يعود الى العهد الذي كنت أحبّ فيه التزحلق والجبال والملاكمة واليخوت الشراعية الصغيرة ، والنساء . سريع العطب . ما الذي هو سريع العطب ؟ اننا جميعاً سريعو العطب ، ويدور المذاق على اللسان ، زوبعة شمسية ، مذاق قديم ، منسيّ ، لقد نسيت نفسي . «تنمّل الشمس في اوراق شجر الكستناء ، سطر الشمس على جبيني ، كنت اقرأ في ارجوحة النوم ، البيت الابيض ورائي ، وورائي منطقة التورين ، كنت أحب الشجر ، والشمس والبيت ، كنت احب العالم والسعادة ، اوه ، سابقاً ! » وتحرك وتخبط : إن عليّ شيئاً أفعله ، شيئاً افعله على التو. إن له موعداً عاجلا ، مع من ؟ مع كروبسكايا. وسقط من جديد : سريع العطب . ماذا فعلت بغرامياتي ؛ لقد قالوا لي ، انك لا تحبنا بما فيه الكفاية ، فهزموني ، لقد قشروني فرخَ نبات طرياً دبقاً بالنسغ، وحين اخرج من هنا ، سآكل حبة اناناس كاملة . وانتصب : موعد مستعجل ؛ فعاد يسقط في طفولة هادئة ، في حقل ، « أزيحوا العشب وستجدون شمساً ؛ ماذا فعلت بشهواتك ؟ ليست لي شهوات ، فانا قشرة ، وقد مات النسغ ؛ وكانت القرود المعلقة بالقضبان تنظر اليه بعيونها المحمومة ، لقد حدث شيء ما . وتذكر فتحامل للنهوض ، وصاح : « عامل المطبعة » وسأل :

– هل جاء عامل المطبعة ؟

فلم يجب أحد ، وعاد يسقط في النسغ الدبق ، في « **الذاتية** » ، لقد خسرنا الحرب ، وسوف أموت هنا ، وانحنى ماتيو وهمس : انك لم تحبنا بما فيه الكفاية ، لم تكن تحبنا بما فيه الكفاية ؛ وانفجرت القرود ضاحكة وهي تضرب مؤخراتها . لم تكن تحبّ شيئاً ، أجل ، لم تكن تحب شيئاً على الاطلاق . ودار ظلّ القضبان ببطء على وجهه ، الظل، الشمس ، الظلّ إن هـــذا يسليه . انني من أعضاء « الحزب » وانا احب الرفاق ؛ اما الآخرون فليس لدي وقت أضيعه من أجلهم ، إن عندي موعداً . « سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة ، سأقول لك ذات مساء اني احبك . » وجلس ، وكان يلهث ، وينظر اليهم ، وابتسم مولو ذاهلاً ، ووجهه ملتفت نحو السقف ، وداعبه ظلّ طريّ منسلا على خده ، فالتمعت أسنانه من الشمس .

– ايه ! مولو !

وظلّ مولو يبتسم ، وقال ، من غير ان يتحرك :

– هل تسمعها ؟

فسأل برونيه : – ماذا أسمع ؟

– سيارات الشحن .

فلم يسمع شيئاً ، وكان يخاف هذه الرغبة الهائلة التي أغرقته فجأة، رغبة ان يعيش ، رغبة ان يداعب نهدين أبيضين ، وكان شنايدر مضطجعاً الى يمينه ، فاستنجد به :

– هو ! شنايدر !

فقال شنايدر بصوت ضعيف :

– الامور سيئة .

قال برونيه : – خذ السكاير من قربتي . ثلاث كل يوم .

وانزلقت كليتاه بهدوء على الارض الخشبية ، فألفى نفسه راقداً ،

مقلوب الرأس ، ونظر الى السقف ، انني احبهم ، بكل تأكيد احبهم، ولكن « يجب ان يخدموا » ، ما عساها تكون هذه الرغبة ؟ الجسد ، الجسد الميّت ، غابة الشهوات ، على كل غصنٍ عصفور ، يقدمون لحم الخنزير في « ويستفالي » على صحون من خشب ، المدية تقطع اللحم ، فيحس من يسحبها التحاماً خفيفاً للخشب الرطب ، لقد هزموني ، فلست الا رغبة ، ونحن جميعاً في الخراء ، وسوف أموت هنا . اية رغبة ؟ وحملوه ، واجلسوه ، وسقاه شنايدر حساء .

— ما هذا ؟

— حساء شعير .

واخذ برونيه يضحك : كان الامر هكذا ، ولم يكن الا هكذا . تلك الرغبة الهائلة المذنبة لم تكن الا الجوع . ونام ، وسهروا عليه ، وأكل حساءه الثاني . وأحس بحروق في معدته ؛ كانت القضبان تدور ، وصمت الصوت . وقال :

— كان هناك شخص يغني .

قال مولو : — اجل .

— انه لا يغني بعد .

فقال مولو : — لقد مات . وقد نقلوه أمس .

حساء آخر ، مع الخبز هذه المرة ، وقال :

— لقد تحسنت .

وجلس بلا مساعدة ، وابتسم : الحداثة ، الحب ، « الذاتية » ، لم تكن كلها شيئاً ، لم تكن اكثر من حلم تضوُّر. ونادى مولو بجذل:

— لقد انتهى الأمر بها الى المجيء ، سيارات الشحن ؟

فقال مولو : — أي نعم ! أي نعم !

وكان مولو يحك كرة خبز بمديته ، فيجوفها ويفرغها في بعض اماكن . انه ينحتها . وشرح من غير ان يرفع عينيه :

ـ انها كرة خبز عفنة . فاذا أكلت الأزرق ، كان ذلك خراء ، ولكن هناك ما يؤكل حولها .

ومدّ لبرونيه كسرة خبز ، ودس في فمه الكبير مثلهـا ، قائلاً باعتزاز :

ـ ظللنا ستة ايام بلا طعام . وكاد يجن جنوني .

فضحك برونيه ، وفكر في « الذاتية » ، وقال :

ـ وأنا ايضاً .

ونام ، ثم ايقظته الشمس ، وأحس انه مـا يزال واهناً ، ولكنه يستطيع ان ينهض .

وسأل : ـ هل جاء عامل المطبعة ليراني ؟

ـ تعلم .. اننا في هذه الأيام لم نتنبه كثيراً للزوار .

وسأل برونيه : ـ واين شنايدر ؟

ـ لا ادري .

وخرج برونيه الى الممر ، فاذا بشنايدر يتحدث الى عامل المطبعة ، وكانـا يضحكان ، فنظر اليهما برونيه في ضيق . وجاء اليه عامـل المطبعة يقول :

ـ لقد قمنا كلانا ، شنايدر وأنا ، بعمل محترم .

فالتفت برونيه الى شنايدر وفكر : انه يندس في كل مكان. وابتسم له شنايدر وقال :

ـ لقد تنقلنا هنا وهناك ، منذ أمس الاول ، فاكتشفنا رفاقاً جدداً .

فقال برونيه بجفاء : ـ هِمْ ! يجب ان أراهم .

وهبط السلم ، فتبعه شنايدر وعامل المطبعة . وفي الساحة ، توقف وهو يطرف بعينيه ، مبهوراً : انه يوم جميل . وكان رجال جالسون على درجات السلم يدخنون في سكينة ، كأنهم في بيوتهم ، يستريحون بعد كـدّ الاسبوع ؛ وبين الفينة والفينة ، كان فيهم من يهزّ رأسه

ويساقط بضع كلمات ، فيأخذ الجميع في هزّ رؤوسهم . ونظر اليهم برونيه في غضب ، وفكر : « ها هم اولاء يستقرّون . » إن الساحة والبرجين وجدار السور « لهم » ، وهم جالسون على عتبات بيوتهم يعلقون في حكمة قروية بطيئة على جميع احداث القرية : « ماذا يمكننا ان نفعل بفتية كهؤلاء ؟ انهم مصابون بهوس الامتلاك ؛ تحشرهم في الزنزانة ، وبعد ثلاثة ايام ، لا تدري ان كانوا اسرى ام مالكي السجن . » وكان آخرون يتنزهون ، كل اثنين أو كل ثلاثة ، وكانوا يسيرون بنشاط ، ويتحدثون ، ويضحكون ، ويستديرون : انهم بورجوازيون يقومون بالعرض . ويمرّ مرشحون ، بثوب عسكري خاص ، من غير ان ينظروا الى أحد ، ويسمع برونيه أصواتهم المتميّزة : « كلا ، يا عزيزي ، أستميحك العذر ، انهم لم يضعوا ميزانيتهم ؛ كان المفروض ان يضعوها ، ولكن بنك فرنسا ساعدهم». وكان ثمة شخصان يلبسان النظارات ، وهما راكعان يلعبان الشطرنج ، يحيط بهما كثيرون؛ وكان رجل قصير أصلع يقرأ وهو مقطّب الجبين ، وكان بين فترة وفترة يضع كتابه ويقلب في هياج صفحات كتاب ضخم . ومر برونيه خلفه : وكان الكتاب قاموساً . وسأله برونيه :

— ماذا تفعل ؟

— أتعلّم الألمانية .

وحول انبوب السقاية ، كان رجال عراة يصرخون ويتدافعون ضاحكين ؛ وكان غارتيزر الالزاسي مرتفقاً احد الاوتاد يتحدث بالألمانية مع حارس ألماني يصغي اليه وهو يشير برأسه علامة الموافقة . إن لقمة خبز كانت كافية ! لقمة خبز ، فاذا بهذه الساحة الكئيبة التي كان الجيش المهزوم يحتضر فيها تتحول الى شاطيء ، الى مشمسة ، الى سوق خيرية ، وكان ثمة شخصان عاريان يسمّران جسميهما في الشمس ، مضطجعين فوق غطاء ؛ وودّ برونيه لو يركل أفخاذهما المذهبة بقدمه:

أحرقوا مدنهم وقراهم ، خذوهم الى المنفى ، فسيصرّون في كل مكان على اعادة بناء سعادتهم الصغيرة العنيدة ، سعادة الفقراء ؛ إذهبوا إذن، فاعملوا في هذا الميدان . وأولاهم ظهره ومضى الى الساحة الاخرى ؛ وتوقف مأخوذاً : ظهور ، آلاف الظهور ، قرع جرس صغير ، وتنحني الوف الرؤوس . وقال :

— بلا مزاح !

فأخذ شنايدر وعامل المطبعة يضحكان :

— أي نعم ! أي نعم ! اليوم هو الاحد . ولقد اردنا ان نطلع عليك بمفاجأة .

قال برونيه : — هكذا إذن ! إنه يوم الاحد !

ونظر اليهما مشدوهاً : أي عناد ! لقد صنعا لنفسيهما « احداً تركيبياً» ، أحداً من المدينة والريف، لانهما قرأا في رزنامة ان اليوم يوم أحد . وفي الساحة الاخرى ، كان يوم الأحد في القرية ، يوم الاحد في شارع الريف الكبير ، اما هنا ، فكان يوم الاحد في الكنيسة ؛ ولم يكن ناقصاً الا السينما . والتفت الى عامل المطبعة :

— أليس من سينما ، هذا المساء ؟

فابتسم عامل المطبعة :

— إن عمال الشبيبة المسيحية سيقيمون احتفال العاب نارية .

فحرّق برونيه الأرم ، وفكر في الخوارنة الصغار ، فكر : لقد عملوا بجدّ ، بينما كنت مريضاً . ينبغي للمرء الا يمرض قط . وقال عامل المطبعة في خجل :

— انه نهار جميل .

فقال برونيه بين أسنانه : — بكل تأكيد .

بكل تأكيد ، نهار جميل ، نهار جميل على فرنسا كلها : إن الخطوط الحديدية المنتزعة الملوية تلمع تحت الشمس ، والشمس تذهّب

الاوراق المصفرّة في الأشجار المقتلعة ، والماء يبرق في جوف اوعية القنابل، والموتى يخضرّون بين القمح، وبطونهم تغني تحت سماء لا غيوم فيها . اتراكم قد نسيتم ؟ إن الرجال هم من المطاط . وارتفعت الرؤوس ، وتكلم الكاهن . ولم يكن برونيه يصغي الى ما يقول ، ولكنه كان يرى رأسه المحمرّ ، وشعره الرمادي ، ونظارته الحديدية ، وكتفيه القويتين؛ وعرفه : إنه الرجل ذو الكتاب الديني الذي لاحظه في المساء الاول . واقترب . وعلى بعد خطوتين منه ، كان الرقيب ذو الشارب يصغي اليه بحماسة ، ملتمع العينين ، متواضع الهيئة :

— ... ان كثيرين منكم مؤمنون ، ولكني أعرف كذلك أن هناك آخرين يصغون إليّ بدافع الفضول ، أو ليتثقفوا ، أو بكل بساطة ليقتلوا الوقت . إنكم جميعاً اخوتي ، اخوتي الأعزاء ، اخوتي في السلاح ، واخوتي في الرب ، وانا اتوجه اليكم جميعاً ، كاثوليكيين وبروتستانت وملحدين ، لأن كلمة الرب للجميع . والرسالة التي أحملها اليكم في يوم الحداد هذا ، الذي هو يوم الرب ايضاً ، تتاخص في هاتين الكلمتين البسيطتين : « لا تيأسوا !... » لأن اليأس ليس فقط إثماً ضد الرحمة الإلهية المعبودة : فحتى الجاحدون يوافقوني على أنه اعتداء من الانسان ضد نفسه . وهو اذا صح القول انتحار روحي . ولا ريب في ان فيكم ، يا اخوتي الاعزاء ، من خدعهم التعليم المتعصب فحملهم على الا يروا في التتابع الرائع لأحداث تاريخنا الا سلسلة من الحوادث لا معنى لها ولا رابطة . فهم يمضون اليوم مرددين بأننا قد هُزمنا لأننا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ، ولم يكن لدينا عدد كاف من الطائرات . وعن هؤلاء قال الرب ان لهم آذاناً لا يسمعون بها وعيوناً لا يرون بها ، ولا ريب في انه ، حين سقط الغضب الالهي على سدوم وعمورية ، كان ثمة في المدن الفاجرة مذنبون بلغ بهم العناد ان زعموا ان مطر النار الذي كان يحيل مدنهم الى رماد لم يكن الا

ترسّباً جوياً او شهاباً . ألم يكونوا يا اخوتي يأثمون بحق أنفسهم ؟ فاذا كانت النار قد سقطت على سدوم اتفاقاً ، فلن يكون هناك عمل للانسان أو ثمرة لصبره وصناعته الا وتتحول بين ليلة وضحاهـــا الى عدم ، من غير سبب ، بفعـــل قوى عميـــاء . فلماذا إذن يبني الانسان ؟ ولماذا يزرع ؟ ولماذا يؤسس أسرة ؟ ها نحن اولاء مهزومون وأسرى، مذلون في عزتنا القومية المشروعة ، متألمون في أجسامنا ، بلا اخبار من المخلوقات العزيزة علينا ، فكيف ؟ ايكون هذا كله بلا هدف ؟ بلا مصدر آخر غير لعبة القوى الميكانيكية ؟ اذا كان ذلك صحيحاً ، يا اخوتي ، فيجب ان نستسلم لليأس، لأنه ليس ثمة ما هو أبعث على اليأس وأشد ظلماً من ان نتألم من أجل لا شيء . ولكني يا اخوتي أسأل هذه العقول القوية بدوري : «ولماذا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ؟لماذا لم يكن لدينا عدد كاف من المدافع ؟ » انهم سيجيبون بلا ريب : « لأننا لم نكن ننتـــج منها العدد الكافي . » وهنا ينكشف فجأة وجه هذه الفرنسا الآثمة التي نسيت ، منذ ربـع قرن ، واجباتها وربهـــا . ولماذا ، في الواقع ، لم ننتج بمـــا فيه الكفاية ؟ لأننا لم نكن نعمل . وما هو ، يا اخوتي ، مصدر هذه الموجة من الكسل التي سقطت علينا كما سقط الجراد على حقول مصر ؟ لاننا كنا منقسمين بخلافاتنـــا الداخلية : فالعمال قد قادهم مشاغبون اوقاح ، فانتهى بهم الامر الى ازدراء ارباب عملهم ، وارباب العمل قد أعمتهم الانانية ، فلم يهتموا للاستجابة للمطالب المشروعة ؛ وكان التجار يحسدون الموظفين، وكان الموظفون يعيشون كشجرة الدبق على السنديانة ؛ ونوابنا ، في المجلس، بدلاً من ان يناقشوا هادئين في الصالح العـــام ، كانوا يتصادمون ويتشاتمون ويصلون احيـــاناً الى التماسك بالأيدي . ومـــا سبب هـــذه الخلافات ، يا اخوتي الاعزاء ، ما سبب هذه المنازعات على المصالح، ولماذا هذا الانحلال في الاخلاق ؟ لأن مادية قذرة قد انتشرت في البلاد كالوباء . وهل المادية الا حالة الانسان الذي انصرف عن الرب:

فهي تفكر بأنه ولد من الارض وسيعود الى الارض ، فليس له ما يهمّه بعد الا مصالحه الأرضية . ولكني أردّ على متشككينا : « انتم على حق ، يا اخوتي : لقد خسرنا الحرب لأننا لم نكن نملك «مادة» كافية ؛ ولكن لستم على حق الا جزئياً ، لان جوابكم « مادي » ، وانما هُزمتم لانكم ماديون » إن فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، هي التي سجلت في التاريخ سلسلة باهرة من انتصاراتها ؛ وان فرنسا التي لا رب لها هي التي عرفت الهزيمة عام ١٩٤٠ . »

وتوقف ؛ وكان الرجال يصغون في صمت ، فاغري الافواه ؛ وكان الرقيب يوافق بايماءات من رأسه . وعاد برونيه ينظر الى الكاهن ، فلاحظ عليه هيئة الانتصار : كانت عيناه الملتمعتان تركضان بين المستمعين ، ووجنتاه تحمرّان ، ورفع يده واستأنف الكلام في اندفاع يكاد يكون جذلاً :

— وهكذا يا اخوتي ، لندع التفكير بأن هزيمتنا هي ثمرة المصادفة: انها في الوقت نفسه جزاؤنا وغلطتنا ؛ انها ليست مصادفة ، يا اخوتي بل هي عقاب ؛ وهذا هو النبأ الطيب الذي أحمله لكم اليوم .

وتوقف مرة اخرى ، يراقب الرؤوس الممدودة نحوه ليحكم على الأثر الذي خلفه ، ثم انحنى وتابع بصوت اكثر تعريضاً :

— انه نبأ قاسٍ غير سارّ ، اعترف بذلك ، ولكنه مع ذلك نبأ طيب . إن من يظن نفسه ضحية بريئة لكارثة ويلوي يديه من غير ان يفهم ، ألا نبلّغه نبأ طيباً حين نطلعه انه يكفّر عن خطأه ؟ ومن أجل هذا أقول لكم : ابتهجوا يا اخوتي ! ابتهجوا من أعماق هوّة آلامكم ، لأنه ان كان ثمةخطأ وكان ثمة تكفير ، فهنالك ايضا فداء ، واقول لكم : ابتهجوا ايضاً ، ابتهجوا في « بيت ابيكم » لأنّ هنا سبباً آخر للابتهاج . فان سيدنا ومولانا الذي تألم لجميع البشر ، والذي أخذ اخطاءنا على عاتقه ، والذي تعذّب وما يزال يتعذّب

ليكفّر عنها ، إن مولانا قد أختاركم . اجل ، انتم جميعاً ، فلاحين وعمالا وبورجوازيين ، ولستم الابرياء تماماً ، كما انكم لستم الأكثر ذنباً ، لقد اختاركم لمصيرٍ لا يُقارن : اختار ان تَفتدي آلاُمكم ، علي غرار آلامه ، ذنوبَ فرنسا كلها التي لم يكفّ الربّ عن حبّها والتي عاقبها على مضض . هنا يا اخوتي يجب ان تختاروا ، فاما ان تئنوا وتقطّعوا شعوركم قائلين : لماذا تنزل علي هذه المصائب ؟ عليّ لا على جاري الذي كان غنياً شريراً ، ولا على السياسيين المتهنين الذين قادوا بلادي الى الهلاك ؟ واذ ذاك لا يبقى لأي شيء معنى ، ويبقى لكم ان تموتوا في الحقد والضغينة . واما ان تقولوا لانفسكم : اننا لم نكن شيئاً ، وها نحن اولاء مختارون للألم ، ها نحن اولاء الشهداء . وإذن ، حين يكون رجلٌ ارسلته العناية الالهية ، ابنٌ محترم لاولئك الذين كان الرب دائماً يوقظهم في فرنسا إذ تكون على قاب قوسين من الهلاك ..

ومضى برونيه على رؤوس أصابعه ، فوجد شنايدر وعامل المطبعة مستندين الى جدار الثكنة وقال :

— إنه يعرف مهنته .

قال عامل المطبعة : — صحيـح ! إنه ينام على بعد شبرين مني ؛ وفي المساء لا نسمع سواه يعظ الرفاق .

ومرّ رجلان بقربهم ، أحدهما طويل هزيل ذو رأس طويل يلبس النظارة ؛ والآخر قصير سمين ذو فمٍ يحمل الازدراء . وقال الطويل بصوت رقيق :

— لقد تكلم جيداً جداً . وببساطة . وقال ما ينبغي ان يقال .

فأخذ برونيه يضحك : — طز !

وخطوا بضع خطوات ؛ ونظر عامل المطبعة الى برونيه في ثقـة وسأل :

– وإذن ؟

فردّد برونيه : – إذن !

– هذه العظة ، ما رأيك فيها ؟

– فيها الطيب وفيها الرديء . وهو على نحو ما يعمل لصالحنا : فقد شرح لهم ان الأسر لن يكون لعبة تسلية ؛ وأعتقد أنه سيلحّ على هذه النقطة : وفي هذا مصلحته كما فيه مصلحتنا ، فما دام هؤلاء الفتيان يتصورون بأنهم سيرون صديقاتهن الصغيرات في آخر الشهر ، فلن نستطيع ان نصنع بهم شيئاً .

ماذا ؟

وتباعدت عينا العامل الجميلتان ، وأصبحت وجنتاه رماديتين .وتابع برونيه :

– لا بأس بــه من هذه الناحية ، بل ان بوسعكم ان تستغلوه . فخذوا رفاقكم وقولوا لهم : هل رأيت الخوري ؟ لقد قال اننا سنواجه مصاعب شديدة .

فسأل عامل المطبعة جاهداً :

– وهل تظنّ انت ، اننا سنقضي هنا وقتاً طويلاً ؟

فنظر اليه برونيه بقسوة :

– هل تؤمن ببابا نويل !

فصمت العامل وابتلع ريقه ؛ والتفت برونيه نحو شنايدر وأضاف :

– غير اني ، من جهة اخرى ، لم اكن اظنّ انهم سيقررون موقفهم بهذه السرعة ، وانما كنت اعتقد بأنهم يودّون الانتظار . ومهما يكن ، فان عظته كانت برنامجاً سياسياً حقيقياً : إن فرنسا هي إبنة الكنيسة البكر ، وبيتان هو قائد الفرنسيين . شيء يخزّيء !

ونظر الى عامل المطبعة فجأة :

– ما رأي الذين حولك فيما قال ؟

ـ إن الناس يحبّونه كثيراً .
ـ هكذا !
ـ ليس ما قد يؤاخذ عليه بالكثير . فهو يوزّع كل ما يملك ، ولكنه يشعرك بذلك. انه يبدو عليه دائماً انه يقول لك ، انني امنحك هذا لمحبة الرب. وانا أفضل الا ادخن ، على ان أدخن تبغه ؛ ولكني الوحيد في هذا الموقف .
ـ أهذا كل ما تعرفه عنه ؟
فقال عامل المطبعة ، وكأنه يعتذر :
ـ انت تعرف انه لا يكون بيننا الا في المساء .
ـ ماذا يفعل في النهار ؟
ـ انه في ردهة المرضى .
ـ وهناك الآن ردهة للمرضى ؟
ـ نعم ، في البناية الاخرى .
ـ وهل هو ممرض ؟
ـ لا ، ولكنه صديق للماجور ، فهو يلعب البريدج معه ومع ضابطين جريحين .
قال برونيه : ـ ها ! ها ! وماذا يقول الفتيان في ذلك ؟
ـ لا يقولون شيئاً ، يظنون ولكنهم لا يريدون ان يعرفوا . وأنا قد عرفت ذلك من غارتيزر ، وهو ممرّض .
ـ حسناً ، ستفضح امامهم القضية ، وستسألهم كيف يحدث ان يكون الحوارنة محشورين دائماً مع الضباط .
ـ اتفقنا .
وكان شنايدر ينظر اليهم ، منذ برهة ، ببسمة غريبة . وقال :
ـ إن البناية الأخرى ، هي بناية الألمان .
قال برونيه : ـ آه !

واستدار شنايدر نحو عامل المطبعة ، وكان ما يزال يبتسم :

– انك ترى ما ينبغي ان تقوله : إن الخوري يترك رفاقه ليذهب فيتملق الألمان بطريقة منحطة .

قال عامل المطبعة برخاوة :

– اوه ، لا أعتقد انه يرى كثيراً من الألمان .

فهزّ شنايدر كتفيه في نفاد صبر متكلف ، فشعر برونيه بأنه يتسلى. وسأل شنايدر العامل : – هل يحقّ لك انت ان تتنزه في بناية الألمان ؟

فهزّ العامل كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر منتصراً :

– انت ترى ! انني انا لا أبالي بنواياه : فربما كان يريد ان ينقذ فرنسا . ولكنه « موضوعياً » أسيرٌ فرنسي يقضي أيامه مع العـــدو . هذا ما ينبغي للرفاق ان يعرفوه .

والتفت عامل المطبعة ، مبلبلا ، الى برونيه . ولم يكن برونيه قـــد أحبّ على الاطلاق لهجة شنايدر ، ولكنه لم يكن يريـد ان يناقضه ، فقـــال :

– تدبَّر الأمر بروية ، ولا تحاول ان تهدمه الآن . والواقع ان هنا اكثر من خمسين مثله ، ولن تكفي وحدك لذلك . فجرّب ان تقول ، في الحديث : ان الخوري يعتقد بأننا لن نعود الى بيوتنـــا في وقت قريب ، ولا بدّ انه يعرف ذلك لأنـــه يلتقي بالضباط ويتحدث مع الألمان . فيجب ان يفهموا شيئاً فشيئاً ان الخوري ليس من رأيهم . مفهوم ؟

قال عامل المطبعة : – نعم .

– هل في غرفة الخوري شخص منا ؟

– نعم .

– هل هو بارع ؟

– بما فيه الكفاية .

– فليتظاهر بأنه مقتنع بآرائه . اننا بحاجة الى مخبر .
واستند الى الجدار ، وفكر لحظة وقال لعامل المطبعة .
– اذهب فاصطحب رفاقك . اثنين او ثلاثة . على ان يكونوا جدداً .

وحين أصبحا وحدهما قال برونيه لشنايدر :
– كنت افضل ان انتظر قليلاً ؛ فبعد شهرين او ثلاثة ، سيصبح الافراد مستعدّين . غير ان الخوارنة هم اقوى مما ينبغي . فاذا لم نبدأ على الفور ، تخطتنا الاحداث . اما تزال موافقاً على ان تعمل معنا ؟
فسأله شنايدر : – أعمل بأي شيء ؟
فقطّب برونيه حاجبيه : – كنت اظن انك تريد ان تعمل معنا ، فهل غيرت رأيك ؟
قال شنايدر ؟ – لم اغيّر رأيي . وانما اسألك عما ستعملونه .
فقال برونيه : – لقد سمعت الخوري ؟ إن هؤلاء لم يسقطوا من المسطرة الأخيرة : وسوف تجدهم بعد شهر في كل مكان . وبالاضافة الى ذلك ، فلن يدهشني كثيراً ان يلتقط الألمان من بيننا كويسلنغين او ثلاثة وان يكلفوهم بان يحملوا لنا الكلام الطيب . لقد كان بامكاننا قبل الحرب ان نقيم بوجوههم التشكيلات الصابة ، الحزب ، النقابات ، لجنة الطواريء . اما هنا ، فلا شيء عندنا . فالقضية إذن هي اعادة بناء « شيء ما » . وطبعاً ، سيتحوّل ذلك الى مناقشات طويلة مملة ، ولم يسبق لي ان احببت ذلك كثيراً ، ولكن اخيراً ، ليس لنا الخيار . وإذن : معرفة العناصر السليمة وتنظيمها وشنّ حملة سرية معاكسة ، تلك هي اهدافنا المباشرة . وثمة نظريتان ينبغي نشرهما : إننا نرفض الاعتراف بالهدنة ؛ والديمقراطية هي شكل الحكومة الوحيد الذي نستطيع اليوم ان نقبله . ولا جدوى من المضيّ الى أبعد من هذا : فيجب علينا في البدء ان نكون حكماء محترسين . وانا آخذ على عاتقي ان أجد الرفاق

في الحزب الشيوعي ، ولكنّ هناك الآخرين ، الاشتراكيين والراديكاليين وجميع الافراد الذين هم « من اليسار » على نحوٍ ما ، المتعاطفين امثالك .

وبسم شنايدر بسمة باردة :

ــ المائعون .

ــ لنقل الفاترون .

وسارع برونيه يضيف : :

ــ ولكن بامكان المرء ان يكون فاتراً وشريفاً. ولست على يقين من اني اتحدث تماماً بلغتهم . اما انت ، فلن تلاقي هذه الصعوبة ، لان هذه لغتك .

قال شنايدر : ــ اتفقنا . المطلوب بالاجمال أن نبعث قليلاً روح « الجبهة الشعبية » ؟

فقال برونيه : ــ لن يكون ذلك رديئاً جداً .

وهزّ شنايدر رأسه ، وقال :

ــ إذن سيكون هذا عملي . ولكن ... هل انت واثق من انــه « عملك »

فنظر اليه برونيه مندهشاً :

ــ عملي ؟

قال شنايدر في لامبالاة :

ــ اوه ! اذا كنت واثقاً من ذلك ..

فقال برونيه : ــ اوضح قصدك ، فانا لا احب الافكار المضمرة .

ــ ليس لدي ما اوضحه . فكل ما اقصد اليه : ماذا يفعل الحزب في هذه اللحظة ؟ ما هي اوامره ، وأهدافه ؟ انا افترض انك تعرفها.

فنظر اليه برونيه باسماً ، وسأله :

ــ اتراك تدرك الوضع ؟ إن الالمان هم في باريس منذ خمسة عشر

يوماً ، وفرنسا كلها مقلوبة رأساً علي عقب : فهناك رفاق لنا قُتلوا او أسروا ، وآخرون فروا الى حيث لا يعلم الا الله مع فرقتهم ، في « بو » او « مونتبلييه » وآخرون في السجن . فاذا كنت تريد ان تعرف ماذا يفعل الحزب الآن ، قلت لك انه يعيد تنظيم نفسه .

فقال شنايدر برخاوة :

ــ فهمت ، وانت من جهتك ، تحاول ان تجمع الرفاق الموجودين هنا ، هذا ممتاز .

قال برونيه ، بمثابة اختتام للحديث :

ــ حسناً ، فاذا كنت موافقاً ..

قال شنايدر : ــ ولكن بكل تأكيد يا عزيزي ، اني موافق ، لا سيما وان هذا لا يخصني ، فانا لست شيوعياً . انت تقول لي إن الحزب يعيد تنظيم نفسه : فانا لا اريد منه اكثر من ذلك . غير ان ما اردت ان أعرفه ، لو كنت في مكانك ..

وبحث في جيب سترته ، كما لو انه يبحث عن سيكارة ، وعاد يخرج يده بعد لحظة ويجعلها تتدلى بازاء الجدار :

ــ على اية اسس يعيد تنظيم نفسه ؟ ذلك هو السؤال .

وأضاف من غير ان ينظر الى برونيه.

ــ إن السوفيات متحالفون مع ألمانيا :

قال برونيه بنفاد صبر :

ــ ولكن لا . لقد وقّعوا على ميثاق عدم اعتداء ، وهو ميثاق وقتيّ . اسمع قليلاً يا شنايدر : لم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي ، بعد ميونيخ ..

فتنهد شنايدر وقال : ــ اعرف ، اعرف كل ما ستقوله لي . إن الاتحاد السوفياتي فقد ثقته بالحلفاء وانه يتمهّل ريثما يصبح قوياً بما فيه الكفاية ليعلن الحرب على الألمان . أليس كذلك ؟

فتردد برونيه وقال : — ليس تماماً . فانا أميل الى الاعتقاد بان الالمان سيهاجمونه .

— ولكنك تعتقد أنه يفعل ما في وسعه ليؤخر ذلك .

— أتصوّر .

فقال شنايدر بهدوء :

— إذن لو كنت إياك ، ما كنت واثقاً الى هذا الحد بان الحزب سيتخذ وضعاً حازماً ضد النازيين : فان ذلك يمكن ان يضر الاتحاد السوفياتي .

وحدّد على برونيه عينيه المغتلمتين . كان له نظر ضعيف كئيب ، ولكن تصعب مقاومته . وشعر برونيه بالانزعاج ، فأدار رأسه وقال :

— لا تجعل نفسك أبله مما انت . فأنت تعلم جيداً ان القضية ليست قضية اتخاذ موقف علني . إن الحزب هو حزب غير مشروع منذ ٣٩ ، وسيظل نشاطه سرياً .

فابتسم شنايدر : — سري ، نعم . ولكن ما معنى هذا ؟ أيعني ان جريدة « الاومانيتيه » ستطبع سرياً ؟ اسمع إذن : فمن أصل عشرة الاف نسخة توزع ، ستقع مئة نسخة على الأقل في ايدي الألمان ؛ هذا مقدور : فان بالامكان ، بقليل من الحظ ، اخفاء مصدر المنشورات ، والمطابع ، والتحرير الخ .. اذا كان هذا غير مشروع ، ولكن ليس بالامكان اخفاء المنشورات نفسها ؛ لأنها مصنوعة لتنشر وتوزع . وانا اعطي الغستابو ثلاثة أشهر ليقفوا تماماً على سياسة الحزب الشيوعي .

— وبعد ذلك ؟ انهم لا يستطيعون أن يعزوها للاتحاد السوفياتي .

وسأل شنايدر : — والكومنترن ؟ هل تتصوّر ان موضوع الكومنترن لم يثر بين ريبنتروب ومولوتوف ؟

كان يتكلم بغير لهجة الهجوم ، بصوت محايد . ومع ذلك ، فقد كان في الحاحه شيء مريب . وقال برونيه :

– لا نجعل من أنفسنا ستراتيجيين في غرفة . إن ما يقوله ريبنتروب لمولوتوف أجهله ، فانا لست تحت الطاولة . ولكن مـا أعرفه – لأن هذه بديهية بسيطة – هو أن العلاقات قد قطعت بين الاتحاد السوفياتي والحزب .

قال شنايدر : – أتظنّ ذلك ؟

وأضاف بعد لحظة : – على كل حال ، اذا كانت قـد قطعت اليوم ، فستعاد غداً . فهناك سويسرا .

وانتهى القدّاس ، ومرّ جنودٌ أمامهما ، صامتين شاردين . وأخفض شنايدر صوته :

– اني واثق من ان الحكومة النازية تعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولا عن نشاط الحزب الشيوعي .

قال برونيه : – لنقرّ ذلك جدلا . فاين يقودنا هذا ؟

فقال شنايدر : – تصوّر ان الاتحـاد السوفياتي ، رغبةً منه في كسب الوقت ، يفرض الصمت على الشيوعيين في فرنسا وبلجيكا .

فهز برونيه كتفيه وقال :

– يفرض ! كيف تراك تتمثل العلاقات بين الاتحـاد السوفياتي والحزب الشيوعي ؟ الا تعرف ان هناك خلايـا في الحزب الشيوعي وأشخاصاً يناقشون ويصوّتون ، في الخلايا ؟

فابتسم شنايدر واستأنف بصبر :

– لم اكن اريد ان اجرحك . واطرح عبارتي عـلى نحو آخر : تصوّر ان الحزب الشيوعي ، رغبة منه في ألا يثير صعوبات للاتحـاد السوفياتي ، يفرض على نفسه صمتاً ...

– وهل يكون ذلك جديداً ؟

– ليس جديداً الى هذا الحد . ماذا فعلتم باعلان الحرب ؟ ومنذ ذلك الحين ، ساء الوضع بالنسبة للاتحـاد السوفياتي . واذا استسلمت

انكلترا ، كان هتلر طليق اليدين .

ـ لقد اتيح للاتحاد السوفياتي الوقت الكافي للاستعداد . وهو ينتظر الصدمة .

ـ هل انت واثق من ذلك ؟ إن الجيش الأحمر لم يكن لامعاً الى هذا الحدّ ، في هذا الشتاء . وقد كنت انت نفسك تقول إن مولوتوف يتمهّل ...

ـ اذا كان بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي العلاقات التي تشير اليها ، فسيعرف الرفاق في الوقت المناسب درجة استعداد الجيش الأحمر .

ـ الرفاق ، نعم ، هناك في باريس . أما انت ؛ فلا ، « انت » الذي تعمل « هنا » ...

قال برونيه وهو يرفع صوته :

ـ واخيراً ، ما هي غايتك من هذا كله ؟ ماذا تريد ان تثبت ؟ ان الحزب الشيوعي أصبح فاشستياً ؟

ـ كلا ، ولكني اريد ان اثبت ان النصر النازي والميثاق الجرماني السوفياتي هما واقعان قد لا يروقان للحزب الشيوعي ، ولكن عليه ان يرضى بهما . وانت لا تعرف بالذات « كيف » يرضى بهما .

ـ أيجب عليّ ان أشبّك ذراعيّ ؟

قال شنايدر : ـ انا لا اقول ذلك . وانما نحن نتحدث ..

واستطرد بعد لحظة ، وهو يمرّ سبابته على جانب انفه الكبير .

ـ إن الحزب الشيوعي ليس أعطف من النازيين على الديموقراطيات الرأسمالية ولو كانت الاسباب مختلفة ، وما دام انه كان ممكناً تصوّر تحالف بين الاتحاد السوفياتي وديموقراطيات الغرب ، فقد اخترتم ، كقاعدة ، الدفاع عن الحريات السياسية ضد الدكتاتورية الفاشية . ولكنك تعلم خيراً مني ان هذه الحريات وهمية . إن الديموقراطيات الآن

راكعة على قدميها ؛ وقد اقترب الاتحاد السوفياتي من ألمانيا ، وأخذ بيتان السلطة ، وانما يجب على الحزب ان يواصل عمله في مجتمع فاشي او مرصود للفاشية . وانت ، بلا رؤساء ، ولا أمر ولا اتصال ، ولا أخبار ، ستعود بدافع من مبادرة خاصة الى اتخاذ تلك القاعدة الفاسدة. لقد كنا نتحدث منذ لحظة عن روح « الجبهة الشعبية» : ولكن الجبهة الشعبية قد ماتت . ماتت ودفنت . لقد كان لها معنى عام ٣٨ ، في السياق التاريخي . اما اليوم ، فليس لها اي معنى. فاحترس يا برونيه ، انك ستعمل في الظلام .

وكان صوته قد أصبح خشناً ، فكسره فجأة واستطرد في رقة يقول :

– من أجل هذا ، كنت اسألك عما اذا كنت واثقاً من عملك .

فأخذ برونيه يضحك وقال :

– كفى ! إن هذا كله ليس مريعاً الى هذا الحد . فلنجمع الافراد ولنحاول ان نجابه الحوارنة والنازيين ؛ اما الباقي ، فسننظر في أمره : إن المهمات تنبثق من تلقاء نفسها .

فأقرّ شنايدر برأسه وقال :

– بكل تأكيد ، بكل تأكيد .

فنظر اليه برونيه في عينيه ، وقال :

– انت الذي تقلقني ، فاني اجدك متشائماً جداً .

قال شنايدر في غير ما اكتراث :

– اوه ! انا ؟ اذا اردت رأيي ، فاني أعتقد ان ما نفعله ليس له أية أهمية سياسية : إن الوضع مجرّد ، ونحن غير مسؤولين . ان الذين سيعودون منا ، فيما بعد ، سيجدون مجتمعاً منظماً ، باطاراته وتقاليده . في هذا الميدان ، على الأقل . لأننا من جهة اخرى اذا استطعنا ان نردّ للرفاق بعض الشجاعة ، واذا حلنا بينهم وبين اليأس

واذا اعطيناهم سبباً للحياة هنا ، ولو كان وهمياً ، فان ذلك يستحق جهد التجربة .

قال برونيه : — حسناً ، هذا ممتاز (واضاف بعد لحظة صمت) هيّا ، اريد ان اتنزه قليلا ، ما دام هذا اول خروج لي . فالى اللقاء .

فحيّاه شنايدر باصبعين ومضى . عقلٌ سلبي ، مثقف ، ما كان ينقصني الا ان أرتبك بــه . نموذج غريب : تارة ودّيّ حارّ ، واخرى بارد ، وقح تقريباً . فأين رأيته ؟ لماذا تراه يقول « الرفاق » وهو يتحدث عن أفراد الحزب ، ولا يقول « رفاقك » كما يُنتظر منه؟ يجب ان اتدبر الأمر لألقي نظرةً على دفتره العسكري . وفي الساحة المرحة بيوم الأحد ، كان الرجال يبدون بهيئة ايام النزهة ؛ وعلى جميع هذه الوجوه المغسولة ، المحلوقة ، كانت الغيبة نفسها مرسومة . كانوا ينتظرون ، وكان انتظارهم قد أقام فيما وراء السور مدينةً برمتها ذات حدائق ومواخير ومقاه . وفي وسط الساحة ، كان أحدهم يعزف على الارمونيكا : وازواج يرقصون ، وكانت المدينة الشبح ترفع سقوفها واوراقها فوق سور السجن ، وتنعكس على الوجوه العمياء التي يحملها هؤلاء الراقصون الأشباح . واستدار برونيه على عقبيه ، وعاد الى الساحة الاخرى . تغيير في الإطــار : لقد نقلت الكنيسة . كان الفتيان يلعبون لعبة الركض وهو يصرخون ، وكانوا يعدون كالمجانين. وارتقى برونيه الجرف الصغير خلف الاصطبل ، ونظر الى القبور ؛ فاستشعر الارتياح . وكانت زهورٌ قد القيت على الارض المنكوثة ، وزرعت ثلاثة صلبان صغيرة متجاورة . وجلس برونيه بين قبرين ، وكان الأموات تحته : وهــدّأه ذلك ؛ إن البراءة ستأتي يوماً ، بالنسبة اليه ايضاً . وأخرج من التّراب علبة سردين مفتوحة وصدئة ، ورماها أمامه . انه يوم أحدِ نزهة ومقبرة : كنت أتنزه على رابية ، وتحتي كان صبية يلعبون لعبةَ الركض في مدينة ، وكــانت أصواتهم

تصعد إليّ . اين كان ذلك ؟ إنه لا يعرف بعد ؛ ويفكر : « صحيح اننا سنعمل في الظلام » . فماذا إذن ؟ لا نفعل شيئاً ؟ وثارت قوته لهذه الفكرة . سأعود ، في نهاية الحرب ، وسأقول للرفاق : « هأنذا . لقد عشت . » وسيكون ذلك رائعاً ! هل أهرب ؟ ونظر الى الجدران ، ولم تكن مفرطة في الارتفـــاع : حسبي ان أبلغ نانسي ، فان اسرة « بولان » ستخبئني . ولكن كان ثمة هؤلاء الاموات الثلاثة ، تحته ، وهناك الصبية الذين يصرخون في هذا الأصيل الأبدي : وألصق باطن يديه على الأرض الرطبة ، وقرر انه لن يهرب . مرونة . تجميع الفتيان، والانتظار ، وردّ الثقة لهم والأمل ، وعلى كل حال حثّهم على فضح الهدنة ، ثم الاستعداد لتغيير التعليمات وفق الأحداث . وفكر برونيه : إن الحزب لن يتخلى عنا . إن الحزب « لا يستطيع » ان يتخلى عنا . ورقد بطوله ، كالاموات ، عـــلى الأموات ؛ ونظر الى السماء ، ثم نهض ، وهبط بخطى بطيئة ، وفكر بأنه وحيـــد . كان الموت حوله كأنه رائحة ، كنهاية يوم أحـــد ؛ وللمرة الاولى في حياته ، شعر بغموض أنه مذنب . مذنب بأن يكون وحيـــداً ، مذنب بان يفكر ويعيش . مذنب بالا يكون قد مات . لقـــد كان فيما وراء الجدران بيوت ميتة وسوداء بكل عيونها المفقودة : أبدية الحجر . وكان ضجيج هذا الجمع الرباني يصعد نحو السماء منذ الأزل . وبرونيه وحده ليس خالداً : ولكن الخلود منصبّ عليه كأنه نظرة . انه يمشي : وحين عاد ، كان المساء قد هبط ، لقد تنزه طوال النهار ، وكان لديه ثمة ما يقتله ، وهو لا يدري ان كان قد بلغ ذلك : إن من لا يفعل شيئاً، يعاني حالات نفسية ، هذا طبيعي . وكانت تنبعث من ممر العنبر رائحة غبار ، وكانت الاقفاص تطنّ ، إنه ذيل يوم الأحد يجرجر نفسه ، وعلى الأرض ، كانت ثمة سماء بكاملها متلألئة ، وفيها نجوم مذنّبة : كان الافراد يدخنون في الظلام . وتوقف برونيه ، وقال من غير ان

يوجه كلامه لأحد ، بصورة خاصة :

– تنبهوا حين تدخنون : حاولوا الا تحرقوا الكوخ الخشبي .

وكان الرجال يدمدمون تحت هذا الصوت الذي يهبط اليهم، من فوق، على الأكتاف . وصمت برونيه ، مبلبلا ؛ وأحس انه زائد . وقام ببضع خطوات اخرى : وانبثق كوكب أحمر فتدحرج باسترخاء عند قدميه ، فوضع عليه حذاءه ؛ وكان الليل رقيقاً أزرق ، وكانت النوافذ تبرز في الظلّ ، بنفسجية كالصور التي تبقى في العينين حين يكون صاحبهما قد نظر اطول مما ينبغي الى الشمس ، ولم يجد قفصه ، فصاح :

– هو ! شنايدر !

فقال صوت : – هنا ! هنا !

فعاد أدراجه ، وكان شخص يغني برقة ، لنفسه : «على الطريق، الطريق الكبيرة ، كان شاب يغني » . وفكر برونيه : « انهم يحبون المساء . » وقال شنايدر :

– من هنا ، تقدّم قليلا ، لقد وصلت .

ودخل ؛ فنظر الى الكوة ؛ اين هو المصباح ؟ كان الأشخاص من حوله يهمسون . انهم في الصباح يصيحون ، وفي المساء يهمسون ، لأنهم يحبون المساء ؛ فمع الليل ، يدخـــل « السلام » بخطى ذئبية الى العلبة الكبيرة المظلمة.. « السلام » والسنوات القديمة ؛ بل لكأنهم احبوا حياتهم . وقال مولو :

– اما انا ، فكأس من البيرة ، من غير ربطة عنق . في مثل هذه الساعة ، أكون في « الكادران بلو » وانا أشرب كأس بيرة ، فيما انظر الى المارة .

وسأل بلوندينه : – و « الكادران بلو » اين تراه يكون معلقاً ؟

– في الغوبلين ، عند زاوية جادة الغوبلين وبولفارسان مارسيل، اذا فهمت ما أقصد .

– آه ! لأن هناك دار سينما سان مارسيل ؟
– على بعد مئتي متر . وانا أسكن مقابل ثكنة « لورسين » . وقد كنت بعد العمل أعود الى بيتي لآكل لقمة ، ثم أهبط ثانية ، فأذهب الى « الكادران بلو » أو احياناً الى « كانون دي غوبلين » . غير ان في « الكادران بلو » فرقة موسيقية .
– الكلام بسرك ، في سينما سان مارسيل برامج ممتازة .
– صحيح . هناك « شارل تريني » ، وكانت من قابل ماري دوبا ، وقد رأيتها تخرج بلحمها وعظمها ، وكانت لها سيارة صغيرة جداً .
قال بلوندينه : – كنت انا أقصدها . وانا اسكن « فانف » ، وكنت اعود الى بيتي مشياً علي الأقدام ، حين يكون الليل جميلا .
– ولكنها ليست قريبة .
– صحيح . غير اني كنت شاباً .
قال لامبير : – اما انا ، فليست البيرة هي التي تنقصني ، وهي لم تؤذني قط ، وانما هو الخمر . كان بوسعي ان اشرب من الخمر لترين في اليوم . واحياناً ثلاثة . ولكن كان لا بد لي من ان أرشحها عرقاً . تصوّر لو كان لدينا خمر هذا المساء ، زجاجة صغيرة من صنع « ميدوك » .
قال مولو : – عجباً ! ثلاثة ليترات ؟
– أجل !
– اما انا ، فأحسّ الدوار اذا شربت اكثر من ليتر .
– ذلك انك تشرب الخمر الابيض .
قال مولو : – آه ، صحيح . الخمر الابيض . لا أعرف غيره .
– ينبغي ألا تمضي الى أبعد . خذ مثلا : ان امي العجوز في الخامسة والستين ، وانا أسكن معها . وبالرغم من سنها ، ما تزال

تكرع كيلو خمرها كل يوم . غير انه من الخمر الأحمر .

وصمت لحظة ، وحلم . وكان الآخرون يحلمون ايضاً ، ويصغون بهدوء الى هذه الاصوات التي تتحـدث باسم الجميع ، من غير ان يحاولوا مقاطعتها . وفكر برونيه في باريس ، وفي شارع مونمارتر ، وفي حانة صغيرة كان يقصدها ليشرب قدح خمر ابيض مصمغ اذ يخرج من « الاوما » ، وقال الرقيب :

– في يوم أحد كهذا ، أكون ذاهباً مع زوجتي الى حديقتي . إن لي حديقة على بعـد خمسة وعشرين كيلومتراً من باريس ، فيما بعـد « فيلنوف سان جورج » بقليل ، وهي تعطي خضاراً عظيمة .

فأقرّه صوتٌ ضخم من الجانب الآخر من القضبان :

– آه ! إن الأراضي هناك اراض خصبة كلها .

قال العريف : – إن هذه هي ساعة العودة الى البيت . او ربمـا قبل ذلك بقليل ، تماماً عندما تغرب الشمس ؛ وانا لا أحبّ ان اسير بسيارتي على ضوء مصباحها . وقد كانت زوجتي تعود بزهور عـلى مقودها ، وكنت انا أضع خضاراً على « حامل الامتعة » .

قال لامبير : – اما انا ، فلم اكن أخرج يوم الأحـد . فالزحام شديد في الشوارع ، ثم انني كنت أشتغل يوم الاثنين ، ولم يكن بيتي قريباً جداً من « غاردوليون » .

– وماذا تفعل في « غاردوليون ؟ »

– انني موظف في « الاستعلامات » ؛ المبنى الذي هو في الخارج. فاذا خطر لك يوماً ان تقوم برحلة صغيرة ، فليس لك الا ان تأتي لحجز الأماكن . حتى ولو جئت عشية رحلتك : فاني أدبر أمرك .

قال مولو : – انا لا استطيع ان ابقى في بيتي ، فان ذلك يورث عندي الكآبة . يجب ان اوضح اني أعيش وحدي .

قال لامبير : – وحتى السبت ، كان يحدث غالباً ألا أخرج .

– والصاحبات ؟

– والصاحبات ؟ كنت أُصعدهنّ الى البيت .

قال بلوندينه مشدوهـاً : – الى البيت ؟ وماذا كانت تقول في ذلك ، عجوزك ؟

– لم تكن تقول شيئاً . كانت تعدّ لنا الشورباء وتذهب الى السينما .

قال بلوندينه : – هكذا إذن . تستطيع ان تقول انها ماهرة ؛ فما قولك بامي التي كانت ترسل إلي الصفعات ، حتى بعد ان بلغت الثامنة عشرة ، حين كانت تلتقي بي مع فتاة ؟

– وتسكن معها ، انت ايضاً ؟

– الآن ، كلا : فقد فتحتُ الآن بيتاً .

وصمت لحظة ثم قال : – وهذا المساء ، لم نكن لنهبط ايضاً . بل كنا بقينا للمضاجعة .

وساد صمت طويـل ، وكـان برونيه يصغي اليهـما ، فيحس نفسه يومياً ، ويحس نفسه خالداً ، ويقول بشبه خجل :

– اما انا ، فقد كنت في مثل هذه الساعة في حانة بشارع مونمارتر ، وكنت أشرب مع الرفاق خمراً ابيض مصمغاً .

فلم يجب أحد ، وغنى رجل « كوخي الصغير » بصوت نحاسيّ . وسأل برونيه شنايدر :

– من هو هذا الفتى ؟

فقال شنايدر : – انه غاسّو ، محصّل في المالية . وهو من بلدة « نيم » .

وظلّ الرجل يغني ، وفكر برونيه : « ان شنايدر لم يقل مـاذا كان يفعل يوم الاحد . »

انتفاض نداء طويل رخيم ، ما تراه قد كان ؟ ابيض لوح زجاج الكوّة ؛ وعلى الارض الخشبية البيضاء ، كانت القضبان تعكس ظلالها ، الساعة الثالثــة صباحاً . وكانت الدوالي تتموّج تحت سلفتة القمر ، وكان نهر « الأوليبه » يداعب نفسه عند جزره الكثيفة العشب ، وعند جسر « فوفلورفيل » كان زارعو الكرمة ينتظرون قطار الساعة الثالثة وهم يخفقون نعالهم ؛ وسأل برونيه بجذل :

— ما تراه قد كان ؟

وانتفض لأن أحداً قد أجابه :

— هس ! هس ! استمع !

انني « لست » في سريري ، في « ماكون » ، وهذه « ليست » العطلة الكبري . ومن جديد ، النداء الطويل الأبيض ، ثلاث صفرات تتمدّد ، وتتمطّى ، وتنهار . لقد حدث شيء ما . كان العنبر يضجّ والحيوان الهائل يتحرّك علي الأرض الخشبية ؛ ومن اعماق الليل الذي لا عمر له ، صوت رقيب :

— قطار ! قطار ! قطار !

كان هذا إذن : القطار الاول . وبدأ شيء ما : إن الليل المجرد سيكثف ويحيا من جديد ، وسيعود الليل الى الغناء . وأخذ الجميع يتكلمون في وقت واحد : « القطـار » القطـار الاول ، لقد أصلحت السكّة؛ يجب الاعتراف بأنهم أتموا ذلك في سرعة كبيرة ، ان الالماني هو دائماً عامل بارع ، ولكن اسمع ، إن هذه مصلحتهم ، ويجب ان يصلحوا كل شيء ؛ في هذا القطار، سترى ، فرنسا ، سترى في هذا القطار ؛ اين هو متجه ؟ الى نانسي ، وربما الى باريس ؛ اوه ايها الأصحاب ، اوه ايها الأصحاب ! لو كان في داخله اسرى ، اسرى يعودون الى بيوتهم ، هل تتصورون ؟ »

كان القطار يسير في الخارج على خط مرتجل ، وكان بيت كبير مظلم كامناً برمته . وفكر برونيه : انه قطار ذخيرة ؛ وحاول ، بدافع

الاحتراس ، ان يرفض طفولته ؛ حاول ان يرى الشاحنات الصدئة ، وأغطية الوقاية ، وصحراء من الصلب والنحاس ؛ ولكنه لم يستطعَ : فقد كانت ثمة نساء نائمات تحت ضوء مصباح أزرق خافت ، في رائحة مع المقانق والخمر ، وكان ثمة رجل يدخن في الممرّ . وكان الليل الراقد على الزجاج يعكس له صوته ، غداً صباحاً ، باريس . وابتسم برونيه ، ثم عاد الى الرقاد ، ملتفاً بطفولته ، تحت ضوء القمر الهامس غداً باريس،ونَعس في القطار ، ورأسه مستند الى كتف عارية رقيقة ، واستيقظ في نور حريري ، باريس ! وأدار عينه نحو الشمال من غير ان يحرك رأسه: كان ثمة ستة وطاويط متشبثة بأرجلها بالجدران ،وأجنحتها منتشرة كأنها تنانير . واستيقظ تماماً : كانت الوطاويط هي الظلال السوداء لسترات معلقة على الجدار ، بالطبع لم ينزع مولو سترته : فاذا اجبرناه على نزعها حين ينام ، وعلى تغيير قميصه ، لأدّى ذلك الى إلصاق قملة بنا ، وتثاءب برونيه ، صباحٌ آخر ، ما تراها قد كانت ، هذه الليلة ؟ آه نعم ، القطـــار . وانتصب فجأة ، فنفض غطاءه وجلس . كان جسمه من خشب ، تشنجات متعرجة ، وفرحة مخشوشبة في ضلوعه الخدرة ، كما لو ان صلابة الارض الخشبية قد انتقلت الى لحمه ؛ وتمطّى وفكر : « اذا رجعت ؛ فلن أنـــام بعد في سرير أبـــداً . » وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ، في هيئة أليمة ؛ وكان الشيمي يبسم للملائكة؛ وكان غاسو مشعث الشعر ، أحمر العينين ، يكسر فتاتاً من الخبز عـــلى الغطاء ويأكله ، وكان بين الفينة والفينة يفتح فمه ويفرك بابهامه طرف لسانه لينزع عنه قذىً او شعرة صوف بقيت في كسرة ؛ وكان مولو يحكّ رأسه في تململ ، وكانت خطوط مفحمة ترسم تجعداته : كيف السبيل الى ايجاد وسيلة لقسره على الاغتسال ؛ وكان البلوندينه الأشقر يطوف بعينيه في هيئة كئيبة متلمسة ، ثم يشرق وجهه فجأة :

ـ بلا مزاح !

ويطفو وجهه وحده من الغطاء ، ويبـــدو مندهشاً مفتوناً ، فسأله مولو :

ـ ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

قال بلوندينه : ـ بـي اني متوتر !

فقال مولو غير مصدّق : ـ انك متوتّر؟ آه ، انني لا أصدّقك ، متوتر كالمنديل !

فألقى بلوندينه عنه غطاءه ، فاذا قميصه مشمّر عن ساقيه الشقراوين المشعرتين .

وقال مولو : ـ هذا لعمري صحيـح ! يا لك من محظوظ !

قال غاسو بلهجة متكلفة : ـ محظوظ ؟ بل انا اظنّ ذلك مصيبة!

قال بلوندينه : ـ ايها الحاسد الكبير ! انك تودّ كثيراً لو تحدث لك هذه المصيبة !

وهزّ مولو ذراع لامبير فصاح لامبير وانتفض :

ـ ماذا هناك ؟

قال مولو : ـ انظر !

وفرك لامبير عينيه وتطلع ، ثم اكتفى بالقول :

ـ خراء !

ونظر مرة أخرى : ـ هل أستطيع ان ألمسه ؟

قال بلوندينه : ـ سيُحدث لي ذلك ألماً كبيراً .

ـ انه احياناً فضيحة .

فردد بلوندينه مشمئزاً :

ـ فضيحة ! فضيحة ! حين كنت في الوضـــع المدني ، كنت انهض كل صباح بقضيب اكبر من هذا مرتين !

وكان راقداً على ظهره ، متشابك الذراعين ، مغمض العينين نصف

إغماضة ، وعلى شفتيه بسمة طفولية . وقال ، وهو ينظر مع بين أجفانه الى ذكره الذي كان يرتفع ويهبط على ايقاع تنفسه :

ــ كنت قد بدأت أقلق . ذلك ان لي امرأة ، انا !

فضحكوا . وصرف برونيه رأسه وقد صعـــد الغضب الى حلقه وقال مولو :

ــ اما انا ، فقد كنت أذهب الى الماخور . وقد يحدث ان يزول الأمر في الطريق ، فيكون ذلك عمل توفير .

وضحكوا ايضاً ، وأخذ البلوندينه يداعب ذكره بيد مهملة حنون ، وانتهى الى القول :

ــ الجنّة الأرضية .

والتفت برونيه فجأة نحو البلوندينه ، وقال له من بين أسنانه :

ــ خبّيء هذا !

فسأله المجعّد بصوت مدبّق بالشهوة :

ــ وممّ ؟

فقال غاسو وهو يقلد برونيه :

ــ خبّيء هذا النهد الذي لا استطيع ان اراه !

وقال برونيه بجفاف : ــ انتم جميعاً خنازير !

وأدار نحوه رؤوسهم ينظرون اليه ، وفكر برونيه :

ــ انهم لا يحبونني .

ودمدم غاسو ببضع كلمات مبهمة ، فانحنى عليه برونيه :

ــ ماذا تقول ؟

فلم يجب غاسو ، وقال مولو بلهجة مصالحة :

ــ ليس من الجريمة ان نتكلم بين فترة وفترة عن الحب . إن ذلك يغيّر الجو .

قال برونيه : ــ انما العاجزون هم الذين يتكلمون عن الحب . إن

الحبّ يُعمَل حين يستطيع المرء ذلك .

– وحين لا يستطيع المرء ذلك ؟

– يصمت .

فبدا عليهم الانزعاج والمداراة ؛ وعلى مضض ، رفع البلوندينه بهدوء غطاءه . وكان شنايدر ما يزال نائماً ؛ وانحنى برونيه على الشتيمي وهزّه ، فدمدم الشتيمي وفتح عينيه ، فقال برونيه :

– رياضة !

قال الشتيمي : – اويه !

ونهض فتناول سترته ، وهبطوا الى ساحة الاصطبلات . وامام أحد الأكواخ ، كان عامل المطبعة وداوروكير وثلاثة آخرون ينتظرونهم . وصاح بهم برونيه من بعيد :

– كيف الحال ؟

– انفجارات . هل سمعت القصف هذه الليلة ؟

فأجاب برونيه منزعجاً : – نعم ، لقد سمعته .

ولكن غيظه ما لبث ان سقط : ان هؤلاء شبان ، نظيفون ، ذوو حيوية ، وكان عامل المطبعة قد زرع قبعته الى جانب ، في شيء من التأنق . وبسم لهم برونيه . وكانت الضجة قائمة ، وكان الجمع في جوف الساحة ينتظر القدّاس ، ولاحظ برونيه في رضى انهم كانوا اقل عدداً من يوم الأحد الاول .

– هل قمت بما كلفتك به ؟

وفتح داوروكير باب الكوخ ، من غير ان يجيب : كان قد نثر القش على الأرض ، فشمّ برونيه رائحة اصطبل رطبة .

– من اين أخذته ؟

فابتسم داوروكير :

– لقد تدبرت الأمر .

قال برونيه : ـ حسناً .

ونظر اليهم في ودّ ودخلوا فنزعوا ثيابهم ولم يحتفظوا الا بسراويلهم وجراباتهم ؛ وأغرق برونيه قدميه في عذوبة القش المتكسرة ، وشعر بالرضى فقال :

ـ هيّا بنا .

فاصطفّ الرجال ، مولين الباب ظهورهم . وقام برونيه بالحركات تجاههم ، وهو يعدّ . فاحتذوا حذوه ، وأنفاسهم تزفر خلال أسنانهم . ونظر اليهم برونيه في سرور بينما كانوا يقرفصون عـلى أعقابهم ، وايديهم خلف رقابهم ، أشدّاء ذوي عضلات مستطيلة ، وكان داوروكير وبرونيه أقواهم ، ولكن كانت لهما عضلات مكوّرة ؛ اما عامل المطبعة فقد كان مفرط الهزال ؛ وتأمله برونيه في شيء من القلق ، ثم جاءته فكرة ، فانتصب وصاح :

ـ قفوا !

فبدا على عامل المطبعة انه سرّ لتوقفهم ، وكان يلهث . واقترب منه برونيه :

ـ إنك في الحقيقة شديد الهزال !

ـ منذ عشرين حزيران ، فقدت ستة كيلوغرامات .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ إن في مركز التمريض ميزاناً .

قال برونيه : ـ يجب ان تستعيد صحتك . انك لا تأكل طعاماً كافياً .

ـ كيف تريد ان ...

قال برونيه : ـ هناك وسيلة سهلة جداً ، فسوف يعطيك كل منا جزءاً من حصته ...

قال عامل المطبعة : ـ انني ...

ففرض عليه برونيه السكوت :

– انا الطبيب ، واني آمرك بزيادة الغذاء . موافقون ؟

قالها ملتفتاً نحو الآخرين ، فأجابوا :

– موافقون .

– حسناً ، ستمرّ اذن كل صباح بالغرف لتجمع نصيبك . في الوقت المحدد .

انحناء ، وادارة الجذع ؛ وبعد لحظة ، تهاوى العامل ، فقطّب برونيه حاجبيه :

– ماذا هناك ايضاً ؟

فابتسم العامل بسمة اعتذار :

– إن هذا قاسٍ بعض الشيء .

قال برونيه : – المهم الا تتوقف ، لا تتوقف .

وكانت الجذوع تدور كأنها عجلات ، وكانت الرؤوس تتحدّى السماء وترتمي بين السيقان ، ثم ترتفع من جديد . « كفى ! » واستلقوا على ظهورهم ليقوموا بالحركات المعَدية ، وستكون النهاية بالجسر الخلفي : وكان ذلك يسليهم لأنهم كانوا يظنون انفسهم مصارعين . وأحسّ برونيه عضلاته تعمل ، وكان ألمٌ طويل حادّ يشدّ أربيّته ، وكان سعيداً ؛ إنه اللحظة الوحيدة الطيبة من لحظات النهار ؛ وكانت أعمدة السقف السوداء تتدحرج الى خلف ، والقش يثب الى وجهه فيستنشق رائحته الصفراء ، وتلامسه يداه امام قدميه . وقال :

– هيا ! هيا !

قال جندي : – إنه يشدّ .

– هذا أفضل ! هيا ! هيا !

ونهض قائلا :

– انه دورك يا ماربو !

وكان ماربو يمتهن المصارعة قبل الحرب : وهو مدلّل في مهنته . وقد اقترب من داوروكير فتناوله من قامته . وضحك داوروكير ، وقد أحسّ الدغـدغة ، وتداعى للسقوط الى خلف ، على اليدين المقلوبتين . وجاء دور برونيه ، فأحسّ هاتين القبضتين بجنبيه ، وارتمى الى خلف ، فقال ماربو :

ـ لا ، لا ، لا تتشنّج . دع نفسك باسترخاء ، لا بقسر .

فضغط برونيه على فخذيه ، وصدر صوت قفقفه ، لقـد شاخ ، وأضحت عُقده صلبة ، وجهد حتى لمس الأرض بأطراف أصابعه ، ثم نهض ، مسروراً ، مع ذلك ، وكان يرشح ، فـأولاهم ظهره ووثب الى مكانه .

ـ قفوا !

والتفت فجأة ، فاذا العامل قد سقط مغشياً عليه . ووضعه ماربو بلطف على القش ، وقال بعتاب خفيف :

ـ ذلك أقسى من ان يحتمله .

فقال برونيه منزعجاً : ـ كلا . كل ما هناك انه لم يعتد عليه .

وكان العامل قد فتح عينيه ، فبدا ممتقعاً ، وكان يلهث بمشقة ، فسأله برونيه بودّ :

ـ وإذن ، ايها الحصان الصغير !

وابتسم له العامل في ثقة :

ـ لا بأس ، يا برونيه ، لا بأس . انني أعتذر ، فانا...

قال برونيه : ـ طيّب ، طيّب ، ستكون في حالة افضل اذا أكلت أكثر . هذا كل شيء لهـذا اليوم ، ايها الاصحاب . فإلى « الدوش » ثم الى الخطوة الرياضية .

فركضوا الى انبوب السقاية ؛ بسراويلهم ، وملابسهم تحت أذرعهم وألقوا بثيابهم على شراع خيمة، فجعلوا منها رزمة غير قابلة للاختراق،

ثم اغتسلوا تحت الرذاذ . وكان برونيه وعامل المطبعة يمسكان الانبوب ويوجهان الماء الى ماربو .

ورمى العامل بنظرة قلقة الى داوروكير ، وتنحنح وقال لبرونيه :

– نود ان نتحدث اليك .

فالتفت اليه برونيه من غير ان يترك الانبوب ، فاخفض العامل عينيه : كان برونيه مغتاظاً بعض الشيء : انه لا يحبّ ان يخيف الآخرين ، وقال بجفاف :

– بعد ظهر هذا اليوم ، عند الساعة الثالثة ، في الساحة .

وفرك ماربو جسمه بخرقةمن قميص كاكي ثم ارتدى ثيابه . وقال :

– هيه ! إن هناك جديداً ، ايها الاخوان !

كان رجل طويل شديد السمرة يخطب وسط فريق من الاسرى ، فقال ماربو ، مهتاجاً :

– انه شابوش ، السكرتير . انني ذاهب لأرى ما هناك .

ونظر اليه برونيه وهو يبتعد : إن الأبله لم يُتح له ان يلف طاقاته ، فهو يمسك واحدة في كل يد . وسأل عامل المطبعة :

– ما تظنّ أنّ هناك ؟

وكانت لهجته لهجة عدم اكتراث ، ولكن صوته لم يكن ليخدع : انه الصوت الذي يتخذونه جميعاً ، مئة مرة في اليوم ، صوت الأمل . وهزّ برونيه كتفيه :

– قد يكون نبأ الروس ينزلون في « بريم » او الانكليز يطلبون المدنة : وهذا لا يغير شيئاً .

ونظر الى عامل المطبعة بلا ودّ . وكان الفتى الصغير يموت رغبة في ان ينضمّ الى الآخرين ولكنه لا يجرؤ . ولم يكن برونيه راضياً عن حياته : فما ان أوليه ظهري ، حتى يمضي الى هناك ، فليتزرع امام شابوش ، جاحظ العينين ، متمدّد المنخرين ، مفتوح الاذنين على

سعتهما ، وكله ثقوب للاستماع . وقال برونيه :

– إغسلني .

ونزع سرواله ، وكان لحمه يبتهج تحت الدفق القابض ، كرات من رذاذ ، مليون كرة صغيرة من لحم ، قوة ؛ ودلك جسمه بيديه ، وعيناه محددتان في المتطلعين ؛ وكان ماربو قد انسلّ وسط الجمع ، ورفع أنفه المشمّر نحو الخطيب . يا آلهي ، ليتهم يستطيعون فقط ان يفقدوا الأمل ، ليت لديهم فقط « ما يعملونه » قبل الحرب ، كان العمل هو الذي يشكل لديهم حجر الزاوية ، ويقرّر الحقيقة ، وينظم علاقاتهم بالعالم . اما وأنهم لا يعملون شيئاً ، فهم يعتقدون ان كل شيء ممكن ، انهم يحلمون ، ولا يدرون بعد ما هو الصحيح . هؤلاء المتنزهون الثلاثة ، المتمهلون الليّنون الذين يتقدمون في تموجات طبيعية طويلة ، وعلى أسفل وجوههم بسمات نباتية ، أتراهم قد استيقظوا ؟ إن كلمةً تتدحرج خارج أفواههم بين الفينة والفينة ، كما في الحلم ، ولا يبدو انهم يلاحظون ذلك . بمَ تراهم يحلمون ؟ انهم يصنعون ، من الصباح حتى المساء ، كأنه سمٌ ذاتي ، الانباءَ المثيرة التي حرموا نفوسهم منها ؛ وهم يروون فيما بينهم كل يوم القصّة التي كفّوا عن القيام بها : قصة ملأى بالأحداث المسرحية وبالدم .

– يكفي .

فانخفض الدفق، تفجّر زبد بين الحصى ، وتنشّف ماربو ، وعاد ماربو نحوهما بادي النصر ، أعمّى ، فتهادى لحظة ثم قرر ان يتكلم . وقال بلهجة عدم اكتراث مصطنعة :

– سنشهد زيارات .

فاصطبغ وجه عامل المطبعة :

– ماذا ؟ « أية » زيارات ؟

– العائلات .

فقال برونيه في سخرية : — صحيح ؟ ومتى ذلك ؟
فنهض ماريو بخفة ونظر اليه في عينيه نظرة مثيرة :
— اليوم .
قال برونيه : — بكل تأكيد . وقد أوصي على عشرين الف سرير حتى يستطيع الاسرى ان يضاجعوا نساءهم .
فضحك داوروكير ، ولم يجرؤ العامل على ألاّ يضحك ، ولكن عينيه ظلّتا جائعتين . وابتسم ماربو في طمأنينة :
— لا ! لا ! فهذا رسمي . وشابوش هو الذي قاله .
فقال برونيه وهو يتضاحك : — آه ! اذا كان شابوش !
— وهو يقول ان ذلك سيُعلَّق هذا الصباح .
فقال داوروكير : — سيعلق على قفاي !
فابتسم له برونيه . وبدت على ماربو الدهشة :
— إن الأمر جدّ ، وقد قيل ذلك لغارتيزر ايضاً ، قاله له سائق سيارة شحن ألماني ، ويبدو انها قادمة من ابينال ونانسي .
— من هي القادمة ؟
— العائلات . لقد سارت أمس، على الدراجات، ومشياً على الاقدام وفي العربات ، وفي قطار البضائع ، ونامت على القش ، وفي دار البلدية ، وذهبت هذا الصباح تبتهل الى القائد الألماني (وأضاف) عجباً ! خذوا ! هذا هو الاعلان .
وكان ثمة شخص يلصق ورقة عـلى الباب ، واذا بالجمع يتدفق ويتموج حول السلّم ؛ واومأ ماربو الى الباب بحركة عريضة ، وسأل باهجة انتصار :
— ماذا ترون : هل على قفاك عُلّق الاعلان ؟ هل على قفاك ؟
فهزّ داوروكير كتفيه . وارتدى برونيه على مهل قميصه وبنطاله منزعجاً ان يكون قد أخطأ . وقال :

– الى اللقاء ايها الرفاق . أغلقوا الصنبور .

ومضى على مهل ينضمّ الى الجمع الذي كان يتزاحم عند الباب ؛ كان باقياً حظ واحد في ألا يكون ذلك الا وهماً كسائر الاوهام ؛ كان برونيه يحتقر السعادات التي لا يستحقهـــا المرء والتي تأتي بين الفينة والفينة لتملأ القلوب الجبانة ، كحساء لذيذ ، او زيارة اسرة ، إن ذلك يعقّد العمل . وقرأ من بعيد ، من فوق الرؤوس :

« إن قائد المعسكر يسمح للأسرى بان يتلقوا زيارات أسرهم (قرابة مباشرة) وستُعدُّ قاعة في الطابق الارضي لهذه الغاية . وستظل الزيارات مسموحاً بها حتى إشعار آخر ، يوم الاحد من الساعة الرابعة عشرة ، حتى السابعة عشرة. ولا يمكن في حال من الاحوال ان تتجاوز عشرين دقيقة . فاذا لم يبرر مسلك الاسرى هــذا التدبير الاستثنائي ، فإنه سيلغى .»

ورفع غودشو رأسه بصرخة سعيدة :

– يجب ان نرد لهم هذه العدالة ، فهم ليسوا حيوانات .

والى يسار برونيه ، أخذ « غالو » القصير يضحك ضحكة غريبة نائمة . فسأله برونيه :

– ما يضحكك ؟

قال غالو : – انه يأتي . يأتي قليلا قليلا .

– ما الذي يأتي ؟

فبـــدا غالو مرتبكـــاً ، وأتى حركة غامضة ، ثم كف عن الضحك وردد :

– انه يأتي .

وشق برونيه الجمع فدلف الى السلم : وحوله ، في ظـــل الطابق الأرضي ، كان الجمع ينغل ، كأن المكان بيت للأرَض ؛ واذ رفع رأسه ، رأى ايادي ممتقعة على الدربزين ، وخطـــاً لولبياً مرتعشاً من

الوجوه الزرقاء ، فدفع . ودُفع ، وارتفع بجسمه وهو يشد على القضبان ، فسحقوه على الدربزين الذي التوى ؛ وطوال النهار ، ظل الرجال يصعدون ويهبطون بلا أدنى سبب ؛ وفكر : « لا فائدة : فانهم ليسوا اشقياء بما فيه الكفاية » . لقد أصبحوا ملاكين وأصحاب ايرادات ، والثكنة غدت لهم ، وهم ينظمون بعثات الى السقف ، والى الأقبية ، وقد اكتشفوا كتباً في سقيفة . صحيح انه ليس من عقاقير في مركز التمريض ، وليس من أغذية في المطبخ ، ولكن هناك مركز تمريض ، وهناك مطبخ ، وهناك امانة سر ، وحتى حلاقون : فهم يحسون انهم رعايا . وقد كتبوا لعائلاتهم ، ومنذ يومين ، عاد زمن المدن يجري . وحين امرهم القائد الألماني بضبط ساعاتهم على الساعة الألمانية ، اسرعوا يطيعونه ، حتى اولئك الذين كانوا ، منذ شهر حزيران ، يحملون ، على سبيل الحداد ، ساعات ميتة في معاصمهم : فان تلك المدة المبهمة التي كانت تنمو كالعشب الطفيلي ، قد اتخذت صفة عسكرية ، فلقد أعاروهم وقتاً ألمانياً ، وقتاً صحيحاً من اوقات المنتصر ، وهو نفسه الذي يجري في دانتزيغ وفي برلين : وقت مقدس. ولم يكونوا أشقياء بما فيه الكفاية : فهم محاطون ، مقادون ، يقدّم لهم الغذاء والمأوى والإدارة ، وهم غير مسؤولين . وفي هذه الليلة ، كانت قصة هذا القطار ، وها أن العائلات ستأتي ، محملة الاذرع بالمعلبات والمؤاساة . كم سيكون من صياح ، ومن دموع ، ومن قبلات ! « لقد كانوا بحاجة شديدة الى هذا : فقد كانوا حتى الآن متواضعين على الأقل . اما الآن ، فسوف يحسّون أهميتهم . » ذلك ان زوجاتهم وأمهاتهم قد اتيح لهن الوقت الكافي لأن يخلقوا لأنفسهن الاسطورة البطولية الكبرى « للأسير » ، وهن آتيات لينقلن اليهم عدواها . وبلغ العنبر ، فحاذى الممر ، ودخل الى قفصه وهو ينظر الى رفاقه في غضب . انهم هناك ، مضطجعون على عادتهم ، لا يفعلون شيئاً ، يحلمون

بحياتهم ، مرتاحين مضلّلين . وكان لامبير يقرأ « الفتيات الصغيرات النماذج » وحاجباه مرتفعــان ، وهيئته عابسة مندهشة . وكانت نظرة واحدة كافية لادراك ان النبأ لم يبلغ العنبر بعــد . وتردد برونيه : أيخبرهم إياه ؟ انه يتمثل عيونهم الملتمعة ، وهياجهم الثرثار . « سيعرفونه في وقت مبكر بما فيه الكفاية . » وجلس في صمت . وكان شنايدر قد هبط ليغتسل ؛ ولم يكن الشتيمي قد صعد بعد ؛ وكان الآخرون ينظرون الى برونيه نظرة تململ . وسأل برونيه :

ـ ماذا هناك ايضاً ؟

فلم يجيبوا على التوّ ، ثم قال مولو وهو يخفض صوته :

ـ ان في القفص السادس قملا .

فانتفض برونيه وكز وجهه . وأحس انه ثائر الأعصاب ؛ فزادت ثورة أعصابه ، وقال في عنف :

ـ لا اريد قملا هنا .

وتوقف فجأة ، وعض على شفته السفلى ، وهو ينظر اليهم في عدم ثقة . فلم يتحرك أحــد : لقد بقيت الوجوه التي التفتت نحوه كابية مرتبكة بعض الشيء . وسأل غاسو :

ـ ما الذي سنفعله يا برونيه ؟

نعم ، نعم ، انتم لا تحبونني كثيراً ، ولكن حين تقع بنا مصيبة، فانما تسعون للبحث عني . وأجاب بلهجة ألطف :

ـ لم تريدوا ان تنتقلوا حين طلبت منكم .

ـ ننتقل الى أين ؟

ـ كانت هناك شقق حرّة ، وكنت قد طلبت اليك يا لامبير ان ترى اذا كان المطبـخ في الطابق الارضي حراً .

قال مولو : ـ المطبـخ ؟ شكراً لك ، ننام على البلاط فنصاب بالمغص ، فضلاً عن انه مليء بالحشرات .

ـ هذا أفضل من القمل . لامبير : انني أكلمك : هل ذهبت الى المطبـخ ؟

ـ نعم .

ـ ماذا وجدت ؟

ـ انه مشغول .

ـ طبعاً : كان ينبغي ان تذهب اليه منذ ثمانية أيام .

وأحس بخدّيه يحتقنان ، وارتفع صوته ، فصاح :

ـ لن يكون هنا قمل ! لن يكون قمل !

قال البلوندينه : ـ لا ! لا ! لا تغضب : فليس الذنب ذنبنا .

ولكن الرقيب صاح بدوره :

ـ انه على حق في ان يغضب ويزعق ! انه على حق! لقد شهدت انا حرب ١٤برمتّها ، فلم أر قملاً قط ، فلن ابدأ اليوم مثلكم بالقمل انتم الذين لا تعرفون حتى ان تغتسلوا !

وكان برونيه قد كظم غضبه ، فقال بصوت هادىء :

ـ يجب اتخاذ تدابير مباشرة .

وقهقه بلوندينه : ـ نحن ؟ نوافق تماماً ، ولكن أية تدابير !

قال برونيه : ـ اولا ، يجب عليكم « جميعاً » ان تغتسلوا كل صباح ؛ ثانياً ، يجب عليكم ان تتفلّوا كل مساء .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ تتعرّون تمامــاً ، فتأخذون ستراتكم وسراويلكم وقمصانكم فتنظرون ان كان في التشريجات صئبان . واذا كنتم ترتدون زنانير من الفلانيل ، فانها تفضّل ذلك المكان .

وتنهّد كاسو : ـ هذا مرح !

وتابع برونيه : ـ واذ تأوون الى النوم، تعلقون أمتعتكم بالمسامير، بما في ذلك القمصان : فسوف ننام عراة تحت الأغطية .

قال مولو : — خراء اذن ! لا بدّ ان أصاب بنزلة رئوية !

فالتفت اليه برونيه بحيوية : — أتى دورك يا مولو . انك عشّ قمل ، ولا يمكن لهذا ان يستمرّ .

قال مولو مختنقاً بالغيظ :

— ليس هذا صحيحاً ، وليس عندي قمل .

— ربما لم يكن عندك الآن قمل ، ولكن إن كان ثمة قملة على بعد عشرين كيلو متراً ، فأنا واثق من انها ستلتصق بك ثقتي من اننا قد خسرنا الحرب .

فقال مولو بلهجة ضيق : — ليس من مبرر . لماذا بي ، لا بك ؟ الحقيقة انه ليس من سبب لهذا .

فقال برونيه بصوت هادر : — بل هناك سبب على الاقـل ، هو انك قذر كالخنزير !

فرماه مولو بنظرة سامّة ، وفتح فمه ، ولكن جميع الآخرين أخذوا يضحكون ويصرخون :

— هو على حقّ ، انت منتن ، ورائحتك كرائحة الفتـاة الصغيرة التي تهمل نفسها ، انت وسخ ، انت قذر ، انك تقطع لي قابليتي ، فلا أستطيع ان أستمر في الطعام حين انظر اليك !

وانتصب مولو وهو يحدجهم ، وقال في اندهاش :

— انني اغتسل ، بل ربما كنت اغتسل اكثر منـكم ، ولكني لست كالبعض الذين يتعرون في وسط ساحة الشرف ، بقصد اجتذاب الأنظار .

فوضع برونيه إصبعه تحت أنفه :

— هل اغتسلت امس ؟

— طبعاً .

— اذن أرنا قدميك .

فوثب مولو في الهواء :

– هل أنت مجنون ؟
وردّ ساقيه تحته فجلس على عقبيه ، على الطريقة الترّكية :
– انني لا أُري قدميّ للناس غالباً .
فقال برونيه : – انزعوا حذاءه .
فارتمى لامبير وبلونديته على مولو ، فكتفاه وسمراه على الارض مقلوباً ، ودغدغ غاسو جنبيه ، فارتعش مولو ، وصرخ وزعق ، وضحك وتنهد :
– كفى ! كفى ! يا جماعة ! لا تكونوا حمقى ! انني لا أستطيع ان أتحمل الدغدغات .
قال الرقيب : – إذن الزم الهدوء .
فظل مولو فاغراً ، لا تزال الرعشات تهزه ؛ وكان لامبير قد جلس على صدره ، وفك الرقيب سير حذائه الأيمن ، وشد ، فانبثقت القدم ، وامتقع الرقيب ، فترك الحذاء ونهض فجأة ، وقال :
– يلعن دين !
قال برونيه : – نعم ، يلعن دين !
ونهض لامبير وبلونديته صامتين ، ونظرا الى مولو في اندهاش معجب . وعاد مولو الى الجلوس ، هادئاً وقوراً . وصاح صوت غاضب من القفص المجاور :
– هيه ! ماذا تعملون ، يا سكان الشقة ٤ ؟ إن رائحة الزبدة العفنة تنبعث من عندكم !
فقال لامبير ببساطة :
– ان مولو يخلع حذاءه .
ونظروا الى قدم مولو : كان الابهام الكبير اسود ، وكان خارجاً من الجراب المثقوب الاسود .
وسأل لامبير : – هل رأيت باطن القدم ؟ إنه ليس بعدُ جورباً ،

ولكنه دانتيل !

وكان غاسو يتنفس في منديله ، وكان البلوندينه يهز رأسه ويردد في لهجة احترام :

ـ آه ! يا للبقرة ! يا للبقرة !

قال برونيه : ـ هذا كاف . خبّيء قدمك !

فسارع مولو يُدخل قدمه في الحذاء . وتابع برونيه بجد :

ـ أنت يا مولو تشكل خطراً عاماً . وستتفضل على الفور فتذهب لأخــذ حمام سريع . فإذا لم تغتسل في مدة نصف ساعة ، فلن تـُعطى طعاماً ولن تنام هنا هذا المساء .

فنظر اليه مولو في حقــد ، ولكنه نهض من غير ان يحتج ، واكتفى بالقول :

ـ اذن ، انت الذي تأمر هنا ؟

فتحاشى برونيه الإجابة ؛ وخرج مولو ، فأخذ الآخرون يقهقهون، ولكن برونيه لم يضحك ؛ كان يفكر في القمل ، كان يفكر : « على كل حال ، لن يكون عندي « أنا » قمل » .

وسأل بلوندينه : ـ كم الساعة ؟ ان معدتي أصبحت في قدمي .

قال الرقيب : ـ الظهر .

ـ الظهر ، هي ساعة التوزيع . دور مَنْ بالسخرة اليوم ؟

ـ دور غاسو .

ـ إفرنقع اذن يا غاسو .

قال غاسو : ـ امامنا متسع من الوقت .

ـ اقول لك افرنقع ، حين تكون في السخرة ، فان دورنا يأتي دائماً في الأخير !

فقال غاسو وهو يضع قبعته بغضب :

ـ كفى ! كفى !

وخرج . وعاد لامبير الى القراءة . وأحس برونيه تأكلات عصبية تسري بين راسايه ؛ وحك لامبير فخذه وهو يقرأ ، وكان بلوندينه ينظر اليه :

– هل لديك قمل ؟

قال لامبير : – كلا ، ولكن ذلك منذ جرى الحديث عنه .

قال بلوندينه : – عجباً ! وانا ايضاً .

وحكّ عنقه :

– برونيه ، الا تشعر بالحكاك ؟

قال برونيه : – كلا .

وصمتوا ، وكان البلوندينه يحكّ رقبته المتشنجة ، وكان لامبير يقرأ وهو يحكّ ؛ وادخل برونيه يديه في جيبه من غير ان يحك . وظهر غاسو ثانية على العتبة ، بادي الغضب :

– هل تستهزئون بي ؟

– اين الخبز ؟

– الخبز ؟ ليس ثمة أحد تحت ، حتى المطابخ لم تفتح بعد .

فرفع لامبير وجهاً مذعوراً :

– هل يعني هذا ان الوضع سيعود كما كان في حزيران ؟

كانت نفوسهم المتنبئة الكسول مستعدة دائماً لتصديق الأسوأ او الأحسن . والتفت برونيه نحو الرقيب :

– كم الساعة معك ؟

– الثانية عشرة وعشر دقائق .

– أأنت واثق من أن ساعتك تمشي ؟

فابتسم الرقيب ونظر الى ساعته في رضى ، وقال ببساطة :

– انها ساعة سويسرية .

وصاح برونيه بافراد الشقه المجاورة :

– كم الساعة معكم ؟
فأجاب صوت :
– الحادية عشرة وعشر دقائق .
فقال الرقيب بلهجة انتصار :
– ماذا قلت لكم ؟
فقال غاسو في حقد :
– قلت لنا ، الثانية عشرة وعشر دقائق ، ايها الأبله !
– صحيح : الثانية عشرة وعشر دقائق في فرنسا ، والحادية عشرة وعشر دقائق في ألمانيا .
فقال غاسو وهو يغلي من الغضب :
– ممحون !
وتخطى جسم لامبر وتداعى للسقوط على الغطاء . وتابع الرقيب بهدوء :
– اني لن اتخلى عن الساعة الفرنسية في الوقت الذي تغرق فيه فرنسا في الحراء !
– ليس هناك بعد من ساعة فرنسية ، ايها الساذج ! فان الالمان قد فرضوا ساعتهم من مارسيليا الى ستراسبورغ .
فقال الرقيب ، مطمئناً مصراً :
– ربما كان هذا . ولكن لم يخلق بعد من يستطيع ان يغير « ساعتي » .
والتفت الى برونيه وأضاف موضحاً :
– حين يلوذ الالمان بالفرار ، ستكونون مسرورين جداً بان تجدوا ساعتكم .
وصاح لامبر : – هيه ! انظروا الى لامبر كشخصية محترمة !
ودخل لامبر ، متورداً نضراً : وعليه هيئة يوم الأحد . فأخذ الافراد يضحكون :

ـ كيف وجدته يا مولو ، هل هو لذيذ ؟
ـ ما هو ؟
ـ الماء .
فقال مولو بشرود : ـ نعم ؛ نعم ، لذيذ جداً .
فقال برونيه : ـ ممتاز ! بعد اليوم ، سترينا قدميك كل صباح .
فلم يبد على مولو انه سمع ، ورسم بسمة خفيه ذات أهمية :
ـ إن هناك اخباراً ، يا جماعة ، فاستعدّوا .
ـ ماذا ، ماذا ؟ اخبار ؟ اية أخبار ؟
والتمعت الوجوه واحمرّت وتفتّحت ، وقال مولو :
ـ سوف نتلقى زيارات !

ونهض برونيه بلا ضجة ، وخرج ، وكانت الاصوات تصرخ خلف ظهره ، وحث خطاه دالفاً الى غابة السلم الصاعـــدة ، وكانت الساحة غاصة ، وكان الافراد يدورون بهدوء في الرذاذ ، الواحد تلو الآخر ؛ وكانوا ينظرون جميعاً الى داخل الدائرة التي يرسمون ؛ وكانت جميع النوافذ ملأى برؤوس تنظر : لقد حدث شيء ما . ودخل برونيه في الصف ، فأخذ يدور هو ايضاً ، ولكن بلا فضول : في هذا المكان نفسه ، يحدث كل يوم شيء ما ، افراد يتسمرون ويبدون على انتظار ، بينما يدور الآخرون حولهم وهم ينظرون اليهم . ويدور برونيه ، ويبسم له الرقيب اندريه :

ـ هذا برونيه ، انا اراهن انه يبحث عن شنايدر .
فسأله برونيه بحيوية : ـ وهل رأيته ؟
فقال اندريه مقهقهاً : ـ نعم وهو ايضاً يبحث عنك .
والتفت نحو الآخرين وقهقه :
ـ إن هذين الاثنين قفا وقميص ، دائماً معاً ، أو احدهما يبحث عن الآخر .

وابتسم برونيه : قفا وقميص ، ولِمَ لا ؟ إنه يتحمّل صداقته مع شنايدر لأنها لا تأخـذ من وقته : انها تشبه علاقة القارب ، فهي لا تلزم بشيء ؛ فاذا عادا يوماً من الأسر ، فلن يتقابلا بعد ابداً. صداقة بلا متطلبات ، بلا حق ، بلا مسؤولية : كل ما هنالك بعض حرارة في جوف المعدة . انه يدور ، واندريه يدور بالقرب منه ، في صمت . وفي وسط هذه الدوامة البطيئة ؛ كان ثمة منطقة من الهدوء المطلق : رجال في ستراتهم ، جالسون على الأرض أو على قربهم .

ومر كلابو فأوقفه اندريه :

– ما هؤلاء الفتيان ؟

فقال كلابو : – معاقَبون .

– ماذا ؟

فتخلص منه كلابو بنفاد صبر وقال :

– قلت لك معاقبون .

وعادوا يدورون من غير ان يغادروا بعيونهم هؤلاء الرجال الجامدين البكم . ودمدم اندريه :

– معاقبون ! انها المرة الاولى التي ارى فيها معاقبين . َعلامَ هم معاقبون ؟ ماذا اقترفوا ؟

وأشرق وجه برونيه : كان شنايدر هناك ، ملقى على حافة الدوامة ، يتفحص فريق المعاقبين الصغير وهو يفرك أنفه . وكان برونيه يحبّ طريقة شنايدر في احناء رأسه الى جانب ؛ وفكر في سرور : « سوف نتحدث » . كان شنايدر ذكياً جداً ، اذكى من برونيه . صحيح ان الذكاء ليس هاماً الى حد بعيد ، ولكنه يجعل العلاقات لذيذة . ووضع يده على كتف شنايدر وبسم له ؛ فردّ له شنايدر بسمة غير مرحة . وكان برونيه يتساءل احياناً اذا كان يروق لشنايدر ان يلقاه : صحيح انهما لا يكادان يفترقان ، ولكن اذا كان شنايدر يكنّ

وداً لبرونيه ، فانه لا يكشف عنه غالبـاً . وكان برونيه في الحقيقة يحمد له ذلك : فهو يستفظع المظاهرات . وسأل اندريه :

ــ واذن ، لقد وجدته ، صديقك شنايدر ؟

فضحك برونيه ، ولم يضحك شنايدر . وسأل اندريه شنايدر :

ــ قل لي ! لماذا هم معاقبون ؟

ــ من ؟

ــ هؤلاء الأشخاص ؟

قال شنايدر ــ انهم ليسوا معاقبين . وانمـا هم الألزاسيون . الا ترى غارتيزر ، في الصف الاول ؟

قال أندريه : ــ آه ! هكذا اذن !

وبدا عليه السرور ، وظلّ لحظة بالقرب منهم ، ويداه في جيبه ، مكتفياً ، عارفاً ، ثم اضطرب فجأة :

ــ ولماذا هم هنا ؟

فهزّ شنايدر كتفيه : ــ إذهب فاسألهم !

وتردد اندريه ثم اقترب منهم بخطى بطيئة وهو يتظاهر باللامبالاة . وكان الألزاسيرن جامدين قلقين ، جالسين باستقامة ، في اللاطمأنينة ، وستّراتهم حولهم كالتنانير ، وعليهم مظهر المهاجرين على ظهر سفينة . وكان غارتيزر جالساً ويداه على فخذيه ، وعيناه الكبيرتان الدجاجيتان تتدحرجان في وجهه العريض . وقال اندريه :

ــ ماذا ايها الاخوة ، هل هناك من جديد ؟

فلم يجيبوا : وتأرجح وجه اندريه المتردّد فوق رؤوسهم المطرقة .

ــ هل من جديد ؟

لا جواب .

ــ كنت أحسب ان هناك جديداً لرؤيتي اياكم جالسين في دائرة . هيه ، غارتيزر ؟

وعزم غارتيزر على رفع رأسه ، فنظر الى اندريه في ازدراء .

ـ كيف حدث انكم تجمّعتم ، انتم الالزاسيين ؟

ـ لقد أمرونا بذلك .

ـ ولكن السترات والأمتعة ، هل قالوا لكم ان تأخذوها ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا ؟

- لا ادري .

فاصطبغ وجه اندريه من الهياج :

ـ على كل حال ، لا بدّ ان لديكم فكرة ما ؟

فلم يجب غارتيزر ؛ وكانوا خلفه يتحدثون الالزاسية بنفاد صبر . وتصلب اندريه ، مجروحاً فقال :

ـ حسناً . في هذا الشتاء ، كنتم اقلّ افتخاراً ، فلم تكونوا تتحدثون بها ، لهجتكم الاقليمية ، اما وقد هُزمنا الآن ، فانكم لا تعرفون بعد ان تتحدثوا الفرنسية .

ولم يكلفوا نفسهم حتى رفع رؤوسهم ؛ إن اللغة الالزاسية هي هذا الحفيف المتصل الطبيعي لاوراق الشجر تحت الريح . وقهقه اندريه ونظره محدق في هذا المسرح من الرؤوس :

ـ ذلك انه ليس من الطريف ان يكون المرء فرنسياً ، في هذا اليوم ، أليس كذلك ايها الاخوة ؟

فقال له غارتيزر بحيوية :

ـ لا تحمل همّنا ، فلن نبقى طويلاً فرنسيين .

فتردد اندريه ، وقطّب حاجبيه ، وبحث عن الرد الصافع ، فلم يجده . واستدار عائداً نحو برونيه :

ـ وهكذا !

وارتفعت خلف ظهر برونيه أصوات مغتاظة :

ـ ما حاجتك الى ان تحدّثهم ! ليس لك الا ان تتركهم وشأنهم . إنهم ألمان .

ونظر اليهم برونيه ؛ وجوه شرسة ممتقعة ، لبن فاسد : الحسد . حسد البورجوازيين الصغار تجار الحيّ الصغار ، لقد حسدوا الموظفين ثم المكلفين الخصوصيين والآن يحسدون الالزاسيين . وابتسم برونيه : ونظر الى هذه العيون الملتهبة بالحسد ، انهم منزعجون ان يكونوا فرنسيين : فهذا أفضل من الاستسلام السلبي ؛ وحتى الحسد ، لا بدّ انه يشغل نفسه .

ـ هل تراهم قد أعاروك انت شيئاً ، او ساعدوك ؟

ـ هل انت مجنون ؟ لقد رأيت من كان معه طعام ، في الايام الاولى ، وكانوا يأكلون تحت انفك ، وكأنهم على استعداد ليدَعوك تموت جوعاً وانت فاغر الفم .

وسمع الالزاسيون ، فأداروا نحو الفرنسيين وجوههم الحمراء والشقراء ، لعلّ التضارب سوف يقع . صرخة بحّاء : وقفز الفرنسيون قفزة الى الوراء ، فوثب الالزاسيون على أقدامهم ووقفوا وقفة الاستعداد : وعلى درجات السلم برز ضابط ألماني ، طويل ضعيف البنية ، ذو عينين كهفيتين في وجه ملطّخ . وتكلم ، فأصغى الالزاسيون ، ومدّ غارتيزر عنقه وهو محمرّ الوجه . واصغى الفرنسيون كذلك ، من غير ان يفهموا ، في اهتمام مليء بالاعتبار . وهدأ غضبهم : فقد كانوا يشعرون انهم يشاهدون حفلة رسمية . والحفلة دائماً تثير الرضى . وكان الضابط يتكلم ؛ والزمن يجري ، صلباً ومقدساً ، وكانت تلك اللغة الغريبة أشبه بلاتينية القدّاس ؛ ولم يكن ثمة بعد من يجرؤ على حسد الالزاسيين : فهم قد تلبّسوا وقار كورس . وهزّ اندريه رأسه ، وقال :

ـ ان غمغمتهم ، كلغة ، ليست رديئة .

فلم يجب برونيه : ان هذه علامات ، فهم لا يستطيعون ان يمسكوا

غضبهم اكثر من خمس دقائق . وسأل شنايدر :
– ماذا يقول ؟
– يقول لهم انه قد أطلق سراحهم .
وكان صوت الضابط يخرج من سحنته السوداء بهزّات متحمّسة ؛ كان يصرخ ، ولكن عينيه لا تلتمعان .
– ماذا يقول ؟
وترجم شنايدر بصوت منخفض :
– ان الالزاس ستعود ، بفضل الفوهرر ، الى صدر الوطن الأم .
والتفت برونيه الى الالزاسيين ،فاذا وجوههم بطيئة التعبير ، كأنها متخلفة ابداً عن عواطفهم . ومع ذلك ، فقد احمرّ وجه اثنين أو ثلاثة منهم . وتسلى برونيه . وارتفع الصوت الألماني وتسارع ، فقفز من سطح الى سطح ، ورفع الضابط قبضته فوق رأسه ، ووقّع بمرفقيه صوته المجيد، فاذا الجميع منفعلون ، كما يحدث إذ يمرّ العلم ، أو الموسيقى العسكرية؛ وانفتحت القبضتان ، ووثبتا في الهواء ، وارتعش الافراد حين هدر الضابط : « هايل هتلر ! » وبدا على الالزاسيين انهم متحجرون ؛ والتفت غارتيزر نحوهم ، فصعقهم بنظره ، ثم واجه القائد ، وقذف ذراعيه الى أمام ، وصاح : « هايل ! »
وسقط صمت غير ملحوظ ، ثم ارتفعت الأذرع ؛ وقبض برونيه بالرغم منه على معصم شنايدر وشدّه بقوة . وانطلقت الهتافات . وكان هناك من يهتف « هايل » في نوع من الاندفاع ، وآخرون يكتفون بفتح افواههم دون ان يطلقوا صوتاً ، كالأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم يرتّلون في الكنيسة . وكان في الصف الأخير رجل شديد البأس، مطرق الرأس ، ويداه في جيبه ، يبدو وكأنه يتألم . وانخفضت الأذرع ، فترك برونيه معصم شنايدر ؛ وكان الفرنسيون صامتين ، وعاد الالزاسيون يقفون وقفة الاستعداد ، وكانت لهم وجوه مرمرية بيضاء ، وكانوا

عمياناً وصماً تحت لهب شعرهم الذهبي . وألقى القائـــد امراً ، فاهتزّ العمود ، وابتعـــد الفرنسيون ، ومشى الالزاسيون بين صفّين من الفضوليين . والتفت برونيه ، فنظر الى وجوه رفاقه اللاهثة . وكان يودّ ان يقرأ فيها الغضب والحقد ، فلم يَرَ فيها الا رغبة عذبة ترف . وكان الحاجز البعيد قد انفتح ؛ وكان القائد الألماني واقفاً على الدرج ينظر ببسمة طيبة الى العمود الذي يبتعد . وقال اندريه :

— مهما يكن ! مهما يكن !

وقال صاحب لحية : — خراء اذن ! حين افكّر بأني وُلدت في « ليموج » ...

وهزّ اندريه رأسه ، وردّد :

— مهما يكن !

وسأله « شاربان » الطبّاخ :

— ما الذي لا يعجبك ؟

فقال اندريه : — مهما يكن !

وكان يبدو على الطباخ المرح والحيوية . وسأل :

— قل لي ، ايها الرأس الصغير ، اذا كان يكفي ان تصرخ « هايل هتلر » حتى يعيدوك الى بيتك ، الا تصرخ ؟ ان هـــذا لا يُلزم في شيء . انت تصرخ ، ولكنك لا تقول ما تفكر به .

قال اندريه : — اوه ! انا ، بكل تأكيد ، أصرخ بما يريدون ، ولكنهم هم الآخرين ليسوا كذلك : انهم الزاسيون ؛ وان لهم واجبات تجاه فرنسا .

واومأ برونيه الى شنايدر ، فتسللا والتجأ الى الساحة الاخرى الخالية . واستند برونيه الى الجدار ، تحت القسم المسقوف من الساحة ، تجـــاه الاصطبلات ؛ وكان ثمة ، غير بعيد عنهم ، جندي جالسٌ عـــلى الارض ، ذو رأس مدبب ، وشعر نادر ، وكان يحيط ركبتيه بذراعيه.

ولكنه لم يكن ليضايق ، وكان في هيئة معتوه القرية . ونظر برونيه الى قدميه وقال :

ــ هل رأيت الاشتراكيين الالزاسيين ؟

ــ اي اشتراكيين ؟

ــ لقد اكتشفنا اشتراكيين في الالزاسيين . وقد اتصل بهما داوروكير في الاسبوع الماضي ، وكانا يريدان ان يلتهما كل شيء .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ لقد رفعا ذراعيهما مع الآخرين .

فلم يجب شنايدر بشيء : وحدد نظره في معتوه القرية ، فألفاه شاباً ذا أنف معقوف منقوش ، انف ثري . وكان الشرود المطمئن قد أقام على وجهه ، وجه النخبة ، الذي كيفته ثلاثون سنة من الحياة البورجوازية ، مع تجعدات دقيقة وشفافيات وجميع انحناءات الذكاء ، ورفع برونيه كتفيه :

ــ انها دائماً القصة نفسها : تلمس شخصاً ذات يوم ، فتجده موافقاً ، فاذا كان اليوم التالي ، لم تجد احداً ، اذ يكون قد غيَّر رأيه ، او يتظاهر بأنه لا يعرفك .

وأومأ باصبعه الي المعتوه :

ــ كنت معتاداً ان أعمل مع الرجال ، ولكن لا مع هذا .

وابتسم شنايدر :

ــ « هذا » كان مهندساً من عند تومبسون . ما يسمى بفتى المستقبل .

قال برونيه : ــ واذن ، فان مستقبله الآن قد أصبح خلفه .

وسأل شنايدر : ــ كم نحن في الواقع ؟

ــ قلت لك اني لا استطيع ان اعرف ذلك ؛ فالوضع فضفاض . على كل حال ، افرض اننا زهاء مئة .

ــ مئة على ثلاثين الفاً ؟

— نعم . مئة على ثلاثين الفاً .

وكان شنايدر قد طرح السؤال بلهجة محايدة ، ولم يقم بأيّ تعليق : ومع ذلك ، فلم يجرؤ برونيه على النظر اليه ، وتابع برونيه :

— هناك شيء لا يجري على ما يُرام . فاذا حسبنا على أسس ٣٦ ، فقد كان بوسعنا ان نجمع ثلث الأسرى .

قال شنايدر : — لسنا بعد في عام ٣٦ .

فقال برونيه : — أعرف ذلك .

ولمس شنايدر منخره بطرف سبابته :

— الواقع اننا نختار المحتجين المعترضين خصوصاً . وهذا يفسر عدم ثبات زبائننا . ان المحتج المعترض ليس هو بالضرورة المستاء ؛ على العكس ، فهو مسرور بان يحتج ويعترض . فاذا عرضت عليه ان يستخرج النتائج مما يقول ، زعم انه موافق طبعاً ، حتى لا يبدو عليه انه يفقد اعتزازه ، ولكن ما ان توليه ظهرك ، حتى يتحول الى تيار هوائي : ولقد قمت بهذه التجربة عشر مرات .

قال برونيه : — وأنا ايضاً .

وقال شنايدر : — ينبغي ان نستطيع اختيار المستائين الحقيقيين ، جميع الافراد اليساريين الشجعان الذين كانوا يقرأون « ماريان » و « فاندرودي » والذين يؤمنون بالديمقراطية والتقدم .

قال برونيه : — نعم ! صحيح .

وكان ينظر الى الصلبان الخشبية في قمة الجرف والعشب الملتمع بالرذاذ ، وأضاف :

— ألتقي بين الفترة والفترة بفتى وحيد يجر حذاءه بهيئة ناقه كبير ، فأقول في نفسي : هذا أحدهم . ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟ فما ان تقترب حتى يأخذهم الخوف ، فكأنهم يحذرون من كل شيء .

قال شنايدر : — ليس هذا كل شيء . انني اميل الى الاعتقاد

بأنهم أشخاص يشعرون بالعار . فهم يعرفون انهم مهزومو الحرب الكبار وانهم لن ينهضوا ابداً من هذه العثرة .

فقال برونيه : – انهم في الحقيقة لا يحرصون على استئناف الصراع : انهم يفضلون اقناع أنفسهم بأن هزيمتهم لا علاج لها ؛ وهـــذا أيسر وأشدّ اغراء .

قال برونيه بين أسنانه ، بلهجة غريبة :

– صحيح . إن هذا يُعزّي .

– ماذا ؟

– ان مما يُعزي دائماً ان تستطيع التفكير بان سقوطك هو سقوط الجنس كله .

فقال برونيه في اشمئزاز : – منتحرون !

قال شنايدر : – اذا شئت .

وأضاف برقة : – ولكنك تعرف ان فرنسا ، هي هم ؛ فاذا لم تدركهم ، فان ما تفعله لا يجدي .

وأدار برونيه رأسه ونظر الى المعتوه ، فانسحر بهذا الوجه القاحل ؛ وتثاءب المعتوه بشهوة وبكى ، وتثاءب كلب ، تثاءبت فرنسا ، تثاءب برونيه : وكف عن التثاؤب ، وسأل ، من غير ان يرفع عينيه ، بصوت منخفض وسريع :

– هل ينبغي ان نستمر ؟

– بمَ نستمر ؟

– بالعمل .

وضحك شنايدر ضحكة جافة لا تروق :

– تسألني انا في هذا ؟

فرفع برونيه رأسه بحيوية ، ففاجأ على شفتي شنايدر الغليظتين بسمة سادية مؤلمة توشك ان تمحّي . وسأل شنايدر :

– ما عساك تفعل ان تخليت عن العمل ؟

واختفت البسمة ، وعاد الوجه فأصبح أملس ثقيلاً ، هادئاً ، بحراً ميتاً ، لن أفهم شيئاً من هذا الوجه .

– ما أفعله : أنسحب ، وأذهب فأنضمّ الى الرفاق في باريس .

– في باريس ؟

وحكّ شنايدر رأسه ، فسأله برونيه بحيوية :

– اتحسب ان الامر مشابه هناك ؟

وفكر شنايدر :

– اذا كان الالمان مؤدبين ..

قال برونيه : – اما هذا ، فهم لا بدّ مؤدبون ! يمكن ان تتأكد من انهم يساعدون العميان على عبور الشوارع .

قال شنايدر : – اذا كان الامر كذلك ، فلا بدّ انه مشابه .

واستقام فجأة ونظر الى برونيه في فضول لا ألم فيه :

– ماذا تؤمّل ؟

فتصلّب برونيه : – انني لا أؤمل شيئاً : ولم أؤمل قط شيئاً ، وانا لا أهتمّ بالامل : وانما انا « اعرف » .

– اذن ، ما الذي تعرفه ؟

– أعرف ان الاتحاد السوفياتي سيدخل حلبة الرقص ، عاجلاً ام آجلاً . اعرف انه ينتظر ساعته ، واريد ان يكون رفاقنا مستعدين .

قال شنايدر : – لقد انقضت ساعته . إذ انكلترا ستكون هالكة قبل الخريف ،فاذا كان الاتحاد السوفياتي لم يتدخّل اذ كان ثمة امل بخلق جبهتين ، فلماذا تريده ان يتدخل الآن ، ليكون وحده في القتال !

قال برونيه : – إن الاتحاد السوفياتي هو بلد العمال . ولن يسمح العمّال الروس بان تبقى البروليتاريا الاوروبية تحت الحذاء النازي .

– لماذا سمحوا إذن بان يوقع مولوتوف الميثاق الجرماني السوفياتي ؟

– في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل ، ان الاتحـاد السوفياتي لم يكن مستعداً .

– وما هو دليلك على أنه الآن اكثر استعداداً ؟

فأطبق برونيه باطن كفه على الجدار في غيظ وقال :

– لسنا في مقهى « التجـارة » ، ولن اناقش ذلك معك : انني مناضل ، ولم يسبق لي قط أن أضعت وقتي في افتراضات سياسية : كان لي عملي ، وكنت اقوم به . اما ما دون ذلك ، فكنت ألجأ فيه الى اللجنة المركزية والى الاتحاد السوفياتي ؛ ولن اغير اليوم مسلكي .

فقال شنايدر بحزن:– هذا هو تماماً ما كنت أقوله،إنك تعيش بالأمل

فاغتاظ برونيه من هذه اللهجة الجنائزية : وخيّل اليه ان شنايدر يتكلّف الحزن . فقال من غير ان يرفع صوته :

– اسمع يا شنايدر : ليس من المستحيل ان يكون المكتب السياسي قد سقط برمّته في الجنون ، ولكن على هذا الاساس ، ليس من المستحيل كذلك ان يسقط سقف هذه الساحة على رأسك.غير انك لا تقضي حياتك في مراقبة السقف .وبعد هذا تستطيع ان تقول لي، اذا خطر لك،انك تؤمل في الرب ، او انك تثق بالمهندس المعمار ، فهذه كلمات : فانت تعلم جيداً ان هناك قوانين طبيعية ، وان البنايات قد اعتادت ان تظل قائمة حين تكون قد بنيت وفقاً لهذه القوانين . وإذن ؟ لماذا تريـدني ان أقضي وقتي متسائلا عن سياسة الاتحاد السوفياتي ، ولمـاذا تحدثني عن ثقتي بستالين ؟ انني أثق به ، أجل ، وبمولوتوف وجدانوف : بمقدار ما تثق بصلابة هذه الجدران . وبعبارة أخرى ، أعرف ان هناك قوانين تاريخية ، وان بلد العمال والبروليتاريا الاوروبية ، بفضل هـذه القوانين، ذات مصالح واحدة. والحق اني لا افكر بذلك غالباً، كما انك لا تفكر اكثر من ذلك بأسس بيتك : انها الارض تحت قدمي ، والسقف فوق رأسي ، وذلك يقين يحملني ويحميني ويتيح لي ان اتابع الأهداف

المحسوسة التي يرسمها لي «الحزب». انك حين تمد يدك لتأخذ منظارك ، فان حركتك وحدها تسلم بالحتمية العالمية ، وكذلك ، انا : ان ادنى فعلٍ من أفعالي يؤكّد صراحة ان الاتحاد السوفياتي هو طليعة الثورة العالمية.

ونظر الى شنايدر في سخرية ، وانتهى الى القول :

ـ ماذا تريد ؟ انني لست الا مناضلا .

ولم يتخلَّ شنايدر عن هيئة الحزن ؛ كانت ذراعاه متدليتين، وعيناه كابيتين . فكأنه كان يريد ان يقنّع حيوية فكره ببطء حركاته . وقد لاحظ برونيه ذلك مراراً : إن شنايدر يحاول ان يبطيء ألمعيته كما لو كان يريد ان يؤقلم في نفسه نوعاً معيناً من الفكر الصابر الثابت الذي يظنّ بلا ريب أنه نصيب الفلاحين والجنود . لمـــاذا ؟ أليؤكد حتى أعماق ذاته تضامنه معهم ؟ ام ليحتجّ على المثقفين وعلى الرؤساء ؟ ام ان ذلك بدافع من الادعاء والتظاهر بالعلم ؟ وقال شنايدر :

ـ حسناً ، ناضلْ ، يا عزيزي ، ناضل، غير ان عملك يشبه شبهاً غريباً خُطَبَ مقهى « التجارة » : لقد جمّعنا بشقة كبيرة زهاء مئة مثالي مسكين ، ورحنا نلقي عليهم الانباء الكاذبة عن مستقبل اوروبا .

قال برونيه : ـ لا مفر من ذلك : فما داموا لا يعملون بعد ، فاني لا أستطيع ان اعطيهم شيئاً « يعملونه » ؛ اننا نتحدث ، ونتصل فيما بيننا ، فانتظر ريثما ينقلوننا الى المانيا، وسترى جيداً كيف نبدأ العمل.

فقال شنايدر بصوته الناعس : ـ أجـــل ، سأنتظر ، ويجب ان انتظر . ولكن الحوارنة والنازيين لا ينتظرون . ودعايتهم أجدى كثيراً من دعايتنا .

فزرع برونيه نظره في عينيه :

ـ ما الذي ترمي اليه ، اخيراً ؟

فقال شنايدر مندهشاً :

ـ أنا ... ولكني لا أرمي الى شيء . كنا نتحدث عن صعوبات

الاختيار ..

فسأله برونيه بعنف :

– ايكون الذنب ذنبي اذا كان الفرنسيون قذرين وليس لهم وازع ولا شجاعة ؟ ايكون ذنبي اذا ...

فاستقام شنايدر وقاطعه ، وقد قست ملامحه ، وغدا صوته من فرط السرعة والتأتأة بحيث يُظن ان « شخصاً آخر » قد سرق فمه ليهين به برونيه ، فصاح :

– انت ... انت دائماً ... انت القذر ، انت ! إن من السهل على المرء ان يتخذ مظاهر الترفع حين يكون وراءه حزب ؛ ومن اليسير على من يملك ثقافة سياسية ومن تعوّد الضربات القاسية ان يحتقر المساكين الذين لا يبدون حراكاً .

فلم ينفعل برونيه : وانما آخذ نفسه أنه قد فقد صبره ، فقال :

– اني لا أحتقر أحداً . اما الرفاق ، فمن البديهي أني أعطيهم جميع الظروف المخففة .

ولم يكن شنايدر يصغي اليه ، وقد تمدّدت عيناه الكبيرتان ، فبدا وكأنه ينتظر حدثاً داخلياً . وفجأة أخذ يصرخ :

– نعم ! انه ذنباك ! طبعاً انه ذنبك !

فنظر اليه برونيه من غير ان يفهم : وكانت حمرةٌ خبيثة تحرّ خدّي شنايدر ، هي اكثر من الغضب ، ولكأنها حقد قديم ، حقد عائلي مكتوم منذ مدة طويلة ، وهو يبتهج اخيراً بالانفجار . ونظر برونيه الى هذا الرأس الهائل المحتدم بالغضب . هذا الرأس ذي الاعتراف العلني وفكر : سيحدث شيء ما . وقبض عليه شنايدر من ذراعه فأراه مهندس « التومبسون » الذي كان يدير أصابعه في براءة . وكانت تلك لحظة صمت ، لأن شنايدر كان اشدّ انفعالا من ان يستطيع الكلام ؛ وأحسّ برونيه انه بارد وهادىء : ان غضب الآخرين يهدّئه دائماً .

وانتظر ؛ سيعلم عما قليل ما يخفيه شنايدر . وبذل شنايدر جهداً عنيفاً :

ـ هذا أحدهم ! أحـــد اولئك القذرين الذين لا وازع لديهم ولا شجاعة ، رجل مثلي ومثل مولو ومثلنا جميعاً . ليس مثلك ، بالتأكيد . « صحيح » انه قد أصبح قذراً ، هذا « صحيح » بل هو من الصحة بحيث انه اقتنع به هو بالذات . غير اني رأيته انـــا في « تول » في شهر ايلول ؛ كان يستفظع الحرب ، ولكنه كـــان يلوم نفسه ، لأنه كان يعتقد بأن لديه اسباباً وجيهة للقتال ، وأقسم لك انه لم يكن قذراً أو جباناً ... ولكنك انت تجعله كذلك . انتم جميعاً متفقون ، بيتان مع هتلر ، هتلر مع ستالين ، وانتم جميعاً تشرحون لهم أنهم مذنبون ذنباً مزدوجاً : مذنبون لأنهم خاضوا الحرب ، ومذنبون لأنهم خسروها. وجميع الاسباب التي كانوا يبررون بها قتالهم ، انمـــا تنتزعونها منهم الآن . هذا الفتى المسكين الذي كان يتصوّر انه ذاهب لخوض صليبية « الحق » و « العدل » ، تريدون ان تقنعوه انه انزلق بدافع الطيش في حرب استعمارية ؛ إنه لا يدري بعد ماذا يريد ، ولا يعرف بعـــد ماذا فعل . وليس جيش اعدائه هو وحده المنتصر : وانما ايديولوجيتهم ايضاً ؛ اما هو ، فيبقى هناك ، ساقطاً خارج العالم وخارج التاريخ ، ومعه افكارٌ ميتة ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه ، وان يفكر مجدداً بالوضع . ولكن بأية وسائل ؟ ان وسائل تفكيره بالذات قد فسدت : لقد أشعتم الحزن العميق والموت في روحه .

فلم يتمالك برونيه نفسه من الضحك ، فسأل :

ـ ولكن ، لمن تراك تتحدث ،في آخر الأمر؟ إليّ انا ، ام الى هتلر ؟

قال شنايدر : ـ انني اتحدث الى محرر « الاومانيتيه » ، الى عضو الحزب الشيوعي ، الى الذي كتب يوم ٢٩ آب ٣٩ على عمودين محيّياً توقيع الميثاق الجرماني السوفياتي .

قال برونيه : ـ ها نحن قد وصلنا .

فقال شنايدر : ــ أجل ، ها نحن قد وصلنا .

قال برونيه بهدوء : ــ كان الحزب الشيوعي ضد الحرب ، وانت تعلم ذلك جيداً .

ــ أجل ، ضد الحرب . كان يهتف بذلك عالياً ، على الأقـل . ولكنه في الوقت نفسه كان يقرّ الميثاق الذي يجعل الحرب لا مفر منها.

فقال برونيه بقوة : ــ كلا ، بل ان الميثاق كان حظنا الوحيـد في منعها .

فانفجر شنايدر ضاحكاً : وابتسم برونيه وصمت . وكفّ شنايدر فجأة عن الضحك :

ــ ولكن نعم ، انظر اليّ ، انظر اليّ لحظة ؛ اتخذ هيئة طبيب الموتى . لقد فاجأتك مئة مرة وانت تراقب الرفاق بعينيك الباردتين ، فكأنما كنت تقوم بتحقيق . حسناً ، فماذا تحققت ؟ تحققت انني نفاية السير التاريخي ؟ اتفقنا . نفاية الى الحد الذي تريد . ولكني لست ميتاً ، يا برونيه ، « لست ميتاً » مع الأسف . اني مدعوّ الى ان اعيش سقوطي ، فهو مذاق في فمي ، ولن تفهم ذلك ابداً . انك تجريديّ ، وانتم التجريديين جميعاً ، انتم الذين صنعتم منا النفاية التي نحن اياها .

وصمت برونيه ، وهو ينظر الى شنايدر : وتردّد شنايدر ، وكانت عيناه قاسيتين مذعورتين ، وكان يبدو و كأنّ على لسانه كلاماً غير قابل للإصلاح . وقد امتقع فجأة ، وأقبلت غمامة من الارهاب تغشى نظره ، فأغلق فمه . وبعد لحظة ، استأنف بصوته الخشن ، الهادىء ، الرتيب :

ــ طيّب ، نحن اخيراً في الخراء جميعاً ، انت ونحن ، وهـذا عذرك . صحيح انك ما تزال تأخـذ بالسير التاريخي ، ولكن قلبك ليس بعد مؤمناً به . ان الحزب الشيوعي يتشكل من جديد بدونك ، وعلى اسس تجهلها . فبوسعك ان تهرب ولكنك لا تجرؤ ، لأنك تخاف

ما سوف تجده هناك . فالموت والحزن العميق في نفسك انت ايضاً .
وابتسم برونيه : لا ، ليس الأمر كذلك . لن يهزم هكذا ، وهذه كلمات لا تعنيه . وصمت شنايدر وارتعش : لم يحدث شيء بالاجمال . لم يحدث شيء على الاطلاق : ان شنايدر لم يعترف بشيء ، ولم يكشف شيئاً ؛ كل ما في الأمر ان أعصابه ثارت قليلا . امـــا المقطع المتعلق بالميثاق الجرماني السوفياتي ، فربما كانت هذه هي المرة المئة التي يسمعه برونيه فيها منذ ايلول . ولا بد ان الجندي قد ادرك ان الحديث كان يجري عنه : فاستقام على مهل ومضى على قدميه الطويلتين العنكبوتيتين وهو يسير جانبياً كحيوان مذعور . « من » هو شنايـــدر ؟ مثقف بورجوازي ؟ فوضوي يميني ؟ فاشي يجهـــل نفسه ؟ ان الفاشيين لم يكونوا كذلك يريدون الحرب . والتفت اليه برونيه : فرأى جنديـــاً يرتدي الاسمال ، متبرماً ليس لديه ما يدافع عنه ، ولم يبق له ما يفقده ، وهو يفرك أنفه بهيئة شاردة . وفكر برونيه : « لقد اراد ان يؤذيني » ولكنه لم ينجح في الحقد عليه . وسأله بلطف :
— اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا انضممت الينا ؟
فبدت على شنايدر هيئة الشيخوخة والتهدّم ، وقال بصوت يدعو الى الرثاء :
— حتى لا أبقى وحيداً .
وساد صمت ، ثم رفع شنايدر رأسه وعلى فمه بسمة مترددة :
— يجب علينا ان نفعـــل شيئاً ، أليس كذلك ؟ اي شيء . من الممكن الا نكون متفقين على بعض النقاط ...
وصمت وصمت برونيه . وبعد لحظة ، نظر شنايدر الى ساعته :
— انها ساعة الزيارات ، فهل تأتي ؟
قال برونيه : — لا ادري ، اذهب انت ، وربما لحقت بك .
ونظر اليه شنايدر لحظة كما لو انه يريد ان يحدثه ، ثم استدار

مبتعداً واختفى . انتهى الحادث ، ووضع برونيه يديه خلف ظهره ، وراح يتنزه في الساحة ، تحت الرذاذ ؛ ولم يفكر بشيء ، وأحسّ نفسه أجوف مُصدياً ، واستشعر على خدّه ويديه ذبذبات صغيرة مبتلّة . الموت في النفس والحزن العميق ، حسناً ، وبعد ذلك ؟ وقال في نفسه باحتقار : « إن هذا من علم النفس !» وتوقف ، وفكر في الحزب . وكانت الساحة خالية ، رمادية ، بلا كثافة ، وكانت تنبعث منها رائحة الأحد؛ انها منفى . وفجأة أخذ برونيه يعدو ، ودلف الى الساحة الاخرى . وكان الرجال يتزاحمون عند الحاجز صامتين ، وجميع رؤوسهم متجهة نحو الباب الكبير : « انهم » هنا ، خلف الجدران ، تحت الرذاذ نفسه . ورأى برونيه ظهر شنايدر القوي في الصف الاول، فشقّ لنفسه ممراً ، ووضع يده على كتفه . والتفت شنايدر فبسم له بسمة حارّة ، وقال :

ـ آه ، ها أنت ذا .

ـ هأنذا .

قال شنايدر : ـ انها الثانية وخمس دقائق . وسيفتح الحاجز عماقليل. وانحنى مرشّح الى جانبهما نحو رفيق له وتمتم :

ـ ربما كانت هناك نساء .

وقال شنايدر في حيوية : ـ يسليني ان ارى مدنيين ، فذلك يذكرني بيوم الأحد في المدرسة .

ـ هل كنت داخلياً ؟

ـ نعم ، كنّا نصطفّ امام قاعة الانتظار لنرى وصول الأهل .

وابتسم برونيه من غير ان يجيب : إنه لا يبالي بالمدنيين ؛ وانما هو مسرور لأن جميع الرفاق كانوا حوله يبعثون لديه الحرارة . وفتح الباب الكبير وهو يصرّ ، فسرت في الصفوف تمتمة خائبة :

ـ هؤلاء هم فقط ؟

انهم زهاء ثلاثين ، وقد رأى برونيه من فوق الرؤوس جمعهم الصغير الاسود المزدحم العنيد تحت المظلات . وذهب المانيان للقائهم ، فتحدثا اليهم وهما يبتسمان ، وفحصا أوراقهم ، ثم ابتعدا ليتيحا لهم الدخول . نساء وشيوخ ، جميعهم تقريباً في لباس اسود ، جنازة تحت المطر ؛ وكانوا يحملون حقائب واكياساً وسلالاً تغطّيها المناشف. وكانت النساء ذوات وجوه رمادية وعيون قاسية وهيئة متعبة ، وقد تقدّمن بخطى صغيرة ، تتزاحم مؤخراتهنّ ويشعرن بالانزعاج من هذه العيون التي تلتهمهنّ . وتنهّد المرشح :

– طز ! كم هنّ بشعات !

قال الآخر : – ايه ، هناك ما يمكن عمله : انظر الى تلك المؤخرة السمراء !

ونظر برونيه الى الزائرات في ودّ . انهنّ بالتأكيد قبيحات ، وهيئتهن قاسية مغلقة ، فكأنهنّ قادمات ليقلن لازواجهنّ : « هل انت مجنون حتى تقع في الاسر ؟ فكيف تريدني ان اتدبّر امري وحدي مع الصغير ؟ » غير انهنّ قد جئن ، مشياً على الاقدام او في عربات ، يحملن سلال الاغذية هذه الثقيلة . انهنّ دائماً انفسهنّ اللواتي يأتين وينتظرن ، بلا حراك ، ولا تعبير ، امام ابواب المستشفيات،والثكنات والسجون : الدمى الجميلة ذوات النظر الراعش تحمل الحداد الى البيت، وقد لقي برونيه على وجوههن – بانفعال – ضيق السلم وبؤسه . كانت لهن تلك العيون المحمومة ، الامينة ، اللاموافقة حين كان ازواجهنّ يقمن بالاضراب « الاحتلالي » ، فكنّ يأتين لهم بالحساء . اما الرجال فقد كان معظمهم مسنين سماناً اشداء ذوي هيئة هادئة . وكانوا يمشون ببطء وتثاقل ، انهم احرار : فقد ربحوا حربهم في زمنهم ، وهم يُحسّون راحة الضمير . ومع ذلك ، فهم يقبلون مسؤولية هذه الهزيمة التي ليست « هزيمتهم » ؛ انهم يحملونها على اكتافهم العريضة . لأنّ

من ينجب طفلاً ، عليه ان يدفع ثمن البلاط الذي يكسره : انهم قادمون بلا غضب ولا خجل ليروا الصبي الذي ارتكب آخر حماقة له كشاب . وعلى هذه الوجوه ، نصف الفلاحية ، لقي برونيه فجأة من جديد ما سبق ان فقده : معنى حياته ، كنت أتحدث اليهم ، فلا يستعجلون الفهم ، وانما يصغون بمثل هذه الهيئة من الهدوء العميق ، وهم يتحسّسون قليلاً ؛ وهم لن ينسوا بعد ابداً ما فهموه . وعادت رغبة قديمة فمدّت رأسها في قلبه : يجب ان أشتغل ، وان أحس على جسمي بأعين راشدة مسؤولة . ورفع كتفيه ، وانصرف عن هذا الماضي ، ونظر الى « الآخرين » عصبة الثاثري الاعصاب الصغار ذوي الوجوه اللامعبّرة الكازّة : ذلك هو نصيبي . لقد كانوا منتصبين على رؤوس اقدامهم ، مادّين إعناقهم ، يتابعون الزوّار بنظرة قرديّة ، وقحة ، جازعة . كانوا يعوّلون على الحرب لتنقلهم الى سنّ الرجال ، ولتمنحهم حقوق رب الاسرة والمحارب القديم ؛ وكان ذلك طقساً احتفالياً للتدريب ، فقد كان لا بدّ لهذه ان تطرد تلك ، الحرب « العظمى » ، العالمية ، التي خنق مجدها طفولتهم ؛ ولا بدّ انها كانت أعظم ، واكثر عالمية ؛ فلو أطلقوا على الالمان لأنجزوا مذبحة الآباء الطقسية التي بها يبدأ كل جيل في الحياة . انهم لم يطلقوا على أحد ، ولم يذبحوا شيئاً على الاطلاق . انهم فوتوا عليهم ذلك : فلقد بقوا صغاراً غير راشدين ، وكان الاباء يمشون امامهم في عرض ، ينبضون بالحياة . كانوا يسيرون مكروهين ، محسودين ، معبودين ، مرهوبين ، فيغرقون من جديد عشرين الف محارب في طفولة الكسالى المرائية . وفجأة ، التفت أحدهم وواجه الاسرى : فتراجعت جميع الرؤوس ، وكان له حاجبان كثيفان أسودان وخدّان قرمزيان ، وكان يحمل رزمة ثياب بطرف عصاه . واقترب فوضع يده على شريط الحديد ونظر اليهم بعينيه الكبيرتين المخططتين بالدم ، وتحت

هذا النظر الحيواني ، البطيء ، اللامعبر ، كان الافراد ينتظرون متوترين ، ممسكين أنفاسهم ، وعلى استعداد لأن يرفضوا : كانوا ينتظرون الصفعتين . وقال العجوز :

ـ ها أنتم اولاء ، اذن !

وساد صمت ، ثم تمتم أحدهم :

ـ نعم ، يا بابا : ها نحن اولاء .

فقال العجوز : ـ يا لها من مصيبة !

فتنحنح المرشّح واحمرّ وجهه ، وقرأ برونيه على وجهه التحدّي المتشنج نفسه . أجل يا بابا ، ها نحن اولاء : عشرين الف رجل كانوا يريدون ان يكونوا ابطالاً ، ولكنهم استسلموا بلا قتال في سهل منبسط . وهزّ العجوز رأسه ، وقال بلهجة عميقة ، ثقيلة :

ـ يا لكم من مساكين !

فسُرّي عن الجميع ، وابتسموا له ، وانحنت القامات نحوه . واقترب الحارس الالماني فلمس ذراع العجوز بادب ، واومأ له ان يبتعد ، فلم يكن يلتفت اليه وقال :

ـ دقيقة واحدة ، انني آت .

وغمز الأسرى غمزة مشاركة ، فابتسم الافراد ، وكانوا مسرورين لأنه عجوز لم تكن في عينيه برودة ، عجوز عنيد من بلادهم ، فأحسوا انهم أحرار بالوكالة . وسأل العجوز :

ـ هل الامر أقسى من ان يحتمل ؟

ففكر برونيه : هكذا . سيبدأون الأنين . ولكن عشرين صوتاً مرحاً أجابت :

ـ لا يا بابا ، لا ، لا ، بل يمكن احتماله .

قال العجوز : — حسناً ، هذا أفضل ، هذا أفضل .

ولم يبق لديه شيء يقوله لهم ، ولكنه ظلّ هناك، وازناً ،مركوماً ، صلباً ، فجرّه الحارس من كمه عـلى مهل ؛ وتردّد ، واستعرض الوجوه بنظره ، فكأنه يبحث عن وجه ابنه : وبعد لحظة ، صعدت الى عينيه من البعيد البعيد فكرة ، فبدا على هيئة متّرددة ، وقال اخيراً بصوته ذي العقد :

— لو تعلمون ، ايها الفتية ، انها ليست غلطتكم .

فلم يجب الافراد بشيء : كانوا واقفين بصلابة ، كأنهـا وقفة الاستعداد . واراد العجوز ان يوضّح فكرته . فأستطرد :

— لا أحد عندنا يفكر بأنها غلطتكم .

فظلّ الافراد على صمتهم ، وقال :

— الى اللقاء ، ايها الاخوة .

ومضى . وعند ذلك سرت فجأة في الجمع إرتعاشة ، فأخذوا يصرخون بحماسة :

— الى اللقاء ، يا بابا ، عما قريب ! الى اللقاء ! عمـا قريب !

وكانت اصواتهم تتضخم ما ابتعد العجوز ؛ ولكنه لم يلتفت . وقال شنايدر لبرونيه :

— أرأيت ؟

فانتفض برونيه ، وقال :

— ماذا ؟

ولكنه كان يعلم جيداً ما سوف يقوله له شنايدر . وقال شنايدر :

— يكفي ان يوثق بنا بعض الشيء .

فابتسم برونيه وقال :

— هل تبدو عليّ هيئة طبيب الموتى ؟

قال شنايدر : — في هذه اللحظة ، لا .

وتبادلا النظر في صداقة : وانفتل برونيه فجأة وقال :
— انظر الى تلك المرأة .

كانت تعرج ، وتوقفت ، قصيرة رمادية ، وتركت رزمتها تسقط في الوحل ، ونقلت الى يدها اليمنى الباقة التي كانت تحملها باليسرى، ثم رفعت ذراعها اليمنى فوق رأسها . ومضت لحظة ، لكأنها انتصبت بالرغم منها ، هذه اليد المنتصرة التي تشدّ كتفها وعنقها ؛ وانتهت بان قذفت الزهور بحركة مرتبكة أسقطتها على الارض ، فتناثرت ، زهور حقول ، رمنثور ، وهندباء ، وترنشاه : لا بدّ انها قطفتها من حافة الطريق . وتدافع الرجال ، فنكثوا الارض ؛ وقرصوا الأغصان بين اظافرهم الموحلة : ونهضوا وهم يضحكون فأروها الزهور كما لو انهم يحيّونها . وأحسّ برونيه بانقباض في حلقه ، فالتفت الى شنايدر وقال غاضباً :

— زهور ! ماذا كانوا يقدمون لو كنا ربحنا الحرب !

ولم تبتسم المرأة ، بل أخذت رزمتها ومضت ، فلم يكن يُرى بعد الا ظهرها يتهاوى تحت المعطف المشمع ، وفتح برونيه فمه ليتكلم ، ولكنه رأى وجه شنايدر وصمت . وتخلّص شنايدر وهو يدافع جيرانه ، وخرج من الصفوف. إنه لم يكن على ما يرام . وتبعه برونيه ، فوضع يده على كتفه :

— ما بك ؟

ورفع شنايدر رأسه ، فصرف برونيه عينيه ، وهو يحسّ الانزعاج من نظره بالذات ، نظر طبيب الموتى ، وردّد، وهو ينظر الى قدميه:

— قل ، ما بك ؟

وأصبحا وحيدين وسط الساحة ، تحت الرذاذ . وقال شنايدر :

— شيء مريع !

وساد صمت ، ثم أضاف : — ان نرى مدنيين من جديد .

وقال برونيه ، من غير ان يرفع عينيه :

– يريعني هذا كما يريعك .

قال شنايدر : – الامر بالنسبة اليك مختلف ؛ فليس لك أحد .

وبعد برهة ، فك شنايدر ازرار سترته ، وبحث في جيبه الداخلي، فأخرج منه محفظة مسطحة . وفكر برونيه : لقـــد مزّق كل شيء . وفتح شنايدر محفظته: لم يكن باقياً فيها غير صورة بحجم بطاقة بريدية. ومدّها شنايدر لبرونيه من غير ان ينظر اليها ، فرأى برونيه امرأة شابـــة ذات عينين معتمتين . وكان تحت العينين بسمة : ولم يسبق لبرونيه ان رأى شبيهاً لها . كان يبدو عليهـــا انها تعرف جيداً ان في العالم معسكرات اعتقال وحروباً واسرى مسجونين في ثكنات ؛ كانت تعرف ذلك ، وهي مع هذا تبتسم : وللمهزومين والمبغدين ونفايات التاريـخ ، كانت تمنح ضحكتها . ومع ذلك ، فقد بحث برونيه عبثاً في عينيها عن شعاع الاحسان الساديّ الكريه : انها تبتسم لهـــم بسمة ثقة بهدوء ، تبسم لقوتهم كما لو انها كانت تطلب منهم ان يصفحوا عن المنتصرين عليهم . وكان برونيه قد رأى صوراً كثيرة في تلك الفترة ، وابتسامات كثيرة . وكانت الحرب قد أفسدتها كلها ، فـــلم يعد النظر اليها ممكناً . اما هذه البسمة ، فقد كان النظر اليها ممكناً : لقد ولدت هذه اللحظة، وكانت موجهة الى برونيه، الى برونيه وحده ، الى برونيه الأسير ، برونيه النفايـــة برونيه المنتصر . وانحنى شنايدر فوق كتف برونيه ، وقال :

– بدأت تتعب .

قال برونيه : – نعم ، فلا بدّ من ان تقصّ أطرافها .

وردّ له الصورة وهي تتلألأ بالرذاذ ، فمسحها شنايدر في عنايـــة بطرف كمه وأعادها الى محفظته . وتساءل برونيه : « هل هي جميلة؟» ولم يكن يدري ، انه لم يتح له الوقت الكافي لمعرفة ذلك . ورفع رأسه

فنظر الى شنايدر ، وفكر : «انها انما تبسم له هو . » وخيل اليه انه يراه بعينين أخريين . ومرّ شخصان شابّان ، يضعان زهرتي منثور في عروتيهما ، ولم يكونا يتكلمان ، وكانت جفونهما تضفي عليهما هيئة متناولين هزلية . وتبعهما شنايدر بالنظر ؛ وتردّد برونيه ، وصعدت الى شفتيه كلمة قديمة ، فقال :

ــ أجدهما مؤثرين .

فقال شنايدر : ــ صحيح ؟

وكان صفّ الفضوليين خلفهما قد تمزق ،ودخل الزوار الى الثكنة، ووصل داوروكير وهو يتهادى ، يتبعه « بيران » وعامل المطبعة . وفكر برونيه: «صحيح، انها الساعة الثالثة .» وكانت لهم، ثلاثتهم، وجوه مغلقة ؛ وتضايق برونيه وهو يفكر بأنهم قد تحدثوا فيما بينهم : فتلك أشياء لا يمكن منعها . وصاح من بعيد :

ــ ماذا ، يا جماعة ؟

فاقتربوا وتوقفوا ، وتبادلوا النظر ، على رهبة . وقال برونيه بصراحة :

ــ تكلموا ، ما بكم ؟

فأوقف عامل المطبعة عليه نظر عينيه الجميلتين القلقتين ، وكان وجهه ينمّ حقاً عن الأستياء وقال :

ــ لقد قمنا دائماً بما طلبته منا ، اليس كذلك ؟

فقال برونيه نافد الصبر :

ــ نعم ، نعم . وإذن ؟

فلم يستطع عامل المطبعة ان يضيف شيئاً آخر، وانما تكلم داوروكير بدلاً منه ، من غير ان يرفع عينيه :

ــ اننا نريد ان نستمر ، وسنستمر ما طلبت منا ذلك . ولكننا نعتقد ان هذا عبث .

فلم يقل برونيه شيئاً . وقال بيران :
ـ إن الافراد لا يريدون ان يفهموا شيئاً .
وظل برونيه على صمته ، فاستطرد العامل بصوت محايد :
ـ بالأمس فقط ، تنازعت مع شخص لأني كنت اقول إن الالمان سيأخذوننا الى المانيا . فجنّ جنون الرجل ، واتهمني باني من الطابور الخامس .
ورفعوا عيونهم فنظروا الى برونيه بعناد :
ـ لقد بلغ الأمر حدّ أنه لا يمكن بعد ان تقال لهم كلمة سوء عن الألمان .
وجمع داوروكير شجاعته ونظر الى برونيه مواجهة :
ـ اننا بصراحة يا برونيه لا نرفض ان نعمل ، ولكن اذا باشرنا الأمر بطريقة خاطئة، فاننا مستعدون بالبدء من جديد على طريقة اخرى. غير انه ينبغي ان تفهمنا . اننـــا نتنقّل في كل مكان . ويندر ألا نتحدث في اليوم الواحد الى مئتي شخص ، فنسبر غور المعسكر ؛ اما انت ، فانك بالضرورة ترى أقل منا ، فلا تستطيع ان تعرف مـــا نعرف .
ـ يعني ؟
ـ يعني اذا أطلق غداً سراح العشرين ألف اسير ، فانهم ، بهذا الوضع ، سيكونون عشرين الف نازي .
فأحسّ برونيه بان الحرارة تصبغ وجنتيه . ونظر اليهم واحداً بعد واحد . وسأل :
ـ أهذا هو رأيكم ؟
فأجاب الثلاثة « نعم » . وانفجر فجأة :
ـ إن في الجمع عمالاً وفلاحين ، ويجب ان تخجلوا من التفكير بأنهم سيصبحون نازيين ، وإلا كان ذلك من خطأكم : إن الانسان

ليس حطبة ، وانما هو يتحرك ، لو تعلمون، يقتنع : فاذا لم تنجحوا في تحريكهم ، فمعنى ذلك انكم لا تحسنون القيام بعملكم .

وأولاهم ظهره . وقام بثلاث خطوات ، ثم عاد اليهم فجأة ، مقدماً إصبعه :

ـ الحقيقة انكم تعتبرون انفسكم قوّاداً . فانتم تحتقرون رفاقكم . فاحفظوا هذا : إن عضو « الحزب » لا يحتقر أحداً .

ورأى عيونهم مشدوهة ، فزاد غيظه وصاح :

ـ عشرون الف نازي ! هل انتم مجانين ؟ إنكم لن تصنعوا منهم شيئاً اذا احتقرتموهم . حاولوا اولا ان تفهموهم : إن في نفوسهم الموت والحزن العميق ، هؤلاء الأشخاص ، وهم لا يدرون بعد كيف يتصرفون . وسيستسلمون للشخص الاول الذي يوليهم الثقة .

وأزعجه حضور شنايدر ، فقال له :

ـ هيّا ، تعال .

واذ مضى ، التفت نحو الآخرين الذين ظلوا بُكماً ومشدوهين :

ـ أعتبر انكم أصبتم بخوَر . وهذا أمرٌ قد نُسي . ولكن لا تعودوا بعد بهذا الخبط العشوائي . الى الغد .

ورقي السلم عدواً ، وشنايدر يلهث خلفه ؛ ودلف الى الشقة ، وتداعى للسقوط على غطائه ؛ ومدّ يده فتناول كتاباً : « اخواتهم » لهنري لافيدان . وراح يقرأ في تنبه ، سطراً فسطراً ، وكلمة فكلمة ؛ وهدأت نفسه . وحين بدأ النهار يرمدّ ، وضع الكتاب وتذكر انه لم يتناول الغداء ؟

ـ هل احتفظتم لي برغيفي ؟

فمدّه له مولو ، فقطع برونيه القطعة التي كان عليه ان يعطيها لعامل المطبعة غداً ، ووضعها في قربته ، وأخذ يأكل. وبدا «كانتريل» و « ليفار » في فتحة الباب : كانت تلك ساعة الزيارات . وقالا من

غير ان يرفعا رأسيهما : « مرحباً ، مرحباً . » وسأل مولو :

– ما لديكما من انباء ؟

قال ليفار : – يقال ان البعض قد هرب ! ومن الذي يدفع الثمن؟ طبعاً ، نحن .

قال مولو : – ها ! هناك إذن جديد ؟

فقال ليفار : – هناك ان المعاون قد هرب .

– هرب ؟ لماذا ؟

كان هذا سؤال بلونديه الذي جعلته المفاجأة وحشياً . وانقضى بعض الوقت قبل ان يهضم الافراد النبأ ، وكان في عيونهم بعض الذعر : وخوف خفيف يشبه خوف الجمع المتعب في المترو حين يأخذ مجنون في النباح العنيد ، وردد غاسو بهدوء :

– هرب .

وكان الشتيمي قد وضع العصا التي ينحتها وبدا قلقاً . وكان لامبر يمضغ في صمت ، وعيناه ثابتتان قاسيتان . وبعد لحظة ، قال في ضحكة استياء .

– هناك دائماً من يعتقدون أنهم اكثر استعجالاً من سواهم .

فقال مولو : – او انه يحبّ المشي على الأقدام .

وكان برونيه ينتف برأس مديته اجزاء عفنة من الخبز ، ويسقطها على غطائه ؛ وكان يشعر بعدم الراحة . ودخل هواء الخارج الرمادي الى الغرفة؛ وفي الخارج ، في المدينة الميتة كان ثمة رجل مطارد يختبيء . اما نحن ، فاننا هنا ، نأكل ، وهذا المساء سننام تحت سقف ، وسأل على مضض :

– كيف تمكّن من الفرار ؟

فنظر اليه ليفار متصنّعاً الأهمية ، وقال :

– احزر !

– لا ادري : من الجدار الخلفي ؟

فهزّ ليفار رأسه مبتسماً ، وانتظر لحظة ، ثم قال بلهجة انتصار :
– من البـــاب الكبير ، في الساعة الرابعة بعـــد الظهر ، تحت أعين الألمان !
فشده الرجال ، واستمتع ليفار وكانتريل برهةّ بالذهول العام ، ثم اوضح كانتريل بصوته الحادّ السريع :
– لقد جاءت زوجته العجوز للزيارة ، وكانت تحمل له ثياباً مدنية في حقيبة ، فغيَّر المعاون لباسه في خزانة ، ثم خرج متأبطاً ذراعها .
فسأل غاسو مغتاظاً :
– ولكن ألم يكن ثمة أحد ليوقفه ؟
فهزّ ليفار كتفيه :
– يوقفه ؟ كيف تريد ذلك ؟
قال غاسو :
– لو عرفته انا مثلا عند الخروج لناديت ألمانياً فقبض عليه .
ونظر اليه برونيه في ذهول :
– هل أنت مجنون ؟
فقال غاسو في غضب : – مجنون ؟ يا لفرنسا المسكينة ! إن من يريد ان يقوم بواجبه اليوم ، يُتهم بالجنون .
وألقى نظرة دائرة على الجمع ليرى ان كانوا يقرّونه وأجـــاب باندفاع أشدّ :
– سترى اذا كنت مجنوناً حين يلغون الزيارات . انني اؤكد لك انهم تركوهم يدخلون ولم يكونوا مجبرين على ذلك . أليس هذا رأيكم ، يا جماعة ؟
فهز مولو ولامبير رأسيهما ، وأضاف غاسو بلهجة قاسية :
–هذا صحيح أيضاً ! لقد اتفق ان الألمان لم يكونوا وحوشاً في هذا ، فكيف نشكرهم ؟ بان نخرأ في ايديهم . سيثور غضبهم ، ولن يكونوا

على خطأ .

وفتح برونيه فمه ليصفه بأنه قذر ، ولكن شنايدر رماه بنظرة سريعة وصـــاح :

ـ غاسو ، انك كريه !

وصمت برونيه وهو يفكر بمرارة : « لقد سارع يشتمه ليمنعني من ان « أدينه » ، انه لا يدين غاسو ، ولا يدين قط أحداً : فهو يشعر امامي بالعار بدلا منهم ؛ ومهما حدث ، ومهما فعلوا ، فقد اختـــار ان يكون معهم . » ونظر غاسو الى شنايدر بعينين يلتمع فيهما الشرر ، فردّ له شنايدر نظرته : وأخفض غاسو عينيه وقال :

ـ حسناً ! حسناً ! هيّا ، اعملوا على الغـــاء الزيارات . انا لا يهمني ذلك : فان أبويّ في « اورانج » .

قال مولو : ـ وأنا ، مـــا تظنني ؟ انني يتيم . ولكن يجب مع ذلك ان نفكر بالرفاق .

قال برونيه : ـ صحيح . ويليق بك جداً ان تقول ذلك يا مولو ، أنت الذي تغتسل كل يوم بعناية كبيرة لتجنب الرفاق القمل .

فقال البلوندينه فجأة : ـ ليس الامران متشابهين . صحيح ان مولو وسخ ، ولكنه لا يبعص سوانا . بينما ذاك شخص لا يخاف ان يغرق عشرين الف شخص في الخراء لمصلحته الشخصية .

قال لامبير : ـ اذا قبض عليه الألمان ، فوضعوه في السجن ، فلن اكون ممن يرثون له .

وقال مولو : ـ هل ترى ؟ إن صاحبنا يذهب قبل ستة اسابيع من العودة . ألم يكن بوسعه ان يفعل مثلنا ؟

فأقرّهم الرقيب لاول مرة ، وقال متنهداً :

ـ هذه هي الشخصية الفرنسية ، ومن أجل هذا خسرنا الحرب .

فقهقه برونيه وقال لهم :

ـ هذا لا يمنع انكم تودّون كثيراً ان تكونوا مكانه ، وان تشعروا بالخجل لانكم لم تقوموا بالمحاولة .

فقال كانتريل بحيوية :

ـ هذا ما يجعلك على خطأ . فلو جازف بشيء ، بأي شيء ، طلقة بندقية في المؤخرة ، لما انكرت ، فبالامكان التفكير : إنه أحمق ، رأس فارغ ، ولكنه كان ذكياً . فبدلا من هذا ، ذهب صاحبنا بهدوء ، محتمياً بزوجته ، كالجبناء . إن هذا ليس فراراً ، بل هو اساءة للثقة .

وسرت في صلب برونيه رعشة باردة ، فانتصب ونظر في عيونهم واحداً بعد الآخر وقال :

ـ حسناً ، اذا كان الامر كذلك ، فاني اخبركم اني مساء الغد سأتسلّق الجدار وأهرب . وسنرى ان كان هناك من يشي بي .

فبدا عليهم الانزعاج ، ولكن غاسو لم يسقط في يده ، فقال :

ـ لن نشي بك ، أنت تعلم ذلك جيداً ، ولكن حين أخرج من هنا ، فتأكد اني سأقصد اليك لأعاقبك : لأنك اذا هربت ، فكن على ثقة بان نتيجة عملك ستسقط على رأسنا .

فقال برونيه في ضحكة شاتمة :

ـ تعاقبني ؟ أنت ؟

ـ اوه ! كفى ؛ اذا لزم الأمر ، فسنكون عدة اشخاص .

ـ كلمني في هذا بعد عشرة اعوام ، حين تعود من المانيا .

واراد غاسو ان يجيب ، ولكن ليفار قاطعه :

ـ لا تناقشه في هذا . فسوف يطلق سراحنا يوم ١٤ . وهذا رسمي .

فسأل برونيه وهو يقهقه : ـ رسمي ؟ وهل رأيته مكتوباً ؟

فتقصّد ليفار ألا يردّ عليه ، والتفت الى الآخرين وقال :

ـ لم اره مكتوباً ، ولكن الامر شبيه بهذا .

فأشرقت الوجوه في العتمة : لمبات راديو ، معتمة ولبنية . وتأملهم ليفار في بسمة طيبة ، ثم أوضح :

– لقد قال هتلر ذلك .

فقال برونيه مشدوهاً : – هتلر !

وتجاهل ليفار المقاطعة ، فاستطرد يقول :

– هذا لا يعني أني احبّه ، ذلك الشخص : انه بكل تأكيد عدّونا . والنازية لست معها ولا ضدها : فمن الممكن ان تنجح مع الألمان ، ولكن ذلك لا يناسب المزاج الفرنسي ، غير ان له ميزة ، هتلر : إنه يفعل دائماً ما يقول . لقد قال : في ١٥ حزيران ، سأكون في باريس ؛ فكان فيها ، بل سبق ذلك .

وسأل لامبير : – وهل وعد بان يطلق سراحنا ؟

– نعم . لقد قال : في ١٥ حزيران سأكون في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم .

وارتفع صوت خجول ، هو صوت الشتيمي :

– كنت احسب انه قال : « سنرقص مع زوجاتنا « نحن » : نحن الالمان . »

فحدجه ليفار قائلا : – وهل حضرت انت خطابه ؟

قال الشتيمي : – كلا هذا ما قيل لي .

فقهقه ليفار ، فسأله برونيه :

– وانت ، هل حضرته ؟

– طبعاً حضرته ! في « هاغونو » ، كان للرفاق جهاز راديو ، وحين دخلت ، كان قد نطق بهذه العبارة .

وهزّ رأسه وردّد في تلمّظ : « سنكون في ١٥ حزيران في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم . »

فردّد الأشخاص في جذل : – ها ! في ١٥ حزيران في باريس ،

وسنرقص يوم ١٤ تموز .

النساء . الرقص . وأخذ الافراد يرقصون ، واعناقهم في اكتافهم ، ووجوههم مقاوبة ، واكفّهم مطبقة عـلى أشرعة الخيم : وقضقضت الأرض الخشبية ، ودارت ورقصت الفالس تحت النجوم ، بين الحروف الكبيرة لضاحية « شاتودان » . وانحنى غاسو رقيقاً نحو برونيه ، وشرح له بصوت منطقي :

ـ ان هتلر ليس مجنوناً . فهل تشرح لي لماذا يُدخل مليون أسير الى المانيا ؟ مليون فم تطلب الطعام ؟

قال برونيه : ـ ليجعلهم يشتغلون .

ـ يشتغلون ؟ مع العمال الألمان ؟ ستكون معنويات الالمان عظيمة حين يكونون قد تحدّثوا قليلا معنا .

ـ بأية لغة ؟

ـ بأية لغة كانت ، بالزنجية ، بالاسبيرنتو : لقد وُلد العامـل الألماني خبيثاً ، وهو نقاد هُزأة وذكي ، فيكفيه يومان حتى يفسدهم، الألمان ، وبوسعك ان تثق بان هتلر قد فكر في ذلك . اوه ! أجل ، انه ليس مجنوناً ! وانا مثل ليفار : لا أحبه ، ذلك الشخص ، ولكني احترمه ، وليس هناك كثيرون أستطيع ان اقول عنهم مثل هذا .

فوافق الأشخاص برؤوسهم ، في رصانة :

ـ يجب ان نعترف له بهذه الميزة : انه يحب بلده .

ـ انه رجل له مثل أعلى . ليس هو مثلنا بالتأكيد ، ولكنه جدير بالاحترام .

ـ جميع الآراء جديرة بالاحترام ، شرط ان تكون مخلصة .

ـ ونوابنا نحن، ماذا كان مثلهم الأعلى؟ ان يملأوا جيوبهم ، أجل ، والنساء الصغيرات وكل ما هنالك . كانوا يشترون لأنفسهم الطعام اللذيذ بأموالنا . اما عندهم ، فليس الأمر كذلك : انك تدفع ضرائبك ،

ولكنك تعرف ما يفعلون بمالك . فكل عام ، يرسل لك موظف الضرائب رسالة : لقد دفعت يا سيدي كذا ، فهذا يمثل كذا من العقاقير للمرضى أو كذا من الامتار المربعة للاوتوستراد . أؤكد لك ذلك .

قال مولو : ــ انه لم يكن يريد ان يحاربنا ، بل نحن الذين أعلنا الحرب عليه .

ــ على رسلك ، بل لسنا نحن الذين أعلناها ؛ انه دالادييه ، وهو لم يستشر حتى مجلس النواب .

ــ هذا ما اقوله . والذي حدث انه هو ، لو تعلم ، ليس انساناً ذليلا ؛ لقد قال : انكم تبحثون عني ، ايها السادة ، فسوف تجدونني . وفي أقل من يومين ، ركلنا على القفا . حسناً ، والآن ؟ اتظنه مسروراً مع مليون اسير ؟ سوف ترى : سيقول لنا بعد ايام : انكم ايها السادة تزعجونني ، فابقوا في بيوتكم . ثم ينصرف الى الروس، فيأكل البعض انوف بعض . فرنسا ؟ ما عساها تفيده ؟ إنه غير محتاج اليها . سوف يأخذ منها الألزاس ثانية ؛ بمثابة استعادة النفوذ ، هذا صحيح . ولكني اقول لك : طز في الالزاسيين ، فاني لم أستطع يوماً ان أطيقهم.

فضحك ليفار لنفسه ، بصمت : وكانت هيئته مزهوة ، وقال :

ــ الكلام بسرّك ، لو اننا رزقنا ، نحن ، هتلراً !

قال غاسو : ــ آه ، يا صديقي المسكين ! هتلر مع الجندي الفرنسي ؟ مريع ! في هذه الساعة ، كنا نكون في القسطنطينية . (واضاف بغمزة عين جذلة) لأن الجندي الفرنسي هو افضل جندي في العالم حين يكون له قائد .

وفكر برونيه بان شنايدر لا بد وان يحس بالعار ، فهو لا يجرؤ على النظر . ونهض ، فأدار ظهره لأفضل جنود العالم ، وفكر بأنه ليس ثمة بعد ما يُعمل ؛ وخرج . وتردد على السطيحة ، ونظر الى السلم الذي يغرق في العتمة : كان المفروض في تلك الساعة ان يكون

الباب مغلقاً . وللمرة الاولى ، شعر بأنه أسير . عاجلا ام آجلا ، لا بد ان يدخل زنزانته ويتمدد على الارض الخشبية الى جانب الآخرين ويصغي الى أحلامهم . وكانت الثكنة تحته تضجّ ، فترتفع صيحات واغنيات عبر قفص السلم . وقضقضت الارض الخشبية ، فالتفت بحيوية: كان شنايدر يتقدم نحوه في الممر المظلم وهو يعبر آخر شعاعات النهار ، واحداً واحداً . سأقول له : « قل لي ! أتكون لك الشجاعة للدفاع عنهم ! » وأصبح شنايدر بازائه تماماً ، فنظر اليه برونيه ولم يقل شيئاً. وارتفق الحاجز ، فأقبل شنايدر يرتفق بالقرب منه ، وقال برونيه :

— إن داوروكير هو الذي كان محقاً .

فلم يجب شنايدر : ماذا تريد ان يجيبني ؟ بسمة ، زهور حمراء تحت الرذاذ ، يكفي ان يولوا الثقة ، قليلا من الثقة ، قليلا جداً ، آه ! انني أصدقك ، وردّد بغضب :

— لا جدوى ! لا جدوى ! لا جدوى !

إن الثقة لا تكفي ، بكل تأكيد . الثقة بمن ؟ الثقة بأيّ شيء ؟ لا بدّ من الألم ، والخوف والحقد ، لا بد من التمرد والقتل ، لا بد من نظام حديدي . أما حين لا يبقى لهم ما يفقدونه ، وحين تصبح حياتهم أسوأ من الموت ... وانحنى كلاهما فوق الظلام ، فانبعثت رائحة غبار . وسأل شنايدر وهو يخفض الصوت :

— أصحيح انك تريد ان تهرب ؟

فنظر اليه برونيه من غير ان يجيب ، وقال شنايدر :

— سوف أشعر بالشوق اليك .

وقال برونيه بمرارة :

— ستكون الوحيد في ذلك .

وفي الطابق الارضي ، كان أشخاصٌ يغنّون في جوقة : لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نحب المحبين ، أهرب ، أشحط صليباً على

عشرين الف رجل ، أتركهم يموتون في خرائبهم ، أيكون لنا الحق بالقول : لم يبق ثمة ما يفعل ؟ واذا كانوا ينتظروني في باريس ؟ وفكر في باريس باشمئزاز أدهشه عنفه . وقال : « لن أهرب : لقد قلت ذلك وأنا غاضب . »

– اذا كنت تظن انه ليس ثمة بعد ما يعمل ...

– هناك دائماً ما يعمل . يجب ان نعمل حيث نكون ، بالوسائل التي نملك . وفيما بعد ، سنرى .

وتنهد شنايدر ، وقال برونيه فجأة :

– انت الذي ينبغي لك ان تهرب .

فهزّ شنايدر رأسه نفياً ، وقال برونيه في خجل :

– ان لك هناك زوجتك .

فهز شنايدر رأسه نفياً ؛ فسأله برونيه :

– ولكن لماذا ؟ ليس لك هنا ما يمسكك .

فقال شنايدر : – سيكون كل مكان أسوأ .

لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين . وقال برونيه :

– لتعش المانيا !

وللمرة الأولى ردّد شنايدر في شيء من الشعور بالعار :

– لتعش ألمانيا ! نعم ! لتعش ..

وطز في ملك انكلترا الذي أعلن لنا الحرب .

سبعة وعشرون رجلاً ، الشاحنة تصرّ ، والقناة تتمطّى على طول الطريق ، ويقول مولو :

– في الحقيقة ، ليست مهدمة الى حد بعيد .

ولم يكن الالمان قد أغلقوا باب الممرات ، وكان النور والذباب تدخل الى الشاحنة ؛ وكان شنايدر وبرونيه وعامل المطبعة جالسين على الارض الخشبية ، عند فتحة الباب ، وسيقانهم تتدلى الى الخارج ؛ انه

يوم صيف جميل . وقال مولو بارتياح :

– أجل ، ليست على الاطلاق مهدمة الى حد بعيد .

ورفع برونيه رأسه : كان مولو واقفاً ينظر الى الحقول والسهول تجري في رضى . وكان الطقس حاراً ؛ ورائحة الرجال قوية ؛ وكان شخص يشخر في جوف القاطرة . وانحنى برونيه : كان في الشاحنة قبعات المانية تلمع فوق البنادق . يوم صيف جميل ، وكل شيء هاديء ؛ القطار يجري والقناة تجري ؛ ومن بعيد لبعيد يُرى طريقٌ حفرته قنبلة ، او حقل مخدّد ؛ وفي جوف الحفر ، ماء يعكس السماء.

وقال عامل المطبعة لنفسه :

« لن يكون القفز صعباً » .

فأومأ شنايدر الى البنادق بهزّة كتف :

– سيصطادونك كالارنب .

فلم يجب عامل المطبعة ، وأطلّ كما لو انه سوف يثب ، فأمسكه برونيه من كتفه ؛ وردّد عامل المطبعة مبهوراً :

– لن يكون ذلك صعباً جداً .

فدغدغ له مولو رقبته :

– ما دمنا ذاهبين الى « شالون » .

– ولكن هل هذا صحيح ؟ هل نكون ذاهبين اليها ؟

– لقد رأيت البلاغ مثلي .

– لم يكن مكتوباً اننا ذاهبون الى شالون .

– صحيح ، ولكن كان مكتوباً اننا باقون في فرنسا . أليس كذلك ، يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه على التو : « صحيح » أنه كان في الليلة السابقة اعلان معلق علي الجدار ، يحمل توقيع القائد : « إن اسرى معسكر باكارا مرصودون للبقاء في فرنسا . » وهذا لا يمنع انهم الآن في

القطار ، محمولين الى جهة مجهولة . وألحّ مولو :
ــ أصحيح هذا ام غير صحيح ؟
وصاحت خلفها أصوات نافدة الصبر :
ــ نعم ، صحيح ، لا تضجرونا ، فانتم تعلمون جيداً ان هـذا صحيـح .
وألقى برونيه نظرة الى عامل المطبعة ، وقال بلطف :
ــ هذا صحيـح .
فتنهد العامل وقال في بسمة مطمئنة :
ــ هذا طريف . انا اشعر دائماً بأني غريب حين أسافر .
وضحك من قلبه ، وهو متجه الى برونيه :
ــ قد اكون ركبت القطار عشرين مرة في حيـاتي ؛ ولكن ذلك يُحدث لي كل مرة اثراً عميقاً .
وضحك ، فنظر اليه برونيه يضحك وفكر : « انه ليس على مـا يرام . » وكان لوسيان جالساً الى الخلف ؛ وقال وهو يحيط كعبيـه بذراعيه :
ــ كان المفروض ان يأتي امي وابـي يوم الأحد .
وكان شاباً رقيق الهيئة يضع نظارات . وقال له مولو :
ــ الا تفضّل ان تلقاهما في البيت ؟
فقال الشاب : ــ بلى طبعاً ، ولكن ما دام المفروض ان يأتيـا يوم الأحد ، فقد كنت افضل ان نذهب يوم الاثنين .
فاحتج ركاب القاطرة :
ــ هذا شخص كان يفضل ان يبقى ثلاثة ايام اخرى ؛ خراء إذن! ان هناك من ينكرون الآن أنفسهم ؛ يوم آخر ، ولكن قل ، لمـاذا لا تنتظر حتى الميلاد ؟
فبسم لهم لوسيان برقّة ، وقال موضحاً :

— انهما ليسا بعد في سن الشباب ، لو تعلمون ، فيسؤوني ان ينزعجا من اجل لا شيء .

قال مولو : — عجباً ! حين يعودان إذن، فستكون انت الذي تستقبلها .

قال لوسيان : — اود ذلك كثيراً، ولكن لن يكون لي هذا الحظ : فسيحتاج تسريحنا الى ثمانية أيام على الأقل .

قال مولو : — من يدري ؟ من يدري ؟ مع الالمان ، من الممكن ان تسير الامور بسرعة .

قال جوراسيان : — ان كل ما اطلبه شخصياً ، هو ان أصل الى بيتي في موسم قطف الخزامى .

والتفت برونيه : كانت الشاحنة بيضاء من الغبار والدخان ، وكان البعض جالساً ، والبعض الآخر واقفاً ؛ وعبر جذوع مقدّسة لغابة من السيقان ، لمح وجوهاً هادئة مبتسمة بغموض . وكان جوراسيان رجلاً سميناً ذا مظهر قاس ورأس حليق وعصابة سوداء على عينه . وكان جالساً القرفصاء ليحتلّ اصغر مساحة . وسأله برونيه :

— من اين انت ؟

— من مانوسك . كنت في البحرية . وانا في الوقت الحاضر اسكن مع زوجتي ، ولا احب ان تقوم بالقطاف من دوني .

وكان عامل المطبعة ما يزال ينظر الى الطريق ، وقال :

— لقد آن الاوان .

فسأله برونيه : — ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

— آن الاوان ليسرّحونا .

— نعم ؟

قال عامل المطبعة : — كنت مصاباً بالسويداء .

وفكر برونيه : « هو ايضاً ! » ولكنــه رأى عينيه اللامعتين المجوّفتين فصمت . وفكر : « سيلاحظ شأنــه في وقت مبكر . »

وقال شنايدر :

— صحيح ، ايها الرأس الصغير ، لقد انقطعت عن إضحاكنا ، فما بك ؟

قال العامل : — اوه ! لا شيء الآن .

وكان يود ان يشرح امراً ما ، ولكن الكلمات كانت تعوزه . واتى بحركه اعتذار واكتفى بالقول :

— انني من « ليون » .

وأحسّ برونيه بالانزعاج ، وفكر : « لقد نسيت انه كان من ليون . ها قد مضى شهران ، وانا أشغله من غير ان أعرف عنه شيئاً . وها هو الآن حارّ بازائي ، وهو يشعر بالحنين الى بلده. » وكان العامل قد انفتل اليه ، فقرأ برونيه في اعماق عينيه لوناً من الرقة القلقة ؛ وسأل العامل فجأة :

— أصحيح اننا ذاهبون الى شالون ؟

فقال مولو نافد الصبر : — آه ؟ انك تطرح السؤال من جديد !

قال برونيه : — هيا ، كفى ، هيّا ! حتى ولو لم نكن ذاهبين الى شالون ، فسوف ينتهي الأمر بعودتنا .

قال عامل المطبعة : — بل ينبغي ان نذهب الى شالون ، ينبغي ان نذهب الى شالون .

وبدا وكأنه يقوم بصلاته . وقال لبرونيه :

— أتعلم ؟ لولاك لهربت منذ وقت طويل .

— لولاي ؟

— نعم . كان ينبغي ان أبقى ، ما دام هناك مسؤول .

فلم يجب برونيه ، وفكر : « طبعاً ، إن هذا بسببي » ولكن ذلك لم يكن يسرّه قطّ . واستطرد العامل :

— سأكون اليوم في ليون . هل تتصوّر ، انني مجنّد منذ عام ٣٧،

وانا لا أعرف بعد مهنتي .
قال لوسيان : — ولكن سرعان ما تعتادها من جديد .
فهزّ العامل رأسه ، بهيئة عاقلة ، وقال :
— اوه ! ليس بهذه السرعة . سترى . إن العودة اليها ذات مشقة .
وظلّ جامداً ، فارغ النظرات ، ثم قال :
— كنت لدى أهلي في المساء ألمّع كل شيء ، فانا لم اكن احب ان ابقى من غير ان اعمل شيئاً ، ويجب ان يكون كل شيء نظيفاً .
ونظر اليه برونيه من زاوية عينه : لقد فقد هيئته الواضحة المرحة، وكانت الكلمات تتدافع برخاوة خارج فمه ؛ وكانت باقات من الشعر الأسود تنمو بالاتفاق على خديه الهزيلين . وابتلع نفقٌ شاحنات الرأس، ونظر برونيه الى الثقب الأسود الذي يغرق فيه القطار ، ثم التفت فجأة الى العامل :
— اذا كنت تريد ان تهرب ، فهذه هي اللحظة المناسبة .
قال العامل : — ماذا ؟
— ليس عليك الا ان تقفز حين ندخل النفق .
ونظر اليه العامل ، ثم غدا كل شيء اسود ؛ وتلقى برونيه دخاناً في فمه وعينيه ، فسعل . وابطأ القطار ، فقال برونيه وهو يسعل :
— اقفز . هيّا اقفز !
ليس من جواب ؛ وارمدّ النهار عبر الدخان ، ومسح برونيه عينيه وغمرته الشمس دفعةً واحدة . وكان عامل المطبعة قائماً هناك . فسأله برونيه :
— ماذا اذن ؟ .
فطرف العامل بعينيه وقال :
— وما الفائدة ؟ ما دمنا ذاهبين الى شالون .
فرفع برونيه كتفيه ونظر الى القناة . وكان على حافة الشاطيء

قارب ، وفوقه رجل يشرب ، وترى قبعته وقدحه وانفه الطويل فوق الممشى . وكان آخران يسيران على الحافة ، وهما يرتديان قبعة من القش ويتحدثان بهدوء ؛ ولم يتكلفا حتى ادارة رأسيهما نحو القطار . وصاح مولو :

— هيه ! هيه ! يا جماعة !

ولكنهم كانوا قد أصبحوا خارج مدار النظر . حانـة اخرى ؛ جديدة كل الجدة : « صيد سمين ! » وضربت انغام بيانو راعشة صاهلة وجه برونيه ، ثم اختفت ؛ وانما كان يسمعها الآن ألمان القطار ، ورأى برونيه قصراً لا يرونه بعد ، قصراً في نهـاية حقل ، يكتفنه برجان مروّسان ؛ وكان في الحقل فتاة صغيرة تمسك دولاباً وتنظر برصانة : وعبر عينيها الفتيتين ، كانت فرنسا بريئة عتيقة تنظر اليهم يمرّون . ونظر برونيه الى الفتاة الصغيرة وفكر في بيتان ؛ وكان القطار يجري عبر هذه النظرة ، عبر هذا المستقبل المليء بالألعاب العاقلـة ، والافكار الطيبة ، والهموم الصغيرة ، كان يجري نحو سهول البطاطا والمصانع وفبارك السلاح ، نحو مستقبل الرجال الحقيقي الأسود . وكان الاسرى ، خلف برونيه ، يحركون ايديهم ؛ وفي جميع القاطرات ، كان برونيه يري ايدياً تحمل المناديل : ولكن الصغيرة لم تكن لتجيب، وكانت تشدّ دولابها على جسمها . وقال اندريه :

— ان بوسعهم ان يرسلوا لنا تحية : لقد كانوا مسرورين جداً ، في ايلول ، بان نذهب فنحطم رؤوسنا دفاعاً عنهم .

قال لامبير : — صحيح ، ولكن ما حدث ، اننا لم نحطّمها .

— وما معنى ذلك ، أهو ذنبنا ؟ اننـا أسرى فرنسيون ، ونحن نستحق تحيّة .

وبدا عجوز ، وهو يصطاد بالصنارة ، جالساً على كرسي قابل

للطي ؛ ولم يرفع حتى رأسه ، وقهقه جوراسيان :

ــ لقد استعادوا حياتهم الصغيرة الطيبة .

قال برونيه : ــ هذا ما يبدو لي تماماً .

وكان القطار يجري عبر السلام : صيّادو صنارة ، قوارب ، مجذّفون ، والسماء الصافية . والقى برونيه نظرة خلفه ، فرأى وجوهاً متمتمة متذمرة ، ولكنها مفتونة .

قال مارتيال : ــ الكلام بسرّكم ، إن العجوز ليس على خطأ . فبعد ثمانية ايام ، سأذهب انا نفسي للصيد .

ــ وبأيّ شيء تصطاد ؟ بالصنارة ؟

ــ ! كلا ، طز : وانما بالقارب .

انهم « يرونه » ، تحررّهم ؛ يلمسونه تقريباً في هذا المنظر المألوف . فوق هذه المياه الهادئة . السلام ، العمل ، سيدخل العجوز هذا المساء وهو يحمل سمكاً ، بعد ثمانية ايام سيكونون احراراً : إن الدليل هنا ، رقيقاً موحياً . وشعر برونيه بضيق :

ليس حسناً ان يعرف وحده المستقبل . وصرف رأسه ، فنظر الى ازقة الطريق الآخر وهي تهرب . وفكّر : « ماذا أستطيع ان أقول؟ انهم لن يصدقوني . » وفكر بأن عليه ان يبتهج ، وبأنهم سيفهمون في آخر الأمر ، وان بوسعه أخيراً ان يعمل ولكنه أحسّ ازاء كتفه وذراعه حرارة عامل المطبعة المحمومة ، فأخذه اشمئزاز غامض شبيه بندم . وابطأ القطار في سيره .

ــ ما هذا ؟

فقال مولو بلهجة مزهوة : ــ انه تغيير السكة . انني اعرف هذا الخطّ . فمنذ عشرة اعوام كنت رحالة ، وكنت اسافر عليه كل اسبوع . سترون : اننا سنعطف الى الشمال والسكة

الى اليمين تفضي الى لونافيل وستراسبورغ .

فقال بلوندينه : – لونافيل ؟ ولكني كنت أحسب اننا سنمرّ بلونافيل حتماً .

– لا ، لا . اقول لك اني اعرف الخط . من المرجح ان تكون السكة الى لونافيل مقطوعة ، وقد مررنا عن طريق « سان ديا » لنتجنبّها ، وها نحن الآن نصعد من جديد .

وسأل صوت « راميل » القلق :

– والمانيا ، الى اليمين ؟

– نعم ، نعم ، ونحن نسلك الى اليسار . فهناك نانسي وبارلودوك وشالون .

وابطأ القطار وتوقف . والتفت برونيه ينظر اليهم. كانت لهم وجوه هادئة طيبة ، وكان فيهم من يبتسم . الا « راميل » استاذ البيانو ، فقد كان يعضّ شفته السفلى ويلمس نظارتيه بهيئة مضطربة متوزعة . وحدث مع ذلك صمت ، ثم أخذ مولو فجأة يصرخ :

– هيه ! الفراخ ؟ قبلة ايتها الغندورات ، قبلة صغيرة !

فالتفت برونيه ، فاذا هنّ ست بأثواب خفيفة واذرع سمينة حمراء ووجوه نضرة ، ستّ ينظرن اليهم ، من وراء الحاجز . وارسل مولو لهن قبلات ، فلم يبتسمن ؛ واخذت سمينة سمراء، غير قبيحة، تتنهد ؛ وكانت التنهدات تعلو بصدرها الكبير ؛ اما الاخريات فقد كنّ ينظرن بعيون كبيرة حزينة : وكانت الافواه الستة تقلد حركات طفل يوشك ان يبكي في هذه الوجوه الريفية اللامعبّرة . وقال مولو :

– هيّا ! هيّا ! حركة لطيفة !

وأضاف وقد أخذه إلهام مفاجيء :

– الا تُرسلن قبلات لفتيان ذاهبين الى المانيا ؟

فارتفعت من خلفه أصوات احتجاج :

ـ هيه ! لا سمح الله ! لا تتحدث عن المصائب !
فالتفت مولو ، في ارتياح كامل :
ـ اصمتوا ! إني اقول لهن ذلك لكي يُرسلن لنا بسمة !
فضحك الافراد وصاحوا : ـ هيّا ! هيّا !
وظلّت السمراء تنظر اليهنّ بعينيها الخائفتين ؛ ورفعت يداً مترددة، فأسندتها الى شفتيها المتدليتين ثم قذفتها بحركة آلية . فقال مولو :
ـ أحسن من هذا ! أحسن من هذا !
فصاح به صوت باللغة الألمانية ، فسارع يدخـل رأسه . وقال جوراسيان :
ـ إخرس ! انك ستسبب اغلاق القاطرة .
فلم يجب مولو ، ولكنه دمدم لنفسه وحده :
ـ كم هنّ فروج حمقاوات ، نساء هذا البلد !
وأخذ القطار يصرّ ، واهتزّ على مهل ، فصمت الأفراد ، وظل مولو ينتظر ، فاغر الفم ، وفكر برونيه : هذه هي اللحظة ، وحدثت قضقضة مفاجئة ، اهتزازة ، ففقد مولو توازنه وتشبث بكتف شنايدر وهو يطلق صرخة نصر :
ـ انتهى الأمر ، يـا جماعة ، انتهى الأمر ، فنحن ذاهبون الى نانسي .
فضحك الجميع وصاحوا . وارتفع صوت راميل العصبي :
ـ هذا مؤكد اذن ، اننا ذاهبون الى نانسي ؟
فقال مولو وهو يشير الى الطريق :
ـ ما عليك الا ان تنظر .
وفعلاً انعطف القطـار الى اليسار ، فرسم قوس دائرة ، وكان بامكان المرء في تلك اللحظة ان يرى المحرك ، من غير ان يُطلّ .
ـ وبعد ذلك ؟ تواً الى نانسي ؟

والتفت برونيه ، فاذا وجه راميل ما زال رمادياً ، وشفتاه المتقعتان ما انفكتا ترتجفان .

وسأل مولو مقهقهاً :

– تواً ؟ أتظن انهم سيغيرون لنا القطار ؟

– لا ، وانما أقصد : هل هناك تغيير سكة آخر ؟

فقال مولو : – بل هناك تغييران آخران . واحد قبل « فروار » ، والآخر عند « بايني سورنوف » .

ولكن لست بحاجة للاهتمام بذلك ، فنحن ذاهبون يساراً ، دائماً الى اليسار ، باتجاه بار لودوك وشالون .

– ومتى نتأكد من ذلك ؟

– ماذا تريد اكثر من هذا ؟ اننا متأكدون .

– أقصد بالنسبة لتغيير السكة ؟

قال مولو : – آه ، اذا كان هذا مـــا تقصده ، فلدى التغيير الثاني . إذا سلكنا الى اليمين ، فهذا يعني ميتز واللكسمبورغ . اما الثالث ، فلا يُعوّل عليه : فالى اليمين خط فردان وسيدان ، وماذا تريدنا ان نفعل هناك ؟

قال راميل : – انه الثاني إذن ، وهو القادم ...

ولم يقل بعد شيئاً ، وانطوى على نفسه ، وركبتاه الى ذقنه ، بهيئة راعشة ضائعة . وقال اندريه :

– اسمع ، إنك تكاد تخرّينا . سوف تتأكد عما قليل .

فلم يجب راميل ، وهبط على الشاحنة صمت ثقيل ، وكانت الوجوه لا معبرة ، ولكنها متقلّصة بعض الشيء . وسمع برونيه لحن هارمونيكا لطيفاً ، فقفز اندريه في الهواء :

– آه ! كلا ، لا موسيقى !

فقال صوت من جوف الشاحنة : – ان لي الحق بان أعزف على

الهارمونيكا .

قال اندريه : — لا موسيقى .

وصمت الرجل . وكان القطار قد أخذ يسرع قليلا ، ومرّ على جسر ، فتنهد عامل المطبعة :

— انتهت القناة .

وكان شنايدر نائماً وهو جالس ، ورأسه مهتز . وأحس برونيه الضجر ، وهو ينظر الى الحقول ، فارغ الرأس ؛ وبعد لحظة ، خفف القطار سيره . فاستقام راميل ، وعيناه شاردتان :

— ما هذا ؟

فقال مولو : — لا تهتمّ . انها نانسي .

وارتفع رمل السكة الحديدية فوق القاطرة ، وواجهوا آنذاك جداراً. وفوق الجدار كان يمتدّ كورنيش من الحجارة البيضاء، وفوق الكورنيش دربزين حديدي ذو الواح متوازية ، وقال مولو :

— هناك شارع ، فوق .

وأحس برونيه فجأة انه مسحول بعبء هائل ، فقد انحنى الافراد وهم يستندون عليه ، مديرين رؤوسهم نحو السماء . ودخل الدخان في غيوم كبيرة الى الشاحنة ، فسعل برونيه ، وقال مارتيال :

— انظروا الى الجماعة فوق .

فارتدّ برونيه برأسه الى الخلف ، فأحس لدى رأسه بشيء قاس ، وكانت أيدٍ تدفع كتفيه : كان ثمة في الواقع شخص منحن على الدربزين . وعبر القضبان ، كانت ترى سترته السوداء وبنطاله المخطط . وكان يحمل محفظة جلدية ، ويبدو في الاربعين . وصاح مارتيال :

— مرحباً .

فقال الرجل : — مرحباً .

وكان له شارب أنيق في وجه هزيل صلب ، وكانت له عينان

زرقاوان شديدتا الصفاء .

وقال الافراد : — مرحباً ! مرحباً !

وسأل مولو : — كيف حال نانسي ، هل هي مهدمة جداً ؟

قال الرجل : — لا .

قال مولو : — هذا أفضل ، هذا أفضل .

فلم يجب الرجل ، وكان يحدّق فيهم ، بشيء من الفضول . وسأله جوراسيان :

— وهل عاد الناس الى أعمالهم ؟

وصفر المحرّك ، فوضع الرجل يده حول اذنه وصاح :

— ماذا ؟

فقام جوراسيان بحركات فوق رأس برونيه ليوضح انه لا يستطيع ان يصيح بصوت أعلى . وقال له لوسيان :

— اسأله عن اسرى نانسي .

— وماذا ، بشأن الأسرى ؟

— اسأله ان كان يعرف شيئاً عن الأسرى .

فقال مولو : — انتظر ، ان أحدنا لا يسمع الآخر بعد .

— اسأله بسرعة ، فالقطار يكاد يسير .

وانقطع الصفير ، فصاح مولو :

— الأعمال ، هل عادت ؟

فقال المدني : — أتظنّ ذلك ؟ وجميع الألمان الموجودين في المدينة؟

وسأل مارتيال : — وهل فتحت دور السينما من جديد ؟

فسأل المدني : — ماذا ؟

فقال لوسيان : — طز ! على قفانا دور السينما ، حلّ عنا انت ودور السينما ، ودعني أتحدث .

وأضاف : — والأسرى ؟

فسأل المدني : – أيّ أسرى ؟

– أليس من أسرى ، هنا ؟

– بلى ، ولكن لم يبق بعد من أسرى .

وصاح مولو : – اين ذهبوا ؟

فنظر اليه المدني في شيء من الدهشة وأجاب :

– ولكن ، الى المانيا !

قال برونيه : – ايه ! لا تدفعوني !

وتقوّس بكلتا يديه على الارض الخشبية ؛ وكان الافراد يسحقونه ويصيحون معاً :

– الى المانيا ؟ هل انت مجنون ؟ تريد ان تقول الى شالون ؟ الى المانيا ؟ من قال لك انهم كانوا ذاهبين الى المانيا ؟

فلم يجب المدني بشيء ، وكان ينظر اليهم بهيئته الهادئة . وقال جوراسيان :

– اسكتوا يا جماعة ، ولا تتكلموا جميعاً معاً .

فسكت الافراد ، وصاح جوراسيان :

– وكيف عرفت ذلك ؟

وانبعثت صيحة غاضبة ، ثم قفز من العجلة حارس ألماني ، وحربته في بندقيته ، فارتمى أمامهم . وكان شاباً فتياً محمراً من الغضب ، وكان يصرخ بالالمانية بلهجة سريعة جداً ، وصوت أبحّ ؛ وأحسّ برونيه بغتة أنه قد تخفف من العبء الهائل الذي كان يسحقه ، فلا بد ان الافراد قد عادوا الى الجلوس بسرعة . وصمت الحارس ، وظل قربهم ، وسلاحه امام قدمه . وكان المدني ما يزال هناك ، مطلا فوق الدرابزين ، وهو ينظر ، وتمثل برونيه ، في ظل القاطرة ، جميع هذه العيون المحمومة التي ارتفعت تسائل في صمت .

وتمتم لوسيان خلفه : – انها قذارة ! قذارة !

وظل الرجل جامداً ، أبكم ، غير صالح للاستعمال ، ومع ذلك مليئاً بعلم خفي . وصفر المحرك ، ودلفت الى القاطرة دوامة من الدخان ، فاهتز القطار وعاود السير . وسعل برونيه . وانتظر الحارس ان تمر العجلة امامه ، فألقى فيها بندقيته ؛ ورأى برونيه أربع ايـدٍ ذات اكمام خضراء تلتقطه من كتفيه وترفعه .

— اولا ، ما يدريه ، ذلك الفرج ؟

— نعم ، ما يدريه ؟ اذا كانوا قد ذهبوا ، فكل مـا هناك انه رآهم يذهبون .

وانفجرت الأصوات الغاضبة خلف برونيه ، وابتسم برونيه من غير ان يقول شيئاً .

وقال راميل : — كل ما في الامر انه يفترض ذلك ، « يفترض » انهم ذهبوا الى المانيا .

وأسرع القطار في سيره ، وحاذى محطات كبيرة خالية ، وقرأ برونيه علي لافتة :

« باب خروج . ممر تحت الارض » . ومضى القطـار . المحطة ميتة . وكانت كتف عامل المطبعة ترتجف ازاء كتف برونيه . وانفجر العامل بوحشية :

— انها قذارة إذن ، ان يقول ذلك ، من غير ان يكون متأكداً .

قال مارتيال : — صحيح . انه لقذر !

قال مولو : — وكيف ! ليست هذه أشياء تعمل . لا بدّ انّه فرجٌ غريب ...

فردّد جوراسيان : — فرج ؟ انك لم تنظر اليه ! اقسم لك انه ليس فرجاً ، ذلك الشخص . كان يعلم ما يفعله ، اؤكد لك .

— كان يعلم ما يفعله ؟

والتفت برونيه ، فابتسم جوراسيان بهيئة وحشية وقال :

– انه واحد من الطابور الخامس .
قال لامبير : – واذا كان على حق ، يا جماعة ؟
– اخرس ايها الفرج ! اذا كنت راغباً في الذهاب الى المانيا ، فتطوّع ، ولا تأت الينا لتخرّبنا .
قال مولو : – ثم طز ! سنعرف الحقيقة عند مفترق السكة .
فسأل راميل : – ومتى نصل اليه ؟
وكان أخضر اللون ، يربت بأصابعه على معطفه .
– بعد ربع ساعة ، أو عشرين دقيقة .
وكفّ الافراد عن الكلام ، وجعلوا ينتظرون . وكانت لهم وجوه قاسية ، وعيون ثابتة لم يعهدها برونيه منذ الكارثة . ثم سقط كل شيء في الصمت ، فلم يكن يسمع غير صرير القاطرات . وكان الطقس حارّاً ، وكان بودّ برونيه ان ينزع سترته ، ولكنه لم يستطع ، فهو محشور بين عامل المطبعة والجدار . وكانت قطرات من عرق تتدحرج على عنقه . وقال عامل المطبعة ، من غير ان ينظر اليه :
– اوه ! برونيه !
– ماذا ؟
– هل كنت تسخر مني ، حين قلت لي ان أقفز ؟
فسأله برونيه : – لماذا ؟
فأدار العامل اليه وجهه الطفولي الرقيق الذي لم تكن التجعدات ولا الاوساخ ولا اللحية لتستطيع ان تشيخه ، وقال :
– لن يكون في استطاعتي ان اتحمل الذهاب الى المانيا .
فلم يجب برونيه بشيء . وقال العامل :
– لن أستطيع ان أتحمل ذلك . سوف أموت . انني متأكد اني سأموت هناك .
وهزّ برونيه كتفيه وقال :

ـ ستفعل كما يفعل الجميع .

قال العامل : ـ ولكن الجميع يموتون . الجميع . الجميع . الجميع .

وأخرج برونيه يداً فوضعها على كتفه وقال له بشغف :

ـ لا تثر أعصابك ، ايها الرأس الصغير .

وكان العامل يرتجف ، وقال له برونيه :

ـ اذا ظللت هكذا ، فستنقل الخوف الى الرفاق .

فجرض العامل بريقه ، وبدت عليه الوداعة ، فقال :

ـ انت على حق يا برونيه .

وندّت عنه حركة يأس وعجز ، فأضاف بحزن :

ـ انت دائماً على حق .

فابتسم له برونيه . وبعد لحظة ، استطرد عامل المطبعة بلهجة صماء :

ـ كان ذلك إذن مزاحاً ؟

ـ ما هو ؟

ـ حين قلت لي ان اقفز ، كنت تمزح ؟

قال برونيه : ـ لا تهتم بذلك .

قال العامل : ـ واذا قفزت الآن ، هل تلومني ؟

وكان برونيه ينظر الى رؤوس البنادق التي كانت خارجة من العجلة متلألئة . وقال :

ـ لا ترتكب حماقات ، فانك ستدق رأسك .

قال العامل : ـ دعني أجرّب حظي ، دعني أجرب حظي .

فقال برونيه : ـ ليست هذه لحظة مناسبة .

قال العامل : ـ مهما يكن ، فاذا ذهبت الى هناك ، متّ . فما دام الأمر كذلك ...

فلم يجب برونيه ، وقال عامل المطبعة :

ـ قل لي فقط اذا كنت تلومني ؟

وكان برونيه ما يزال ينظر الى رؤوس البنادق ، فقال بهدوء وبرودة :

– نعم ألومك . واني أمنعك من ذلك .

فخفض العامل رأسه ، ورأى برونيه فكّه الذي يتحرّك .

وقال شنايدر : – إنك فظّ الى ابعد حد .

فلفت برونيه رأسه : كان شنايدر ينظر اليه نظرة قاسية . ولم يجب برونيه ، بل تجمّع لدى العمود ؛ وكان بودّه ان يقول لشنايدر : « اذا لم أمنعه من الوثوب ، الا ترى أنه سيقتل نفسه ؟ » ولكنه لم يستطع ، لأن العامل سوف يسمعه ؛ وأحسّ باستياء أن شنايدر يدينه . وفكر : « ان هذه لحماقة » ونظر الى رقبة عامل المطبعة الهزيلة ، وفكر : « واذا كان سيموت هناك ؟ » وفكر : « خراء! انني لستُ بعدُ أنا . » وأبطأ القطار : هذا موقف تغيير السكة . بكل تأكيد ، الجميع يعلمون ان هنا التغيير ، ولكنهم لا يقولون شيئاً . وتوقف القطار ، وساد الصمت . ورفع برونيه رأسه . وكان مولو منحنياً فوقه ينظر الى السكة ، فاغر الفم . وكان ازرق متجهماً . وفي عشب الردم ، كان يسمع صوت صراصير تغني . وقفز ثلاثة من الألمان الى السكة ليزيلوا خدر سيقانهم ، فمروا امام القاطرة ضاحكين . واخذ القطار يسير ، فاستداروا على أعقابهم وركضوا ليلحقوا بالمركبة . وارسل مولو هديراً :

– الى اليسار ، يا جماعة ، اننا ننعطف الى اليسار !

واهتزّت القاطرة وصرت ، حتى لكأنها ستنتزع نفسها من الخط . ومن جديد ، أحسّ برونيه على كتفيه وزن عشرة أجسام منحنية الى أمام ، وكان الافراد يصرخون :

– الى اليسار ! اننا ذاهبون الى شالون !

وعلى ابواب القاطرات الاخرى ظهرت رؤوس سوداء من الدخان ،

وهي تضحك ، وصاح اندريه :

– ايه يا شابو ! اننا ذاهبون الى شالون !

وكان شابو مطلاً من القاطرة الرابعة ، وهو يضحك ويصيح :

– هذا قليل يا جماعة ! هذا قليل !

وكان الجميع يضحكون ، وسمع برونيه صوت غاسو :

– لقد خافوا مثلنا .

فقال جوراسيان : – اترون يا جماعة ؟ لقد كان من الطابور الخامس .

ونظر برونيه الى عامل المطبعة . فاذا هو صامت ، وما يزال يرتعش ، ودمعة تسيل على خده الايسر فتخط ثلماً في الوسخ والفحم . واخذ رجلٌ يعزف على الهارمونيكا ، فيغني آخر على الايقاع : « سأبقى اميناً لك ، يا ثوبي الكاكي . » وأحسّ برونيه بحزن فظيع ، وكان ينظر الى السكة التي تجري ، فتأخذه في الرغبة القفز . وكانت القاطرة في الرأس ، والقطار يغني ، كقطارات المفاجأة فيما قبل الحرب . وفكر برونيه : « إن في النهاية مفاجأة ، وارسل عامل المطبعة تنهدة ارتياح ورضى كبيرة ، وقال :

– آه لا لا ! آه لا لا !

ونظر الى برونيه نظرة خبيثة ، وقال :

– انت ، كنت تظنّ اننا ذاهبون الى المانيا .

فتصلب برونيه قليلاً ، وأحسّ بان نفوذه قد مُس ، ولكنه لم يجب بشيء . والواقع ان عامل المطبعة كان يظهر بمظهر مصالحة ، فأضاف بحيوية :

– يمكن لكل انسان ان يخطيء : فانا نفسي كنت اظنّ هذا ، مثلك .

وصمت برونيه ، واخذ العامل يصفر ، وقال بعد لحظة :

ـ سأخبرها قبل ان اذهب اليها .
فسأله برونيه : ـ من تقصد ؟
قال العامل : ـ صاحبتي . وسوف تقع مغشياً عليها !
قال برونيه : ـ هل لك صاحبة ؟ في سنّك هذه ؟
قال العامل : ـ نعم . بل كان المفروض ان نتزوج، لولا قصة الحرب هذه .
ـ وما عمرها ؟
قال العامل : ـ ثماني عشرة سنة .
ـ هل التقيت بها في الحزب ؟
ـ كلا ، في حفلة رقص .
ـ وهل تفكر مثلك ؟
ـ في اي شيء ؟
ـ في كل شيء .
قال العامل : ـ الحقيقة ، لا ادري بمَ تفكر . وأعتقد أنها لا تفكر بشيء : فهي طفلة . ولكنها طيبة وعاملة . . ثم انها ملتفّة الجسم !
وحلم قليلاً ، وقال :
ـ وربما كان هذا هو الذي أثار سويدائي . كنت مشتاقاً اليها . هل لك صاحبة ، يا برونيه ؟
قال برونيه : ـ ليس لديّ الوقت .
ـ إذن ، كيف تدبّر أمرك ؟
فابتسم برونيه وقال : ـ احياناً ، هكذا ، بطريقة عابرة .
قال العامل : ـ اما انا ، فلا أستطيع ان اعيش هكذا . الا يعجبك ان يكون لك بيت حقيقي وبداخله امرأة صغيرة ؟
ـ لن يكون لي ذلك ابداً .

قال العامل : — نعم ، نعم .

وبدا عليه الاضطراب ، وقال كأنما يعتذر :

— انا لست بحاجة الى شيء كثير ؛ وهي كذلك . ثلاث كراسي وسرير .

وابتسم في الفراغ ، وأضاف :

— لولا هذه الحرب ، لكنّا سعيدين .

وانزعج برونيه ، فنظر الى عامل المطبعة بلا ودّ ؛ وعلى هذا الوجه الذي كان الهزال قد جعله شديد التعبير ،قرأ شهوةً نهمة للسعادة ، وقال على مهل :

— لم تقع هذه الحرب بطريق المصادفة . ثم انك تعرف جيداً اننا لا نستطيع ان نعيش سعداء في عهد الطغيان .

قال العامل : — اوه ! كنت سأتخذ لنفسي ركني الصغير ..

فهزّ برونيه كتفيه وقال له بجفاء :

— لماذا انت شيوعي إذن ؟ إن الشيوعيين لم يُخلقوا ليدفنوا انفسهم في الثقوب !

قال العامل : — من اجل الآخرين . كان في الحي الذي اسكنه بؤس كثير ، وكنت اودّ ان يتغير ذلك .

قال برونيه : — حين ندخل في الحزب ، فلا يبقى ما هو هامّ غير الحزب . كان ينبغي لك ان تعرف ما الذي تلتزمه .

فقال العامل بحيوية : ولكني كنت أعرفه . هل حدث ان رفضت يوماً ما كنتَ تطلبه مني ؟ ولكن قل لي ، حين أضاجع ، لا يكون الحزب موجوداً ليحمل لي الشمعدان . فهناك لحظاتٌ ..

ونظر الى برونيه وتوقف فجأة . ولم يقل برونيه شيئاً ، وكان يفكر :

— إنه هكذا لأنه يعتقد اني اخطأت . ينبغي للمرء ان يكون معصوماً .

وكان الحرّ يشتدّ ، والعرق يبلل قميصه ، والشمس تصفع وجهه: يجب ان نعرف لماذا يدخل هؤلاء الشبان جميعاً الحزب الشيوعي؛ فحين يدخله احدهم بدافع من افكار سمحة ، فلا بدّ ان تأتي لحظة يُحس فيها بالضعف والتداعي . «وانت، انت، لماذا دخلته! اوه ! لقد انقضى على ذلك وقت طويل ، فليس له بعد من أهمية ، انا شيوعي لانني شيوعي ، هذا كل ما في الأمر .» واخرج يده اليمنى ، فمسح العرق الذي يبلل حاجبيه ونظر الى الساعة : الرابعة والنصف . اننا لسنا على وشك ان نصل ، بالنسبة لهذه الدورات . سوف يغلق الألمان القاطرات هذه الليلة ، فننام على سكة مرأب . وتثاءب . وقال :

ـ انك لا تقول شيئاً ، يا شنايدر .

وسأل شنايدر : ـ وماذا تريد ان أقول ؟

وتثاءب برونيه ، ونظر الى السكة تجري ، وكانت سحنة ممتقعة تقهقه بين الخطوط، ها ، ها ، ها ، وسقط رأسه ، واستفاق منتفضاً، وكانت عيناه تؤلمانه ، واندفع الى خلف ليتفادى من الشمس ، وقال احدهم « حكمٌ بالاعدام » ، وسقط رأسه ، واستفاق مرة اخرى فحمل يده الى ذقنه المبللة : لقد سال لعابي ، فلا بد اني نمت مفتوح الفم ؛ واستبشع ذلك .

ـ هل تريد ان تفرغها ؟

ومدّ له علبة مفتوحة من لحم القرد ، وكانت ساخنة ، فقال :

ـ ما هذا ! آه ، حسناً .

وقلبها في الخارج ، فسقط المائع الأصفر مطراً على السكة :

ـ ايه ! ارجعها بسرعة .

فمدّها من غير ان يلوي ، فأخذت من يده ، واراد ان يعود الى النوم ، ولكن يداً ضربته على كتفه ، فأخذ العلبة وأفرغها . وقال عامل المطبعة :

ـ اعطني اياها .

فمدّ برونيه العلبة الى العامل الذي نهض على مشقة . ومسح برونيه أصابعه الرطبة بسترته ، وبعد لحظة ، امتدت ذراع فوق رأسه فأمالت علبة التنك ، فتناثر الماء الأصفر وجرى قطرات بيضاء نحو الخلف . وعاد العامل الى الجلوس وهو يمسح أصابعه ، وترك برونيه رأسه يسقط على كتف العامل ، وسمع أنغام الهارمونيكا ، ورأى حديقة جميلة ملآى بالزهور ، واستغرقه النوم . وأيقظته صدمة ، فصاح :

ـ ماذا ؟

كان القطار قد توقف في الريف .

ـ ماذا ؟

قال مولو : ـ لا شيء ، بوسعك ان تعود الى النوم : انها « باني سور موز »

والتفت برونيه ، كل شيء هادىء ، لقد الف الافراد فرحتهم ، وكان بينهم من يلعب الورق ، آخرون يغنون ، وآخرون صامتون مسحورون يروون لانفسهم الحكايات ، وعيونهم ملآى بالذكريات التي يجرؤون أخيراً على ان يتركوها تصعد من أعماق قلوبهم ، ولم يتنبه أحد لتوقف القطار ، وغرق برونيه في النوم ، وحلم بسهل غريب يجلس فيه حول نار كبيرة رجال عراة ذوو لحى رمادية ، هزيلة الاجسام كأنهم هياكل ؛ وحين استيقظ ، كانت الشمس قد انخفضت كثيراً على الافق ، وكانت السماء بنفسجية ؛ وكانت بقرتان ترعيان في مرج ، وكان القطار على سكونه ، والافراد يغنون ؛ وعلى المنحدر ، كان جنود ألمان يقطفون زهوراً ، وكان ثمة جندي قصير سمين شديد البأس ، ذو خدين أحمرين ، اقترب من الأسرى وقد وضع بين اسنانه زهرة لؤلؤية ، وهو يبسم لهم بسمة عريضة . فبسم له مولو واندريه ومارتيال . وظل الالماني والفرنسيون لحظة يتبادلون النظر باسمين ، ثم

قال مولو فجأة بالالمانية .

ــ سجاير .

فتردد الجندي والتفت الى المنحــدر ؛ وكان رفاقه الثلاثة المنحنون يبدون مؤخراتهم ، وبحث بخفة في جيبه ، ثم قذف بعلبة سجايره الى القاطرة ؛ وسمع برونيه خلفه ضجة وصخباً ، ونهض راميــل الذي لم يكن يدخن فصاح بالالمانية وهو يبتسم :

ــ شكراً .

فأشار له القصير السمين بان يصمت . وقال مولو لشنايدر :

ــ اسأله الى اين نحن ذاهبون .

وتحدث شنايدر بالألمانية الى الجندي ، فأجاب الجندي وهو يبتسم ؛ وكان الآخرون قد فرغوا من قطف الزهور ، فاقتربوا حاملين باقاتهم باليد اليسرى ، والزهور متجهة الى أسفل ؛ وكانوا الرقيب وجنديين ، وكان يبدو عليهم الجذل ، وقــد انخرطوا مشاركين في الحديث وهم يضحكون . وقال مولو وهو يبتسم ايضاً :

ــ ماذا يقولون ؟

فقال شنايدر نافد الصبر :

ــ انتظر قليلا ، ودعني أفهم .

وألقى الجنود نكتة أخيرة وعادوا إلى المركبة ، على غير ما عجل، وتوقف الرقيب ليبول عند وتد القاطرة ، ثم زرر فتحة بنطاله ، وهو متباعد الساقين ، ورمى الى رجاله بنظرة ، وفيما هم مديرون ظهورهم ، قذف بعلبة سجاير الى القاطرة .

وقال مارتيال بصحة سعيدة :

ــ ها ! انهم ليسوا حيوانات !

قال جوراسيان : ــ ذلك لأننا قد أطلق سراحنا ؛ فهم يريدون ان يتركوا لنا تذكاراً جميلا .

قال مارتيال حالماً : ــ هــذا ممكن . ان كل ما يفعلونه هو في الواقع من قبيل الدعاية .

وسأل مولو شنايدر : ــ ماذا قالوا ؟

فلم يجب شنايدر ، وكانت هيئته غريبة .

قال اندريه : ــ نعم ، ماذا قالوا ؟

فابتلع شنايدر ريقه بمشقة وقال :

ــ انهم من هانوفر ، وقد قاتلوا في بلجيكا .

ــ والى اين نحن ذاهبون ، كما قالوا ؟

فبسط شنايدر ذراعيه وابتسم وقال بلهجة اعتذار :

ــ الى « تريف » .

قال مولو : ــ تريف ؟ واين هي معلقة ؟

فقال شنايدر : ــ في مقاطعة بالالمانيا .

وساد صمت غير محسوس . ثم قال مولو :

ــ تريف ، في المانيا ؟ لقد سخروا بك اذن !

فلم يجب شنايدر . وقال مولو في ثقة هادئة :

ــ إن من يمرّ بـ « بارلودوك » لا يذهب الى المانيا .

وظل شنايدر على صمته ، فسأل اندريه بلا اكتراث :

ــ كانوا يضحكون ام ماذا ؟

فقال لوسيان : ــ لقد رأيت جيداً انهم كانوا يضحكون ..

وقال شنايدر على مضض : ــ ولكنهم لم يكونوا يضحكون حين قالوا لي ذلك .

فسأله مارتيال في غضب : ــ ألم تسمع ما قال مولو ؟ ان الطريق الى المانيا لا تمرّ بـ « باراودوك » ، فليس هذا معقولا .

فقال شنايدر : ــ اننا لا نمر بـ « بارلودوك » وانمــا ننعطف الى اليمين .

فأخذ مولو يضحك : — آه ! هــذا لا ! اسمح لي ان اعرف الطريق خيراً منك . فالى اليمين فردان وسيدان . واذا تابعت الى اليمين، فربما وصلت الى بلجيكا ، اما الى المانيا ، فلا !

واستدار نحو الآخرين بهيئة اقتناع مطمئن :

— ما دمت اقول لكم اني كنت اتجوّل في المنطقة كل اسبوع . واحياناً ، مرتين في الاسبوع !

أضاف هذه الجملة الاخيرة ، ووجهه يعبر بيأس عن الاقتنــاع . وقال الافراد :

— طبعاً ، طبعاً ، لا يمكن ان يكون مخطئاً .

قال شنايدر : — اننا نمرّ باللكسمبورغ .

وجهد في ان يتكلم ؛ وشعر برونيه ، انه ما دام قد بدأ الكلام ، فانه يريد ان يغرس الحقيقة في رؤوسهم ، وكان ممتقعــاً ، يتكلم من غير ان ينظر الى أحد . وأدنى اندريه وجهه من وجه شنايدر وصاح به:

— ولكن لماذا نقوم بهذه الدورة ؟ لماذا ؟

وكان الافراد يصيحون من خلفه :

— لماذا ؟ لماذا ؟ فهذه حماقة ! لماذا ؟ ما كان لنا الا ان نمر إذن بـ « لونافيل » .

فاحمرّ وجه شنايدر ، والتفت تمامــاً الى جوف القاطرة ، وواجه الذين يصرخون ، فصاح في غضب :

— انا لا اعرف شيئاً من هذا ، لا اعرف شيئاً . ربما لأن السكك منسوفة ، أو لأن على الخطوط الاخرى قطارات المانية ، فلا تجعلوني اقول اكثر مما أعرف ، وفكروا بما تشاءون .

وصاح صوت ثاقب من فوق جميع الاصوات الأخرى :

— لا حاجة بكم الى الغضب يا جماعة ، فسوف نعرف عما قليل .

وردّد الافراد : — هذا صحيح ، سنرى ، سنرى ، ولا حاجة

الى جعل دمنا يغلي .

وعاد شنايدر الى الجلوس من غير ان يجيب . وبرز من القاطرة قبل الأخيرة رأسٌ مجعّد الشعر ، وصاح بهم صوتٌ فتيّ :

– ايه ! هل قالوا لكم يا جماعة الى اين نحن ذاهبون ؟

– ماذا يقول ؟

– انه يسأل الى اين نحن ذاهبون .

وانفجر الافراد في القاطرة ، انفجروا ضاحكين :

– ان هذا يجيء في اوانه . إن حاسة شمه قوية ، فهذه لحظة مناسبة لهذا السؤال .

وانحنى مولو ، وقد كوّر يديه حول فمه ، وصاح :

– الى قفاي !

واختفى الرأس المطلّ . وضحك الجميع ، ثم انقطع الضحك ، وقال جوراسيان :

– هل نلعب ، يا جماعة ؟ هذا افضل من ان نختلق الافكار .

فقالوا : – هيّا بنا .

فجلس الأفراد حول معطف مطويّ الى أربع ، وكان جوراسيان قد التقط الورق فأخذ يوزّعه . وكان راميل يقرض أظافره في صمت ؛ وكانت الهارمونيكا تعزف رقصة فالس ؛ وكان ثمة شخص واقف بازاء الجدار الداخلي يدخن سيجارة ألمانية ؛ بهيئة تفكُّر . وقال ، كأنما يحدّث نفسه :

– إن التدخين الآن لذة .

والتفت شنايدر نحو برونيه فقال له بلهجة اعتذار :

– لم اكن استطيع ان اكذب عليهم .

فهز برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر :

– أجل ، لم اكن أستطيع .

قال برونيه : — ما كان ذلك ليجدي شيئاً ، فلا بد ان يعرفوا ذلك عما قليل .

ولاحظ انه تكلم برخاوة ؛ كان مغتاظاً من شنايدر ؛ من أجل الآخرين .

ونظر اليه شنايدر نظرة غريبة وقال :

— من المؤسف ألا تعرف الألمانية .

فسأله برونيه مندهشاً : — ولماذا ؟

— لأنك « انت » كنت تكون مسروراً بإخبارهم .

فقال برونيه في تعب : — انك مخطيء .

قال شنايدر : — ومع ذلك ، فان هذا الرحيل الى المانيا قد تمنيتَه.

فقال برونيه : — نعم ، لقد تمنيته .

وعاد عامل المطبعة يرتجف ، فأحاط برونيه كتفيه بذراعه وشده اليه بارتباك . وبهزة من رأسه ، اومأ الى شنايدر نحوه وهو يقول :

— اسكت .

فنظر شنايدر الى برونيه ببسمة مندهشة ؛ وكان كأنما يقول له : متى بدأت تهتم بتوفير الهموم على الناس ؟ وأدار برونيه رأسه ، ولكن ليرى وجه العامل النهم . كان العامل ينظر اليه ، وشفتاه ترتعشان ، وعيناه الكبيرتان الرقيقتان تدوران في وجهه الشفقي . وكان برونيه يهم بان يقول له : « هل كنت مخطئاً ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً ، ونظر الى رجليه تتدليان فوق العجلات الجامدة ، وكان يصفر . ومالت الشمس ، وكان الحر قد خف . وكان ثمة فتى يهش على البقرات بعصاه ، فتكردح ثم تهدأ وتمضي على الطريق بخيلاء ؛ فتى يدخل الى بيته ، وبقرات تعود الى الاصطبل ، إن هذا لخيبة . وفي البعيد البعيد، فوق احد السهول ، كانت طيور سود تحوم : ليس جميع الموتى في الأرض . ذلك القلق الذي كان يحفره ، لم يكن برونيه يعرف بعد ان

كان قلقه ام قلق الآخرين ؛ والتفت فنظر اليهم ليبقيهم علـى بعض المسافة منه : وجوه رمادية شاردة ، هادئة تقريباً ، فعرف فيهم تلك الهيئة الغائبة لجموع ستلتهب بالغضب . وفكر : « هذا حسن . حسن جداً . » ولكن بلا فرح . واهتز القطار ، وسار بضع دقائق ، ثم توقف . وكان مولو مطلا من القاطرة ، يرقب الأفق ، وقال :

– إن نقطة تغيير السكة على بعد مئة متر .

قال غاسو : – الا ترى انهم يتركوننا هنا حتى الغد ؟

قال اندريه : – ستكون معنوياتنا عظيمة !

وأحس برونيه ، حتى عظامه ، بجمود القطار الثقيل . وقال أحدهم:

– انها حرب الأعصاب تعود .

وسرت في القاطرة طقطقة جافة ، انها ضحكة . وانطفأت . وسمع برونيه صوت جوراسيان الهادىء :

– « أتو وأتو . »

وأحس بهزة ، فالتفت ؛ كانت يد جوراسيان الذي يحمل « آس قلب » قد ظلت في الهواء ، حين عاد القطار الى السير ؛ وانتظر مولو، وبعـد برهة ، أسرع القطـار ، ثم انبثق خطان حديديان من تحت العجلات ، برقـان متوازيان سيضيغـان الى الشمال ، بين الحقول . وقال مولو :

– خراء ! خراء ! خراء !

وصمت الافراد : لقد فهموا . وترك جوراسيان آسه يسقط عـلى المعطف ، وسوّى الثنية ؛ وكان القطار يسير بلطف وهو يلهث بانتظام، وكانت الشمس الغاربة تحمر وجه شنايدر ، وقد بدأ الطقس يترطب . ونظر برونيه الى عامل المطبعة وأمسك به فجأة من كتفيه :

– لا ترتكب حماقات ، أتسمع ؟ لا ترتكب حماقات ، يا صديقي الصغير !

فتشنج الجسم الهزيل تحت أصابعه ، فشدّ شداً أقوى ، فتقلص الجسم ، وفكر برونيه . « سأمسكك حتى الليل » وعند الليل ، يأتي

الألمان فيغلقون القاطرة ، حتى اذا جاء الصباح ، تكون نفسه قد هدأت.
وكان القطار يجري تحت السماء البنفسجية ، في صمت مطلق : انهم الآن يعرفون ، في جميع القاطرات يعرفون . واستسلم عامل المطبعة كامرأة على كتف برونيه . وفكر برونيه : « هل يحقّ لي ان امنعه من ان يقفز ؟ » ولكنه ظلّ يشدّ . ضحكة خلف ظهره ، صوت :

– صاحبتي التي كانت تريد طفلاً ! يجب ان اكتب لها ان تدعو الجار الى ان يتسلقها !

وضحكوا . وفكر برونيه : « يضحكون من فرط الشقاء ؟ » وملأت الضحكة القاطرة ، وصعدا الغضب ، وردّد صوت ضاحك :

– كم كنّا فروجاً حمقى ! كم كنّا فروجاً حمقى !

سهل بطاطا ، مصانع الصلب ، المناجم ، الاشغال الشاقة : بأي حق أمنعه من ذلك ؟ وردّد الصوت :

– كم كنا فزوجاً حمقى !

وتدحرج الغضب وصعد . وشعر برونيه تحت اصبعيه بتمايل الكتفين الهزيلتين ، وتهافت العضلات الرخوة ، وفكر : « انه لن يستطيع ان يتحمّل المجازفة » وضغط ، بأي حق؟ وزاد ضغطه ، فقال عامل المطبعة :

– انك تؤلمني .

وظلّ برونيه يضغط : انها حياة شيوعي ، فهو يخصنا ما دام حياً . ونظر الى هذا الوجه السنجابي الصغير : أجل ، ما دام حياً . ولكن أما زال يعيش ؟ لقد انتهى ، فقد تحطمت النوابض ، وهو لن يشتغل بعد ابداً . وصاح عامل المطبعة :

– ولكني دعني ! يلعن دين ! دعني !

واستغرب برونيه نفسه ؛ كان يمسك بين يديه هذه الجثة : عضواً من الحزب لا يستطيع بعد ان يخدم . كان بودّه ان يحدّثه . وان يحثه ، وان يساعده ، فلا يستطيع ، فان كلماته « للحزب » و « الحزب » هو الذي اكسبها معانيها ؛ وفي داخل « الحزب »

كان برونيه يستطيع ان يحب ، ويقنع ، ويعزّي . ولكن عامل المطبعة قد سقط خارج هذا المغزل الضوئي الهائل ، ولم يكن لدى برونيه بعدُ ما يقوله له . غير ان هذا الطفل ما يزال يعاني . ما دام هنا موت وهناك موت... آه ! فليصمم ! ومن الافضل ان يفرّ ، فاذا بقي ، فان موته سيجدى . وكانت القاطرة تضحك اكثر فاكثر ؛ وكان القطار يجري ببطء ، فكأنه موشك على التوقف .وقال عامل المطبعة بصوت مداور :

— أعطني العلبة ، فيجب ان ابول .

فلم يقل برونيه شيئاً ، ونظر الى العامل ، فرأى الموت . الموت ، هذه الحرية .

وقال العامل : — خراء ! الا تستطيع ان تعطيني العلبة ؟ اتريد ان ابول في ثوبي !

والتفت برونيه فصاح : — العلبة !..

ومن العتمة الملألئة بالغضب ، خرجت يد تمد العلبة ، وازداد بطء القطار ، وتردّد برونيه ، ونقش أصابعه في كتف العامل ؛ ثم ترك فجأة كل شيء ، واخذ العلبة ، كم كنا فروجاً حمقى مع ذلك ، كم كنا فروجاً حمقى ! وكفّ الأفراد عن الضحك . واحسّ برونيه بصدمة قاسية في مرفقه ، لقد انزلق عامل المطبعة من تحت ذراعه .

ومدّ برونيه يده ، فالتقط الفراغ : لقد سقطت الكتلة الرمادية مطوية الى اثنين ، طيراناً ثقيلا ، وصاح مولو ، وانسحق طيف على التراب المردوم ، متباعد الساقين ، متصالب الذراعين ، وانتظر برونيه طلقات النار ، وكانت « قد أصبحت » في اذنيه ؛ وطفر عامل المطبعة بعد ان مسّ الأرض ، وهــا هو ذا واقف ، شديد السواد ، حراً . و « رأى » برونيه طلقات النار : خمسة اشعاعات فظيعة . وأخذ عامل المطبعة يعدو بحذاء القطار ، لقد أخذه الخوف ، فهو يريد ان يصعد ، وصاح به برونيه :

— اقفز الى المنحدر ، يلعن دين ، اقفز !

وصاحت القاطرة برمتها :

– اقفز ! اقفز !

فلم يسمع العامل ، وكان يكردح ، فوصل الى مستوى القطار ، ومدّ ذراعيه وصاح :

– برونيه ! برونيه !

ورأى برونيه عينيه المذعورتين ، فهدر فيه :

– المنحدر !

ولكن العامل أصمّ ، وليس هو بعد الا هاتين العينين الهائلتين ، وفكر برونيه : « اذا صعد بسرعة ، فان له حظاً بالنجاة » وانحنى : كان شنايدر قد فهم، فزنره بذراعه اليسرى ليمنعه من السقوط . ومدّ برونيه ذراعيه ؛ فلمست يد عامل المطبعة ، وأطلق الألمان ثلاث طلقات فتداعى العامل باسترخاء الى الوراء ، وسقط ، وابتعد القطار ، ووثبت ساقا العامل في الهـواء ، ثم سقطتا ، واذا العارضة والحصى اسود من الدم حول رأسه . وتوقف القطار فجأة ، ووقع برونيه على شنايدر ، فقال وهو يكز بأسنانه :

– لقد رأوا جيداً انه سيصعد من جديد ، فأردوه بطيب خاطر .

وكان الجسد هناك ، على بعد عشرين خطوة ، وقد أصبح شيئاً ، أصبح حراً . « سأتخذ لنفسي زاويتي الصغيرة » ولاحظ برونيه انه ما يزال يمسك العلبة في يده ، لقد مدّ ذراعه للعامل من غير ان يتركها. انها فاترة . وتركها تسقط على الحصى . وخرج اربعة ألمان من المركبة وركضوا نحو الجسد ؛ وكـان الافراد ، خلف برونيه ، يدمدمون ، وهكذا ، أطلق عقال الغضب . ومن احدى قاطرات الرأس ، خرج زهاء عشرة ألمان ، فتسلقوا العارضة وواجهوا القطار ، ورشاشاتهم في ايديهم . ولم يخف الافراد ، وهدر أحدهم خلف برونيه :

– يا للقذرين ! يا للقذرين !

وكان الغضب بادياً عـلى الرقيب الألماني الضخم ، فانحنى ورفع الجسد ، ثم تركه يسقط وركله بقدمه .

والتفت برونيه فجأة :

– هيه لا ! انكم ستلقونني الى الأرض !

كان عشرون شخصاً قد اطلوا ، ورأى برونيه عشرين زوجاً من العيون الملأى بالقتل : ستكون هذه الضربة القاسية . وصاح :

– لا تقفزوا يا جماعة ! فستعرّضون نفوسكم للقتل .

ونهض على مشقة ، وهو يصارعهم ، وصاح :

– شنايدر !

فنهض شنايدر ايضاً ، وأخذ كل منهما بقامة الآخر ، وتشبّثا ، بواسطة الذراع الأخرى ، بقوائم الباب .

– لن تمرّوا .

وظلّ الافراد يدفعون ؛ ورأى برونيه هذا الحقد كله ، حقده ، أداته ، فأخذه الخوف . واقترب ثلاثة ألمان من القاطرة ، فصوّبوا على الافراد . وتمتم الافراد ، وكان الألمان ينظرون اليهم ؛ ورأى برونيه المجعّد الضخم الذي كان يرمي اليهم بالسجاير : كانت له عينا قاتل . وتبادل الفرنسيون والألمان النظر ، « انها الحرب » : انها الحرب للمرة الاولى منذ ايلول ٣٩ . وتراخى الضغط رويداً رويداً ، وتراجع الافراد، فأمكنه ان يتنفّس . واقترب الرقيب وقال :

– « هيناين ، هيناين »

وتراكم برونيه وشنايدر ازاء الصدور ، وكان خلفهم ألماني يقفل الباب بالمزلاج ، فما تلبث القاطرة ان تغرق في السواد ، وتنبعث رائحة العرق والفحم ، ويقرقر الغضب ، وتضرب الأقدام الخشب ، فكأنه جمع يسير . وفكر برونيه :

« انهم لن ينسوا . وهذا كسب . » وشعر بالضيق ، وتنفّس بضيق ، وكانت عيناه مفتوحتين على الظلام : وكان بين الفينة والفينة يحسهما منفوختين ، كبرتقالتين ضخمتين ، يوشكان على تفجير محجريه . ونادى بصوت منخفض :

– شنايدر ! شنايدر !

فقال شنايدر : — انا هنا .

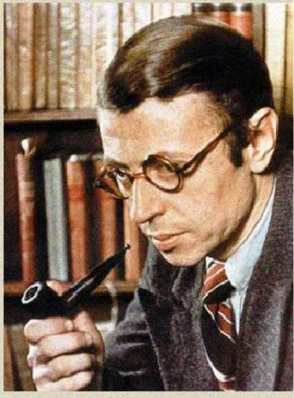
وتلمّس برونيه فيما حوله ، وكانت به حاجة للمس شنايـــدر . وأخذت يدٌ يده فشدّتها .

— هذا انت ، يا شنايدر ؟

— نعم .

وصمتا ، جنباً الى جنب ، واليد في اليد . وحدثت هزّة ، وتحرّك القطار وهو يصرّ . ماذا فعلوا بالجثة ؟ وأحس نَفس شنايـــدر بازاء أذنه . وفجأة ، سحب شنايدر يده ، واراد برونيه ان يستبقيها ، ولكن شنايدر تخلص بانتفاضة ، وذاب في الظلام . وظلّ برونيه وحيـــداً متصلباً ، غير مرتاح ، في حرارة تنّور . وكان واقفاً على قدم ، بينما كانت الاخرى محشورة فوق الأرض الخشبية ، في خليط معقـــد من السيقان والأحذية . ولم يحاول ان يخلصها ، فقد كانت به حاجة لأن يبقى في الموقّت : إنه عابر ، وفكره عابرٌ في رأسه ، والقطار عابر في فرنسا ، وتدفقت الافكار ملتاثة فسقطت على السكة ، خلفه ، قبل ان يتمكن من تمييزها ، وابتعد ، وابتعد ، وابتعد ؛ على هذا النحو من السرعة ، يمكن للحياة ان تُطاق . توقُّفٌ تام : انزلقت السرعة وسقطت على قدميه ؛ وكان ما يزال واثقاً من ان القطار يسير : فهو يصر ويصدم ويرتج ؛ ولكنه لم يكن يشعر بعدُ بالحركة . إنه في وعاء ضخم للقمامة ، وهناك من يركله بقدمه . وخلف ظهره ، على المنحدر ، كان الجسد باقياً ، مجرداً من العظام ؛ وكان برونيه يعلم انهم كانوا يبتعدون عنه كل لحظة ، وكان يود ان يُحس ذلك ، ولكنه لا يستطيع : فكل شيء يأسن . والليل وحده ، يمر حيّاً ، فوق الميت وفوق القطار الساكن . غداً يغطّيهما الفجر بالنـــدى نفسه ، وسيقطر اللحم الميت والفولاذ الصديء بالعرق نفسه . غداً تأتي الطيور السود .

انتهت



كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فإنه لم يسبق لحركاتها أن كانت على مثل هذه الفجاءة ، ولا لصوتها أن كان خشناً ، رجولياً ، كما هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة الوردية ؛ وكان يشق على المرء أن يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ،

بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كتفيها وجذبها اليه : إنك آسفة على ذلك الزمن ؟ فقالت مارسيل بجفاف : ذلك الزمن ، كلا : بل أنا أسفة على الحياة التي كان يمكن أن أحياها .